جامعة أم القرى
مكة المكرمة
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

النشاط التجاري في مكة المكرمة في العصر المملوكي

٦٤٨ - ٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م

رسالة للحصول على درجة الماجستير
في التاريخ الإسلامي

مقدمة من
سعاد إبراهيم بن محمد الحسن

إشراف
الأستاذ الدكتور محمد عبد العال أحمد
أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الشريعة - جامعة أم القرى

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م


ربنا
عليك
توكلنا وإليك
أنبنا وإليك
المصير



لروحك الطاهرة يا أبي ...

يا من زرعت فينا حب الخير .. والمعرفة .. والتحصيل .

لك يا من كنت وراء هذا النجاح .. وشاء القدر أن لا تراه ...

دعوات تصعدها بها مهجتي إلى السماء ... بأن يجزيك الله عنا خير الجزاء ... ويسكنك جنات خلده مع عباده الصالحين ..

ويطيل لنا في عمر من ضمدت الجراح ... وأكملت المسيرة .. وأضاءت شموع الأمل في نفوسنا ..

إنه سميع مجيب

ابنتك

سعاد


المقدمة

هذا البحث يتناول بالدراسة النشاط التجارى فى مكة المكرمة فى العصر المملوكى ... وهذا الموضوع على جانب من الاهمية يتضح ذلك من النتائج التى أدى اليها البحث ...

فالمعروف عن مكة هو ما اشتهرت به من المكانة الدينية بحيث طغت هذه الشهرة فى الاذهان على ما عداها من جوانب الحياة والحضارة التى لا يخلو منها مكان عمره البشر فى زمن من الازمنة ، فالزراعة والصناعة والعمارة والتجارة وأمور سائر الفنون واحوال المعيشة البشرية ظواهر من نتاج حياة الانسان فى مجتمع يرتبط بالمكان والزمان ، وتقوم بينه وبين غيره من المجتمعات صلات وعلاقات وروابط يقتضيها الجوار او احتياجات المعيشة . ومن هذا كله يأخذ النشاط الانسانى اتجاهات شتى مما سبقت الاشارة اليه .

ولكن مكة امتازت بجانب لا يشاركها فيه مكان آخر وهو كونها موطن الكعبة " البيت الحرام " ..أول بيت لعبادة الله وضع للناس ، وهو من قبل الاسلام محجة العرب جميعا على اختلاف عباداتهم ، وبالاسلام صار الحج اليه ركنا من اركان الاسلام ، وهو قبلة المسلمين فى صلواتهم اينما كانوا وبهذه الميزة تفردت مكة حتى صارت كأنما هى مقتصرة على ذلك الجانب الدينى دون غيره ، ولكن مجتمع مكة من البشر له نشاطاته الحيوية الاخرى مما يقتضيه عمران الحياة فى المكان من اعمال البناء والصناعة والتجارة وما الى ذلك .

وقد اعتنى هذا البحث بجانب مهم من جوانب نشاط السكان فى مكة فى فترة شهدت أوج ازدهاره . هذا الجانب هو التجارة ابان العصر المملوكى

ومن الاسباب التى دعت الى اختيار هذا الموضوع أنه لم يخض احد غمار البحث فيه فاتسم بالجدة فى منهجه وفى تبويبه وتصنيفه ـ فقد برزت هذه المدينة دائما أو انفردت بمستوى حضرى شديد الخصوصية على مستوى شبه

الجزيرة العربية بل والعالم الاسلامى برمته ... فكانت دائما من أهم ملامح الحجاز التى ميزته عن غيره أما بقية المراكز الحضرية الاخرى فلم تكن تعدو ان تكون مجموعة من الاسواق المحلية ..يتبادل فيها الزراع والرعاة فائض انتاجهم القليل .

وقد رأيت كمختصة فى التاريخ أن أخوض غمار البحث فى أهم مسائل الحياة الاقتصادية أو النشاط التجارى لمكة المكرمة فى العصر المملوكى... وألقى الضوء عليها لاحقق بذلك غرضين :

الاول :-

اعطاء صورة قيمة عن ذلك النشاط وما تمتعت به مكة من مكانة وموقع فريد على طريق التجارة واثر هذا على مظاهر الانتعاش الاقتصادى المزدهر الذى كانت تعيشه مكة المكرمة . ودور الحجيج والسلاطين والامراء والتجار فى تنمية اقتصادها وجعلها مدينة دولية تموج بانواع السلع والطرائف الشرقية والغربية وتجلية ذلك جهد يبذل لابراز تلك المكانة وذلك النشاط التجارى العظيم لمكة المكرمة . ولى وطيد الامل أن يوءتى هذا البحث أينع الثمار .

الثانى :-

خدمة هذا الفن الناشىء الذى اشاد كبار الموءرخين بعظيم نفعه الا وهو (التاريخ الاقتصادى) فقد حض كتاب التاريخ واساتذته على سلوك هذا الفرع والاغتراف من فيض بحره .

والجدير بالذكر هنا أن المعلومات عن النشاط التجارى لمكة المكرمة شحيحة فى المصادر التاريخية بصفة عامة ... وإن وجدت هذه المعلومات فى المصادر الخاصة بتاريخ مكة فهى خاصة بالناحية السياسية اكثر من الناحية الاقتصادية . يضاف الى ندره المعلومات ... بعثرتها فى مصادر عديدة تحت عناوين قد لا تمت الى التاريخ الاقتصادى بصلة ، نتيجة الاستطراد واسلوب

التأليف الخاص بتلك الفترة . ثم ان هذا النوع من الدراسة يحتاج إلى دراسة واسعة لكتب التراجم ... والى اطلاع على كتب الحديث والفقه ... والى صبر ودأب على استقراء المخطوطات مع عدم وضوحها احيانا .. الامر الذى تطلب منى جهدا ومشقة ووقتا طويلا فى جمع المادة العلمية ، مما كان له أبلغ الاثر فى موضوع البحث الذى سلكت فيه مسلك المناقشة والاستنباط ، والمحاكمة باستدلالات أرجو أن تكون راجحة .

وعرضت ذلك كله باسلوب سلس لا تعقيد فيه ولا غموض بفضل التوجيه العلمى السديد الذى درسته والذى أحاطنى به استاذى الفاضل .

هذا وينقسم البحث الى ستة فصول ....

الفصل الاول : يتناول عوامل الازدهار التجارى فى مكة .... ويشتمل خمسة بنود :

١ - مكانة مكة فى نفوس المسلمين ، وهذه هى الميزة التى تفردت بها مكة بوجود البيت الحرام فيها وبكونها مهبط الرسالة الاسلامية وقد أشرت فى هذا القسم الى ذكر مكة فى التاريخ القديم وفى اللغات غير العربية ، والى ما اطلق عليها من اسماء متعددة فى العربية ، وما ذكره العلماء فى المفاضلة بينها وبين المدينة المنورة .

٢ - المجاورون ودورهم الاقتصادى والسياسى والعمرانى والعلمى .. وهذه النقطة نابعة من السابقة فبسبب المكانة التى احتلتها مكة فى نفوس المسلمين نشأت فكرة المجاورة ....وقد تناولتها بالتوضيح وتحدثت عن المجاورين بمكة وما كان لهم من اثر فى مجالات الحياة المختلفة ، فقد كان لهم اثر فى الحياة العلمية وفى العمل السياسى وفى نواحى العمران والاجتماع وفى الاقتصاد كذلك .

٣ - مواسم الحج ... ولم يكن بد من الاشارة اليها فمن انحاء العالم الاسلامى يفد حجاج بيت الله لأداء فريضة الحج فى كل عام وقد كان لخروج الحجاج

من بلادهم احتفالات عظيمة وبصفة خاصة كان لخروج المحمل المصرى من القاهرة يحمل معه كسوة الكعبة ويرافق حجاج مصر احتفال خاص ولعودته احتفال آخر .. وكان لقوافل الحجاج والتجار المتجهين الى مكة فى موسم الحج تنظيمات دقيقة وترتيبات تكفل سلامتهم فى الطريق وقد كان لموسم الحج اثر عظيم فى انعاش الاقتصاد المكى ومناجل الحج اهتم الحكام المماليك ومن له صلة بهم باقامة المنشآت فى مكة والمدينة من مدارس ورباطات (اربطة) وعيون للمياه واوقفوا الاوقاف العظيمة للانفاق على الحرمين والفقراء فيهما .

٤ - موقع مكة على طرق القوافل .. ولا شك فى أن الموقع الجغرافى يصبغ حياة السكان بصبغة خاصة فسكان السواحل لهم نشاطهم وسكان المراعى والجبال لهم نشاطهم وقد كان للقوافل فى العصور الوسطى طرق خاصة يراعى فيها الامن والسهولة فى السفر فكان ملتقى تلك الطرق فى مكة بحكم وجود المجتمع المكى ووجود البيت الحرام والاتفاقات التى كانت تعقد بين أصحاب القوافل والقبائل على الطرق التجارية لتأمين مرور التجارة .

وقد عرضت لاثر طريق القوافل من مصر الى مكة فى ازدهار الحركة التجارية والحياة الاقتصادية بمكة وتناولت بالوصف ذلك الطريق البرى ثم الطريق البحرى وطريق القوافل من الشام الى مكة ثم لطريق القوافل من اليمن الى مكة ومن عمان الى مكة ومن اليمامة الى مكة .

٥ - جدة ميناء مكة المكرمة ...وبالطبع كان لتقدم المسلمين فى شئون الملاحة البحرية وظهور اساطيل التجارة اثره فى ضرورة قيام ميناء لمكة على ساحل البحر الاحمر يصلح لاستقبال السفن فظهرت جدة لتقوم بهذه المهمة وتزايدت أهميتها بعودة الملاحة الى البحر الاحمر، كما انها تأثرت باستخدام الطريق البرى عبر سيناء وعودة الملاحة الى الخليج العربى وقد كان تحصيل المكوس والضرائب على التجارة

بجدة موردا مهما للخزانة المملوكية بمصر كما كان جزء منها يوجه الى امراء مكة وحكام جدة للانفاق منه فكان لذلك اثره فى ازدهار الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى جدة .

أما الفصل الثانى : فقد كان عن دور سلاطين المماليك وامراء مكة فى استتباب الامن وتأمين الطرق ....

وهذا جانب مهم فى امور الاحوال الاقتصادية والتجارية والسياسية كذلك . وقد عرضت فى هذا الفصل لوضع مكة السياسى منذ كانت تابعة للخلافة العباسية تبعية مباشرة ثم سيطر عليها بنو رسول وبعد ان زالت الخلافة العباسية من بغداد واعلن المماليك قيام الخلافة الاسلامية فى مصر صارت السيطرة لهم على مكة .

وقد استقل اشراف بنى قتادة بحكم مكة وقيام نزاع بين حكام مكة وحكام المدينة وتدخل المماليك وحكام اليمن فى النزاع على حكم مكة وكان لذلك النزاع على امرة مكة آثار واضحة فى الحياة الاقتصادية وفى الاوضاع الامنية.

ولما لمكة وهى البلد الحرام من حرمة دينية تدخل السلطان بيبرس لاقرار الاوضاع بين المتنازعين على حكم مكة وكان سلاطين المماليك حريصين على استتباب الامن فيها ولذلك ازدهرت التجارة بسبب استقرار الاوضاع الامنية وتحقق العدالة فى مكة .

وقد عرضت فى هذه النقطة للسياسة الخارجية لحكام مكة . كما عرضت لمظاهر الاهتمام الذى أبداه سلاطين المماليك بنواحى العمران فى مكة ، فقد اهتموا اهتماما عظيما بامور الحياة فيها وبما يتعلق بالقوافل التجارية وقوافل الحج فأصلحوا الطرق البرية وأقاموا بها المحطات لراحة القوافل وأمنها واهتموا بحفر الآبار لتوفير المياه اللازمة للمسافرين ووفروا الحراسة التى تؤمن لهم طريق سفرهم ، بتزويد تلك المحطات بالجند المناسبين .

وعرضت كذلك للجهود التى بذلت لتأمين طريق البحر الاحمر وتنشيط الحركة التجارية فيه فتناولت أهمية البحر الاحمر من الناحية التجارية واثر انتشار الاسلام فى زيادة أهمية البحر الاحمر باعتباره طريقا تجاريا ، واهتمام سلاطين المماليك بالتجارة فيه . وعرضت للتنافس الذى قام بين حكام اليمن وسلاطين المماليك للسيطرة عليه ثم لما طرأ من تغير على الاحوال التجارية بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وسيطرة البرتغاليين على المياه الشرقية وما واكب ذلك من ضعف القوة المملوكية عن مجابهة البرتغاليين .

وفى الفصل الثالث : عرضت بتفصيل للسلع الصادرة من مكة والواردة اليها... وقد بينت فى مقدمة الفصل ما حققته جده ميناء مكة من ازدهار فى الحركة التجارية وما كان لتوابل الشرق وتحفه وكنوزه من رواج لدى اهل اوربا وما كان يعود على التجار من ارباح وفيرة من تعاملهم فى هذه الاصناف ،وان ذلك كان من اسباب دفع حركات الاستكشاف الجغرافى الاوربية للسيطرة على بلاد التوابل . واوضحت المكانة العظيمة التى كانت لمصر فى النشاط التجارى الخاص بالتوابل فى العصور الوسطى وما كان من اهتمام سلاطين المماليك بتنشيط تجارة التوابل لما كان يعود عليهم من أرباحها الوفيرة واشرت الى سيطرة التجار الكارمية على تجارة التوابل وسلع الشرق .

ثم عرضت لانواع التوابل والنباتات الطبية والعقاقير والعطور والاحجار الكريمة والمنسوجات والمواد الغذائية والحيوانات مما كان يدخل فى تجارة مكة الواردة أو الصادرة فبينت مصادر كل نوع واستعمالاته من ذلك " الفلفل والقرنفل والكافور والمسك والعنبر والياقوت واللوءلوء والمرجان والقمح والذرة والشعير والسكر والتمر والبن والاغنام والابل والخيل " .

ثم تناولت الاسباب التى كانت تؤدى الى ارتفاع اسعار السلع وغلوها فى مكة وقد حصرتها فيما يلى :-

- المجاعات والقحط والأوبئة .

- الاحوال الاقتصادية السيئة فى البلاد المصدرة للسلع .
- الحوادث والكوارث الطبيعية كالزلازل والعواصف وتحطم السفن .
- تهديد البرتغاليين لطرق المواصلات التجارية .
- الزيادة البشرية فى مكة وخاصة فى موسم الحج .
- اضطراب الاحوال الامنية والسياسية فى مكة فى بعض الاحيان .

وقد دعمت كل واحد من هذه الاسباب بامثلة من الاحداث التاريخية .

وفى الفصل الرابع تناولت المكوس والمعاملات التجارية ....

فعرضت للعشور والضرائب التجارية فى جدة فى العصر المملوكى فدرست ضريبة الربع التى كان شريف مكة يأخذها ممن تصلح سفنهم فى جدة والضريبة السنوية التى كان اشراف مكة يتقاضونها من التجار لحمايتهم وأموال من يتوفى من التجار بدون وارث وكان اشراف مكة يستولون عليها ، والاموال التى كان شريف مكة يجبيها من البلاد المحيطة بها كالطائف ووادى مر .

وعرضت كذلك للمكوس التى ليس لها سند شرعى ومنها مكس الحاج ومكس التجارة ...... أما مكس الحاج فقد ابتدعه القرامطة سنة ٣٣١هـ وألغاه السلطان صلاح الدين الايوبى ثم اعيد بعد زمن والغى وتكرر ذلك عدة مرات .

واما مكوس التجارة فى مصر والحجاز فقد بدأت فى عهد الفاطميين والغاها صلاح الدين ثم اعادها الوزير المملوكى هبة الله الفائزى وكانت التجارة فى موسم الحج يوءخذ منها مكوس ويعفى منها الطعام ثم أعيد المكس على الطعام مرة اخرى والغى فيما بعد .

وقد اهتمت السلطات المملوكية بتنظيم جباية المكوس على المتاجر القادمة من البحر وصارت عملية الجباية مضبوطة فكان من اثر ذلك انتعاش مرفأ جدة لوفرة حصيلة المكوس .

ولجأت السلطات المملوكية منذ عهد برسباى الى طريقة مشددة فى جباية الضرائب والمكوس من التجار الذين يتعاملون فى مكة وجدة فقد فرضت عليهم

أن يتوجهوا بعد الحج ببضائعهم اولا لتجنب المكوس منهم هناك كما زادت نسبة المكوس على السفن التى ترسو فى عدن قبل قدومها جدة وكان هذا بهدف اجتذاب السفن الى جدة مباشرة واضعاف ميناء عدن .

وتناولت بالدراسة أوجه انفاق المكوس فقد كان صاحب مكة ينفرد بها .. وينفقها على نفسه وعلى خاصته وعلى شئون الامارة وكان ذلك فى معظم فترات العصر المملوكى ولكن عندما احتاج سلاطين المماليك فى العهود المتأخرة الى الاموال لسد احتياجات الدولة وخاصة فيما يتعلق باعداد الجيوش فانهم شاركوا افراد مكة فى هذه المكوس .

وعرضت فى هذا الفصل ايضا للمعاملات التجارية فبينت ما فى الاسلام من توجيهات وتشريعات خاصة بالبيوع ثم وضحت صورا من صور التجارة تشمل :-

١ - المقايضة : وقد كانت المقايضة تتم بين المدن التجارية الايطالية والدولة المملوكية فى اواخر القرن التاسع الهجرى وفى مكة كانت تتم بين تجارها واهل السراة وبجيلة بشكل خاص .

٢ - الشركات التجارية ومن صورها :

- شركة القراض أو المضاربة وقد وضحت معنى المضاربة فى اللغة ومعناها فى الفقة الاسلامى وبينت شروط صحة عقد الشركة .
- شركة العنان وقد وضحت معناها وتعريفها وشروط قيامها .

٣ - المعاملات الربوية : وقد بينت تحريم الاسلام للربا وذكرت تعريف الربا ثم عرضت لنماذج شاذة من تجار مكة الذين تعاملوا بالربا فى تلك الفترة .

٤ - الرهن : وقد عرفته وبينت التزامات طرفى الرهن .

٥ - الوديعة : وقد ذكرت الاسباب التى يلجأ التجار من اجلها الى الايداع ، وتناولت واجبات الموءتمن ، ومتى يلزم الضمان .

٦ ـ الحوالات المالية : وقد وضحت معناها وشروط صحة الحوالة .

٧ ـ النظام المصرفى : وهو ابتكار اسلامى وتطوير لعمل الصرافين .

٨ ـ الاحتكار التجارى : وقد عرفته وبينت موقف الاسلام منه وهو النهى عن الاحتكار بوجه عام واحتكار الطعام بوجه خاص لان هذا العمل محرم ، وقد نهى عنه الدين وبين ما ينتظر فاعله من عقوبة عند الله .

ثم عرضت فى هذا القسم لما كان يفعله كبار رجال الدولة فى العصر المملوكى ومنهم السلطان نفسه من احتكار لانواع من السلع وكذلك ما كان يفعله اشراف مكة من احتكارهم للتجارة فى مكة وجدة . من ذلك ما فعله السلطان برسباى من احتكاره لتجارة السكر والخشب والمعادن والتوابل وفرضه أسعارا منخفضة على تجار الفلفل ليشتريه منهم بها ومنعه اياهم من بيعه للتجار الاوربيين حتى يضطرهم الى بيعه له دون غيره بالسعر الذى حدده .ومن ذلك ايضا منع تجار الكارمية من بيع التوابل الا للسلطان برسباى واحتكاره لتجارة القصب .

ولقد كان لنظام الاحتكار فى التجارة أثر واضح فى توجيه الكشوف البرتغالية الى البحث عن طرق تجارية الى بلاد التوابل فى الشرق لا تخضع للدولة المملوكية ، وقد ادى كشف طريق رأس الرجاء الصالح الى تدهور اوضاع الدولة المملوكية وعجل بنهايتها .

وفى قسم خاص من هذا الفصل تناولت النقود والقيم النقدية فى ذلك العصر فبينت اولا دور النقود فى تسهيل عمليات البيع والشراء وما ينشأ عنه من زيادة فى حجم المعاملات التجارية واتساع نطاق الاسواق وتنشيط الحياة الاقتصادية .

ثم تناولت بالتفصيل الانماط الاساسية للنقد المملوكى وهى : الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية ولقد كانت علاقة مكة بهذا الجانب

الاقتصادى النقدى علاقةقوية اذ كانت مكة قد تحولت الى سوق للعملات وكانت عملات الدولة المملوكية بحكم الصلة بينها وبين مكة عملةرئيسية فى الحياة التجارية بهـا • وقد خصصت قسما وافيا لكل عملة من تلك العملات •

فبدأت بالوحدات الذهبية وبينت أن قوتها كانت ترجع الى ان قيمةالذهب الذى كانت تتكون منه كانت تساوى قيمتها النقدية وعرفت لاصل كلمة دينار وبينت أنه من الكلمة اللاتينية " Denarius " وعرفت بعد ذلك لتسميته بالمثقال ولتحديد وزنه •

ثم قارنت الدنانير المصرية الموجودة فى مكة بالدينار المكى ودنانير الخلافة العباسية وقد كان عيار الدينار ووزنه وحجمه عرضة للتغير الى الاقل بسبب ارتفاع سعر الذهب كما كان سعر صرف الدينار يتغير تبعا لسعر الذهب •

وعرضت كذلك للتعامل بالعملات الذهبيةوالاجنبية من ضرب البندقية وفلورنسا وما كان لها من مزايا تتمثل فى جودة السك وثبات الوزن وارتفاع العيار وفى مقابل هذا كانت الدنانير المملوكية مليئة بالعيوب من عدم ثبات العيار وتفاوت السمك والقطر •

وأشرت الى الاصلاح النقدى الذى امر به السلطان فرج بن برقوق فى سنة ٨٠٣ هـ بتثبيت قيمة الدينار المملوكى ولكن هذا الاصلاح لم يدم فقد تطرق اليه الفساد ثم اعيد سك الدينار المملوكى على وزنه الناقص وقد نتج عن ذلك وقوع خسائر بالتجار ، وفقدت الثقة بهذا الدينار الجديد ولكن السلطان برسباى اعاد سكه بوزن الدينار الافرنتى أى المضروب فى البندقية وابرمت معاهدات بين الدولة المملوكية والبندقية لخفض الضرائب على الذهب المعد للسك •

وقد انهيت هذا القسم بذكر اسعار صرف الدينار الذهب فى القرن التاسع

الهجـــــــــــــــرى .

وفى القسم الخاص بالوحدات النقدية الفضية (الدراهم) بينت ان الفضة اخذت تنافس الذهب باعتبارها قاعدة للنقد فى العصر المملوكى حتى ان الرواتب والخدمات والاسعار كانت تقدر بالدنانير الذهبية ويتم بالدراهم الفضيـــــة وذكرت وزن الدرهم الشرعى واوزان الدراهم المملوكية واشرت الى ان الدراهم الفضية قد اخذت فى التسرب الى خارج الدولة المملوكية فى تلك الفترة .

وقد حددت أشهر الدراهم الفضية المملوكية وهى : الظاهرية ، ودراهـــم الامير توروز ، والدراهم المؤيدية ، والاشرفية .

وقد وضحت ان خاتمة المطاف باستعمال الدراهم الفضية كانت اختفاءها من الاسواق وحلول الفلوس النحاسية مكان الدراهم والدنانير .

ثم انتقلت الى القسم الخاص بالوحدات النقدية النحاسية وهى الفلوس ، فبينت ان الغرض من استخدامها هو تسهيل المعاملات فى امور البيع الصغيرة للحاجيات اليومية وقد كان عام ٦٥٠ هـ بداية النشاط النقدى للفلوس فى الدولة المملوكية ثم كتب لها ان تروج فى الاستعمال ..وقد ادى ذلك الى ظهور الغش فى سكها .

وختمت هذا الفصل بالاشارة الى ان الاختلال فى النظام النقدى المملوكـــــى وارتفاع الاسعار قد أديا الى تعطل التجارة وكسادها ولكن مكة اتبعـــــت نظاما نقديا خاصا ساعد على نجاح تجارتها واستقرار اقتصادها .

وفى الفصل الخامس : تناولت بالدرس المنشآت التجارية فى مكة المكرمـــــة من اسواق ووكالات وخانات وقياسر . والوظائف الاشرافية على تلك المنشـــآت

والمنشآت التجارية اساس لتنظيم الحركة التجارية حيثما تكون وظهـور هذه المنشآت يستلزم ظهور وظائف معينة للاشراف والرقابة على ما يجرى فيها

مـــــــن أمور .

والاسواق من اقدم اشكال النظم التجارية وقد نشأت فى مكة قبل الاسلام اسواق متعددة أخذت صورتها المنتظمة الواضحة بعد استقرار المجتمع الاسلامى فى الحجاز وسائر شبه الجزيرة ، وقد اضفى عليها صفة الانتظام والاستقرار توافد الحجاج والمعتمرين فى مواقيت معروفة من كل عام . وكان لسلاطيـــن المماليك اهتمام شديد بالحركة التجارية فى البحر الاحمر لذلك كانـــوا يشجعون التجـــار على القدوم بسفنهم الى جدة وكانوا يحاربون القراصنة فى البحر الاحمر وأخذوا يؤمنون طرق القوافل التجارية حتى تحولت تجارة الشرق الى جـــــدة .

وفى القسم الخاص بأسواق مكة تناولت انواع هذه الاسواق فصنفتها ثلاثة أصناف :-

أ - الاسواق المحلية :

واعنى بها الاسواق الدائمة حيث يتجمع أصحاب الحرفة الواحدة وتجار الصنف الواحد فى حى أو عدد من الاحياء الخاصة كسوق العطارين وســـوق البزازين ومثلهما سوق الليل وسوق المسعى وقد كانت هذه الاسواق قريبة من الحرم وكسوق الحطب وسوق العلافة باسفل مكة وسوق المسفلة وسوق اللبـــن والحشيش وسوق الغنم بأعلى مكة وسوق الجمال بمنى .

وكان التجار بهذه الاسواق المحلية فئتين : اولاهما التجار المستقرون فى حوانيتهم ومتاجرهم والاخرى الباعة الجائلون الذين يمضون معظم النهـــار فى السوق ثم يغادرونها آخره ليعودوا اليها فى النهار التالى .

ب - الاسواق الموسمية :-

واعنى بها الاسواق التى كانت تقام فى مواسم ورود التوابل من الهند والصين الى اسواق مكة وجدة وكانت هذه الاسواق تقام فى مواعيد سنويـــة ثابتة فقد ارتبطت بمواقيت هبوب الرياح الموسمية .

وكانت هناك سوق موسمية اخرى تقام لدى وصول اهل السراة من بلادهم وقد كانوا يجمعون بين آداء العمرة وبين بيع منتجاتهم فى مكة وقد كان لهذه الاسواق أثر واضح فى رخاء مكة فقد كان اهل مكة يعتمدون فى موءنتهم السنوية على ما يجلبه أهل السراة وكان ورود منتجاتهم سببا فى خفض اسعار السلع فى مكة كما كان تخلفهم عن جلب المنتجات سببا فى ارتفاع الاسعار ٠

جـ - الاسواق السنوية :-

واعنى بها الاسواق التى كانت تقام فى موسم الحج من كل عام فى مشاعر الحج بمنى وعرفه وكان التجار البائعون والمشترون من الحجاج الذين يجلبون بضائعهم من بلادهم يبيعونها ويشترون مما يجلبه الحجاج الاخرون من بلادهم ٠ وقد تطورت هذه الاسواق حتى صارت تقام مرتين فى كل عام بعد ان تواتر وصول الركب الرجبى لأداء العمرة من مصر والشام ٠

ثم انى تناولت الوكالات والخانات والقياسر وبينت أن هذه المنشآت كانت تقوم بمهمة الاسواق فقد كان التجار المحليون الذين ينزلون بها يتمون صفقاتهم من بيع وشراء حيث ينزلون وكانت كذلك تقوم بمهمة دور الاقامة والفنادق والنزل للتجار الوافدين وبدور المستودعات فقد كان التجار يحفظون بها اموالهم وبضائعهم ٠

وقد توسع سلاطين المماليك وامراء مكة فى انشاء الخانات والربوع وكانوا يجعلون ريعها وقفا على جهات البر كالمدارس والاربطة ومكاتب الايتام

وتناولت بعد ذلك وظائف المشرفين على المنشآت التجارية ومنها :
- وظيفة المحتسب وبينت أنه كان من واجباته الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والاشراف على الاسواق لمنع الغش والتلاعب فى البضائع والاسعار والاوزان والمكاييل وعرضت كذلك لاشهر محتسبى مكة فى العصر المملوكى ٠وقد وكان معظمهم من بيتين هما ٠٠(بيت بنى ظهيرة ، وبيت بنى النويرى) ٠
وبينت كذلك أنه قد ظهر نظام يعرف بنظام المراصد والمقصود منه

قوائم للاسعار والضرائب على التجارة العابرة وانه قد أنشئت هيئة لتحصيل المكوس من التجار والحجاج .

ولتحقيق المصلحة المالية للدولة المملوكية انفصلت عن مكة من الناحية الاقتصادية وأنشئت جمارك فى جدة لتحصيل الضرائب التجارية والمكوس والرسوم التجاريـــــــة .

وقد اقتضى ذلك التطوير انشاء وظائف جديدة منها :-

- وظيفة ناظر جدة وقد تعددت هذه الوظيفـــة فقد كان هناك ناظر المـــال وناظر الجيش وناظر الخاص .

- وظيفة المباشر وكان يسمى مباشر الختم وقد كان يستوفى المكوس علـــى البضائع ثم يختمها بخاتم خاص ليدل على ذلك .

- وظيفة المستوفى وكان يضبط الديوان ويتابع اعماله .

- وظيفة الشاد وكان يفتش على الديوان ويراجع حساباته .

كما اشرت الى ان طائفة الكارمية كان لهم هيئة اشرافية خاصة تتبع ناظرالخاص ثم استحدثت من اجلهم وظيفة مستوفى البهار والكارم ووظيفة المراقـــب والمفتش ومحصل الزكاة كما انشئت لهم نقابة تجار الكارمية كما انتشـــرت نقابات التجار المختلفة فصارت على غرار الغرفة التجارية فى العصر الحديث.

وأما الفصل السادس فقد خصصته لفئات التجار ....

وفيه عرضت لاسماء كثير من تجار مكة المقيمين بها والوافدين عليهـــا ، كما افردت قسما للحديث عن تجار الكارمية والتعريف بهم وبنشاطهم التجارى، وبدورهم فى تجارة التوابل فى الدولة المملوكية وفى بلاد الشرق بوجه عام.. واختلاف الباحثين فى سبب تسميتهم بالكارمية .

واخيرا جعلت مسك الختام لاهم النتائج التى أسفر عنها البحث ....

ولست أدعي انى قد وفيت بهذا البحث الحديث حقه عن تجارة مكة فى العصر المملوكى ...او عن المقام الذى وصل اليه نشاطها فى هذا الميدان ..غير أنى قدمت جهد المقل ، واظهرت من الحقائق ما ارجو أن يكون قبسا يستضىء به الباحثين فى هذا المجال .

وفى هذه المناسبة أقدم شكرى ... وجزيل امتنانى الى جامعة أم القرى وكلية الشريعة والدراسات الاسلامية بها - فقد غرست فى نفوسنا ما نود أن نزرع بذوره فى مدارك الجميع لنؤدى الدين وهذا جزء من العرفان .

كما اتوجه بالشكر الجزيل الى استاذى المشرف الاستاذ الدكتور / محمد عبد العال أحمد استاذ التاريخ الاسلامى بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة أم القرى الذى اعطانى من وقته وجهده ، ولم يبخل بتوجيهاته العلمية السديدة فجزاه الله عنى وعن طلابه وطالباته اعظم الجزاء .

ولا يفوتنى هنا أن أنوه بجهود استاذى الدكتور / حسنين محمد ربيع وان اتقدم له بخالص التقدير ... فقد اشرف على رسالتى قبل سفره وكان له الفضل فى توجيهى للعناية بالتاريخ الاقتصادى بعد أن لمس الرغبة منى فى الابحار فى هذا الفن العلمى الجديد .

وتحية صادقة اخيرة ... تحية حب وتقدير واعتزاز لاخى / عبد الله الحسن ، الذى شجعنى ووفر لى جميع متطلبات الرسالة من مصادر ومراجع ، وكان عونا لى طوال فترة البحث .

والله أسأل التوفيق والسداد .

والحمد لله رب العالمين .

..*.*.*.*.*.*.*.*.*.*

الفصل الأول

عوامل ازدهار النشاط التجاري في مكة المكرمة

- مكانة مكة المكرمة في نفوس المسلمين.
- المجاورون ودورهم الاقتصادي والسياسي والعمراني والعلمي.
- مواسم الحج.
- موقع مكة على طرق القوافل التجارية.
- جدة ميناء مكة المكرمة.

مكانة مكة فى نفوس المسلمين :

تتمتع مكة المكرمة بمكانة عظيمة فى نفوس المسلمين ، فهى مهبط الوحي وفيها بزغ شعاع الاسلام حينما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم برسالة التوحيد ... وقد كرمها الله سبحانه وتعالى بأن خصها بالبيت الحرام فقال عز وجل .." ان اول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين"(١)

وجاء فى سبب نزول هذه الآية الكريمة : ان المسلمين واليهود افتخروا فقالت اليهود " بيت المقدس أعظم من الكعبة "، وقال المسلمون بل الكعبة أعظم .. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية .

واختلف العلماء فى معنى كونه (أول) على قولين ، فزعم السدى أنه أول بيت وضع على وجه الارض مطلقا ، وقال مجاهد عن الشعبى عن على رضى الله عنه " كانت البيوت قبله ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله ،بالشرف لا بالزمان وهو الصحيح .(٢)

وقد حفظت لنا لغات الاقوام القديمة لفظ مكة المكرمة فلفظ " مكا " يعنى فى اللغة البابلية البيت العتيق (٣) . وفى جغرافية بطليموس جاء

---

(١) سورة آل عمران : الاية ٩٦ .

(٢) ابن الجوزى : (ابى الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد ، مثير الغرام الساكن الى أشرف الاماكن فى تاريخ مكة والمدينة ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد احياء المخطوطات بجامعة الدول العربية ، رقم ٤٣٧ ،تاريخ ،ق ١٠٧ ب ، ابن كثير ،(عماد الدين ابى الفداء اسماعيل تفسير القرآن الكريم ، طبعة دار الكتب المصرية ،ج١ ،ص ٣٨٣ ،أبو السعود ،(ابى السعود بن محمد العمادى الحنفى) تفسير ابى السعود او ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم ،تحقيق عبد القادر احمد عطا ، الرياض ،بدون تاريخ ج١ ص٦؛٥-٥١٧ .

(٣) عبد الرحمن اباحسين "دور مكة التاريخى والثقافى ،مجلة قافلة الزيت ،المجلة العشرون ، العدد ١٢ ،سنة ١٣٩٢هـ ،ص ٤٣ .

ذكر مكة تحت اسم Macoraba " ماكورابا "[١] ويبدو ان هذا الاسم له علاقة بالبيت العتيق الذى كان سر شهرتها على انها افضل بقعة او مدينة دينية فى الجاهلية فلفظ ماكورابا قريب من مكرب وهو لقب كان يحمله الكهنة فى سبأ قبل ان يتحولوا الى ملوك ، ومن المرجح انها تعنى المقرب الى الله لانها مدينة مقدسة .[٢]

ولمكة فى اللغة العربية اسماء كثيرة منها : مكة المكرمة[٣] ، والبلد والقرية ، وأم القرى[٤] ، والبيت العتيق ، والبيت الحرام ، والبلد الامين ، والمأمون ، وأم رحم وصلاح ، والعرش ، والقادس ، والمقدسة ، والناسة ، والباسة ، والنَاسة ، ومعاد ، والحاطمة ، والرأس ، وكوثاء والبلدة ، والبنية ، والكعبة [٥] .

ويندر ان يكون لمكان ما فى العالم ما لمكة من تداعيات تاريخية ونفسية غير محددة فقد تركزت حولها أحاسيس ومشاعر مئات الملايين من مسلمى العالم فهى قبلتهم الى يوم الدين ، يتجهون اليها فى صلاتهم اينما كانوا ومهما تباينت لغاتهم ، واختلفت الوانهم وأجناسهم .

وقد عقد الفقهاء مقارنة بين مكة والمدينة للمفاضلة بينهما :
فذهب أبو حنيفة ، والشافعى ، واحمد وأصحابهم الى تفضيل مكة ....
أما مالك فانه ذهب الى تفضيل المدينة فهى دار هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأهلها عضد الله رسوله وفيها قامت دولة الاسلام ، وبها توفى صلى الله عليه وسلم وفيها دفن جسده الطاهر[٦] .

---

(1) Lammens: La mecque a la veille de l'Hegrie, Beyrouth, 1924, P. 22.

(٢) السيدعبدالعزيزسالم ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، الاسكندرية ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ، ص ص ٢١٣، ٢١٤.

(٣) ابو السعود – تفسير ابو السعود جـ١ ، ص ٥١٦ .

(٤) ابن الجوزى : مثير الغرام ، ق٩٢ أ .

(٥) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، جـ١ ، ص ٣٨٣ .

(٦) القطبى ، (عبد الكريم بن محب الدين ، تاريخ البلد الحرام المعروف باعلام العلماء الاعلام ببناء المسجد الحرام ، تحقيق وتعليق احمد محمد جمال وعبد العزيز الرفاعى ، ط١ ، مكة المكرمة ، ١٣٩٦/١٩٥٠ ، ص ٢٢–٢٣ .

اما من قالوا بتفضيل مكة المكرمة فانهم استندوا فى ذلك الى احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهـا قوله " صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاه فيما سواه الا المسجد الحرام "... مما يدل على تفضيل مكة على المدينة لان الامكنة تشرف بفضل العبادة فيها على غيرها مما تكون العبادة فيه مرجوحة(١) . وقوله صلى الله عليه وسلم عن مكة " والله انك لخير ارض الله واحب ارض الله الى الله ...ولولا انى اخرجت منك ما خرجت ". وقوله صلى الله عليه وسلم عنها " ما أطيبك من بلد وأحبك "(٢) وقوله عليه افضل الصلاة والسلام " اللهم أنت بينى وبين فلان وفلان(٣) .لرجال سماهم فانهم اخرجونى من مكة وهى أحب ارض الله(٤) ".

هذا بالاضافة الى كثير من الاسباب التى تدعو الى التشوق الى مكة المكرمة ، مما لا يتسع المجال للاشارة اليها جميعا ، منها ما ذكره ابن الجوزى عن دعاء ابراهيم عليه السلام حيث قال :" فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم " . قال ابن عباس :" تحن اليهم قال :" واراد حب سكنى مكة ، ولو قال : أفئدة الناس تهوى اليهم لحجة اليهود والنصارى لكنه قال : من الناس(٥) .

(١) البخارى: الامام أبى عبدالله محمد بن اسماعيل ،صحيح البخارى ،طبعة دار الفكر ،بدون تاريخ ،المجلد الاول ج٢ ،ص ٥٧ . مسلم : (الامام ابى الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم ، الجامع الصحيح المسمى بصحيح مسلم ،بيروت ،بدون تاريخ ،ج٤،ص ١٢٤ .
ابن حجر : (الامام الحافظ احمد بن على ،فتح البارى بشرح صحيح البخارى بيروت ،بدون تاريخ،ج٣ ،ص ٦٣، العينى : (بدر الدين ابى محمد محمود بن احمد ،عمدة القارى فى شرح صحيح البخارى ،بيروت ،بدون تاريخ المجلد الرابع ،ج٧،ص ٢٥٤ .

(٢) ابن ماجة :(الحافظ ابى عبدالله محمد بن يزيد ،السنن،تحقيق وتعليق محمد فؤاد عبدالباقى طبعة دارالفكر،ج٢،ص ١٠٣٧، الترمذى: الامام الحافظ ابى عيسى محمد بن عيسى الجامع الصحيح ،حققه وصححه عبدالرحمن عثمان بيروت ج٥،ص ٣٨٠ .

(٣) هما شيبة وعتبة ابنا ربيعة وامية بن خلف انظر ابن الجوزى: المصدر السابق ق١٧ب.

(٤) العينى : المصدر السابق، المجلد الرابع ، الجزء السابع ،ص ٢٥٧ .

(٥) ابن الجوزى : المصدر السابق ،ق ١٦أ .

ولذلك فالفطرة البشرية تحمل الوجدان الانسانى والفكر والارادةللتشكيل الحميم المجرد لهذا البلد الطاهر فى رحلة الحج ... وشعائره ومـــا تستثيره نية الزيارة من الشوق الكامن لمنبع النور ... بل أن النفـس لتنزع أبدا الى حب البقاء فيه والمجاورة له .

ويكفى اهل مكة وزوارها علوا وشرفا انهم اهل الله وضيوفه وبهـم اوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله لعتاب بن أسيد عندما استعمله على اهل مكة " يا عتاب اتدري على من استعملتك ؟ استعملتك على اهل الله فاستوص بهم خيرا ...قالها ثلاثا "(١) . وكان وهب بن منبـة يروى أن الله تعالى يقول : " من آمن اهل الحرم استوجب بذلك أمانى ومن أخافهم فقدخفرنى فى ذمتى ، ولكل ملك حيازة مما حواليه ، وبطن مكة حوزتى التى اختـرت لنفسى أنا الله ذوبكة اهلها جيرتى وجيران بيتى وعمارها وزوارها وفـدى واضيافى وفى كنفى وأمانى ضامنون على فى ذمتى وجوارى "(٢) .

" المجـــاورون ودورهم الاقتصادى والسياسى والعمرانيوالعلمى"

لقد كانت المجاورة مظهرا بارزا من مظاهر الحضارة البشرية فى مكة المكرمة ولا شك أنه على قدر العمران البشرى تتقدم الامصار وتنشط الاسواق ومكة كانت ومازالت منطلق الحضارة الانسانية ...

ويمكن القول دون مغالاه أنه من النادر ان يخلو مصدر تاريخى مـن مصادر العصر المملوكى من ذكر العلماء والمجاورين فى مكة وأثرهـم الايجابى فى تطور احوالها وتاريخها . بل كانوا من أهم أسباب انتعـاش

(١) ابن الجوزى : المصدر السابق ، ق ٩٦ ب .
(٢) بن الجوزى : المصدر السابق ،ق ٩٦ب ،ابن الضياء القرشى ،(تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف ،مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد احياء المخطوطات العربية ، ١٢٨ تاريخ، ق ٦ ب – ٧ أ .

الحياة الفكرية والاقتصادية حيث كانت مكة بمثابة البؤرة التى تستقطب خطوط حركتهم وتنقلاتهم .

وكان طبيعيا أن يسهم هؤلاء المجاورون فى النشاط التجارى فى مكة واتخاذها قاعدة تجارية فى مجال التبادل المتنوع والعلاقات ذات المدى الجغرافى الواسع فكان أن بلغت ذروة ازدهارها فى هذا العصر فقد حرص المجاورون على المجىء الى مكة قبل شهر رمضان فيحصل لهم صيام رمضان فيها مع آداء العمرة والمجاورة وفى غضون ذلك يحصل لكثير منهم المكاسب(١)

وظل كبار التجار من المجاورين مصدر خير لهذا البلد فكانت لهم الايادى البيض والمآثر الحميدة فى هذه البقعة الطاهرة نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر تاجرا دمشقيا يقال له ابن المرجانى (٢) ، قام بعمارة مسجد الخيف سنة ٧٢٠هـ - وكلفه ذلك اكثر من عشرين ألف درهم (٣) . ومنهم عز الدين الواسطى وكان من اصحاب الاموال الطائلة يحصل اليه من بلده المال الكثير فى كل سنة فيبتاع الحبوب والتمر ويفرقها على الضعفاء والمساكين ويتولى حملها الى بيوتهم بنفسه (٤) والتاجر على بن ابى بكر الزيلعى العقيلى كان فقيها ناسكا كثير اطعام الطعام توفى بمكة سنة ٧٢٩هـ(٥) ، ومنهم احمد السمنانى البيانانكى كان كثير الحج كثير البر يحصل له من املاكه فى العام نحو تسعين ألفا فينفقها فى القرب(٦) كما

---

(١) ابن حجر : (احمد بن على بن محمد ، انباء الغمر بابناء العمر، تحقيق وتعليق الدكتور حسن حبشى ، القاهرة ١٣٩٢هـ -١٩٧٢م جـ٣ ، ص ٥٣٩ .

(٢) لم اعثر له على ترجمة لم يتيح لى الرجوع اليه من كتب التراجم .

(٣) ابن الضياء القرشى : تاريخ مكة ، ق ١٩٢آ .

(٤) ابن بطوطة : (ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد، رحلة ابن بطوطة المسماه تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ، ص ١٤٨ .

(٥) الخزرجى : (شمس الدين ابو الحسن على ، العقود اللؤلؤية فى اخبار الدولة الرسولية ، تحقيق محمد بسيونى عسل ، القاهرة ١٣٢٩هـ / ١٩١١م ، جـ٢ ، ص ٥٤ .

(٦) ابن حجر : (احمد بن على بن محمد بن على ، الدور الكامنة فى اعيان المئة الثامنة ، بيروت ، بدون تاريخ ، جـ١ ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

اوصى على الخروبى وهو من أعيان التجار فى مصر بمائة ألف درهم فضة لعمارة الحرم الشريف المكى فعمر بها وحج مرارا وكان ذا مروءة وخير توفى سنة ٨٠٢هـ [١] . كما هو عمر الخواجا سراج الدين عمر بن محمد المزلق الدمشقى كبير التجار بدمشق عين حنين المعروفة بعين بازان سنة ٨٣٥ هـ فجرت فى شهر رمضان ودخلت مكة ومرت على سوق الليل الى الصفا وانتهت الى باب ابراهيم ثم الى المأجل [٢] فعم النفع بها وكثر الخير لشدة احتياج الناس بمكة الى الماء وقلته احيانا وغلاء سعره وقد انفق عليها خمسمائة دينار [٣] . ومن كبار المجاورين ذوى الثراء الواسع محمد بن احمد الخرزجى الذى ترك قضاء دمنهور بمصر ليجاور بمكة وكانت له فيها مآثر وصدقة وافرة [٤] ومنهم التاجر زين الدين بركات بن عبد الله المكين الذى انشأ بمكة المشرفة عدة اماكن جليلة كان فى سعة من المال ومعظما من عند الناس [٥] .

ولم يقتصر اسهام المجاورين على النواحى الاجتماعية والاقتصادية فى مكة بل انهم اسهموا فى الحياة السياسية فكثيرا ما كانوا وسائل اتصال بين امراء مكة وسلاطين المماليك نذكر منهم العلامة أحمد القسطلانى الذى استعان به امير مكة فى التوسل الى سلطان مصر وقد توفى سنة ٧١٤ هـ [٦] . والتاجر شرف الدين الانصارى الذى توجه سنة ٨٥٠هـ بمنديل الامان من عند السلطان الظاهر جقمق للشريف بركات بن حسن بن عجلان [٧] .

---

(١) ابن حجر ، ابناء الغمر ، ج٢ ، ص ١٢٣ ، ج٣ ، ص ٤٧١ .

(٢) المأجل "هو فى الاصل البركة العظيمة التى تستنقع فيها المياه . ياقوت : (شهاب الدين ابن عبد الله معجم البلدان ، بيروت ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م مادة المأجل ، جـ ، ص ٣٢ .

(٣) ابن فهد (نجم الدين عمر بن محمد ، اتحاف الورى باخبار أم القرى مكتبة الحرم المكى رقم ٥٤ تاريخ ، ص ٣٧٦ .

(٤) الفاسى : (تقى الدين محمد ، العقد الثمين فى تاريخ البلد الامين تحقيق محمد حامد الفقى ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ج١ ، ص ٣٨٨ .

(٥) ابن اياس : (ابو البركات محمد بن احمد تاريخ مصر المعروف ببدائع الزهور ، تحقيق محمد مصطفى القاهرة ١٩٦٠-١٩٦٣م ج٢ ، ص ١١٧ .

(٦) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج١ ، ص ٢٤٤-٢٤٥ .

(٧) ابن اياس : بدائع الزهور ج٢ ، ص ٢٥٥ ، كان شريف مكة بركات قد اظهر=

وتجدر الاشارة هنا الى اثر المجاورين فى اثراء الحركة العلمية نظرا الى اهمية ذلك فيما يتصل بالتحديد الدقيق لطبيعة هذه المجاورة وثقل مكة المكرمة الحقيقى فى العالم الاسلامى فقد كانت قاعدة العلم ومحط انظار العلماء وطلاب العلم .

وكان من ابرز مظاهر هذه الحركة العلمية ازدهار حركة التأليف والنسخ التى ادت الى رواج . تجارة الكتب فى مكة والواقع ان هذه التجارة اتسعت هالتها وشملت النطاق الخارجى فأصبحت الاموال ترسل الى مكة لشراء المؤلفات الضخمة لكبار العلماء والفقهاء في ذلك العصر[1] .

وعموما فان هؤلاء العلماء ينقسمون من حيث مدة الاستقرار الى مستوطنين بشكل شبه كامل – وهم نزلاء مكة – ومجاورين لفترة قصيرة ربما لا تزيد على عدة اشهر او سنوات قليلة .

ونذكر من هؤلاء العلماء على سبيل المثال لا الحصر .. أبا الخير ابن منصور الشماخى المتوفى سنة ٦٨٠هـ وهو من أهل اليمن أخذ العلم عن جمع من العلماء فى مكة وعاد الى زبيد بعد ان تضلع فى علوم الفقه والنحو واللغة والحديث والتفسير والفرائض – ولم يكن له نظير فى اليمن فى جودة العلم وضبط الكتب التى جمعت خزائنه منها ما لم يجمعه غيره حتى قيل ان فيها مائة أم سوى المختصرات [2] .

ومنهم عبد الله بن مطرق الاندلسى المتوفى بمكة سنة ٧٠٧هـ ، وبلغت مدة اقامته بمكة نحو ستين سنة ومما يدل على علو قدره ان صاحب مكة

= العصيان وحصل بسببه فى مكة المشرفة فتنة كبيرة ثم ارسل للسلطان يطلب الامان ويعتذر عما بدر منه فارسل اليه الامان مع التاجر المذكور ، ابن اياس ، نفس المصدر والجزء والصفحة .

(١) ابن البديع " (ابن الضياء عبد الرحمن بن على ، قرة العيون باخبار اليمن الميمون ، تحقيق محمد الاكوع ، القاهرة ١٣٧٤هـ/١٣٩٧هـ ، ق٢ ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ – ١٩٤ ، يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد " غاية الامانى فى اخبار القطر اليمانى ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور القاهرة ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ، ق٢ ، ص ٦٢٢–٦٢٣ .

(٢) ابو مخرمة : (ابو محمد عبد الله ، تاريخ ثغر عدن ليدن ١٩٣٦ ج١ ، ص ٧١–٧٢ .

حميفة كان فى مقدمة المشيعيين لجنازته[١].

وممن اقام فترة طويلة ظهير الدين محمد البغدادى الذى صارت له مشيخة الحرم المكى فقد حدث بمكة وجاور بها أربعين سنة [٢].

اما المحدث الجليل احمد بن ابى طالب الحمامى فقد جاور بمكة اكثر عمره الى ان توفى بها سنة ٧٠٩هـ . وممن درس عليه قاضى القضاه شمس الدين محمد ابن مسلم الحَنبلى[٣] ، وشمس الدين ابن الصلاح والامام الذهبى[٤] .
واجاز لابن رافع وتفرد بالاجازة لناصر الدين المقدسى[٥].

ومن مشاهير العلماء قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن محمد بن جماعة المتوفى سنة ٧٦٧ هـ . تولى القضاء بالديار المصرية ثلاث مرات وافتى ودرس بمصر والشام ومكة وشيوخه بالسماع والاجازة يزيدون على ألف وثلاثمائة[٦].

ومنهم أحمد بن لوءلوء الرومى توفى سنة ٧٦٩هـ انتفع به الطلبة وتخرج به الفضلاء كان ذكيا أديبا شاعرا فصيحا متواضعا كثير المروءة والبر، مواظبا على الاشغال والاشتغال [٧].

ومن العلماء الاديب الفقيه أحمد بن محمد بن حنا المتوفى سنة ٧٨٨هـ ، تولى نظر المطابخ السكرية بمصر ونظم القصائد النبوية واجاد فى المقاطيع كان كثير الحج والمجاورة وله مقاطيع كثيرة فى ذلك [٨].

أُما أبو القاسم بن أحمد اليمانى نزيل مكة المتوفى سنة ٧٨٢ هـ ،فقد تصدى للقراءات وأتقنها وأقرأ الناس بالحرم المكى الشريف ، وناب فى

---

(١) ابن العماد الحنبلى(ابو الفلاح عبد الحى شذرات الذهب فى اخبار من ذهب، بيروت التاريخ بدون،ج٦،ص ١٦ .
(٢) ابن العماد الحنبلى ، نفس المصدر ،ج٦ ،ص ١٧ .
(٣) الفاسى : العقد الثمين ،ج٣ ، ص ٤٩ ــ ٥٠ .
(٤) ابن العماد الحنبلى ، نفس المصدر والجزء ،ص ١٩ .
(٥) الفاسى ، العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٤٩ ــ ٥٠ .
(٦) السيوطى :(جلال الدين عبد الرحمن بن ابى بكر ،حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة ،القاهرة ١٩٦٨م ،ج١ ،ص ٣٥٩ .
(٧) ابن حجر : الدرر الكامنة ،ج١ ، ص ٢٣٩ ــ ٢٤٠ .
(٨) ابن حجر : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٤٨ ــ ٢٤٩ .

الامامة بمقام الحنفيـــــــــة .[١]

ومنهم نسيم الدين محمد النيسابورى المتوفى سنة ٨٠١ هـ ،برع فىالعربية وشارك فى الفقه وغيره مشاركة حسنة وجاور بمكة نحو ستة عشرة سنة وانتفـــع به اهل مكة وغيرهم [٢] .

وقد صنف العلامة زين الدينعبد الرحمن الفارسكورى فى اثناء مجاورته بمكة تصنيفا يتعلق بالاحكام وكان له حظ من العبادة والمروءة والسعى فى قضـاء حوائج الغربـاء لا سيما اهل الحجاز .[٣]

ومنهم العلامة أبو البقاء محمد الدميرى المتوفى سنة ٨٠٨هـ درس بمكـــة وأفتى وقد جاوربهـــــا سنين متفرقة وله مصنفات منها الديباجة فى شـرح سنن ابن ماجة فى نحو خمس مجلدات وشرح المنهاج للنووى فى أربع مجلـدات ، ونظم فى الفقه أرجوزه طويلة وله كتاب حياة الحيوان .[٤]

اما شمس الدين محمد الخوارزمى المتوفى سنة ٨١٣هـ فقد جاور بمكـــــة زيادة على اربعين سنة وأم بمقام الحنفية وكان بارعا فى الفقه والاصـــول والعربية وتصدر للاقراء بالمسجد الحرام عدة سنين وأفتى ودرس وانتفـــــع الفكر به .[٥]

وكان ممن استفاد الناس من علومهم عمر بن عبد الله الهندى المتوفـــى سنة ٨١٥هـ ، عالم الفقه والاصول والعربية أفاد الناس طوال اقامته بمكةالتــى زادت على أربعين سنة[٦] وعبد القوى بن محمد المالكى البيجانى المتوفـــــى

---

(١) الفاسى: العقد الثمين،جـ٨،،ص ٨٧–٨٩، ابن حجر، ابناءالغمر،جـ١،ص ٢٣٠ .
(٢) الفاسى: العقـد الثمينجـ٢ ، ص ٣٢٢–٣٢٣ ، ابنالعماد :شذراتالذهب جـ٧،ص١٠ –١١ .
(٣) ابن حجر: انبـاءالغمر،جـ٢، ص ٢٣٨–٢٣٩، ابنالعماد: نفسالمصدر جـ٧،ص٧٦ .
(٤) الفاسى : نفس المصدر ،جـ٢ ،، ص ٣٧٢–٣٧٤، ابن العماد : نفس المصدر،جـ٧ ص ٧٩–٨٠ .
(٥) ابن العماد : نفس المصدر ،جـ٧ ،صص ١٠٤ – ١٠٥ .
(٦) ابن حجر : إنبـاء الغمر / جـ٢ ، ص ٥٣٠ .

سنة ٨١٦ هـ نزيل مكة قطن بها ستا وأربعين سنة ودرس بالمسجد الحرام وأفتى باللفظ تورعا وكان ذا معرفة بالفقه [١] وممن حدث بمكة شمس الدين محمدالمصري المتوفى سنة ٨١٦هـ .[٢]

ومن مشاهير القرن التاسع العلامة محمد بن يعقوب الفيروزابادي المتوفى سنة ٨١٧هـ صاحب القاموس المحيط حجة عصره فى اللغة جال البلاد شرقا وغربا عظمه الامراء والملوك وكان مولعا بشراء الكتب أذهبها بالبيع قبل موته وله تصانيف كثيرة قدم مكة مرات عديدة وجاور بها كثيرا وكان يحب الانتساب اليها وكان له بمكة دار على الصفا جعلها مدرسة للاشرف صاحب اليمن وقرربها مدرسين وطلبة وفعل بالمدينة كذلك وكان له بمنى دور وبالطائف بستان وولى قضاة الاقضية ببلاد اليمن اكثر من عشرين سنة متوالية .[٣]

والمحدث الحافظ خليل بن محمد المصرى المتوفى سنة ٨٢١ هـ اشتغل بالفقه قليلا وبالفرائض والحساب والادب ثم تحول الى الحديث وجد فى طلبه وسمع من العلماء بمكة وجاور بها سنوات متفرقة وخرج الى المدينة والى كنباية من بلاد الهند ثم عاد الى هرمز وجال فى بلاد المشرق فدخل هراة ... وسمرقند ...وغيرها .[٤]

وممن انتفع الناس به فى علم المعقول بمكة شمس الدين محمد بن محمد البخارى المتوفى سنة ٨٢٢ هـ .[٥]

ومن كبار اهل العلم والفضل شيخ الاسلام العلم المحدث الحافظ احمد بن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢هـ ، تعانى المتجر ، ورحل فى طلب الحديث وجاور بمكة واقبل على الاشتغال والتصنيف وبرع فى الفقه والعربية وصار حافظ الاسلام قيل عنه : انه كان شاعرا طبعا محدثا صناعة فقيها تكلفا

---

(١) ابن العماد: شذرات الذهب ،جـ٧ ،ص ١٢١ .
(٢) ابن العماد : نفس المصدر والجزء ، ص ١٢٢-١٢٣ .
(٣) الفاسى : المصدر السابق جـ٢،ص ٣٩٢- ٤٠١، ابن العماد: نفس المصدر،جـ٧ ص ١٢٦-١٣١ .
(٤) ابن العماد : شذرات الذهب ،جـ٧ ،ص ١٥٠ .
(٥) ابن العماد : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٧٠ .

انتهى اليه معرفة الرجال واستحضارهم ومعرفة العالى والنازل وعلل الاحاديث فصار هو المعول عليه فى هذا الشأن فى سائر الاقطار وقدوة الامة وعلامة العلماء وحجة الاعلام ومحيى السنة انتفع به الطلبة وحضر دروسه وقرأ عليه غالب علماء مصر ورحل الناس اليه من الاقطار .(١)

وقد استوطن مكة المقرئ عبد الرحمن بن عياش وانتصب بها لاقراء القراءات بالمسجد الحرام كل يوم ، وانتفع به عامة الناس وصار رحلة زمانه توفى سنة ٨٥٣هـ .(٢).

وممن اشتغل بالعلم والطب على بن سليمان الهوريبنى وقد اخذ عن السخاوى بمكة .(٣)

هذا وقد احتذبت تلك الحركة العلمية المزدهرة فى مكة التاجر ابراهيم بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٨٦٧هـ ، فى اثناء مجاورته بمكة مع أبيه ،فدرس على علمائها بالحرم ثم رجع الى القاهرة فحدث بها .(٤)

ومن طلاب العلم بمكة بدر الدين الحسين بن الاهدل المتوفى سنة ٩٠٣ هـ ، جاور بها ثم رجع الى بلاده فكان اماما فقيها حافظا محدثا بارعا فى شتى العلوم .(٥)

ومنهم محمد بن عبد الرحمن الاسقع بأعلوى اليمنى الشافعى المتوفى سنة ٩١٧ هـ ، مكث فى مكة مدة لطلب العلم فحصل الكثير من العلوم ونفع الناس إقراء وافتاء .(٦)

---

(١) ابن العماد: نفس المصدر والجزء ،ص ٢٧٠ — ٢٧٣ .
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ،ج٧ ،ص ٢٧٧ .
(٣) السخاوي : (الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ،الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ،القاهرة ،١٣٥٥ هـ ج ٥ ، ص ٢٨٨ .
(٤) السخاوي : نفس المصدر ،ج١ ،ص ٧٣ .
(٥) ابن العماد : نفس المصدر ، ج٨ ،ص ٢٠ .
(٦) ابن العماد : نفس المصدر ،ج٨ ،ص ٨٥ .

" مواســــم الحـــــج ":

الحج فريضة فرضها الله سبحانه وتعالى على المسلمين لقوله تعالى :ـ
" ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا " [١] ولقوله عز وجــل
لخليله ابراهيم عليه الصلاة والسلام " وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجــالا
وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق " [٢]

واستجابة لهذا النداء توافد المسلمون على مكة المكرمة لآداء الفريضة
فى موسم الحج وقد كانت المحامل السلطانية وجماهيـر الركبان لا تخرج الامن
أربع جهات : مصر والشام والعراق واليمن .[٣] يصاحبها الآلاف من المسلمين
من شتى بقاع المعمورة .

وكانت الاحتفالات تقام بالقاهرة بمناسبة خروج المحمل وعند عودته ويحضرها
السلطان وكبار رجال الدولة والتجار وكان المحمل يجهز مرتين فى السنــة
(الاولى) فى رجب ....(والاخرى) فى شوال .... وقد انتظم ذلك منذ سنــة
٦٧٥ هـ أيام الظاهر بيبرس .[٤]

اما القوافل فقد بلغت فى دقة التنظيم حدا يدعو الى الاعجاب فقد كــان
لكل قافلة امير يعرف بأمير الركب او امير الحج يقوم بتوجيه القافلــة
وتنظيم الركب فى مسيرهم ونزولهم ويحوطهم بالرفق والحراسة ويوءدب من يحاول
الخيانة او الاخلال بأمن القافلة ، ويساعده فى ذلك جنود يحمون القافلــة

---

(١) سورة آل عمران ، اية ٩٧ .
(٢) سورة الحج ، اية ٢٧ .
(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ،جـ٢ ،ص٣١٠ .
(٤) السيوطى : نفس المصدر ،جـ٢ ،ص٩٦ .

وأدلاء يسلكون بالركب اوضح الطرق واوسعها وأخفها وأوفرها ماءا وخصبا ومع كل قافلة قاض يفصل فى الحوادث التى تقع بين الحجاج .(١)

ومن الطبيعى ان ينضم التجار الى هذه القوافل ....لما يجدون فى كنفها من الامن ولامكان الكسب من الاتجار فيها ونقل بضاعهم الى المدن والقرى التى يمرون بها حيث كانت تتم عمليات التبادل التجارى .(٢) يقول ابن بطوطة فى وصف الركب العراقى ....

" وفى هذا الركب الاسواق الحافلة والمرافق العظيمة وانواع الاطعمة والفواكه ." (٣).

وفى كل مرحلة يقيم التجار الاسواق فيشترى القادرون من الحجاج ما يلزمهم .....اما الفقراء فكانوا يجدون فى الصدقات ما يكفيهم .(٤)

وقد رحل ابن بطوطة مع ركب الحج العراقى وفى ذلك يقول :" وفى هذا الركب نواضح كثيرة لابناء السبيل يستقون فيها الماء وجمال لرفع الزاد للصدقة ورفع الادوية والاشربة والسكر لمن يصيبه مرض ، واذا نزل الركب طبخ الطعام فى قدور نحاس عظيمة تسمى الدسوت ، واطعم منها ابناء السبيل ومن لا زاد معه . وفى الركب جملة من الجمال يحمل عليها من لا قدرة له على المشى ".(٥)

وقد كانت مكة المكرمة فى موسم الحج تشهد ذروة الرواج الاقتصادى وكان للموسم اثر كبير فى هذا المجال فالاعداد الكبيرة من الحجاج لابد ان يصاحبها نشاط كبير فى حركة البيع والشراء وقد كان التجار يتحينون هذا

---

(١) الجزيرى : (عبدالقادر بن محمد ،دور الفوائد المنظمة فى اخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، القاهرة ، ١٣٨٤ ،ص ص ٩١-١٦٨ .

(٢) ابن طولون :(شمس الدين محمد ، مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، ٣٨١ - ١٣٨٤/١٩٦٢-١٩٦٤ ، ق ١ ، ص ٢٨ ، محمود زائد قافلة الحج تنظيمها ودورها الحضارى ، المجلة العربية ، السنة الثالثة ، العدد الاول محرم ١٣٩٩/ ١٩٧٨ ، ص ٢٢.

(٣) ابن بطوطه : الرحلة ، ص ١٦٩ .

(٤) محمود زائد : نفس المرجع ، ص ٢٥ .

(٥) ابن بطوطه نفس المصدر ، ص ١٦٨ .

الموسم لينقلوا متاجرهم اليها [١] كما ان بعض الحجاج يلتمسون ـ الى جانب أداء الفريضة ـ ضروبا من النفع المادى فيتبادلون التجارات ويتسابقون الى الخيرات .

ولقد أباح الخالق جل وعلا ذلك لعباده فقال تعالى :" ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم " [٢] ، وعن مجاهد بن عباس قال : كانوا يتقون البيوع والتجارة فى الموسم والحج ،يقولون : أيام ذكر . فأنزل الله هذه الآية وفى رواية اخرى أنه قال :" لا حرج عليكم فى الشراء والبيع قبل الاحرام وبعده ". [٣] وجاء فى تفسير أبى السعود لقوله تعالى :" فضلا من ربكم " : عطاء ورزقا منه ، اى الربح بالتجارة . [٤]

وحتى يكتمل اجر الحاج ، ولا يقع فى المحظور اذا أراد التجارة ينبغى له أن يصحح قصده ، فتكون تجارته ضمنا وتبعا لا غاية وقصدا . [٥] وبهذا يكون الحج عملا مشتركا يحقق المسلمون فيه صفة المؤتمر الدينى والدينوى ، وعن ابى صالح مولى عمر قال : قلت يا امير المؤمنين كنتم تتجرون فى الحج ؟ قال : وهل كانت معايشهم الا فى الحج ؟ . [٦]

ويعد موسم الحج فرصة نادرة لتكتل متاجر اكبر طبقة للتجار المسلمين فى هذا العصر " التجار الكارمية " [٧] حيث تصل افواج الحجاج والتجار من بلدان الاسلام المختلفة وحيث تعقد الصفقات التجارية الكبيرة ...ومما يدل على ذلك أن السلطان المملوكى الاشرف شعبان الغى جميع المكوس المفروضة

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ،جـ٦ ،ص ٢١٠ .
(٢) سورة البقرة : آية ١٩٨ .
(٣) الطبرى : (محب الدين الحافظ ابى العباس احمد . القرى لقاصد ام القرى ، تحقيق مصطفى السقا ،الطبعة الثانية ،مصر ١٣٩٠ـ ١٩٧٠،ص ٩٧، ابن كثير : تفسير القرآن ،جـ١ ،ص ٢٣٩ـ٢٤٠ .
(٤) ابو السعود : تفسير ابو السعود ،جـ١ ،ص ٢٢٦ .
(٥) ابن الجوزى : مشير الغرام ، ق ٢١ب ، الطبرى : نفس المصدر ،ص ٣١.
(٦) ابن كثير : المصدر السابق ،جـ١ ،ص ٢٤٠ .
(٧) انظر الفصل السادس فئات التجار ، مبحث التجار الكارمية .

على المتاجر التى يحملها الحجاج الى مكة ولكنه استثنى منهم تجار الكارم وتجار الهند وتجار العراق .(١)

وقد أشار الرحالة الى الاهمية التجارية لمكة المكرمة فذكروا أنها ملتقى الصادر والوارد ، وأسهبوا فى التحدث عن الرخاء الاقتصادى الذى كانت تنعم به فى أثناء رحلاتهم لأداء فريضة الحج وما كانت تغص به من النعم والارزاق والمتاجر المتنوعة " من البر الى الدر" ومن الذخائر النفيسة كالجواهر والياقوت وسائر الاحجار ومن انواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعود والعقاقير الهندية الى غير ذلك من جلب الهند والحبشة الى الامتعة العراقية والعمانية الى غير ذلك من السلع الخرسانية ،والبضائع الهندية ويذكرون أنه يباع منها فى اليوم الواحد ما لو فرق على البلاد كلها لاقام لها الاسواق النافقة وعمها بالمنفعة التجارية .(٢)

وهذا كلام مبالغ فيه ولكنه بلا شك يدل دلالة واضحة على الازدهار التجارى فى مكة المكرمة .

وحسبنا ان نذكر أن موسم الحج كان مركز جذب للتجار من اصقاع المعمورة كافة . كما كان مصدر شراء لهم ، ومعين خير وبر لاهل مكة والمجاورين بها وقد حرص التجار دائما على حضور هذا الموسم والكسب فيه ..ومن لم يستطع الحضور استعان بمندوبين عنه فى شراء المتاجر التى يرغبها .(٣)

لقد كانت مواسم الحج مواسم تجارية مزدهرة للحجاج والتجار على حد

---

(١) صبحى لبيب : التجارة الكارمية ،وتجارة مصر فى العصور الوسطى المجلة التاريخية المصرية ،المجلد الرابع ،العدد الثانى ١٩٥٢،ص ١٩ .

(٢) ابن جبير : (ابو الحسن محمد بن احمد ،رحلة ابن جبير ،بيروت ١٣٨٤ / ١٩٦٤ ،ص ٩٧ ،البلوى : (خالد بن عيسى ،تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق ،تحقيق الحسن السائح ،المغرب ،بدون تاريخ ،ج١، ص ٣٠٨ .

(٣) حسنين محمد ربيع : وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانئ الحجاز واليمن فى العصور الوسطى ، الندوة العالمية الاولى لمصادر تاريخ الجزيرة العربية ،قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة الرياض " الملك سعود حاليا " ، ١٩٧٧ ، ص ١٣٤ .

سواء فيقصدهاتجار الهند والصين القادمون بطريق عدن أو جدة فيبيعون ويشترون .[١] ويجد تجار فارس فى هذا الموسم فرصة كبيرة لتبادل السلع مع التجار من جميع الجنسيات ويقومون ببيع صادرات بلادهم من الملابس والياقوت والسجاد والحرير والفيروز وغيرها .[٢]

ويكفى لبيان اهمية هذا المرفق فى موسم الحج أن تأثيره الايجابى لم يكن يقتصر على انتعاش الحياة الاقتصادية فى مكة ... فبلاد الشام كانت تعتمد عليه كثيرا فى اقتصادياتها ، فقد كان عدم خروج المحمل منها يؤدى الى توقف صناعات كثيرة لانقطاع البضائع والاسفار .[٣]

ويرد كثيرا فى سجلات التجارة فى العصور الوسطى اخبار وصول قوافل الحجاج القادمة من مكة واشارات لما تحمله من متاجر الشرق ونصائح بعض التجار الى شركائهم بألا يشرعوا فى شراء متاجرهم الى أن يرجع الموسم من مكة . [٤]

وكانت الاسواق تقام حول المسجد الحرام وفى منى والمشاعر وحيثما كانت جموع الحجاج .[٥]

ويعد الموسم الذى يحج فيه السلاطين والامراء وأصحاب الشراء من اكثر المواسم رواجا للتجارة اذ يقوم هوءلاء بالكثير من أعمال البر ويتصدقون على اهل مكة والمجاورين بالاموال والعطايا ...وقد كان هذا يوءدى الى زيادة النشاط التجارى .

---

(١) على بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك القاهرة ١٣٩٣/١٩٧٣ ، ص ١٥٩ .

(٢) على بن حسين السليمان : النشاط التجارى فى شبه الجزيرة العربية فى اواخر العصور الوسطى (١٢٥٠ – ١٥١٧ م) القاهرة ١٣٩٤/١٩٧٤ ،ص ٢٧١ .

(٣) ابن طولون : مفاكهة الخلان ،ق١ ، ص ٣٤١ .

(٤) حسنين محمد ربيع : وثائق الجنيزة ، ص ١٣٥ .

(٥) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ١٣٦ ،الفاسى : محمد بن احمد بن على تقى الدين ،تحصيل المرام فى تاريخ البلد الحرام ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمكتبة رواق الاتراك ، الازهر ١٤٧١ تاريخ ،ق ٩١ ب ، ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٣٧ ، البلوى : تاج المفرق ،ج١ ، ص ٣٠٧ ،الورثيلانى الحسين بن محمد ، نزهة الانظار فى فضل علم التاريخ والاخبار ،بيروت،ط٢ ،١٣٩٤/١٩٧٤ ص ٤١٩ – ٤٢٠ .

ففى عام ٦٥٩ حج المظفر صاحب اليمن واقام فى مكة عشرة أيام بعد الحج فأجزل العطاء لاهل مكة والحجاج وأنعم على روءساء مكةونشر على البيت الذهب والفضة .(١)

واظهر السلطان الظاهر بيبرس فى حجته سنة ٦٦٧هـ التواضع والخضوع فى بيت الله الحرام وأعطى خواصه جملة من الاموال لتفرق فى الناس سرا وألغى المكوس التى توءخذ من الحجاج والتجار ، وصالح بين الشريفين ابى نمى وادريس ، وجعل الامير شمس الدين مروان نائبا للسلطنة فى مكة بناء ا على طلبهما لتقوى به أنفسهما ويرجع اليه فى الامور يكون الحل والعقد بيده كما احسن الى اميرى مكة وينبع وأمير خليص وأكابر الحرم وصار يرسل للحرمين الشريفين كل سنة عشرة آلاف اردب قمح .(٢)

وعندما حج الامير أنس - ويقال أنص بالصاد بدل السين - ابن الملك العادل كتبغا .(٣) سنة ٦٩٥هـ صحبه كثير من الامراء والحجاج وحجت معه والدته بتجمل زائد وعم خيرهم ونفعهم اهل مكة والمدينة والمجاورين وشكرت سيرته .(٤) ويقال إنه سقى الحجاج فى طول الطريق الروايا ملائى من السكر وفرق من الحلوى ما رخص سعرها فى الركب حتى بيعت كل علبة بدرهمين .(٥)

---

(١) الخزرجى : العقود اللوءلوءية ،جا ،ص ١٣٣ - ١٣٥ ، ابن الديبع : قرة العيون ،ق ٢ ،ص ص ٣٧-٣٨ ،يحيى بن الحسين : غاية الامانى ،ق ١ ،ص ٤٥٠ محمد عبد العال احمد : بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية فى عهدهما ، القاهرة ١٩٨٠ ،ص ٣٦٥-٣٦٦ .

(٢) ابن ايبك : (ابى بكر عبد الله . كنز الدرر وجامع الغرر - الدره الزكية فى اخبار الدولة التركية ،تحقيق اولرخهارمان ،القاهرة ١٣٩١/ ١٩٧١ ،جـ ٨ ،ص ١٤٢ ، المقريزى : (تقى الدين بن على . الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، تحقيق جمال الدين الشيال،القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٨٥-٩٥، السيوطى : حسن المحاضرة ،جـ٢ ،ص ٢٩٦ ،محمد عبد العال احمد : المرجع السابق ، ص ٣٧١ - ٣٧٣ .

Jamier: le mahmal et la Carauane Egyptienne, de Pelgrime de la mecque, le Caire, 1935, P. 210,
De Gaury : Rulers of Mecca, London, 1951, P.93.

(٣) ابن حجر : الدور الكامنة ، جا ، ص ٤١٧ .

(٤) ابن تغرى بردى : (جمال الدين ابو المحاسن يوسف . النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ،القاهرة ١٩٢٩/١٩٧٢ ،جـ ٨ ،ص ٥٧-٥٨ ،الجزيرى : المصدر السابق ،ص ٢٨٨.

(٥) ابن حجر : المصدر السابق ،جا ، ص ٤١٧ .

ويترحم الجزيرى على الامير بكتمر الجوكندار الذى صنع معروفا كثيرا وانفق فىحجته خمسة وثمانين ألف دينار منجملتها تجهيز المراكب بالغلال والدقيق والعسل والزبيب والحلوى ثم وزعها على الحجاج فى مكة وينبع وجدة.(١)

اما الامير سلار الذى تولى امره ركب الحج المصرى سنة ٧٠٣هـ فقد كان رجل خير حتى كان الناس يدعون له بقولهم :(يا سلار كفاك الله شر النار" فقد كتب أسماء المجاورين وأوفى ما عليهم من ديون لاربابها وأعطى اهل مكة جليلهم وحقيرهم وكتب جميع الفقراء وجميع الاشرافالحمل اليهم الدنانير والدراهم .(٢)

وفى حجات السلطانالناصر محمد بن قلاوون الثلاث فى سنوات (٧١٢ - ٧١٩- ٧٣٢) اظهر البر والتواضع والاحسان لاهل مكة كافة وكان يضرب المثل بحجته الاخيرة لما ادت اليه من رخص الاسعار ورخاء البلاد .(٣)

اما ملك التكرور منسى موسى فقد كان لرحلته لآداء فريضة الحج سنة ٧٢٤هـ (٤) اثر واضح فى انخفاض سعر الدينار الذهب الى ستة دراهم وقيل الى درهمين وتسهب المصادر فى وصف موكبه الفخم فى هذه الرحلة وما انفقه من الاموال الجليلة فى الحرمين وفى مصر حتى لم يبق معه شئ رغم كثرة ما كان معه من الذهب ولذلك اقترض من التجار فى مصر واشترى عدة كتب من فقه المالكية " مذهبه " ثم عاد الى بلاده .(٥)

وعندما حج الامير سيف الدين يشبك الناصرى سنة ٧٣٩هـ صنع كثيرا من

---

(١) الجزيرى : المصدر السابق (درر الفوائد) ،ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٢) ابو الفدا : (الملك المؤيد اسماعيل صاحب حماة . المختصر فى تاريخ البشر ،بيروت ،بدون تاريخ ،جـ٤ ،ص ٥١ ،ابن ايبك : ابى بكر ابن عبد الله . كنز الدرر وجامع الغرر ،الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر تحقيق هانس روبرت رويمر ،القاهرة ،١٣٧٩/١٩٦٠ ،جـ٩ ،ص ١١٨ ،المقريزى تقى الدين احمد ،السلوك لمعرفة دول الملوك ،القاهرة ١٩٧٢ جـ٢ ،ص ٤-٥ الجزيرى : نفس المصدر ،ص ٢٩١-٢٩٢ .

(٣) المقريزى: السلوك،جـ٢،ص٣٥٧،الذهبالمسبوك ص ١٠٦-١٠٩ ،ابن تغرىبردى:النجوم الزاهرة ،جـ٩،ص ١٠٦ .

(٤) الفاسى:العقدالثمين،جـ١،ص ١٩٤ ،الطبرى: (محمدبنعلىبنفضل الله ، اتحاف فضلاءالزمن بتاريخ ولاية بنى الحسن،مخطوط بمعهد احياءالمخطوطاتالعربية رقم ٨٧٠،ص ٣٢.

(٥) المقريزى : الذهب المسبوك ،ص ١١٣ .

البر والمعروف لركب الحجيج من مصر الى مكة كما احسن الى اهل الحرميـــن والمجاورين والحجاج ويقال أن ما انفق فى مكة بلغ ثلاثين ألف دينار ... وأربعمائة ألف درهم .(١)

وفى سنة ٧٥٧هـ كان الركب العراقى فى غاية الكثرة وحج بعض العجـــم وتصدقوا بذهب كثير .(٢) ويذكر ابن بطوطة ان الركب العراقى كان سببا فى رخص سعر الذهب بمكة اذ انتهى صرف المثقال الى ثمانية عشر درهما نقره(٣)

وعندما حجت بركة خاتون أم الاشرف شعبان سنة ٧٧٠هـ حج معها خلق كثيـر وعملت المعروف الواسع فى الحجاز وكان خروجها مع الرجبية . (٤)

وبلغ الحاج المصرى سنة ٧٩٠هـ سبعة ركوب من كثرتهم سوى ركب المغاربة والتكارره تسعة ركوب (٥) وقام امير الركب الاول جركس الخليلى بكثير مـن اعمال الخير فى الحجاز وكان يتصدق فى كل يوم بكميات من الخبز على الفقراء(٦)

ولعبت اسواق مكة ايام الموسم دورا كبيرا فى النشاط التجارى والتحكم فى الاسعار نتيجة لكثرة المتاجر والسلع التى يحملها الحجاج والتجـــار وما تؤدى اليه هذه الكثرة من انخفاض فى اسعار السلع فقد اخبر الحجـــاج الذين قدموا سنة ٨٢٠هـ " ان السنة كانت عليهم شديدة الرخص حتى بيع الحمل الدقيق بستة دنـــانير ....ويقال بانه استقام على الذى جلبه باثنى عشر(٧)

وكان لسلاطين آل عثمان دورهم البارز فى الاحسان الى اهل الحرميـــن

---

(١) الجزيرى : درر الفوائد ،ص ٦٩٤ .
(٢) الفاسى: العقدالثمين،جا ،ص ١٩٥ ،الجزيرى : دررالفوائد ،ص ٣١ .
(٣) ابن بطوطة : المصدر السابق،ص١٦٧ .
" درهم النقرة هى اجود الدراهم عيارا - فى تلك الفترة - ثلثاها او اكثر من فضة والثلث أو اقل من نحاس وكانت تسك بدار الضرب بالسكـــة السلطانية ومنها دراهم صحاح وقرضات مقصوصة . القلقشندى : صبح الاعشـى جـ٣، ص ٤٣٩- ٤٦٢- ٤٦٣ .
(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ،جا ،ص٤٧٤-٤٧٥ ،الجزيرى: دررالفوائد،ص٧٠٥ .
(٥) ابن فهد : اتحاف الـــــــــــــورى ، ص ٣١٥ .
(٦) المقريزى: السلوك،جـ٣،ص ٥٣٦، ابن حجر: ابناء الغمر،جـ ١ ص ٣٨٥،٣٥٢ .
(٧) ابن حجر : الدرر الكامنة ،جـ٣ ،ص ١٣٥ .

ومساعدتهم ففى سنة ٨٥٠هـ حج احد وزراشهم بصدقات جليلة واموال وافرة [١]

وفى سنة ٨٦١هـ حجت زوجة الاشرف اينال وكان لها بمكة والمدينة معروف وصدقة ومن اعمالها الجليلة ميضأة ورباط فى كل من مكة والمدينة وقد حجت مرة اخرى سنة ٨٧٩هـ وكانت فى هذه المرة زوجة للسلطان الاشرف قايتباى [٢].

وكان اول من ارسل الصر للحرمين من العثمانيين السلطان محمد بن بايزيد [٣] اما السلطان بايزيد المتوفى سنة ٩١٨هـ فقد كان يرسل فى كل عام للحرمين أربعة عشر ألف دينار مضاعفة . [٤]

وكان لاهتمام السلطان قايتباى بأمر الحرمين اثره الكبير فى بناء كثير من المنشآت فعندما حج سنة ٨٨٤هـ امر وكيله وتاجره الخواجا شمس الدين محمد الشهير بالزمن أن يبنى له مدرسة يدرس فيها علماء المذاهب الاربعة ورباطا يسكنه الفقراء وربوعا ومسقفات اصبحت تغل كل عام ألفى دينار، واوقف قرى وضياعا بمصر تحمل غلاتها كل عام الى مكة وتصدق على الفقراء بخمسة آلاف دينار [٥]. وقيل ثمانية آلاف دينار .[٦]

هذا وقد بقيت عائدات اوقاف السلطان قايتباى تصل الى مكة حتى فى عهد الدولة العثمانية وكانت تعرف باوقاف الدشيشة الكبرى ولكن غلاتها لم تكن ترسل كاملة الى الحرمين وصار ما يرسل اقل مما تغل .[٧]

ومع كثرة الحجاج سنة ٨٩٦هـ " الا ان الاسعار كانت رخية جدا " بيع

---

(١) الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ،ص ٦٩ .
(٢) الجزيرى : المصدر السابق ، ص ٧٠٣ ـ ٧٠٥ .
(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ،ج٧ ص ١٧٢ .
(٤) ابن العماد : نفس المصدر ،ج٨ ، ص ٨٦ .
(٥) ابن اياس : بدائع الزهور ،ج٣ ،ص ١٦٠-١٦١ ، الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ، ص ٨٢ ـ ٨٣ .
(٦) ابن طولون : مفاكهة الخلان ،ق ١ ، ص ٦ .
(٧) مصطفى رمضان : وثائق مخصصات الحرمين فى مصر ابان العصر العثمانى ندوة دراسات تاريخ الجزيرة العربية ،الكتاب الاول ، الجزء الثانى قسم التاريخ وقسم الاثار والمتاحف ، كلية الآداب ، جامعة الرياض ـ " الملك سعود حاليا " ١٣٩٩ ، ص ٢٦٧ .

الحمل الدقيق المصرى بأشرفيين وستة عشر محلقا بل بيع الربع بمحلق واحد وكان الحب والعسل واللحم كذلك فى غاية الرخاء". (١)

وهذا دليل على ان المتاجر فى مكة كانت كثيرة جدا فأدى ذلك الى انخفاض الاسعار على الرغم من كثرة الحجاج .

وفى سنة ٩١٥هـ حج احد الامراء العثمانيين مع الركب المصرى وقام بتوزيع مبلغ أربعين ألف دينار فى مكة والمدينة ، كان قد ارسلها معه السلطان العثمانى (٢)

وكانت هذه السنة فى غاية الرخص على اهل مكة والحجاج (٣)

وعندما حج ولد السلطان قانصوه الغورى مع والدته سنة ٩٢٠هـ استقبله صاحب مكة الشريف بركات استقبالا حافلا وكان ممن خرج معه للقائه قضاة مكة وأعيان التجار بها ثم توجه الشريف بركات فى صحبتهما عند العودة الى مصر ولقى من السلطان الغورى كل تقدير واكرام ، ومما يذكر ان ولد السلطان قام بكثير من اعمال البر والاحسان فى أثناء مقامه بمكة . (٤)

وقد جاء الى مكة فى السنة التى قبلها ٩١٩هـ ملكان من ملوك التكارزة وكان خروجهما من مصر بعد الحاج بأيام وعادوا صحبة ركب الحاج المصرى. (٥)

وعموما فقد حفرت السمات الاقتصادية خصائصها فى هذا الموسم باعتباره الظل الاساس الموءكد لاهمية مكة التجارية المستمدة من تاريخها ومكانتها وثقلها الدينى فى العالم الاسلامى .

---

(١) الجزيرى : المصدر السابق ، ص ٣٤٤ .
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ،جـ٤ ،ص ١٦٨ .
(٣) ابن طولون : المصدر السابق ،ق ١ ،ص ٣٤١ .
(٤) ابن اياس : نفس المصدر ،جـ٤ ،ص ٤٣٣ . ابن الديبع : قرة العيون ،ق ٢ ، ص ٢٢٠ .
(٥) ابن اياس : نفس المصدر ،جـ٤ ،ص ٣٤٣ .

" موقـــع مكة على طرق القوافل " :

لقد كان لموقع مكة الجغرافى باعتبارها ملتقى الطرق البرية عبر الجزيرة العربية شمالها وجنوبها وشرقها وغربها ، كان لذلك اثره فى احتلالها مكان الصدارة فى الميدان التجارى منذ أقدم العصور فى جزيرة العرب .[١] فما الايلاف فى قوله تعالى :" لايلاف قريش ايلافهم ،رحلة الشتاء والصيف " .[٢] الا معاهدات تجارية عقدها القرشيون لتأمين نقل تجارتهم فقد نجح هاشم بن عبد مناف فى تكوين شبكة تجارية تربط مكة بما حولها (٣) بعقده الاحلاف التجارية مع رؤساء القبائل المهيمنة على طرق التجارة البرية عبر الجزيرة .

وطرقت تجارة قريش المجال الخارجى ....بعقدها المعاهدات مع حكومتى الروم وفارس " وكان يمثل الامبراطور البيزنطى عظيم بصرى ... بينما يمثل كسرى فارس مرزبان البحرين "[٤] كما كانت صلاتها التجارية كبيرة مع الجنوب " اليمن " فقد اتصل المطلب بن عبد مناف بأقيال اليمن وعقد معهم اتفاقا تقوم قريس بمقتضاه بالمتاجرة فى أرضهم واتصلت قريش بالحبشة وأبرمت معها اتفاقا مماثلا أصبحت الحبشة بموجبه وجها ومتجرا لقريش[٥].

وقد نظمت هذه المعاهدات الرحلات فى الصيف والشتاء فكانت القوافل القرشية تتاجر مع مصر والشام والعراق فى الصيف ومع اليمن والحبشة فى الشتاء[٦] هذا عدا متاجرتها مع القبائل الضاربة فى شبه الجزيرة العربية

---

(١) جورج فاضلو حورانى: العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة واوائل القرون الوسطى ،ترجمة د.السيد يعقوب بكر القاهرة بدون تاريخ ص ١٠٥،

(٢) سورة قريش ، آية ١ .

(٣) السيد احمد ابو الفضل عوض : مكة فى عصر ما قبل الاسلام ،ط٢ ، الرياض ١٩٨١/١٤٠١ ،ص ١٣٩ .

(٤) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام ، ص ٢٢٤ .

(٥) احمد ابراهيم الشريف : دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة فى القرنين الاول والثانى للهجرة ،ط٢ ،بيروت ١٩٧٧ ،ص ٣٧ ـ ٣٨ .

(٦) ابو الحسن على الحسينى الندوى : السيرة النبوية ،ط٣ ،جدة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ،ص ٧٦،على بن حسين السليمان : النشاط التجارى ،ص ٩٧ .

وفى مقدمتها اليمامة التى كانت ريف مكة .[١].

وكان انصراف اهل مكة الى التجارة نتيجة لظروفهم الطبيعية فالجبال تحيط بواديهم من جميع الجهات [٢]. والمياه شحيحة بها ...ولذلك قيل ان اسم مكة مشتق من مك أى مص لقلة مائها لانهم كانوا يمتكون الماء اى يستخرجونه[٣] ونظرا لوقوعها فى الاقلم الثانى[٤] فقد تميز مناخها بالجفاف والارتفاع الشديد فى درجة الحرارة .[٥]

وعلى الرغم من كونها بواد غير ذى زرع [٦] ... كان للنشاط التجارى اثره فى ان يجلب اليها ثمرات كل شىء [٧]. ولهذا نرى الاقوات والثمار وسائر البضائع والسلع متوفرة فيها ولا يقتصر وجودها على وقت الحج بل تكاد لا تنقطع طول العام .[٨] وما ذلك الا من فضل الله ورحمته بعباده استجابة لخليلة ابراهيم عليه السلام حين دعاه قائلا : " ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون [٩] وفى قوله تعالى : "وارزق اهله من الثمرات لعلهم يشكرون " .[١٠]

وتجدر الاشارة الى ان طرق الحج هى نفسها طرق التجارة ذلك ان قوافل التجار كثيرا ما كانت تصحب قوافل الحجيج لما كانت تجده فى كنفها من امن وحماية .

---

(١) ابو الحسن على الحسينى الندوى : نفس المرجع ، ص ٧٦.
" كانت اليمامة ريف مكة ـ لذلك لمامنع ثمامة بن آثال ـ سيد بنى حنيفة حمل الحنطة الى مكة بعد ما اسلم ، جهدت قريش وكتبوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسالونه ان يكتب الى ثمامة يخلى اليهم حمل الطعام ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم " . ابو الحسن الندوى : ص ٧٦ .
(٢) ياقوت: معجم البلدان، مادة مكة ،جه ،ص ١٨٧ ،الفاسى: العقد الثمين، جا ،ص ٢٨.
(٣) ياقوت : معجم البلدان ،مادة مكة ،جه ،ص ١٨٢ .
(٤) ابن ايبك : الدرة العليا فى اخبار بدء الدنيا ،تحقيق بيرندرا مكة ، القاهرة ١٤٠٢/١٩٨٢ ،جا ،ص ٩٩ .
(٥) احمد ابراهيم الشريف ،المرجع السابق ،ص ٧ ،على بن حسين السليمان: المرجع السابق ،ص ٩٩ .
(٦) سورة ابراهيم : اية ٣٧ .
(٧) ابن الضياء القرشى : تاريخ مكة ،ق ٨٢ب ـ ٨٤ أ .
(٨) ابن جبير: المرحلة ،ص ٩٧ .
(٩) سورة ابراهيم ،اية ٣٧ .
(١٠) سورة البقرة ، اية ١٢٦ .

ويعد طريق القوافل من مصر الى مكة من الطرق الرئيسية ....

التى كان لها دور كبير فى ازدهار الحركة التجارية ونشاطها وقد توقف استخدام هذا الطريق خلال الحروب الصليبية وتحول الحجاج والتجار الى طريق آخر من القاهرة عبر النيل الى قوص[١] ومنها الى ميناءى عيذاب[٢] والقصير[٣] برا ثم عبر البحر الاحمر الى موانئ الحجاز.[٤]

وقد دبت الحياة من جديد فى هذا الطريق حين سلكته السلطانة شجر الدر وهى فى طريقها الى الحج سنة ٦٤٨ هـ [٥] ثم بدأت اهمية هذا الطريق بشكل رسمى عندما سلكه الظاهر بيبرس وتوجهت عبره قافلة الحجاج ومعها كسوة الكعبة سنة ٦٦٧هـ (٦)

(١) قوص " من اهم المراكز التجارية النهرية فى مصر تقع عند نهاية طريق القوافل الممتد بين عيذاب والنيل وهى ـ مدينة عظيمة لها خيرات عميقة بساتينها مورقة ، واسواقها مونقة ، ولها المساجد الكثيرة ، والمدارس الاثيرة وهى منزل ولاة الصعيد ".
رحلة ابن بطوطة ،ص ٤٨ .

(٢) " عيذاب " على ساحل البحر الاحمر مقابل جدة زادت اهميتها بعد تحول طريق التجارة من الخليج العربى الى البحر الاحمر وصارت محط تجار الهند واليمن والحبشة ثم اصبحت طريق الحج والتجارة بعد استيلاء الصليبيين على ايلة واغلاقهم طريق القوافل وقد ظل طريق قوص عيذاب مسلك الحجاج والتجار " من اعوام بضع وخمسين وأربعمائة الى اعوام بضع وستين وستمائة " . المقريزى : تقى الدين احمد ، المواعظ والاعتبارات بذكر الخطط والاثار (طبعة بالاوفست) ،جا ،ص ٢٠٢ .

(٣) القصير : موقع قرب عيذاب بينه بين قوص قصبة الصعيد خمسة أيام وبينه وبين عيذاب ثمانية ايام وفيه مرفأ سفن اليمن وقد ازدادت اهميته بعد ما تضاءلت اهمية عيذاب .
ياقوت : معجم البلدان ، مادة القصير ،ج٤ ، ص ٣٦٨ .

(٤) محمد عبد العال احمد : بنو رسول وبنو طاهر ، ص ٣٨٠ ،هـ٢، أمين محمود عبد الله : (طرق الحج والتجارة العربية فى العصر الاسلامى مجلة الفيصل ، العدد ١٨ ذى الحجة ١٣٩٨ هـ / نوفمبر ١٩٧٨ م ، ص ٢٢ ، حسينى محمد ربيع : البحر الاحمر ، ص ١١١ .

(٥) محمد لبيب البتنونى : الرحلة الحجازية ، القاهرة ، ١٣٢٧ ١٣٢٩ ، ص ٣١ .
احمد السباعى : تاريخ مكة ،ط٢ ،مكة ١٣٨٠ ،ص ٢٢٥ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٧ ص ٣٦ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، جا ، ص ٣٣١ ، محمد عبد العال احمد : المرجع السابق ص ٣٨٠ – ٣٨١ ، احمد رمضان احمد : شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى القاهرة ١٣٩٧/١٩٧٧ ، ص ٢٠٧ .

فاستعاد الطريق اهميته واصبح طريق الحج والتجارة واهتم سلاطين المماليك بهذا الطريق لتسهيل الحج وتنشيط الحركة التجارية واصلحوا المنشآت والمرافق فيه فأدى ذلك الى ازدهار تجارتهم بدرجة كبيرة .(١)

ويبدأ الطريق البرى من بركة الحاج على مرحلة واحدة من القاهرة (٢) الى الشمال الشرقى منها .....وهىمركز الحجاج فى مصر والاندلس والمغـــرب وافريقيا وغيرهاوكانت تعرف باسم " جب عميرة (٣) و " بركة الجب " .(٤)

ويوءخذ بالبركة مكس الجمال وأول من احدث هذا فخر الدين ابن مكانـــس سنة ٧٨٠هـ حين الزم المقدمين أن يحضروا أوراق المكس التى معهم ومن لم يحضر ورقة ألزم باعادة المكس .(٥)

وفى سنة ٨٢٨ هـ فى سلطنة الاشرف برسباى عمر زين الدين بن عبد الباسـط فى البركة بستانا وساقيةماء وأنشأ بها فسقية كبيرة تملاء بالماء وكان بهـــا نفع كبير للحجاج والتجار. (٦)

وتعتبر البركة من انشط الاسواق على بداية الطريق وينصب بالبركة ســوق كبير فيه من الجمال وانواع الملابس المعدة للسفر ... ومـا يحتاجه المسافـرون من المركوب والمأكول والملبوس بحيث ان من اراد ابتداء السفر من البركـــة يتهيأ له سائر ما يحتاجه من أسبابه وينتظم بها سائر احوال الركب .(٧)ومـن البركة الى السويس فى خمس مراحل(٨)وهنا يمربعجرود وتقع علىبعدعشرينكم منالسويس(٩)

---

(١) الجزيرى: المصدر السابق ،ص ٤٤٩-٤٥١ ، امين محمود عبد الله : المرجـــع السابق ، ص ٢٢ .
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٣١٠ .
(٣) اليعقوبى : (احمد بن ابى يعقوب بن واضح) البلدان ، ملحقكتاب الاعلاق النفيسة ،ليدن ١٨٩١ ، ص ٣٤٠ .
(٤) ابن تغرى بردى : نفس المصدر ،ج١٣ ،ص ٧٦ .
(٥) ابن حجـــــــــر : ابناء الغمر ، ج١ ، ص ١٧٧ .
(٦) المقـــــــريزى : السلوك ، ج٤ ، ص ٦٩٦ .
ابن اياس : بدائع الزهور ،ج٢ ،ص ١٠١ .
(٧) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٤٧٩ .
(٨) السيوطى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٣١٠ .
(٩) سيـد عبـد المجيد بكر : الملامـــح الجغرافية لدروب الحجيج ، جـــده ١٤٠١ - ١٩٨١ ، ص ١٠٦ .
احمد رمضان احمد : المرجع السابق ، ص ٢١٠ .

وبها يلتقى اهل السويس مع الحجاج للمتاجرة . " وفيها بئر قديمة بعيدة الرشا زعقة الماء ".(١)

وقد توالت يد التعمير والانشاء على هذه المحطة منذ القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) فأنشئت بها قلعة متينة البنيان مربعة الشكل بداخلها اعمدة اسطوانية من حجر الصوان والرخام .(٢)

وفى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون أنشأ بها الحاج آل ملك الجوكندار خانا للمسافرين وبئرا وساقية ماء .(٣)

وفى سنة ٩١٣هـ توجه الامير علاء الدوادار (٤) الثانى الى عجرود واصلح السواقى التى فى مناهل الحاج (٥) وأنشأ بها السلطان قانصوه الغورى ابراجا سنة ٩١٥هـ وجعل بها جماعة من المماليك يقيمون سنة ثم يعودون الى مصر ويأتى جماعة آخرون لحراسة التجارة والتجار (٦) .. وجدد الخان الذى بها .(٧)

ثم يتجه الطريق الى نخل فى خمس مراحل (٨)،وهى اهم محطات الطريق التجارية ؛ وقد عمل فيها الامير آل ملك الجوكندار فى دولة السلطان، الناصر محمد بن قلاوون بركا ومصانع وأنشأ بها السلطان الغورى قلعة .... وأصلح عدة مناهل بالطريق .(٩)

ومن نخل الى ايلة خمس مراحل وبها العقبة العظمى (١٠) وهى منطقة وعرة

---

(١) اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٤٠ .
(٢) احمد رمضان احمد : شبه جزيرة سيناء ، ص ٢١١ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١١ ، ص ٧٤ .
(٤) الدوادرية : وظيفة تعادل وظيفة السكرتارية الخاصة . المقريزى : السلوك ، ج١ ، ص ٤٢٧ ، هـ .
(٥) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ١٢٩ .
(٦) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ، ص ١٥٢ .
(٧) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٨) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٣١٠ .
(٩) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ١٥٢ .
(١٠) ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد ، تاريخ ابن خلدون/العبر وديوان المبتدأ والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر ،القاهرة ١٩٧١/١٣٩١،ج١ ،ص ٥٢ .

وشاقة وقد عمل السلطان الناصر محمد سنة ٧١٩هـ على تمهيد الصخور وتوسعة الطريق ... وانفق على ذلك مبلغا كبيرا من المال.[١]

واهتم السلطان قانصوه الغوري باصلاح طريق العقبة فأرسل المعماري خاير بك لازالة الاماكن الصعبة التي بها العراقيب وبناء خان لحفظ الودائع وبروج وفساقي وعمارة رصيف على البحر عند العقبة.[٢]

وتشير الدراسات الحديثة الى الحفائر الاثرية في المنطقة التي تؤكد عناية السلاطين بتمهيد الطريق واصلاح منشآته فقد وجد في المنطقة حجر تاريخي مكتوب فيه امر باصلاح هذه الاماكن الملك الناصر حسن ابن الناصر محمد ابن قلاوون كما ان هناك اشارات الى الاصلاحات التي تمت في عهد السلطان قانصوه الغوري فقد عثر على حجر رخامي مكتوب فيه :" أُمر بقطع هذا الطريق المبارك السلطان الملك الاشرف قانصوه الغوري " ، ووجدت بعض قطع من الرخام مكتوب فيها ـ السلطان مراد خان " العثماني " [٣].

وايلة من المراكز التجارية الهامة في الطريق التجاري الذي يصل بين شمال شبه الجزيرة وجنوبها .....وساعد موقعها على ازدياد أهميتها باعتبارها محطة تجارية في ملتقى طريقي الشام ومصر [٤]، وكانت تقام فيها الاسواق العامرة [٥]،ويجتمع بها الحجاج من الشام ومصر والمغرب وبها التجارات الكبيرة وأهلها أخلاط من الناس.[٦]

ثم يمر الطريق بحقل في مرحلة واحدة [٧] وتبعد عن أيلة بستة عشر ميلا ... وكانت تعرف قديما بساحل تيماء[٨] وهي من المحطات الهامة في هذا

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص ٦٠ .
(٢) ابن اياس نفس المصدر والجزء ، ص ١٣٣ .
(٣) سيد عبد المجيد بكر : الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، ص ١١٥.
(٤) ابن رستة : (ابي علي احمد بن عمر ، الاعلاق النفيسة) ، ليدن ١٨٩١ ج٧ ، ص ٣٤١ ، احمد السباعي : تاريخ مكة ، ج١ ، ص ٣٠١ .
(٥) الجزيري : درر الفوائد ، ص ٤٩٣ .
(٦) اليعقوبي : البلدان ، ص ٣٤٠ - ٣٤١ .
(٧) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٣١٠ .
(٨) ياقوت : معجم البلدان ، مادة حقل ، ج٢ ، ص ٢٧٨ .

الطريق .

ومنها الى بر مدين فى اربع مراحل وبه مغارة شعيب عليه الصلاة والسلام [١] وتعرف الآن بالبدع .[٢]

ويصل الطريق الى عيون القصب فى مرحلتين [٣] وتعرف بعينونة وهى امتداد لوادى روا .. ودرب الحج يدور حول اقصى نقاط جبل الزهد قبل ان يصل الى عينونة [٤]. وكانت تخرج من بين الجبلين ماء يسيح فى الوادى وينبت فيه القصب الفارسى [٥] ولعل هذا سبب تسميتها بعيون القصب وقد جفت هذه العيون وعانى الحاج الكثير لعدم وجود الماء العذب فحفرت بها بئر بأمر القاضى زين الدين عبد الباسط [٦] وكثر النفع بها .[٧]

ويتجه الطريق بعدها الى المويلح فى ثلاث مراحل [٨] وتقع على الشاطىء الشرقى للبحر الاحمر على بعد ٢٣٠ كم جنوبى بلدة العقبة .. وقد قامت على اطلال بلدة مدين وبها قلعة حصينة ونخيل وآبار عذبة ومزارع ويباع فيها السمك والتمر والدقيق والبقسماط والفول وكل ما يلزم المسافر .[٩]

والمحطة التالية الازلم ويقطعها المسافر فى اربع مراحل وماؤها مر ،وبها خان وبئر أنشأها آل ملك الجوكندار [١٠] واقام بها السلطان قانصوه الغورى قلعة وجعل بها جماعة من المماليك لحراسة الطريق طول السنة ـ ثم يعودون لمصر ويستبدل بهم غيرهم [١١] وتعرف اليوم بمنزلة دمرا

---

(١) السيوطى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٢) سيد عبد المجيد بكر : نفس المرجع ، ص ١٢٥ .
(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ،ج٢ ، ص ٣١١ .
(٤) السيوطى : نفس المصدر والجزء ،ص ١٢٨ .
(٥) المقريزى : السلوك ج٤ ،ص ٨٦٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٤،ص ٣٥٥ .
(٦) هو عبد الباسط بن خليل بن ابراهيم الدمشقى الطاهرى تولى عددا من المناصب الجليلة وكان ناظر الجيش فى ايام السلطان الظاهر ططر وبعده كما كان متكلما على اوقاف كسوة الكعبة وعظم أمره فى دولة الملك الاشرف برسباى حتى صار مدير المملكة واطلق عليه عظيم الدولة وقد كان واسع الجاه والعطاء اصلح كثيرا من المنشآت فى طريق الحجاز واهتم بشكوى الحجاج ، ابن اياس : بدائع الزهور ،ج٢ ، من ٢٨٥ ـ ٢٨٦ .
(٧) المقريزى :نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن تغرى بردى:نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٧٦ .
(٨) السيوطى : نفس المصدر والجزء ، ص ٣١١ .
(٩) ابن تغرى بردى : نفس المصدر ،ج١٠ ، ص ٢٢٣ .
(١٠) السيوطى : حسن المحاضرة ،ج٢ ،ص ٣١١ .
(١١) ابن اياس : بدائع الزهور ،ج٤ ،ص ١٥٢ .

أو دمرها [١] وتقام بالازلم سوق كبيرة يباع فيها الزاد والعليق والسلع المتنوعة وتزدهر السوق خاصة فى اثناء عودة الحجاج والتجار .[٢]

ويمتد السير الى الوجه فى خمس مراحل وماوءه من اعذب المياه .[٣] الا انه قليل فسبب هذا للواردين عليها مشقة كبيرة وربما هلك بعضهم من العطش ولذلك بعث السلطان الاشرف برسباى الامير شاهين العثمانى وبعث معه المهندسين والبنائين لاصلاح المناهل على طول الطريق من القاهرة الى مكة ، فحفروا بئرين بزعم وقبقاب سنة ٨٣٤ هـ ، ومنذ هذا التاريخ بطل مرور الحاج على منزلة الوجه واكتفوا بورود الماء فى زعم [٤].

ومن الوجه الى اكرى فى مرحلتين وماوءها أصعب ماء فى الدرب ثم الى الحوراء على ساحل بحر القلزم فى اربع مراحل وماوءها ملح[٥] وللحوراء حصن وسوق عامرة وهى من مدن خيبر .[٦]

ومنها الى نبط فى مرحلتين وبها ماء عذب [٧].

ويتجه الطريق الى ينبع فى خمس مراحل تستغرق ثلاثة أيام[٨] وهى من أهم المحطات فى هذا الطريق وكان سلاطين المماليك يرسلون اليها السفن محملة بالغلال والصدقات وكل ما يحتاجه الحجاج [٩]ونالت ينبع شهرة عظيمة فى أيام المماليك وبلغت اسواقها التجارية أوج ازدهارها [١٠] ويصفها المقدسى بقوله " ينبع كبيرة جليلة حصينة الجدار غزيرة الماء أعمر من يثرب واكثر نخيلا حسنة الحصن عامرة السوق لها بابان الجامع عند احدهما الغالب عليها بنو الحسن [١١].

---

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ،جا ،ص ٧٤ ،هـ.
(٢) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٥٢٣ .
(٣) السيوطى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٤) المقريزى : السلوك ،ج٤ ،ص ٨٦٠ ،ابن تغرى بردى: نفس المصدر ج١٤ ،ص٣٥٥ ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٢٧٥ .
(٥) السيوطى:حسن المحاضرة ، ج٢ ،ص ٣١١ .
(٦) المقدسى المعروف بالبشارى: احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم بغداد بدون تاريخ،ص ٨٣ .
(٧) السيوطى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٨) السيوطى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٩) المقريزى: السلوك،جا ،ص ٩١٧، الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٨٩ — ٢٤٤ .
(١٠) ابن فهد: اتحاف الورى،ص ٣١٩
(١١) المقدسى : نفس المصدر والصفحة.

ويصفها ابن شاهين وهى فى قمة ازدهارها فيقول " مدينة الينبوع كثيرة العمائر والاسواق والنخل وهى بندر ترد اليه المراكب بالغلال من سواحل الطور يؤخذ عليها المكوس لصاحب الينبوع فى كل سنة قدر ثلاثين ألف دينار .[١]

ومن ينبع الى الدهناء فى مرحلة ، ثم الى بدر فى ثلاث مراحل وفيها عيون وجداول وحدائق [٢] ويصفها المقدسى بقوله : " بدر مدينة صغيرة من نحو الساحل جيدة التمور وثم عين النبى صلى الله عليه وسلم وموضع الوقعة ومساجد بناها ملوك مصر "[٣].

ومنها الى رابغ فى خمس مراحل ، وهى بازاء الجحفة وهى الميقات[٤] وهنا يحرم الحجاج والتجار الذين يقصدون مكة حتى وان لم ينو التاجر الحج وقصد التجارة وحدها فى مكة فى أيام الموسم وغيره لزمه الاحرام لقول ابن عباس رضى الله عنه " لا يدخل مكة تاجر ولا طالب حاجة الا وهو محرم "[٥]

ويواصل السير الى خليص فى ثلاث مراحل [٦] وقد اجرى الماء اليها السلطان الناصر محمد سنة ٧١٩هـ وكان قد انقطع مدة سنين [٧]، ومنها الى بطن مر " وادى فاطمة حاليا "[٨] ،مارا بعسفان فى ثلاث مراحل .[٩] ،وبالوادى زروع ونخيل وبركة يجرى فيها الماء .

ويصفه صاحب كتاب الخراج بقوله : " وبطن مر قرية عظيمة كثيرة الاهل والمنازل ، وعلى أربعة اميال منها قبر ميمونة زوجة النبى صلى الله عليه

---

(١) ابن شاهين :(غرس الدين خليل الظاهرى)،زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ،باريس ١٨٩١م ،جا ،ص ١٩ .
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص ٣١١ .
(٣) المقدسى : احسن التقاسيم ،صص ٨٢ – ٨٣ .
(٤) السيوطى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٥) الطبرى : القرى لقاصد ام القرى ، ص ٢٥٩.
(٦) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص ٣١١.
(٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ،جـ٩ ،ص ٦٠ .
(٨) حمد الجاسر : مر الظهران " وادى فاطمة " مجلة العرب ، جا ، السنة الثامنة رجب ١٣٩٣ / آب أغسطس ٩٧٣٨ ، ص ٤٤
(٩) السيوطى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

وسلم .. وعلى ستة اميال من ذلك مسجد عائشة [١]" ومن بطن مر الى مكة مرحلة واحدة [٢]

وبالاضافة الى هذا الطريق البرى كانت مصر ترتبط بمكة بطريق بحرى بواسطة فرضتها جدة ويعد الطريق الذى يربط مكة وبلاد الشام من الطرق الرئيسية التى كان لها اثر كبير فى التجارة العالمية فمنه كانت تصل الى مكة سلع الشام وأوربا وتواصل سيرها الى بلاد اليمن وتعود القوافل التجارية محملة بمنتجات اليمن والهند والحبشة مارة بمكة راجعة الى بلاد الشام .

ويبدأ الطريق من العسال على نحو عشرين كيلو مترا جنوبى دمشق [٣] ويتجه الى الكسوة أولى محطات الدرب ... ومنها الى قرية صنمين [٤] ثم الى المزيريب وتقام بها الاسواق والمتاجر .. تليها ذرعة " درعا " وهى بلدة صغيرة بها المياه العذبة والمحطة التالية بصرى وهى من المدن التجارية القديمة ومنها الى الزرقاء ثم الى بركة زيرا ثم الى اللجون وبها الماء الغزير ومنها الى حصن الكرك وهو من أمنع الحصون وأشهرها وبه يتحصن الملوك واليه يلجأون فى النوائب ويتجه الطريق بعده الى الحسا [٥] ومنها الى معان وكانت مخزنا كبيرا للموءن والعلوفة وفيها تقام سوق كبيرة للمقايضة ...ومنها يمتد السير عبر يومين فى صحراء قاحلة الى ذات حج " ذات الحاج " ثم الى وادى بلدح فتبوك وهى من اشهر المحطات التجارية على هذا الطريق وكانت تنزل بها قوافل التجارة بين اليمن والشام التى تمر بمكة قبل الاسلام وبعده ومنها الى وادى الاخيضر " الاخضر " ثم البركة المعظم ثم الى الحجر " حجر ثمود ""مدائن صالح " ويتجه الدرب بعدها الى

---

(١) ابو الفرج قدامة بن جعفر : الخراج وصنعة الكتابة ملحق كتاب المسالك والممالك ،بغداد ،بدون تاريخ ،ص ١٨٧ .
(٢) السيوطى / نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٣) سيد عبد المجيد بكر : المرجع السابق ، ص ١٨٢.
(٤) صنمان قرية من اعمال دمشق فى اوائل حوران بينها وبين دمشق مرحلتان ياقوت : معجم البلدان ، مادة الصنمان ، ج٣ ، ص ٤٣١ .
(٥) كورة ومنزل بالحجاز : المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ٢٩ ، ابن طولون مفاكهة الخلان ،ق ١ ، ص ٢٩١ .

العلا ... وتقام فيه سوق تجارية نشطة وهى مركز للودائع يصفها ابن بطوطة بقوله : " والعلاقرية كبيرة حسنة لها بساتين النخل والمياه المعينة يقيم بها الحجاج أربعا يتزودون ويغسلون ثيابهم ويدعون بها ما يكون عندهم من فضل زاد ويستصحبون قدر الكفاية واهل هذه القرية اصحاب امانة واليها ينتهى تجار نصارى الشام . لا يتعدونها ويبايعون الحجاج بها الزاد وسواه "(١) ومن العلا عند الطريق الى وادى العطاس ومناخه حار ثم الى هدية وماوءها مر ثم الى المدينة المنورة (٢).

ويذكر الجغرافيون منازل الطريق بين المدينة ومكة ويحددون المسافات بينها وهى تبدأ من موضع يقال له الشجرة (٣) على بعد ستة أميال من المدينة ثم الى ملل اثنتا عشر ميلا ، ثم الى السيالة (٤) تسعة عشر ميلا ومنها الى الرويثة أربعة وثلاثون ميلا ثم الى السقيا وبها مزارع ومياه جارية ستة وثلاثون ميلا .... ومن السقيا الى الابواء تسعة وعشرون ميلا ثم الى الجحفة سبعة وعشرون ميلا ومنها الى قديد ستة وعشرون ميلا (٥) اوسبعة وعشرون ميلا (٦) ومنها الى عسفان اربعة وعشرون ميلا ثم الى بطن مر ستة عشر ميلا فمكة ستة عشر ميلا .. وجميع مراحل الطريق تتوفر فيها البرك والمياه العذبة . (٧)

اما طريق الحج العراقى فهو درب زبيدة .. نسبة الى أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور "زوج الخليفة هارون الرشيد (٨).

وكانت الكوفة بداية الطريق ومجتمع الحجاج والتجار من العراق وفارس وخراسان يخرجون منها الى القادسية (٩) على بعد ٢٧ كم (١٠) وقد ينزلون

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٠٧- ١٠٨ .
(٢) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٠٥-١٠٨ ، ابن طولون: مفاكهة الخلان ص ١٠، ١٤٦، ٢١٨، ٢٩١ .
(٣) ميقات أهل المدينة : ابن خرداذبه : (ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله المسالك و الممالك بغداد بدون تاريخ ص ١٣٠ ، ابو الفرج قدامة بن جعفر : الخراج ، ص ١٨٧ .
(٤) "السيالة" وتباع بها الشواهين والصقور، ابو الفرج بن جعفر نفس المصدر والصفحة
(٥) ابو الفرج قدامة بن جعفر : الخراج ، ص ١٨٧ .
(٦) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٣٠-١٣١ .
(٧) ابن خرداذبة : نفس المصدر والصفحة ، ابو الفرج: نفس المصدر والصفحة ، ابن رستة ، الاعلاق ، ص ١٧٧-١٧٨ ، اليعقوبى : البلدان : ص ٣١٣ .
(٨) المسعودى: (ابى الحسن على بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجواهر ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد بيروت ١٤٠٣/١٩٨٣ ، ج٤، ص ٣١٦-٣١٧ .
(٩) الجزيرى: درر الفوائد ، ص ٤٦٥ .
(١٠) لويس موزل : طريق الحج ==

بالنجف وهى حد بين الصحراء ووادى الفرات [١] ومن القادسية الى العذيب [٢] ٨ كم والعذيب تصغير عذب وهو الماء الطيب [٣] وتعرف الآن بعين السيد [٤] .

ويتجه الدرب الى منارة القرون [٥] بركة ام قرون " فالمعيشة والمسافة بينها وبين العذيب ٣٤ كم ومنها الى القرعاء ٤٢ كم [٦] وفيها آبار للمياه [٧] ثم يسير الركب الى واقصة [٨] ٤٦ كم [٩] وبها القصور والآبار ومصانع المياه [١٠] وتعد سوقها من الاسواق البارزة على الطريق ففيها يلتقى تجارها مع الحجاج والتجار المارين بهم فيكون بيع وشراء وتبادل متنوع للسلع والمنتجات [١١]

ثم يتجه الطريق الى العقبة [١٢] بعد ٥٠ كم [١٣] وبها آبار وبرك [١٤] ومنها الى القاع بعد ٤٧ كم [١٥] وبه بئر عميقة وأربعة مصانع للمياه وهو

(=) العراقى القديم ،مجلة العرب ،ج٣ ، السنة الرابعة ،رمضان ١٣٩٢/ تشرين الاول اكتوبر ١٩٧٢ ،ص ١٩٦ ،سيد عبد المجيد بكر : الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ،ص ٣١ .

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٨٧ ، ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٧٢ .

(٢) لويس موزل : نفس المرجع ، ص ١٩٦ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ،مادة الغريب ،ج٤ ،ص ٩٢ .

(٤) حمد الجاسر : طريق الحيرة الى مكة ، مجلة العرب ،ج٥ ،السنة السادسة ذو القعدة ،ذو الحجة ١٣٩٩هـ/ تشرين اكتوبر نوفمبر ١٩٧٩م ،ص ٣٦٤ ، لويس موزل : نفس المرجع ، ص ١٩٦ .

(٥) ابن بطوطة : الرحلة ،ص ١٧١ .

(٦) لويس موزل: طريق الحج العراقى القديم ،ص ١٩٦ ،سيدعبد المجيد بكر المرجع السابق ،ص ٣١ .

(٧) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ،ص ١٢٦ ،الجزيرى : المصدر السابق ص ٤٤٦ .

(٨) لا تزال معروفة حتى الآن وهى داخل الحدود العراقية تقع بقرب خط الطول ٤٣/٣٥ ،وخط العرض ٣٤/ ٣٠ ويطلق اسم واقصة على مواقع اخرى . حمد الجاسر : طريق الحيرة الى مكة ، صص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٩) لويس موزل : نفس المرجع والصفحة ، سيد عبد المجيد بكر : نفس المرجع والصفحة .

(١٠) ابن رستة : الاعلاق النفيسة ، ج٧ ، ص ١٧٥ .

(١١) ابن جبير : الرحلة ،ص ٧٨٦ ،ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٧١ .

(١٢) " لاتزال معروفة حيث توجد بركة باسمها بقرب خط الطول ٤٣/٣٨ ،وخط العرض ٨/ ٣٠ وهناك آكام تدعى خشم العقبة وهى على مقربة من الحدود العراقية واسم العقبة يطلق على مواقع اخرى"، حمد الجاسر : نفس المرجع ، ص ٣٦٥ .

(١٣) لويس موزل : نفس المرجع ،ص ١٩٧ ،سيد عبد المجيد بكر : نفس المرجع والصفحة .

(١٤) ابن خرداذبة : نفس المصدر والصفحة ،ابو الفرج قدامة بن جعفر :الخراج ص ١٨٦ .

(١٥) لويس موزل : نفس المرجع والصفحة ،حمد الجاسر : نفس المرجع ،ص ٣٦٥.

اكثر محطات الدرب تحصينا [١] ومن القاع الى الهيثم [٢] وبه قصر وبركة تنسب الى أم جعفر .[٣]

وتليه زبالة بعد ٣٦ كم [٤] وماؤها كثير وهى قرية عظيمة معمورة تقوى الحياة الاقتصادية فى اسواقها وينشط فيها التبادل التجارى [٥]... ومنها يتجه الدرب الى الشقوق " الشيحيات " بعد ٣٩ كم [٦] وبها مصانع للمياه العذبة [٧] ويشير ابن بطوطة الذى رحل على هذا الطريق سنة ٧٢٦ - ٧٢٧ هـ بعد آداء فريضة الحج الى انه نزل بمرحلة اخرى قبل الشقوق تدعى " التنانير " وفيها مصنع ممتلىء بالماء .[٨]

ومن الشقوق " الشيحيات " الى البطان او قبر العبادى " العشار بعد ٥٠ كم [٩] " وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب ويقصدون الركب بالسمن واللبن وسوى ذلك وبه مصنع كبير يعم جميع الركب "[١٠] .

ثم يمتد السير الى الثعلبية بعد ٤٥ كم [١١] وبها سوق رائجة لبيع الجمال والاغنام ومنتجاتها .[١٢]

ومن الثعلبية الى الخزيمية "زرود " بعد ٤٦ كم [١٣] [١٤] ،فالاجفر [١٥]

---

(١) سيد عبد المجيد بكر : الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ،ص ٤٠ .
(٢) يذكر حمد الجاسر فى طريق الحيرة ص ٣٦٥ ،ان القاع والهيثم موضعان لا موضع واحد كما ظن موزل فالقاع تقع شمال رفحا على الحدود العراقية الآن الدرجة ٤٣/٤١،٥٩/٥٠ تقريبا والهيثم بقرب القاع ٢٩/٥٠ و٤٣/٤١ تقريبا
(٣) ياقوت : معجم البلدان ،مادة هيثم ،جـ٥ ، صص ٤٢١ - ٤٢٢ .
(٤) سيد عبد المجيد : نفس المرجع ،ص ٣١ .
(٥) ابن رستة : الاعلاق،جـ٧ ،ص ١٧٥ ، ابن جبير: الرحلة ،ص١٨٥، ابن بطوطة :الرحلة ص ١٧١.
(٦) موزل:المرجع السابق،ص ١٩٧ ،حمد الجاسر : نفس المرجع ،ص٣٦٥،سيد عبد المجيد بكر نفس المرجع ،ص ٣١ .
(٧) ابن خرداذبة : المصدر السابق،ص ١٢٦، ابو الفرج بن جعفر: المصدر السابق ،ص١٨٦.
(٨) ابن بطوطة : نفس المصدر ،ص ١٧١ .
(٩) موزل: نفس المرجع ،ص ١٩٨ ،حمد الجاسر: نفس المرجع والصفحة ، سيد عبد المجيد بكر: نفس المرجع والصفحة .
(١٠) ابن بطوطة: نفس المصدر ،صص ١٧٠ - ١٧١ .
(١١) سيد عبد المجيد بكر : الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ،ص ٣١ .
(١٢) ابن بطوطة : المصدر السابق ،ص ١٧٠ .
(١٣) ابو الفرج: المصدر السابق ،ص ١٨٦، ابن رستة :المصدر السابق ،ص ١٧٦ . "يذكر حمد الجاسر فى طريق الحيرة ص ٣٦٦ أن زرود منزل قبل الخزيمية بميل ونصف بينما يذكر سيد عبد المجيد بكر فى كتابه الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ص ٤٦ ان زرود تقع على بعد ميل واحد الى الشمال من الخزيمية
(١٤) سيد عبد المجيد بكر: نفس المرجع والصفحة . (١٥) "الاجعفر" مايزال معروفا ==

بعد ٤١ كم[١]، وفيه برك وآبار[٢] مازالت باقية حتى يومنا هذا[٣] وبـه الطين الابيض الذى يحمل الى بغداد للغسول[٤] ومنه الى فيد بعد ٦١كم[٥] وهونصف الطريق الى مكة[٦] والتجارة هى محور النشاط الاقتصادى فى فيـد وأهم صادراته الجمال والاغنام وبه تحفظ الودائع للحجاج والتجار[٧] .

وبعدها يتوجه الركب الى توز" التوزى " على بعد ٦٤كم [٨] وبها بـرك وآبار [٩]فسميراء بعد ٣٠كم [١٠] فيتبادلون السلع والبضائع فى سوقهـا فيأخذ اهلها الثياب الخام من التجار ويعطونهم الغنم والسمن واللبن والعسل[١١]

(=) وقد اصبح بلدة كثيرة السكان تابعة من الناحية الادارية لامارة حائل حمد الجاسر : نفس المرجع والصفحة .

(١) سيد عبد المجيد بكر : نفس المرجع والصفحة .

(٢) ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ١٢٦ .

(٣) موزل : المرجع السابق ،١٩٨ .

(٤) ابن رستة : نفس المصدر والصفحة .

(٥) سيد عبد المجيد بكر : نفس المرجع والصفحة .
" فيد " بلدة لا تزال معروفة تقع فى سفح جبل سلمى احد جبلى طى ،حمـد الجاسر : نفس المرجع والصفحة .

(٦) ابن خرداذبة : نفس المصدر والصفحة ،ابن رستة : نفس المصدر والصفحة الاصفهانى : (الحسن بن عبد الله ،بلاد العرب ،تحقيق حمد الجاسـر وصالح العلى ، الرياض ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ،ص ٣٤١ ،هـ.

(٧) ابن جبير : المصدر السابق ،ص ١٨٣. ابن بطوطة : نفس المصدر ،ص ١٧٠ .

(٨) موزل:المرجع السابق ،ص ١٩٩ ،سيدعبد المجيد بكر : الملامح الجغرافيـة لدروب الحجيج ،ص ٣١ .

(٩) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ،ص ١٢٧، ابو الفرج : الخراج ،ص ١٨٦ ابن رستة : المصدر السابق ،ص ١٧٦ .

(١٠) سيد عبد المجيد بكر : نفس المرجع والصفحة .

(١١) ابن جبير : المصدر السابق ،ص ١٨٢ ، ابن بطوطة : الرحلة ،ص ١٦٩ .

ثم يتصل السير الى الحاجر بعد ٥٦ كم ومنها الى النقرة مرورا بالقروري على بعد ٥٦ كم [١] فى وسط ارض نجد وهو موضع فسيح طيب النسيم صحيح الهواء نقى التربة ، معتدل فى كل فصل .[٢]

ومن النقرة الى مغيثة الماوان " العميرة بعد ٥٦ كم ومنها الىالربذة بعد ٥٩ كم فالسليلة بعد ٤٧ كم ثم يسير الدرب الى العمق بعد ٤٠ كم ثم معدن بنى سليم [٣] بعد ٤٤ كم الى الافيعية بعد ٥٣ كم ،فالمسلح بعد ٥٢ كم فغمرة بعد ٣٤ كم فذات عرق بعد ٤٠ كم ،" وهى محل احرام اهل العراق ومنها الى بستان بن معمر بعد ٤٢ كم فمكة بعد٥٦ كم [٤] ويتوفر بمعظم هذا الدربالابار والبرك .[٥]

وهناك طريق آخر يذكره الجغرافيون يربط العراق بمكة يبدأ من البصرة الى المنجشانية ، ثم الى الحفير ، ثم الى الرحيل ، ثم الى الشجى ،فالخرجاء فالحفر ، فماوية ، ومنها الى ذات العشر ، ثم الى الينسوعة ، ثم الى النباج فالعوسجة ، فالقريتين ،فرامة ،ثم الى طخفة ،ثم الى ضريــــة ،فجديلة ،ثــم فلجة ،فالدفينة ،ثم الى قبا ،ثم الى مران ،ثم الى جرة ،ثم الى اوطاس ثــم الى ذات عرق ،ثم بستان بنى عامر " ابن معمر " [٦] .

ومن أهم الطرق التجارية الرئيسية فى شبه الجزيرة العربية ....

طريقا اليمن .. واولهما طريق يصعد فى الجبال والآخر يسلك تهامة .

---

(١) سيد عبد المجيد بكر : نفس المرجع والصفحة .
(٢) ابن بطوطة : نفس المصدر والصفحة .
(٣) " معدن بنى سليم " مهد الذهب حاليا ، حمد الجاسر : المرجع السابق ص ٣٦٧ .
(٤) سيد عبد المجيد : نفس المرجع والصفحة .
(٥) ابن خرداذبة : نفس المصدر ، ص ١٢٧ ، ابو الفرج : نفس المصدر ، ص ١٨٦ .
(٦) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ص ١٤٦ - ١٤٧ ، ابن رستة : الاعلاق النفيسة ، ج٧ ، ص ص ١٨٠ - ١٨١ .

اما طريق الجبل فيبدأ من الجند ، فذى اشرق وتقع فى الشرق الشمالى من تعز ، فذمار فصنعاء وبينهما خمسة أيام ، فصعدة بعد عشرة أيام ، ومن صعدة الى الطائف عشرة ايام ثم الى عقبة الطائف " كرى الهدى " وهى مسيرة يوم للطالع الى مكة ونصف يوم للهابط الى مكة وفى كل مرحلة جامع ومصانع للمياه (١)

اما طريق تهامة فهى تفترق أيضا طريقين ... واحدة على الساحل والاخرى على الجادة السلطانية .

الطريق الساحلية تبدأ من :
المخنق ولاتزال تحمل هذا الاسم ثم المعارة ثم عبرة ثم السقيا ثم باب المندب وفيه يلتقط العنبر الطيب الفاخر ثم المخاء ثم السحارى ثم الخوهة وتعرف الان بالخوخة ثم الاهواب ولا تزال تحمل هذا الاسم ثم غلافقة ثم نبعة ثم الحردة ثم الزرعة ثم الشرجة ثم المفجر ثم القنديرة ثم عشر ثم بيض وهو واد معروف مشهور من المخلاف السليمانى ثم الدويمة ثم حمضة ولا تزال تعرف بهذا الاسم ثم ذهبان ثم حلى ثم السرين ثم جدة فمكة (٢) .

طريق الجادة تبدأ من " ذات الخيف وموزع والجدوت وحيس وزبيد وفشال والفجاع والقحمة والكدرا والجتة وعرق النشم والمهجم ومرر والواديان وجيزان والساعد وتعشر وهو واد محتفظ بأسمه حتى الآن والمبنى، ورياح، والهجر وهو اليوم آهل بالسكان من المخلاف السليمانى . ثم تلتقى طريق الجادة بالساحلية ويفترقان من السرين وبينهما وبين مكة خمسة أيام فأول ما يلقى الحاج من عمارته بئر الرياضة ثم سبخة الغراب ثم الخبت ثم وادى يلملم ميقات اليمن ثم ادام فبئر البيضاء فالقرين ، فمكة (٣).

---

(١) عمارة اليمنى : ابو محمد نجم الدين بن ابى الحسن على ،تاريخ اليمن المسمى المفيد فى اخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها واعيانها وادبائها حققه وعلق عليه محمد بن على الاكوع ،ط٢ ،القاهرة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م،ص ٧٢-٧٥.
(٢) عمارة اليمنى : : ، ص ٧٦ - ٧٨ .
(٣) عمارة اليمنى : نفس المصدر ، ص ٧٨ - ٨٠ .

ويذكر الجزيرى ان طريق الجادة تبدأ من تعز وهى مجتمع الركب اليمنى ثم الى البئر فى مرحلتين ثم الى وادى الحنـاء فى ثلاث مراحل فوادى الموز فى مرحلة واحدة ثم الى زبيد فى مرحلتين وبها يجتمع شتات الركب ويتكامل ثم الى المعازبة فى اربع مراحل ثم الى الفحمة فى اربع مراحل ،ثم الى المخالب فى ستة مراحل ثم حلى بنى يعقوب فى ست مراحل ثم الى ترعة بنى حازم فى أربع مراحل ثم الى الحسنة فى اربع مراحل فيلملم فىمرحلتين فبئر على فى ثلاث مراحل فمكة .(١)

اما الطريق من عمان الى مكة ....فمنازله علىطريق الساحل تبدأ بغرق ثم عوكلان ،ساحل مناه ،بلاد الشحر ،فخاليف كنده ،مخاليف عبد الله بن مذجج فخلاف لحج ، ابين عدن ،مغاص اللوءلوء ،فخلاف بنى مجيد ، المنجلة ،مخلاف الركب ، المندب ،فخلاف رمع ،زبيد ،فخلاف عك ،الحردة ،فخلاف الحكم ،عثر . فمن اراد طريق الجادة سلك المخاليف ومن اراد الساحل اخذ من عثر الى مرسى خنكان ثم الى مرسى حلى ثم الى السرين ثم أغيار ثم المرجاب ثم الشعيبة ثم منزل ثم جدة ......فمكة .(٢)

والطريق من خولان سحيم الى مكة يبدأ من مخلاف خولان الى ذىالسحيم ثم العرش ثم الى بيشة ثم الى خنكان ثم الى حلى ثم الى ابن جاوان ثم الى قنونا ثم الى الحسبة ثم الى دومة ثم الى عليب ثم الى يبسة ثم الى منزل ثم الى الليث ثم الى يلملم ثم الى ملكان ثم الى مكة .(٣)

واما الطريق من اليمامة الى مكة .....فيبدأ من اليمامة الى العرض ثم الى الحديقة ثم الى السيح ثم الى الثنية ثم الى سقيراء ثم الى

---

(١) الجزيرى : درر الفوائد ،ص ٤٧٠ .
(٢) ابو الفرج قدامة بن جعفر : الخراج ، ص ١٩١ -١٩٣ ، ابن خرداذبة : المصدر السابق ، ص ١٤٧ -١٤٨ .
(٣) ابن خرداذبة : المصدرالسابق ، ص ١٤٩ .

السد ثم الى مرارة ثم الى سويقة ثم القريتين ثم يأخذطريق البصرة وهناك طريق آخر من اليمامة الى مانص باحة الزلف ،منزل مصاه ، اهل الجون رامة من طريق البصرة . (١)

ومما لا شك فيه ان هذه الطرق فى مجموعها قد اسهمت فى تنشيط الحركة التجارية فى مكة المكرمة ... وكان لها اعظم الاثر فى جعلها مركزا تجاريا عالميا ....وقيامها بدور الوسيط فى التجارة العالمية ... علاوة على كونها محطة للقوافل التجارية التى تتزود منها بما تحتاجه لمتابعة رحلتها .

"جـــــــدة ميناء مكة المكـــــرمة" :-

سارت مكة فى دروب التجارة بين البر والبحر فقد كان يخترقها شريـــان رئيسى من شرايين التجارة العالمية " الطريق البرى " ...وفى موازاتةشريـــان رئيسى آخر له خطره فى عالم التجارة وهو طريق البحر الاحمر .(٢) فقد كانت السفن من شتى البلاد ترسو بثغرها جـــــدة .

وقد ظهرت جدة ميناء لمكة المكرمة فى عهد الخليفة عثمان بن عفـــان رضى اللهعنه فقد أبطل استعمال ميناء الشعيبة واعتمد جدة بدلا منها (٣) . لقربها فهى تقع على بعد نحو أربعين ميلا من مكة (٤) وقداسهمت جدة منذ ذلـــك الحين فى تنشيط الحركة التجارية فى مكة المكرمة وازدهارها .

ويقول الحضراوى " كان بندر جدة من المآثر المشهورة والمعالم المحمودة لاحتوائها على المعاهد العظيمة والمشاهد الجسيمة لكونها للبلدالاميـــن

---

(١) ابو الفرج قدامة بن جعفر : المصدر السابق ،ص ١٩١ .
(٢) احمد ابراهيم الشريف : دور الحجاز ،ص ٣ ، السيد عبد العزيز سالم ،تاريخ العرب ،ص ٢٠٨ .
(٣) الفاسى : (ابو الطيب تقى الدين محمد بن احمد ،شفاء الغرام باخبار البلد الحرام تحقيق لجنة من كبار العلماء والادباء، ١٩٥٦م ،تحصيـــل المرام ،ق ٢٧أ ، الحضراوى : (احمد بن محمد بن احمد الحضراوى الشافعى الجواهر المعدة فى فضايل جدة وتاريخها ـ مخطوط بمكتبة الحرم المكى رقم ٢٧ دهلوى ،ق ٧ .
(٤) التجيبى السبتى: (القاسم بن يوسف، مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق عبدالحفيظ منصور تونس ١٣٩٥ ص ص ١ – ٢ .

كالرأس من الجسد فهي دهليزه وبابه المغلق ولا يكون الدخول من الدار الا من الباب .(١)

وتشير المصادر الجغرافية والتاريخية الى المكانة التجارية لجدة فيصفها الاصطخري بقوله " وجدة فرضة اهل مكة على مرحلتين منها على شط البحر وهي عامرة كثيرة التجارات والاموال ،ليس بالحجاز بعدمكة اكثر مالا وتجارة منها وقوام تجارتها بالفرس " .(٢)

ويصفها المقدسي بقوله " جدة مدينة على البحر منه اشتق اسمها محصنة عامرة اهلها اهل تجارات ويسار خزانة مكة ومطرح اليمن ومصر وبها جامع سرى غير انهم فى تعب من الماء مع أن فيهال بركا كثيرة ويحمل اليهم الماء من البعد قد غلب عليها الفرس لهم بها قصور عجيبة وأزقتها مستقيمة ووصفها حسن شديدة الحر جدا " .(٣)

ووصفها الحضراوى بانها " مصر الابرار ومقر التجار ضاعف الله فيها البركات وأظهر الخيرات " .(٤)

وكانت جدة محاطة بسور وقد شاهد ابن جبير سورها عند وصوله اليها (٥) ولعل هذا السور هو الذى بناه تجار الفرس عندما سكنوا جدة قديما وذلك لحماية تجارتهم .(٦)

ولا شك أن اتخاذ جدة مرفأ لمكة المكرمة كان اختيارا موفقا فقد قام

---

(١) الحضراوى : نفس المصدر ،ق ١ -٢ .
(٢) الاصطخرى : (ابن اسحاق ابراهيم بن محمد ، المسالك والممالك ،تحقيق محمد جابر عبد العال الحينى القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م ،ص ٢٣ .
(٣) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ٧٩ .
(٤) الحضراوى : المصدر السابق ، ق ٢٢ .
(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص٥٣ .
(٦) الحضراوى : نفس المصدر ، ق ٧ .

ميناء جدة بدوره كاملا فى المجالات الدينية لاستقبال حجاج البحر والتجارية فكانت البضائع والسلع تصل اليه من شتى المناطق فاسهم بدور كبير فىترسيخ القاعدة التجارية لمكة المكرمة ذلك ان قرب جدة منالمراكز التجارية الهامة فى جنوب الجزيرة العربيةوخاصة عدن كونها على الطريق الىالهند بالاضافة الى كون مينائها اوسع من غيره من الموانىء الحجازية (١)كل هذا ساعد على قيام جدة بدورها باعتبارها ميناء حيويا لمكة المكرمة .

وقد استوعبت اسواق جدة التجارة منمصر وسواكن وزنجبار والمومال والهند وجاوة والروملى والاناضول والشام والمغرب والعراق والبحرينومسقط واليمن واوربا وآسيا وغيرها .(٢)

والواقع ان موسم الحج يمثل حركة تجارية عظيمة فى جدة وفيه تكثر المتاجر المختلفة وتعقد الصفقات التجارية الكبيرة (٣) ومنها يستعد التجار لدخول مكة ويستأجرون وسائل النقل لحملهم اليها (٤) ومتابعة تجارتهم فيها والسير بعد انتهاء الموسم الى بلاد الشام (٥) وقد اخذت اهمية جدة فىالازدياد نتيجة لعودة حركة الملاحة البحرية فى البحر الاحمر وازدهارها علىحساب طريقالخليج فمن المعروف ان التنافس كان على اشده منذ القدم بين طريق البحر الاحمر وطريق الخليج فتزداد أهمية احدهما على حساب الاخر وفقا للظروف القائمة والقوى المتحكمة فى كل منهما فنتيجة لضعف الدولة العباسية استطاع الفاطميون تحويل النشاط التجارى البحرى الى البحر الاحمر واصبح الشريان الرئيسى الذى يربط الشرق من الناحية التجارية بالغرب والمتحكم فى التجارة العالمية وقتذاك واهتم المسئولون بتأمين الملاحة

---

(١) على بن حسين السليمان : النشاط التجارى ،ص ١٩ ،العلاقات الحجازية المصرية ،ص١٩٥.
(٢) ابراهيم رفعت باشا: مرآة الحرمين اوالرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية ،جـ١ ،ص ٢٤ .
(٣) صبحى لبيب : التجارة الكارمية ،ص ١٩ .
(٤) محمد لبيب البتنونى : الرحلة الحجازية ،ص ١٠ .
(٥) حسنين محمد ربيع : البحر الاحمر ، ص ١١٠ .

فيه ، حماية للتجارة وحفاظا على سلامة الحجاج الذين يصلون الى ساحل الحجاز والذين يغادرونه واستمر ذلك فى عصر الدولة الايوبية . [١]

ومما لاشك فيه أن الازدياد فى الاهتمام بطريق البحر الاحمر كان نتيجة طبيعية لما قام به الصليبيون من العمل على تحقيق السيطرة على هذا الطريق وهذا يهدد المقدسات الاسلامية تهديدا مباشرا ففى سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٣م كانت محاولة " رينودى شاتيون " المعروف فى المصادر العربية باسم البرنس ارناط لتهديد البحر الاحمر اذ قام بعملية حربية بحرية دنيئة تستهدف انتهاك حرمة المقدسات الاسلامية فى مكة المكرمة والمدينة المنورة [٢].

بالاضافة الى ما كانوا يأملون تحقيقه من السيطرة على البحر الاحمر واحتكار تجارة الشرق بالاستيلاء على عدن [٣] .

والواقع ان الايوبيين تمكنوا من القضاء على تلك المحاولة وزاد اهتمامهم بتأمين البحر الاحمر وحمايته من الخطر الصليبى [٤] كما عملوا على أن تستمر أهمية جدة التجارية مع عدم السماح لغير المسلمين بارتياد البحر الاحمر الذى اصبح بحيرة اسلامية . [٥]

وتمكن الايوبيون من تأمين طريق البحر الاحمر كما بذل المماليك من بعدهم قصارى جهدهم لاستعادة مكانة هذا الطريق ونظرا لعدم استخدام طريق سيناء نتيجة للوجود الصليبى فى بلاد الشام فقد كان الاعتماد على طريق عيذاب الى ان اعاد الظاهر بيبرس فتح الطريق البرى الى الحجاز عبر سيناء

---

(١) محمد عبد العال احمد : الايوبيون فى اليمن الاسكندرية ١٩٨٠، ص ٨٠ بنو رسول وبنو طاهر، ص ٢٧٧-٢٧٨، حسنين محمد ربيع : البحر الاحمر فى العصر الايوبى ندوة ، تاريخ البحر الاحمر عين شمس سنة ١٩٧٩م، ص ١٠٦، وثائق الجنيزة ، ص ١٣٥.

(٢) جورج فاضلو حورانى: العرب والملاحة ، ص ٢٣٥، محمد عبد العال احمد : الايوبيون ، فى اليمن ، ص ١١٨-١١٩، بنو رسول وبنو طاهر ، ص ٢٧٨ .

(٣) احمد رمضان احمد: شبه جزيرة سيناء، ص ١٢١ حسين محمد ربيع : البحر الاحمر ص ١١٠ ، على بن حسين السليمان : النشاط التجارى ، ص ٥١ .

(٤) احمد مختار العبادى، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام بيروت ١٩٨١ ، ص ٢٦٠ .

(٥) حسنين محمد ربيع : البحر الاحمر ، ص ١٠٥ .

واستخدم الطريقان منذ ذلك الوقت من مصر حتى تم القضاء على طريق عيذاب فى عهد برسباى[١].

ويبدو أن النشاط التجارى فى جدة قد تأثر بعودة الطريق البرى عبر سيناء فضلا عن كون التجارة المملوكية فى البحر الاحمر قد تأثرت هى ايضا فى القرن السابع الهجرى بسبب سيطرة المغول على الطريقين التجاريين الاسيويين طريق الخليج والطريق البرى عبر آسيا ، فأخذوا ينهجون سياسة الجذب الاقتصادى بتأمين الطريقين وتقديم التسهيلات الكبيرة للتجار واقامة العلاقات الودية مع الصليبيين فى الشام .[٢]

وبدأ الخليج مرة آخرى يستعيد أهمية تجارية تضارع الاهمية التى كان يحتلها[٣] ابان ازدهاره قبل نجاح الفاطميين فىتحويل طريق التجارة الى البحر الاحمر[٤] وقد كان للفرنج وخانات المغول دور كبير فى تشجيع الحركة التجارية عبر الخليج احتجاجا على الرسوم الجمركية العالية التى فرضها المماليك عليهم فاتجهوا الى هذا الطريق للضغط على المماليك واضعافهم من الناحية الاقتصادية بمقاطعة الموانئ المملوكية والقضاء على تجارة البحر الاحمر[٥] وخاصة لانه يعد بحرا اسلاميا لايسمح لغير المسلمين بالابحار فيه [٦] .

وكما حدث بعث الطريقين وازدهارهما من جديد على يد خانات المغول كان للحروب المدمرة التى قام بها تيمورلنك آثرها الكبير فى تدهورهما بل فى اغلاق الطريق التجارى البرى الذىيربط شبه جزيرة القرم بالصين فتضاءلت

---

(١) محمد عبد العال احمد : بنو رسول : ص ٣٨٠-٣٨١ .
(٢) احمد دراج : ايضاحات جديدة على التحول فى تجارة البحر الاحمرمنذ مطلع القرنالسابع الهجرى ،العددالخاص بالمحاضرات العامة للجمعية المصريةللدراسات التاريخيةالموسمالثقافى١٩٦٨/٦٧ ، ص١٨٧-١٨٨، محمدعبدالعال احمد : بنو رسول ص ٤٤٨-٤٥٠ .
(٣) محمد عبد العال احمد : نفس المرجع ،ص ٤٥١ .
(٤) حسنين محمدربيع : البحرالاحمر ،ص ١٠٦،وثائق الجنيزة،ص ١٢٥ .
(٥) محمد عبد العال احمد : بنو رسول ،ص ٤٥٠،صبحىلبيب : التجارة الكارمية، ص ٢٤ .
(٦) محمد عبد العال احمد : بنو رسول ،ص ٤٤٩ ، حسنين محمد ربيع : البحر الاحمر ،ص ١٠٥ ،وثائق الجنيزة ، ص ١٣٤ .

اهمية الطريق التجارى عبر الخليج [١].

على انه يمكن القول انه يعودة غالبية التجارة الى البحر الاحمر في القرن الثامن الهجرى عاد النشاط الى ميناء جدة من جديد .

وبسبب موقع جدة التجارى وقربها من مكة كان التاجر المصرى من السمات المألوفة فيها وفى القرن الثامن الهجرى قدم الى جدة تجار الغلال من سواحل البحر الاحمر وخاصة من مصر فراجت تجارة الحبوب فى جدة بفضل ما يرسل اليها من موءن من قبل سلاطين المماليك لمساعدة اهالى الحرمين الشريفين على مواجهة الازمات الاقتصادية فيهما فضلا على استقبال الميناء لمراكب تجار الغلال وقد وفق هوءلاء التجار على ما يبدو فى لفت انظار سلاطين المماليك وامراءمكة الى ميناء جدة .[٢]

اما القول بأن النشاط التجارى فى جدة فى القرن الثامن الهجرى كان فى حدود ضيقة وأنه اقتصر على تجارة الحبوب وان تجارتها انحصرت مع مصر حتى اواخر ذلك القرن [٣] فليس لدينا من المصادر التاريخية ما يوءيد هذا الرأى " ذلك أنه منذ أن جعلت جدة مرفأ لمكة المكرمة اخذت تستقبل السلع التجارية الهندية واليمنية والحبشية وغيرها القادمة من عدن " مفتاح الهند " [٤] أو من قوص وعيذاب وكانت هذه الموانىء من اكبر المراكز والمحطات التجارية فى البحر الاحمر [٥]. اضف الى ذلك ان تجار الاندلس والمغرب اذا لم يجدوا سوقا لمتاجرهم فى مدن مصر والشام اتجهوا الى جدة حيث كانوا يجدون سوقا رائجة لتجارتهم [٦] والواقع ان النشاط التجارى او الارتباط التجارى مع مصر

---

(١) احمد دراج : المرجع السابق ،ص ١٨٨ .
(٢) على بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ،ص ١٩٤ ،النشاط التجارى،ص ١١٠.
(٣) على بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ،نفس الصفحة ، النشاط التجارى ،نفس الصفحة .
(٤) الفاسى : العقد الثمين ج٢،ص ١٢٧ ،ج٣،ص ٣٩٦ ج٤ ،ص ٩٠،ص ٩١ ،ج٦،ص ٦٢، ٢٠٧/٦٩.
(٥) القلقشندى : صبح الاعشى ،ج٣ ، ص ٤٦٤ — ٤٦٨ ،سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة سلاطين المماليك البحرية ،القاهرة ١٩٥٩م ،ص ٢٠٨ .
(٦) حسنين محمد ربيع : وثائق الجنيزة ،ص ١٣٥ .

كان يمثل جزءا كبيرا من تجارة جدة فكثيرا ما كانت تقوم سفن التجارة المملوكية بنقل التوابل والعطور والعقاقير والاحجار الكريمة والعنبر والمسك وغير ذلك من السلع التجارية من جدة وعدن الى الموانىء التجارية فى القلزم والسويس والطور [١] .

ومن استعراض الاحداث التاريخية للحجاز يبدو أن جدة قد بدأت فى التألق من الناحية التجارية قبل النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى اذ يلاحظ ازدهار حركة التجارة فيها . غير أن هذه التجارة اصبحت هدفا لامراء مكة المتناحرين على السلطة [٢].............

وكان لاهتمام شريف مكة احمد بن عجلان (٧٧٧-٧٨٨هـ) هـ بالتجارة والتجار أثره البالغ فى توافد التجار على جدة واقامتهم العلاقات الودية معه [٣] ولعل استقبال جدة سنة ٧٩٤هـ لاكثر من ست وثلاثين جلبة من متاجر اليمن وحدها دليل على بداية ازدهار هذا الميناء [٤] وبسبب تدهور الحالة الامنية فى مكة وجدة بعد وفاة احمد بن عجلان والسياسة التعسفية مع التجار من قبل بعض الامراء [٥] بالاثقال على التجار بالمكوس او بمصادرة بضائعهم تأثرت الحركة التجارية فى جدة فترك التجار ميناء جدة واتجهوا الى ميناء ينبع [٦] ومن ذلك أنه فى سنة ٧٩٨هـ اعرض تجار اليمن عن جدة وساروا الى ينبع وكان مقدمهم القاضى وجيه الدين عبد الرحمن ابن جميع [٧].

وهكذا اخذت ينبع تنافس ثغر جدة فى الناحية التجارية وخاصة بعد عناية سلاطين المماليك بها واهتمامهم بأمن وحماية التجار فيها فكان طبيعيا أنّ

---

(١) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب اواخر العصور الوسطى القاهرة ١٩٧٣م ،صص ١٣٤،١٣٦،١٣٧ .
(٢) الفاسى : العقدالثمين،جـ٣،ص ٣٩٦،جـ٦،ص ٥٩،ص ٦٢،٦٥ .
(٣) الفاسى : نفس المصدر ،جـ٣ ،ص ٩٥ .
(٤) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣١٦ .
(٥) ابن حجر : ابناء الغمر ،جـ١ ،ص ٣٣٢ .
(٦) الفاسى : العقد الثمين ،جـ٢،ص ١٣٧،جـ٦،ص ٢٠٧،ص ٢١٢ .
(٧) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٢١ .

تصبح ينبع فى العصر المملوكى مركزا هاما للتجارة فى الحجاز[١] والحق انه كان للجهود التى بذلها الشريف حسن بن عجلان (٧٩٨-٨٢٩هـ) أثرها فى عودة التجار الى جدة والتردد عليها فعظمت هيبة الشريف حسن وكثر ماله وحصل له على نفع كبير من تجار الكارم واليمن .[٢]

وبلغت جدة ذروة التألق سنة ٨٠٦هـ بفضل جهود الناشب المفوض الفقيه جابر الحراش[٣] الذى عمر جدة ليحاكى بها فرضة عدن [٤] فأصبحت الظروف ملائمة لكى تزدهر الحياة التجارية فى جدة .. وبدأت بشائر بداية العصر الذهبى لها .

ولم يقتصر نشاط جدة الاقتصادى علي التجارة الخارجية فقطفبحكم وقوعها على البحر اقيمت فيها صناعة الجلاب وصيد السمك واستخراج الاصداف وبيعها .[٥]

ومما ساعد علي ارتفاع شأن جدة ما فعله سلاطين اليمن من أساءة معاملة التجار وانتهاج سياسة تعسفية معهم فقد ادى ذلك الى تدهور ميناء عدن - قاعدة تجارة الشرق - وبلغت هذه السياسة اقصى حد لها فى عهد الناصر احمد الرسولى (٨٠٣-٨٢٧هـ) فأضطر التجار الى الفرار من عدن والاتجاه الي المراكز التجارية الاخرى المنافسة يومئذ[٦] .. ومع ذلكفانه يمكن القول بان تلك الموانىء لم تبلغ فى ذلك الحين المركز الرفيع الذى وصلت اليه عدن ومن هذه المراكز جدة .

وقد ادى استياء التجار من السلطان اليمنى الى مقاطعتهم لميناء عدن ومن ذلك ما قام به التاجر الهندى ابراهيم سنة ٨٢٥هـ فقد رسا بسفينته فى ميناء جدة متجاوزا ميناء عدن ولكنه عومل فى جدة معاملة سيئة واستولى

---

(١) الفاسى : نفس المصدر ،جـ٤ ،ص ١٣٢ ،ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣١٩،النجاوى (على بن تاج بن تقى الدين ،منائح الكرم مخطوط بجامعة ام القرىمركز البحث العلمى واحياء التراث الاسلامى ،ص ٣٣٢ .

(٢) الفاسى نفس المصدر ،جـ٤ ، ص ٩٠ - ٩٩ ،ابن فهد نفس المصدر ،ص٣٢٤

(٣) من اهل اليمن تردد الي مكة مرات كثيرة ولازم الشريف حسن بن عجلان ، ففوض اليه امر جدة وغيرها ونهض بما لا ينهض به غيره وكان له حظ فى التجارة ،مات مشنوقا سنة ٨١٦هـ ، الفاس : نفس المصدر جـ٣ ،ص ٤٠٠-٤٠٣.

(٤) الحضراوى:الجواهر المعدة ،ق٤٧، ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٢٣ .

(٥) البتنونى: الرحلة الحجازية ،ص ٦٧ ،ابراهيم ربعت : مرآة الحرمين ،جـ١ ، ص ٢٢ ،على حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ،ص ١٩٢ .

(٦) ابو مخرمة : تاريخثغرعدنجـ١ ،ص١٢ ،محمدعبدالعال احمد :بنورسول،ص ٤٥٤، احمد دراج: ايضاحات جديدة ،ص ١٩٣.

الشريف حسن على بضائعه وطرحها على التجار بمكة [١].

وكانت هذه الخطوة وما ترتب عليها من خطوات من أهم الاسباب التى ادت الى تحول التجارة من عدن واحتلال جدة مكانها لتصبح المركز الرئيسى لتجارة الشرق [٢] .. ولعل وصول هذا التاجر الى جدة قدنبة السلطان المملوكى الى بندر جدة ووجدها فرصة سانحة للتعامل مع تجار الشرق مباشرة [٣] وقد ارسل السلطان المملوكى برسباى خطابا شديد اللهجة الى شريف مكة سنة ٨٢٦ هـ ، يتضمن كثرة العتب عليه لاخذه فلفل التجار القادمين الى جدة من قاليقوط بالهند متجاوزين عدن وأمره برد ذلك اليهم . [٤]

وقد بقى التاجر ابراهيم على مقاطعة ميناء عدن ففى سنة ٨٢٦هـ ، توجه الى ميناء سواكن ثم جزيرة دهلك و لقى فيهما معاملة سيئة وفى سنة ٨٢٧هـ توجه الى ينبع مارا بجدة الا انه امير الركب المصرى قرقماس الشعبانى - احد امراء الالوف - تمكن من اقناعه بالعودة الى جدة وضمن له تأمين تجارته فتوجه اليها في مركب وطراد فعامله امير مكة معاملة حسنة [٥] كان لها اطيب الاثر فى نفس التاجر فعاد فى العام التالى ٨٢٨هـ بأربعة عشر مركبا موسقة ببضائع من اصناف المتجر . [٦]

فكان ذلك بداية للتعامل المباشر مع تجار الهند دون وساطة عدن وكان لابد من تدخل السلطان المملوكى للمحافظة على المكانة الجديدة التى اكتسبتها جدة وعدم اتاحة الفرصة لسلاطين اليمن لاستعادة التجارة الى عدن ولتحقيق ذلك احدث السلطان برسباى وظيفة مستقلة فى جدة يقال لها " نيابة

---

(١) ابن فهد: اتحاف الورى ،ص ٣٥٥ ،محمد عبد العال احمد : المرجع السابق ص ٤٥٥ : اضواء على ملاح فاسكودي جاما : مجلة الدراسات الافريقية العدد الخامس ١٩٧٦ ،ص ١٦٤ ، احمد دراج : ايضاحات جديدة ،ص ١٨٧ .
(٢) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٣٢٢-٣٢٣ ، احمد دراج: نفس المرجع ،ص ١٨٦ .
(٣) محمد عبد العال : بنو رسول ،ص ٤٥٦ .
(٤) الفاسى :العقد الثمين ،ج٤ ،ص ١٤٥ ، ابن فهد: نفس المرجع ،ص ٣٥٦ .
(٥) الفاسى :العقد الثمين ،ج٤ ،ص ١٤٨ ، ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٥٨ ،محمد عبد العال : بنو رسول ،ص ٤٥٦ .
(٦) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٦٠ ،محمد عبد العال احمد: نفس المرجع ، ص ٤٥٦ ،على بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ،ص ١٩٦ .

جدة [١] وذلك تفاديا لتكرار ما فعله شريف مكة مع السفن الهندية سنة ٨٢٥هـ
ففى سنة ٨٢٨هـ ارسل السلطان برسباى سعد الدين بن المرة مع قوة مملوكية لتأمين السفن والبضائع القادمة الىجدة وتحصيل المكس من مراكب الهند وقد قدر ما حمل الى الخزانة فى مصر بأكثر من سبعين ألف دينار [٢] .

وكان هذا اول مكس اخذ لمصر من جدة فقد كانت جدة طوال العصر المملوكى وحتى ذلك التاريخ تابعة لامير مكة وكان بها عامل من قبله يقبض مكوسها وضرائبها التى توءخذ من التجار والحجاج [٣].

وقد اختلفت الروايات فى الشخص الذى اوعز الى السلطان برسباى بامر جدة ونزع يد امير مكة عنها فيذكر صاحب النجوم الزاهرة " ان ذلك **كان** بتدبير من الامير يشبك الساقى الاعرج وكان قد نفى الى مكة واقام بها سنين فعلم احوال اشراف مكة وما هم عليه وحسن للسلطان الاستيلاء على بندر جدة ومازال به حتى صار امر جدة على ما هى عليه [٤] اما ابن اياس فيذكر ان الامير قرقماس الشعبانى كان اول من تحدث فى امر جدة ونزع يد شريف مكة عنها [٥].

ومنذ ذلك التاريخ ارتبطت جدة بمصر من الناحيتين السياسية والاقتصادية وصار نظر جدة وظيفة سلطانية يخلع على متوليها ويتوجه كل سنة الى مكة فى اوان ورود مراكب الهند الى جدة ويأخذ ما على التجار من العشور ويحضر الى القاهرة به .[٦]

واصبحت جدة القاعد ة الرئيسية لتجارة البحر الاحمر والشرق ووصل اليها فى سنة ٨٢٩ هـ أربعون سفينة من الهند وهرمز [٧] ووجد التجار راحة بجدة

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ١٠٣ .
(٢) الجزيرى : درر الفوائد ،ص ٣٢٣ ،ابن اياس : نفس المصدر ص ١٠٣ .
(٣) التجيبى السبتى : مستفاد الرحلة ، ص ٢١٩ .
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ١٤ ،ص ص ٢٧١ — ٢٧٢ .
(٥) ابن اياس : بدائع الزهور : ،جـ٢ ،ص ١٠٣ .
(٦) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٦٠ .
(٧) المقريزى: السلوك ،جـ٤ ،ص ص ٧٠٧ـ٧٠٨ ،محمد عبد العال احمد : المرجع السابق ،ص ٤٥٧ ،على بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ص ١٩٦ ، النشاط التجارى ،ص ١١٣ .

بخلاف عدن فتركوا بندر عدن واستجدوا بندرجدة عوضه ، فاستمر بندر جدة عظيما وتلاشى آمر عدن من اجل هذا وضعف حال متملك اليمن .[١]

ولم يقتصر اثر هذه السياسة المملوكية على الحركة التجارية فى جدة بل لقد كانت من الاسباب التى اسهمت فى تنمية جدة من الناحية الاجتماعية فقد ادى تدفق المتاجر على جدة الى اغراء التجار وغيرهم على الاقامة فيها فاتسع الميناء وزادت عمارته حتى ان سعد الدين بن المرة قام سنة ٨٣١هـ بعمارة جامع بها وفرضة واصبحت بندرا عظيما [٢] ،وأخذت تستقبل السفن الكبيرة التى تسع اكثر من ثمانمائة راكب [٣]. ويقول ابن شاهين : " وربما يردها فى كل سنة نيف عن مائة مركب من جملة ذلك مركب بسبعة قلوع " .[٤]

ولا ريب ان التجارة فى جدة قد ادت الى ثراء اهلها الذين اقتنوا المراكب وتفاخروا فى اظهار مبلغ ثرائهم فكان التاجر منهم اذا بلغ كسبه مائة ألف دينار بنى على داره قبة لتكون اشارة واضحة على غناه .[٥]

وقد سجلت تجارة جدة تطورا كبيرا مع الهند وأخذت سفن التجارة الهندية تصل الى جدة مرتين فى العام ويقوم التجار فيها بنقل السلع إلى ميناء الطور التجارى على البحر الاحمر وتنقل منه على القوافل الى القاهرة [٦].

وتعد سنة ٨٣٥ بداية التعامل المباشر لميناء جدة مع الصين ففيها وصلت سفن الصين لاول مرة الى البحر الاحمر [٧] فقد قدمت عدة جنوك من الصين ورسا منها اثنان بميناء عدن وكان قد بلغ من الضعف حدا لم يمكن معه انفاق

---

(١) ابن فهد : المصدر السابق ، ص ٣٦٠ .
(٢) ابن حجر : ابناء الغمر ،جـ٣ ،ص ٤٠٤ .
(٣) المقريزى : السلوك ،جـ٤ ،ص ٨٣٦ .
(٤) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ،جـ١ ،ص ١٣ .
(٥) على بن حسين السليمان : النشاط التجارى ،ص ١١٤.
(٦) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة ،ص ١٢٥.
(٧) ابن حجر : ابناء الغمر ،جـ٣ ،ص ٤٧٣ ،ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١٤ ،ص ٣٦٢ ،محمد عبد العال احمد : بنو رسول ،ص ٤٥٨ ، اضواء جديدة ص ١٦٥ .

بضائعها من الصينى والحرير والمسك وغيره فأستأذن أصحابها صاحب مكة الشريف بركات بن حسن بن عجلان وناظر جدة سعد الدين ابن المرة فى القدوم الى جدة فكان لهم ما أرادوا [١] ونفقت سلعهم فى جدة وحمل الى مكة من التحف ما لا يوصف فبيع بأسواقها [٢] ومن هنا كان الحفاظ على جدة باعتبارها اكبر محطة تجارية فى الطريق البحرى الرئيسى الذى يربط المشرق بالغرب من آهم أعمال سلاطين المماليك ولتحقيق ذلك قام السلطان برسباى بفرض حصار اقتصادى على عدن وذلك بعدم التعامل التجارى معها فأصدر سنة ٨٣٨هـ مرسوما يقضى بأخذ العشر فقط من التجار الهنود الواردين الى جدة .

ومضاعفة العشور على التجار الشاميين والمصريين القادمين عن طريق اليمن ومصادرة بضاعة التجار اليمنيين كلها . [٣]

وقد ترتب على هذا الحصار التجارى للمتاجر المارة بعدن والدقة فى تنفيذها ان زاد تحول التجار بمرور الوقت عن ميناء عدن الى جدة هربا من الرسوم العالية التى فرضها المماليك على السفن المارة بعدن . ورغبة فى التسهيلات الكبيرة التى يجدها التجار القادمون الى جدة رأسا [٤].

وهكذا نجد أن سياسة المماليك القائمة على تحطيم المركز التجارى لعدن قد أدت الى تمتع جدة بالمركز الرئيسى وجعلها المستودع العظيم لمتاجر الهند والشرق الاقصى [٥] فكان لهذا كله الاثر الفعال فى الازدهار الاقتصادى بمكة المكرمة التى اصبحت المحطة الرئيسية لحركة القوافل فى شبه الجزيرة العربية .

فلما صار أمر اليمن إلى بنى طاهر بذلوا قصارى جهدهم من اجل استعادة

---

(١) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٢) ابن حجر : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٣) المقريزى : السلوك ،ج٤،ص ٩٢٩، ابن حجر : انباء الغمر ،ج٣ ،ص ٥٣٩-٥٤٠ ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٧٨ ،محمد عبد العال احمد : بنو رسول،ص ٤٥٩.
(٤) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة : ،ص ١٣٩ .
(٥) محمد عبد العال احمد : بنو رسول ،ص ٤٥٩ ،على بن حسين السليمان : النشاط التجارى ،ص ١١٣ . نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ،ص ١٣٩.

عدن لمكانتها التجارية [1] وقاموا باعتراض السفن الهندية ومنعها من دخول البحر الاحمر واذا كانوا لم يتمكنوا من إغراء بعضهم للتعامل مع عدن [2] فان معظم التجار كانوا يتوجهون بسفنهم الى موانىء شرق أفريقية ثم الى جدة متجاوزين عدن [3].

غير أن آل طاهر أدركوا انه لا سبيل لهم إلى استخدام القوة، فاتجه نشاطهم إلى تشجيع التجار والنواخيذ واقامة العلاقات الودية معهم لترغيبهم فى العودة الى عدن، كما عملوا على عودة التبادل التجارى بين عدن وجدة [4] وذلك للارتباط التجارى الوثيق بينهما فجدة هى مرفأ مكة المكرمة التى تعد جسرا يصل بين بلاد الشام وحوض البحر المتوسط واليمن والمحيط الهندى .

والجدير بالذكر أن تجارة جدة قد راجت رواجا كبيرا وجنى كل من امير مكة والسلطان المملوكى من ضريبة العشور المفروضة على المراكب فى جدة أرباحا طائلة ويشير ابن شاهين الى ذلك بقوله :" والرسوم تحمل الى صاحب مكة وكان الملك الاشرف ابو النصر برسباى شاركه فى أخذ نصيب من ذلك ،ويقال ان متحصل الجهة المذكورة مائتا ألف دينار فى كل سنة ، وربما يزيد او... ينقص ". [5]

وأيا ما كان الامر فقد قام ميناء جدة بدور كبير فى مجال التجارة البحرية وأسهم فى ازدهار النشاط التجارى فى مكة المكرمة .

---

(١) ابو مخرمة : تاريخ ثغر عدن ،ج١ ،ص ١٢ .
(٢) محمد عبد العال احمد : بنو رسول ،ص ٤٦٣ - ٤٦٤ .
(٣) على بن حسين السليمانى : المرجع السابق ،ص ١١٦ ،نعيم زكى فهمى : المرجع السابق ،ص ١٣٩ .
(٤) محمد عبد العال احمد : نفس المرجع ، ص ٤٦٤ .
(٥) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ،ج١ ،ص ١٤ .

الفصل الثاني

دور سلاطين المماليك وأمراء مكة في استتباب الأمن وتأمين الطرق

- إمرة مكة والصراع بين بني قتادة على توليها.
- الجهود الخاصة بإقرار الأوضاع في مكة المكرمة.
- توفير الحراسة وإقرار الأمن وإصلاح الطرق البرية.
- تأمين طريق البحر الأحمر وتنشيط الحركة التجارية.

كانت السيادة الشرعية فى مكة المكرمة للخلافة العباسية ببغداد ولكن ضعفها فى عصرها الثانى أدى الى ظهور حركات استقلالية كان لها أثرها فى تفتيت وحدة الدولة الاسلامية ، فقد بدأت مرحلة من مراحل التفكك والتمزق السياسى فى جسد الأمة الاسلامية وانفراط عقد الوحدة الاسلامية وكان لمكة المكرمة حظ من الاستقلال يكاد يكون تاما ... فمنذ النصف الاول من القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) لم يكن للخلافة العباسية أى سيادة على مكة ... اللهم الا السيادة الأسمية المتمثلة فى الخطبة والدعاء .

وقد أدى الفراغ السياسى الذى حدث فى الحجاز ابان انشغال مصر فى حروبها مع الصليبيين بعد وفاة الملك المسعود ، إلى اغراء الدولة الرسولية الناشئة فى اليمن لتحقيق سيطرتها على مكة سنة ٦٣٩هـ [١] وكانت الحملة التى قادها نور الدين على بن رسول بنفسه خاتمة الحملات المتبادلة بين بنى رسول والايوبيين لفرض سيطرتهم على مكة ، وقد استمر ذلك أكثر من عشر سنوات[٢] .

وقد ساعدهم على ذلك ما كانت تتمتع به بلادهم من مكانة اقتصادية عالية ، فقد كانت عدن قاعدة التجارة الرئيسية بين المشرق والغرب ،وقبلة الوافدين وملتقى السفارات التجارية وبها ترسو سفن الهند والصين والحبشة والخليج وشرق افريقية [٣] " ومما يذكر أن متحصلات ثغر عدن التى تسلمها المظفر يوسف من واليها بلغت خمسمائة ألف دينار " [٤].

---

(١) الخزرجى : العقود اللوءلوءية ،ق ٢ ، ص ١١ – ١٢ .
(٢) محمد عبد العال احمد : بنو رسول ص ٣٣٨ – ٣٤٢ ، ٣٤٦ – ٣٥٥ .
(٣) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة ،ص ١٣٧ ،محمد عبد العال احمد : بنو رسول ، ص ٣٨٣ ، ٤٣٤ .
(٤) محمد عبد العال احمد : نفس المرجع ،ص ٣٩٠ .

وبسقوط الخلافة العباسية على أيدى المغول سنة ٦٥٦ وقتل الخليفة المستعصم بالله [١] ظلت زعامة العالم الاسلامى الروحية شاغرة ثلاث سنين ونصف سنة [٢] ولقد جاء اعلان الخلافة الحفصية السنية فى تونس (سنة ٦٥٧ هـ) فى ظروف سياسية مناسبة فأرسل الأمير ادريس شريف مكة وأهل الحجاز بيعتهم بالخلافة للخليفة ابى عبد الله محمد الحفصى وعدوه وريثا للخلافة العباسية المنهارة [٣] .

ولقد أثار هذا التصرف الغريب السلطان الطموح الظاهر بيبرس الذىكان يتطلع لقيادة العالم الاسلامى وخاصة بعد النصر الساحق الذى حققه على التتار فى معركة عين جالوت ٦٥٨هـ [٤] فقام بعمل جرىء تمثل فى احياء الخلافة العباسية فى مصر سنة ٦٥٩هـ [٥] وكان يرمى من ورائه الى اضفاء الصفة الشرعية على سلطنته استنادا الى التقليد الذى حصل عليه من الخليفة والى مد ملكه وتوسيع سلطانه بمساعدته باعتباره حامى الحرمين فقد جاء فى تقليد الخليفة للسلطان بيبرس ما يوءهله لذلك حيث قال : " وأمير الموءمنين يشكر لك هذه الصنائع ويعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا وفوض أمر جندها ورعاياها اليك حين اصبحت بالمكارم فردا ولا جعل منها بلدا من البلاد ولا حصنا من الحصون يستثنى ولا جهة من الجهات تعد فى الاعلى ولا فى الادنى " [٦].

---

(١) ابو الفدا : المختصر ،جـ٣ ،ص ١٩٣ ،يحيى بن الحسين : غاية الامانى ق ١ ،ص ٥٢ .
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ،جـ٢ ،ص ٥٢ .
(٣) الخزرجى : المصدر السابق جـ١ ،ص ١٧٨ – احمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك فى مصر والشام ،بيروت ١٩٦٩،ص ١٩٥
(٤) ابو الفدا : نفس المصدر والجزء ،ص ٢٠٥ .
(٥) السيوطى : نفس المصدر والجزء والصفحة ،يذكر ابن اساس : انها سنة ٦٦٠هـ.
(٦) السيوطى : المصدر السابق جـ٢ ،ص ٥٥ .

ولا اجعل

وبهذا التفويض حقق المماليك لانفسهم مكانا ساميا بين ملوك العالم الاسلامى وصاروا ينكرون عليهم حق التلقب بلقب سلطان لانهم احق به شرعا[1] وصار يخطب لهم على منابر مكة بألقاب (سلطان البحرين وحامى الحرمين)[2]

ويظهر جليا ان المماليك قد حققوا بمد سلطانهم على مكة مكاسب دينية كما اسلفنا وسياسية بابعاد الحفصيين وبنى رسول وتأكيد سيطرتهم على الحرمين فارسل الى الخليفة الحفصى يقول : " مثلك لا يصلح ان يلى امور المسلمين " . [3] كما ارسل خطابا قاس اللهجة لصاحب اليمن يقول فيه : " والملك هو الذى يجاهد فى الله حق جهاده ويبذل نفسه فى الذب عن حوزة الدين فان كنت ملكا التق التتار " .[4]

أما المكسب الاقتصادى الذى حققه المماليك فكان نتيجة لاحتلال مكة المكرمة مركزا بارزا وفريدا فى ميدان التجارة البرية[5] ولسيادتها على موانىء تجارية هامة فى البحر الاحمر [6] مثل جدة وينبع ولا يغرب عن الذهن ان الدولة المملوكية قد أولت التجارة ومرافقها جل اهتمامها واقام سلاطين المماليك المعاهدات والسفارات التجارية مع الشرق والغرب لهذا الغرض ولهذا حرص المماليك على السيادة على الحجاز .. والعمل على استقرار الاحوال فيه .

" امرة مكة والصراع بين بنى قتادة على توليها ...."

ساعدت الظروف التى كانت تمر بها مصر واليمن على تركيز اهتمام

---

(١) احمد مختار العبادى : المرجع السابق ،ص ١٩٠ .
(٢) نعيم زكى فهمى : المرجع السابق ،ص ١٧ .
(٣) المقريزى : السلوك جا ،ص ٦٠١ ،على بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ،ص ٢٢ .
(٤) المقريزى:نفس المصدر والجزء ، ص ٥٨١-٥٨٢،محمد عبد العال احمد: بنو رسول ،ص ٣٧٣ .
(٥) نعيم زكى فهمى: المرجع السابق ،ص ١٣٨،على بن حسين السليمان : نفس المرجع ،ص ٢٣ .
(٦) احمدمختار العبادى:المرجع السابق،ص ١٩٥ ،على بن حسين السليمان :نفس المرجع والصفحة .

الاشراف من بنى قتادة على الاستقلال بمكة [١] وخاصة بعد انتصارهم على ابن المسيب واخراجه من مكة سنة ٦٤٨هـ [٢] ثم هزيمة ابن برطاس سنة ٦٥٣هـ [٣] ، وكلاهما كان من قبل صاحب اليمن الملك المظفر يوسف .

غير ان التنافس على السلطة بين بنى قتادة والنزاع بين الأسرتين الحاكمتين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة قد أديا الى خلق جو غيرمستقر كان له أثره فى حدوث الفوضى والاضطرابات فى مكة وخاصة فى موسم الحج[٤]

وبطبيعة الحال لم تسلم تجارة مكة فى هذه الاوقات من هجمات الاشراف ونهبهم كما ارتفعت الاسعار نتيجة للصراع بين الاشراف [٥].

وخلال المراحل المضطربة استعان كل طرف من الأطراف المتنازعة بالقوى الخارجية المتمثلة فى اليمن ومصر والعراق .[٦]

ويلاحظ أن ابا نمى (٦٥٤ - ٧٠١هـ) وهو أول من دعا للمماليك فى مكة كان اول من خرج عن طاعتهم فقد انتهز فرصة انشغال المماليك بمواجهة الاضطرابات التى سادت البلاد عقب وفاة السلطان بيبرس (٦٥٩ - ٦٧٦ هـ) ، فأعلن ولاءه لليمن واستقلاله بمكة [٧].

وعلى الرغم من نجاح السلطان الملك المنصور قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ)فى

---

(١) محمد عبد العال احمد : نفس المرجع ، ص ٣٦٢.

Burkhardt: Travels in Arabia, Vol.II. P. 277.

(٢) الخزرجى: العقود اللؤلؤية ج١ ،ص ٧٨ ،الفاسى:العقدالثمين ج٤ ،ص ١٠٦ ، السنجارى منائح الكرم ج١ ،ص ٢٩٧ .

(٣) الخزرجى:نفس المصدرو الجزء ،ص ١٢٠ ،الفاسى: نفس المصدرج١ ،ص ٤٥٨ ،ابن الديبع :نفس المصدر "قرة العيون" ق٢،ص ٣٢،يحيى بن الحسين: غاية الامانى ق١ ،ص ٤٤١.

(٤) الفاسى : نفس المصدر ج١ ،ص ٤٦٦ ، السنجارى : منائح الكرم ج١ ،ص ٣٠٣ ، محمد عبد العال احمد : بنو رسول ،ص ٣٦٩ .

(٥) الفاسى : شفاء الغرام ج٢،ص ٢٧٢.

(٦) الفاسى : العقد الثمين ج١ ،ص ص ١٩١ - ١٩٣ .

(٧) المقريزى:السلوك ج١ ،ص ٨٠٦ ،على بن حسين السليمان: العلاقات الحجازية المصرية ص ٣٠.

السيطرة على الحجاز وتحقيق الاعتراف بسيادة المماليك وحدهم طوال فترة حكمه فان مكة مرت بطور من الاضطراب والنزاع على الامارة تدخلت فيه اليمن عسكريا لمساعدة احد الاطراف المتنازعة وذلك فى سنة ٦٨٣هـ غير أن أبا نمى تمكن من اخراجهم بالقوة من مكة . وعمل على معاقبة اليمنيين بزيادة المكوس التى تؤخذ منهم (١) .

وردا على ذلك وتأكيدا لسيادة المماليك على مكة وصدا لعدوان آل رسول ارسل السلطان قلاوون فى العام نفسه نائبا من قبله (٢)مع قوة عسكرية قوامها ثلاثمائة فارس لاقرار الاوضاع فى الحجاز وتوجهوا الى مكة بصحبة الحاج فلم يخرج أبو نمى للقائهم وبعث قواده (٣) وصد الحاج عن دخول مكة وأغلق أبوابها ولكنهم تمكنوا من دخولها عنوة بعد محاصرتها واحراق احد ابواب السور من جهة المعابدة وأدى ذلك إلى فرار ابى نمى منمكة زمن الحج (٤). وقد صادف بعد ذلك ان بعض العسكر خرج الى منى فتعرض لهم أبو نمى ونهبهم وقتل أميرهم ثم دخل مكة وهزم من بها من جند المماليك وساء هذا الفعل السلطان قلاوون وقرر الانتقام من شريف مكة أبى نمى فسارع هذا بالاعتذار اليه والتودد له بالهدايا حتى رضى السلطان قلاوون عنه .(٥)

---

(١) المقريزى : نفس المصدر والجزء ،ص ٧٢٤ ، السنجارى : منائح الكرم جا ،ص ٣٠٢ .

(٢) السنجارى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ،ص ٧٢٤ - ٧٢٦ .

(٤) الفاسى : العقد الثمين ، جا ، ص ١٩٢ ، السنجارى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) المقريزى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٢٤ - ٧٢٥ ، السنجارى منائح الكرم ، ج ١ ، ص ٣٠٣ .

ورغبة من المماليك فى أن تستمر سيادتهم على مكة ردا على ما فعله أبونمى من اخلال بشروط اليمين التى اقسمها للسلطان قلاوون ... سيّر السلطان فى سنة ٦٨٧هـ[١] ـ أو سنة ٦٨٨هـ[٢] جيشا لمساعدة جماز بن شيحة صاحب المدينة واعانه على أخذ مكة وإخراج أبى نمى منها فخطب لجماز هذه السنة وضربت السكة باسمه وبقى مدة قصيرة فى مكة ثم رحل عنها وهو عليل خوفا من أبى نمى فعاد إليها أبو نمى وتفرد بحكمها حتى توفى سنة ٧٠١هـ ، وقد تخلل هذه الفترة من حكمه فتنة مشهورة حدثت سنة ٦٨٩ بينه وبين الحاج شهرت فيها السيوف وكثر القتل وتعرضت الاموال والمتاجر للنهب [٣].

ولم يلبث أبو نمى بعد وفاة السلطان قلاوون أن خطب للملك المظفر صاحب اليمن وقطعت خطبة خليل بن المنصور قلاوون ... وكان قد خطب له فى أول سنة ٦٩١هـ وبهذا العمل استطاع بنو رسول أن ينجحوا بالخطبة لهم على منابر مكة [٤] ومع نمو العلاقات بين مكة واليمن خرج المحمل اليمنى سنة ٦٩٦هـ بعد انقطاع دام مدة . وكسا صاحب اليمن الكعبة ورفرفت رايته على جبل عرفات ودعى له فى موسم الحج .[٥]

ويرجع الفاسى تقديم أبى نمى لصاحب اليمن على صاحب مصر الى الاموال العظيمة التى بعثها الملك المؤيد وكانت من العين الذهب والغلة والكساوى والطيب من المسك والعود والصندل والعنبر والثياب الملونة والخلع النفيسة وقد قدر مبلغ العين بثمانين ألف درهم ومبلغ الغلة بأربعمائة مد أى ما يعادل ألفا ومائة غرارة مكية [٦] وقدر الجميع بما يوازى ثلاثة أمثال

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ،جا ،ص ٤٦٢ .
(٢) السنجارى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٣) الفاسى : نفس المصدر والجزء ،ص ٤٦٦، السنجارى: نفس المصدر والجزء والصفحة
(٤) الفاسى: العقدالثمين: جا ،ص ٤٦٣، المقريزى: السلوك،جا ،ص ٧٨٦.
(٥) المقريزى : نفس المصدر والجزء ، ص ٨٧٢ ، احمد دراج : ايضاحات جديدة ،ص ٢٠١ .
(٦) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٦٤ .

ما ترسله مصر سنويا [١] وعلى الرغم من ذلك أطلق الشريف أبونمى يديه فى فرض المكوس على اليمنيين [٢].

وعندما توفى أبو نمى دب النزاع على السلطة بين أبنائه وترتب على ذلك الاضرار بالتجارة والتجار فى مكة ... الا أن سلاطين المماليك تمكنوا من احكام قبضتهم على شئون الحكم والسياسة فى مكة وصاروا يعزلون ويولون من أرادوا بل اتبعوا سياسة تولية الحكم لاكثر من واحد ليضمنوا بقاء سيادتهم واستقرار الاوضاع وقد استوجب ذلك ارسال التجاريد العسكرية الى مكة كلما تواترت الانباء بظهور التمرد بين الاشقاء [٣].

وتعرضت مكة لازمة اقتصادية سنة ٧٠٧هـ سببها قطع صاحب اليمن الملك الموءيد الميرة عن مكة لما كان بينه وبين حميضة ورميثة فأرتفعت أسعار الحنطة والذرة ارتفاعا كبيرا وأصبح الناس فى شدة الا أن وصول الركب الرجبى قد حد من ذلك الغلاء ثم انتعشت الاحوال بوصول الميرة من اليمن بعد عودة العلاقات الودية بين امراء مكة وصاحب اليمن [٤] وقد كان يعمل على استفزاز المماليك بقطع الهدايا التى اعتادت اليمن ارسالها الى مصر والاساءة لتجار مصر [٥] ومنع تجار الكارم تلك السنة [٦]، واستنكر السلطان الناصر محمد بن قلاوون هذا العمل وهدد بالانتقام من صاحب اليمن وعزم على ذلك سنة ٧٠٧هـ الا أن العلماء والمشايخ أشاروا عليه بالعدول عن الغزو فرجع [٧].

---

(١) احمد السباعى : تواريخ مكة ،جا ،ص ٢٣٦ .

(٢) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٨٥ — ٢٨٦ .

(٣) الفاسى : المصدر السابق ،ج٦ ، ص ٤٠٤ — ٤٠٧ .

(٤) الفاسى : شفاء الغرام ،ج٢ ، ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

(٥) المقريزى : المصدر السابق ،ج٢ ، ص ٣٢ — ٣٣ .

(٦) الخزرجى : المصدر السابق ،جا ،ص ٣٧٤ .

(٧) ابن الديبع : قرة العيون ق٢ ،ص ٦٢ ،محمد عبد العال احمد : بنو رسول ص ٤٠١ — ٤٠٢ .

وقد تأثر النشاط التجاري فى مكة منذ سنة ٧٠٧هـ حتى سنة ٧١٢هـ بسبب المعاملة السيئة التى لقيها الحجاج والتجار من رميثة وحميضة وعبيد مكة ونهبهم لاموال التجار والطمع فيهم [١] فقل ورود التجار الى مكة وشكا المجاورون والحجاج سنة ٧١٣هـ سوء الاحوال فيها للسلطان الناصر فأرسل جيشا وأمراء من مصر ودمشق لاقرار الامور بمكة وتولية أبى الغيث [٢] وبقى العسكر معه حتى مهدت له الامور وأخذ الضرائب من التجار [٣] وبقى أبو الغيث فى امارة مكة حتى قتل سنة ٧١٤هـ ... قتله اخوة حميضة ومثل به [٤] .

واستطاع حميضة أن يستقل بامرة مكة دون رميثة وتعهد بألا يتعرض للمجاورين والتجار لكنه لم يف بوعده فاستعان رميثة بالسلطان المملوكى فولاه امارة مكة واعانه بعسكر لاتمام الامر له فيها فهرب حميضة الى جهة الخليف [٥] واخذ معه الاموال والبر وبلغ من جوره وكثرة ظلمه أنه أحرق ما لم يتمكن من حمله الى حصنه الجديد وقطع ألفى نخلة [٦] الا أن العساكر المملوكية تبعته وحاصرته وغنمت منه امواله وكانت شيئا كثيرا من ضمنها العنبر الخام [٧] .

وانتقاما من صاحب مصر لجأ حميضة الى العراق وزين لايلخانات التتار السيادة على مكة فأعانوه بالاموال والرجال [٨] وبذلك دخل فى التنافس على تحقيق السيادة على مكة طرف ثالث يتمثل فى ايلخانات المغول بعد

---

(١) الخزرجى : المصدر السابق ج١ ،ص ٣٨٤، الفاسى : العقد الثمين، ج٤ ،ص ٤٠٦ الجزيرى : درر الفوائد، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٢) الفاسى : نفس المصدر ،ج٤ ، ص ٢٣٦- ٢٣٧ .

(٣) ابو الفدا : المختصر ،ج٤ ، ص ٧٣ - ٧٤ .

(٤) السنجارى : المصدر السابق ،ج١ ،ص ٣٧ .

(٥) حصن بينه وبين مكة ستة ايام ، الفاسى : نفس المصدر والجزء ،ص ٢٣٨ .

(٦) الفاسى : العقد الثمين : ج٤ ،ص ٢٣٨ ، الجزيرى : المصدر السابق ،ص ٢٩٥

(٧) ابو الفدا : المختصر ،ج٤ ، ص ٧٦ - ٧٧ .

(٨) ابو الفدا : نفس المصدر والجزء ص ٨٠، الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ٢٣٩-٢٤٠ ، السنجارى : منائح الكرم ج١ ،ص ٣٠٧ .

اسلامهم (١).

ونجح حميضة سنة ٧١٨هـ فى قطع الخطبة لسلطان مصر وخطب لملك العراقين أبى سعيد بن خرنبدا (٢) وأساء الى التجار وأخذ أموالهم (٣) وبلغ الامر بايلخانات المغول أنهم ارسلوا كسوة الكعبة مع المحمل العراقى فى السنة المذكورة نفسها (٤).

وتشير المصادر التاريخية الى الفتنة الكبيرة التى حدثت سنة ٧٣٠ هـ وفيها نهبت اسواق مكة وقتل بعض الحجاج وغيرهم وشهرت فيها السيوف فى المسجد الحرام ولم يذكر ابن ايبك سببها واكتفى بالاشارة الى هولها (٥) لكن صاحب النجوم الزاهرة يذكر ان بعض عبيد مكة عبثوا بالامن وطمعوا في حجاج العراق واخذوا اموالهم فاستنجد الناس بالامير المملوكى عز الدين أيدمر وكان مع الشريف عطيفة فهب لمنعهم من الفساد ومعه ابنه ومملوكه ابن التاجى " امير عشرة " فقتل الثلاثة وقتل ابناء بعض كبار التجار (٦) ويذكر السنجارى شيئا قريبا من ذلك (٧).

اما ابن فهد فيذكر ان الملك الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣- ٦٩٤هـ)ثم (٦٩٨ - ٧٠٨هـ) ثم (٧٠٩ - ٧٤١هـ) اوعز الى شريف مكة عطيفة بقتل امير الركب العراقى ويعرف بمحمد الحجيج وكان مقربا عند ابى سعيد وقد ارسله غير مرة سفيرا الى مصر وقد اعجب به السلطان الناصرلكنه بلغه انه يتحدث عنه بما يكره فلما علم بمسيرة الى مكة كتب الى الشريف عطيفة أن يحتال فى قتله فكانت الخطة أن يقوم العبيد باثارة الفتنة وان يبدءوا بنهب حاج العراق

---

(١) احمد دراج : ايضاحات جديدة ،ص ٢٠٠ .
(٢) الفاسى : نفس المصدر والجزء ،ص ٢٤١، المقريزى : السلوك جـ٢،ص ١٧٦.
(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء ،ص ١٩٠ .
(٥) ابن ايبك : كنز الدرر ،جـ٩ ، ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .
(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ،جـ٩ ،ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .
(٧) السنجارى : منائح الكرم ،جـ١ ،ص ٣١٢ .

فاستصرخ الناس بالامير أيدمر - ولم يكن يعلم بالامر - ونهض لاطفاء الفتنة فحاول الشريف عطيفة أن يمنعه ولكنه أبى الا القضاء على الشر وعندما قصد مبارك بن عطيفة امير الركب العراقى لقتله منعه خليل ابن ايدمر فضربه مبارك بحربة مات منها كما استشهد والده وجماعة آخرون ثم كانت الحرب بين أهل مكة وأمير الركب المصرى وتعرضت الاموال والمتاجر للنهب اما الشريف عطيفة فمازال يداوى الأمر حتى اخرج الحجاج وأمرهم بالرحيل من مكة بعد أن أخذت أموالهم ونهب الحاج بعضهم بعضا ... أما أمير الركب العراقى فقد نجا وتمكن من الفرار (١).

ويبين ابن بطوطة وكان مجاورا بمكة تلك السنة سبب هذه الفتنة فيقول " سبب ذلك أن تجارا من أهل اليمن سرقوا فتشكوا الى أيدمر بذلك فقال آيدمر لمبارك بن عطيفة أئت بهوءلاء السراق ... فقال : لا أعرفهم فكيف نأتى بهم ؟ وبعد فأهل اليمن تحت حكمنا ولا حكم عليهم لك ، ان سرق لاهل مصر والشام شىء فأطلبنى به فشتمه أيدمر " بكلام ناب " وضربه على صدره فسقط ووقعت عمامته عن رأسه وغضب له عبيده وركب أيدمر يريد عسكره فلحقه مبارك وعبيده فقتلوه وقتلوا ولده ووقعت الفتنة بالحرم وكان به الأمير أحمد ابن عم الملك الناصر ورمى الترك بالنشاب فقتلوا امرأة قيل أنها كانت تحرض أهل مكة على القتال وركب ركب من الاتراك وأميرهم " خاص ترك " فخرج اليهم القاضى والائمة والمجاورون وفوق روءوسهم المصاحف وحاولوا الصلح ودخل الحجاج مكة فأخذوا مالهم بها وانصرفوا الى مصر (٢).

وربما يكون ما أشار اليه ابن بطوطة هو الصحيح نظرا الي معاصرته للحدث ... ثم أنه لو كانت الفتنة بايعاز من السلطان المملوكى لكان الامير المملوكى أول من يساعد على قتل أمير الركب العراقى ... بدلا من بذل الجهود

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٨٨ .
(٢) ابن بطوطة : الرحلة ،ص ٢٣٥ .

للقضاء على الفتنة وتخليص أمير الركب العراقى ثم انه ليس لدينا من المعلومات التاريخية ما يوءيد ما ذهب اليه ابن فهد لانفراده بهذا الرأى ومخالفة أكثر الموءرخين له ولكونه متأخرا فىالزمن عن الفترة التى حدثت فيها الفتنة .

وعاد النزاع على إمرة مكة من جديد يوءثر على الناحية التجارية ففى سنة ٧٣٦هـ هدد مبارك بن عطيفة أمن المجاورين وأخذ اموال التجار فحاربه الشريف رميثة ولكنه لم يستطع الصمود ففر الى الجذيذ [(١)] وبقى عطيفة فى مكة ولم يحجا هذه السنة ، ثم اصطلحا واستدعى الملك الناصر الشريفين رميثة وعطيفة الى مصر وعندما حضرا احتجز عطيفة وقلد رميثة امرة مكة [(٢)] أما مبارك بن عطيفة فقد استمر فى غيه واستباح أموال التجار ونهبها وظل كذلك حتى اعتقله الناصر سنة ٧٣٩هـ وحبسه بالقلعة مع والده عطيفة [(٣)].

ورغبة من الملك المجاهد صاحب اليمن فى كسب الموقف المضطرب فى مصر لصالحه بعد وفاة السلطان الناصر محمد سنة ٧٤١هـ حج فى سنة ٧٤٢هـ [(٤)] فاستقبله الشريف رميثة استقبالا حافلا وأجزل المجاهد العطاء لاهل مكة وكسا امير الركب الشامى والمصرى [(٥)] واعطى الشريف رميثة من النقد أربعين ألف درهم جددا مجاهدية وأعطاه من الكسوة وانواع الطيب والعنبر والعود ما يحمله أربعة من الحمالين وأعطاه عدة من الخيل والبغال كوامل العدد والآلات وخلع عليه وعلى من معه من الأشراف.[(٦)] وبرغم بذله وتوسعه فى العطاء لم يمكن من تحقيق غرضه فى كسوة الكعبة وتركيب بابها فخرج وهو حانق على بنى حسن [(٧)].

---

(١) المقريزى : السلوك جـ٢ ،ص ٤٠٨ ، ابن فهد : اتحاف الورى،ص ٢١٩.
" الجذيذ" موضع قرب مكة يقول ياقوت كانه فعيل من الجذ وهو القطع بمعنى مفعول . المعجم ،(معجم البلدان) ،مادة جذيذ ، جـ٢ ،ص ١١٦.

(٢) الفاسى : العقد الثمين ،جـ٤ ،ص ٦ ، ١٠١ .

(٣) الشجاعى : (شمس الدين ،تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده ،حققته وترجمته الالمانية " بربارة شيفر فيسبادن ١٣٩٢هـ/١٩٧٨م ق ١ ، ص ٤٦ ، ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٢٩٥ .

(٤) الشجاعى : نفس المصدر والقسم ،ص ٢٣٢.

(٥) ابن الديبع : المصدر السابق ق ٢ ،ص ٨٥.

(٦) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٢٩٦.

(٧) الشجاعى : نفس المصدر والقسم ،ص ٢٣٢، ابن فهد : نفس المصدر،ص ٢٩٧.

وبقى رميثة فى إمارة مكة حتى عجز عن إدارة شئونها والحفاظ على الأمن فيها وعجز عن اولاده لانه ضعف وكبر ولم يكن له سبيل لحل الموقف الا التنازل عن الأمارة سنة ٧٤٤هـ لولديه عجلان وثقبة مقابل ستين ألف درهم [1] هذا ولم تشر المصادر الى كون هذا المبلغ سنويا أو نهائيا ويغلب الظن أنه سنوى.

وبطبيعة الحال لم يرض هذا الوضع السلطنة فى مصر لان معناه اشـــارة ظاهرة خطيرة فى صفوف الاشراف ذلك آن توليه الامارة فى مكة أو العزل أو قبول التنازل وهو من صميم سلطات سلاطين المماليك ولا يتم ذلك الا بموافقتهم كما أن ظهور مثل هذه الحالة من شأنه ان يهدد الامن فى مكة وهو ما لم يكن سلاطين المماليك ليرضوا به فأرسل السلطان الصالح اسماعيل ابن الناصر محمد (٧٤٣-٧٤٦هـ) مرسوما برد البلاد على رميثة وا ستد عى ثقبه الى مصر وهناك اعتقله بعد أن شك فى أمره فقد سبق أن طلب توليته إمارة مكة دون أخيه - أما عجلان فقد خرج إلى جهة اليمن ومنع وصول الجلاب والمتاجر الى مكة فأدى ذلك إلى الغلاء العظيم وخاصة فى أيام الموسم فقد كان حجاج مصر والشام كثيرين جدا. [2]

ويبدو أن امتناع وصول المتاجر من هذه الجهة أحدث أزمة اقتصاديـــة كبيرة فى مكة بعد أن كانت شحنات الغلال والسلع اليمنية تتدفق عليها بالاضافة الى متاجر الشرق .

وبعد رحيل الحاج رجع عجلان الى مكة واصطلح مع والده غير أن التجـــارة المحلية فى مكة لم تسلم منه ... فقد أخذ من التجار مالا عظيما [3].

وفى سنة ٧٥١هـ حج المجاهد صاحب اليمن [4] فى سبعمائة فارس وثمانمائـــة

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ج٤،ص ٤١٦، ابن فهد: اتحاف الورى ،ص ٢٩٧ ، السنجارى : منائح الكرم ج١،ص ٣١٥، الطبرى: اتحاف فضلاء الزمن ،ص ٣٤ .

(٢) الفاسى : نفس المصدر ،ج٦ ،ص ٥٩، ابن فهد: نفس المصدر والصفحة السنجارى نفس المصدر والجزء والصفحة ، الطبرى : نفس المصدر والصفحة .

(٣) الفاسى : المصدر السابق ج٦،ص ٥٩، ابن فهد: اتحاف الورى: ص ٢٩٧ ، السنجارى:منائح الكرم ج١، ص ٣١٥، الطبرى: اتحاف فضلاء الزمن ،ص ٣٤ .

(٤) ابن الديبع :قرة العيون،ق٢،ص ٧٦،يحيى بن الحسين:غاية الامانى،ق٢،ص ٥١٦.

رام وعدد من مقاتلة اليمن وصنعاء،وكان يروم تعليق كسوة الكعبة وفى صحبته الشريف ثقبة الذى لجأ إليه بعد انفراد أخيه عجلان بإمارة مكة وأغراه باقامة الخطبة له وتعليق كسوته على الكعبة [١] فخشى عجلان ان يتمكن المجاهد بعد رحيل الحاج من تحقيق ما نقل اليه وما أشيع فى مكة عن نية المجاهد تقليد أخيه ثقبة إمارة مكة ورفع كسوة المصريين عن الكعبة وتعليق كسوته [٢] فأسرع بابلاغ أمير الركب المصرى بذلك فكانت النتيجة هى القبض على الملك المجاهد وأخذه إلى القاهرة أسيرا [٣].

وأصاب تجارة مكة عقب هذه الحادثة تطور خطير فبعد رجوع المجاهد الى اليمن اتبع سياسة اقتصادية جديدة بتأثير عامل الرغبة فى الانتقام من أشراف مكة وسلاطين المماليك [٤] وقد ارتبط هذا العامل زمنيا واقتصاديا بعدن إذ تبوأت فى ذلك الوقت مكانة تجارية عالية وصارت القاعدة الرئيسية لمتاجر الشرق .

وبسبب قوة المماليك لم يستطع المجاهرة بعدائه لهم بل لجأ الى مداراتهم فى الظاهر ويبدو أن الضغط الاقتصادى الذى مارسه ضد اشراف مكة كان موجها أيضا إلى المماليك باعتبار مكة جسرا تنقل عن طريقه معظم متاجر مصر .
ولذلك منع تجار اليمن من السفر إلى مكة [٥] كما منع جلابهم من الرسو

---

(١) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٢٩٩ .
(٢) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٠٠، ابن الديبع : نفس المصدر والقسم ،ص ٧٧
يحيى بن الحسين : نفس المصدر ق١ ،ص ٥١٦ .
(٣) الفاسى : نفس المصدر ج٦ ،ص ٦٢ ، ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٠١ ، السنجارى نفس المصدر ج١ ، ص ٣١٧-٣١٨، محمد عبد العال احمد : بنو رسول، ص ٤٢٣-٤٢٤.
(٤) احمد دراج : ايضاحات جديدة ،ص ٢٠٢ .
(٥) الفاسى : تحصيل المرام ،ق ١٩١أ ، المقريزى : السلوك ج١ جزء ٢ ،ص ٨٨٨ ، ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٠٣ .

فى فرضتها جدة [١].

أما العامل الآخر الذى أثر فى الحياة التجارية فى مكة فهو استمرار التنافس على إمارة مكة بين الاخوين عجلان وثقبة فقد أدى الصراع بينهما إلى عرقلة النشاط التجارى وطمع كل منهما فى أخذ الضرائب من التجار لنفسه [٢] وتعسفا فى جبايتها [٣] ووصل بهما الامر الى حد منع التجار بعد اخذ الجبا منهم من دخول مكة [٤].

وليس هناك من شك مطلقا فى أن المقاطعة الاقتصادية من قبل اليمن كان لها أثرها السيىء على الحركة التجارية فى اسواق مكة وجدة والأوضاع الأمنية المضطربة فارتفعت أسعار الغلال والسلع وعم الغلاء [٥] وانعكس أثر ذلك أيضا على الأشراف أنفسهم فقل ما بيدهم فاضطروا إلى التوجه ناحية اليمن وتتبع الجلاب اليمنية والاستيلاء على ما بها من أموال ومتاجر [٦] وقد ظهر بوضوح احتياجهم إلى المال عندما قام عجلان سنة ٧٥٥هـ بفرض الضرائب على نخيل وادى مر " وادى فاطمة " وحصل له من ذلك مال عظيم [٧].

من كل ما سبق يتبين لنا أن ما حدث إنما كان لمطامع شخصية أو دوافع سياسية وقد عجزت القوى المملوكية عن إقرار الأمن فى كثير من الأحيان فتدهورت الأحوال الاقتصادية والأمنية، فصار البلد الأمين مسرحا للطامعين الذين كثر فسادهم وجورهم حتى خلت مكة من التجار والناس وتفرقوا فى سائر الأمصار [٨].

---

(١) المقريزى : نفس المصدر والجزء ، ص ٨٦٧، محمد عبد العال احمد : بنو رسول ، ص ٤٢٧ .

(٢) الفاسى : العقد الثمين ج٣ ، ص ٣٩٧، المقريزى : نفس المصدر والجزء ، ص ٨٨٧ .

(٣) الفاسى : العقد الثمين ج٦ ، ص ٦٢ .

(٤) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٠٢ .

(٥) الفاسى : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص ٢٧٣ – ٢٧٤، ابن فهد: اتحاف الورى ، ص٣٠٣ .

(٦) الفاسى : العقد الثمين ج٦، ص ٦٢، ابن فهد: نفس المصدر ، ص ٣٠٢

(٧) الفاسى : العقد الثمين ج٦، ص ٦٤–٦٥، ابن فهد: نفس المصدر، ص ٣٠٤ .

(٨) الفاسى : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص ٢٧٣–٢٧٤ .

وفى سنة ٧٦١هـ كانت الفتنة العظيمة بين بنى حسن وعسكر المماليك[١]. وقبض فيها على أمير الركب المصرى وجماعة من المماليك وعرضوا للبيع بأبخس الأثمان [٢] فغضب السلطان الناصر حسن وأمر بتجهيز عسكر للحجاز وأمرهم بأن يستأصلوا الأشراف وقال "لا حاجة لنا بهم" [٣] ولكنه لم يتمكن من تحقيق ذلك بسبب الثورة عليه وخلعه .[٤]

غير أن الصلة بين أشراف مكة وسلاطين المماليك كانت فيما يبدو ضعيفة فقد أدى الصراع الداخلى إلى افتقاد استمرار الدعاء للمماليك فى مكة فظهر فى الافق نجم الجلائريين الذين استتب لهم الأمر فى العراق بعد ايلخانات المغول وتطلعوا إلى مد نفوذهم وسيادتهم على مكة ونجح أويس بن حسن[٥] فى أن يكون الدعاء له وحده على منابر مكة ومن فوق جبل عرفات منذ عام ٧٦١هـ حتى ٧٧١هـ بفضل المساعدات المالية التى كان يرسلها إلى الأشراف[٦]

واذا كان عجلان بن رميثة قد استطاع ضبط الامور فى اثناء فترة استقلاله ومهد لاتساع الحركة التجارية فى مكة فان الفترة لم تنعم كلها بالهدوء فقد كان يتخللها بعض التوتر نتيجة للطمع فى الإمارة ومن ذلك ما حدث سنة ٧٦٣هـ عندما تمكن سند بن رميثة ـ شقيق عجلان ـ من الاستيلاء على جلبة وصلت وفيها مال عظيم لتاجر مكى [٧] .

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ،جـ٢ ،ص ١٤٢ ـ ١٤٤ .

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٠٨، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١٠ ص ٣١٦ .

(٣) السنجارى : منائح الكرم ،جـ١ ،ص ٣٢٢ .

(٤) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٠٩ .

(٥) هو أويس بن حسن المغلى التبريزى سلطان العراقين بويع بالسلطنة سنة ٧٦٠هـ واشتهر بالعدل والشجاعة وحب الخير توفى سنة ٧٧٦هـ ، ابن حجر : ابناء الغمر ،جـ١ ،ص ٨٣، ابن العماد: شذرات الذهب ،جـ٦ ، ص ٢٤١-٢٤٢ .

(٦) الفاسى : نفس المصدر جـ١ ،ص ١٩٦، احمد دراج : ايضاحات جديدة ،ص ٢١٠ .

(٧) الفاسى : المصدر السابق ،جـ٦ ، ص ٦٨-٦٩ .

وفى سنة ٧٨٤هـ تعكرت العلاقات الحجارية اليمنية بسبب المحمل اليمنى ونظرا الى تفوق اليمن التجارى فى هذه الفترة لجأ الاشرف الى منع التجار من التوجه الى جدة وأمرهم بالمضى الى سواكن وتأثر النشاط الاقتصادى فى الحجاز بتلك المقاطعة ثم عادت الامور الى طبيعتها بعد عودة العلاقات بين الطرفين (١).

ويذكر الحافظ ابن حجر انه فى سنة ٧٨٧هـ تعرضت اموال التجار وبضائعهم للسلب والنهب بسبب فتنة ثارت بين عبيد شريف مكة احمد بن عجلان وبين التجار(٢) الا ان المصادر التاريخية المكية لم تشر الى ذلك ولعل هذا حدث على اثر النزاع بين الشريف احمد بن عجلان وابنى عمه حسن بن ثقبة وعنان بن مغامس.(٣)

وخلف أحمد بن عجلان عنان بن مغامس سنة ٧٨٨هـ لكنه لم يكن فى حزم وقوة سلفه أحمد ... فقد عجز عن نشر الامن فى البلاد ولم يستطع السيطرة على آل عجلان وعلى الرغم من تعيينه محمد بن عجلان نائبا له فى جدة فقد كان يخشى غدره فعهد لمحمد بن بركتى - ابن مولى والده - بمراقبته سرا واعلامه بما يريب من أحواله فحدثت بين الشريفين وحشة بسبب ذلك (٤) وانتهى الأمر بالشريف محمد الى جمع آل عجلان وعلى رأسهم كبيش بن عجلان والاستيلاء على اموال تجار اليمن وتجار الكارم وكانت أموالا عظيمة قدرت بستمائة ألف مثقال ذهبا كما نهبوا مستودع الغلال الخاص بالاميرين جركس الخليلى وايتمش (٥) وعاث آل عجلان وعبيدهم فسادا فى جدة ووادى مر وهددوا الطرقات (٦)

ثم أن عنانا لم يحسن التصرف فعلى الرغم من عدم خروجه للقضاء على تمرد آل عجلان يبدو انه لم يكن لديه مال أو ثروة يقوى بها سلطانه واضطره

---

(١) ابن حجر : ابناء الغمر، جا ، ص ٢٦٣ .
(٢) ابن حجر : نفس المصدر والجزء ، ص ٣٠٣
(٣) ابن فهد : المصدر السابق ، ص ٣١٨ .
(٤) الفاسى : العقد الثمين ج٦، ص ٤٣٥، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣١٣ .
(٥) الفاسى: نفس المصدر ج٧، ص٨٧-٨٨، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣١٣ . السنجارى : منائح الكرم ، جا ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .
(٦) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٢٠ .

ما هو فيه من وضع سيئ الى وضع يده على ما فى بيت شمس الدين ابن جـــن البـئر - وكيل الامير جركس الخليلى [1] وكان شيئا كثيرا من الغلال والقماش والسكر ولكسب ولاء بنى حسن فرق عليهم جانبا من ذلك واشرك معه ثلاثة مـــن الاشراف فى إمرة مكة وصار يدعى للاربعة فى مكة [2] وساءت بذلك احوال البلاد

ولذلك عزل السلطان المملوكى برقوق (٧٨٤ - ٧٩٠هـ) ثم (٧٩٠- ٨٠١هـ) ، عنانا وولى على بن عجلان إمارة مكة غير أن عنانا امتنع عن تسليم البـــلاد لعلى وقامت بينه وبين أنصار على فتنة انتهت بانتصاره وقتل كبيش بـــن عجلان وجماعة من عبيد آل عجلان [3] .

ثم توجه على بن عجلان إلى مصر فى رمضان من السنة نفسها وعاد مـــع الركب المصرى شريكا لـعنان فى الإمارة ففر عنان الى الزيمة بوادى نخلـة اليمانية وهناك صادف وصول قافلة بجيلة فمنعها من دخول مكة [4] .

وقد كان لقوافل بجيلة أثر كبير فى الحياة الاقتصادية فى مكة فقـــد كانت تساهم فى توفير الكثير من المواد الغذائية [5] ولهذا تأثرت الأســواق بمكة بمنع وصول هذا الجلب فوقع الغلاء فى السلع وعانى الناس من شـــدة عظيمة ولم ترخص الأسعار الا بعد دخول تلك القافلة المحصورة فى مكة بعد ان هرب عنان ظنا منه أن العساكر قد داهمته [6].

وبعد رحيل الحاج من مكة أضر عنان والأشراف باقتصاديات الحجاز ضررا بالغا واستولوا على وادى مر وعلى جدة ونهبوا أموال بعض تجار اليمـــن وأفسدوا فى الطرقات [7] .

---

(١) ابن حجر : ابناء الغمر ،ج١ ،ص ٤٦٣ .
(٢) الفاسى : العقد الثمين ج٦ ،ص ٤٣٥، ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ص ٣٢٠ - ٣٢١
(٣) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٢١ .
(٤) الفاسى : نفس المصدر والجزء ،ص ٤٣٦ .
(٥) ابن جبير : الرحلة ،ص ٩٨ ، ابن بطوطة : الرحلة ،ص ١٦٠ .
(٦) ابن حجر : ابناء الغمر ،ج١ ،ص ٣٣٢ .
(٧) الفاسى : العقد الثمين ،ج٦ ،ص ٢٠٧ ، ابن فهد : اتحاف الورى ،ص٣١٥

وفى سنة ٧٩٢ هـ جدد السلطان برقوق إمارة عنان لأنه كان ممن بشره بعودة السلطنة اليه فجعله شريكا لعلى واتفقا على أن يقيم كل منهما خارج مكة ويكون لهما نواب فى مكة لادارة شئونها وأخذ الضرائب وعانى التجار كثيرا من قلة الامن وارتفاع المكوس وسرقة الأموال [١] ونهب الحجاج فى طريق منى ومكة [٢].

ثم تولى على الإمارة منفردا من سنة ٧٩٤هـ حتى قتل سنة ٧٩٧هـ ورغم أنه سار فى ولايته سيرة حسنة [٣] لم تنعم البلاد بالاستقرار بسبب تمرد بعض الاشراف وكان على قد اتبع كل الوسائل معهم فاسترضاهم حينا و شدد عليهم حينا آخر واضطر الى سجنهم أحيانا ،لكنهم تمادوا فى عصيانهم ومناوآتهم فكثرت الفتن والقلاقل وكان لضعف حالة الأمن بمكة وجدة نتائجه المباشرة على الحركة التجارية فقد خلت البلاد من التجار بعد أن فروا بأموالهم كما أعرض عنها التجار الذين اعتادوا القدوم اليها واتجهوا إلى ينبع [٤].

وسادت الأوضاع القلقة بعد مقتل على وتصاعدت فى موسم الحج فقد تعرض أهل مكة للحجاج بالقتل والنهب فى المسجد الحرام وفى طريق عرفه واشتدت وطأة السراق فأسرع الحجاج جميعهم بالخروج من مكة فى أول أيام النفر [٥].

وقد اسفر رحيل الحاج فى هذا الوقت المبكر عن ارتفاع شديد فى الإسعار بمكة [٦] ذلك أن موسم الحج يعد من أزهى المواسم التجارية ويعتمد عليه المكيون اعتمادا كبيرا وطالما أدر ثروات طائلة على أشراف مكة وتجارها وأهلها والمجاورين فيها ".....فلما كانت ولاية الشريف حسن بن عجلان (٧٩٨ – ٨٢٨هـ) [٧] اتبع مع التجار سياسة غير ثابتة بين تشجيعهم على القدوم الى

---

(١) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٣٨–٤٣٩ .
(٢) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣١٨ .
(٣) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ،جـ٢ ،ص ٢٧٧، ابن حجر : نفس المصدر جـ١ ، ص ٥٠١ ، ابن العماد : شذرات الذهب جـ٦ ،ص ٣٥٠ .
(٤) الفاسى : العقد الثمين جـ٦،ص ٢١٢، ابن فهد : اتحاف الورى، ص ٣١٨ – ٣١٩ . السنجارى : منائح الكرم ،جـ١ ،ص ٣٣٢ .
(٥) الفاسى : نفس المصدر جـ١ ،ص ١٩٧ .
(٦) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣١٩ .
(٧) تخلل هذه السنوات عزل للشريف حسن سنة ٨١٨،وسنة ٨٢٧، ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين جـ١ ،ص ٣٦٢ .

مكة وجدة وتقديم التسهيلات لهم والطمع فيهم والاستيلاء على اموالهم كلما سنحت الفرصة غير أنه كان يستخدم دهاءه وحسن تصرفه فى هذه الناحية فيعتذر حينا ويماطل حينا آخر لكسب الموقف الى جانبه ومن ذلك .. أنه استولى سنة ٨٠٤هـ على اكثر من خمسة وستين ألف مثقال من التاجر شهاب الدين أحمد بن القاضى برهان الدين المحلى وجماعة منتجار الكارم وبرر ذلك بانه فى مقابل الربع الذى يأخذه ولاة البلاد وكان مركبهم قد انصلح بالقرب من مكة [١] وقد اغضب عمله هذا القاضى برهان الدين المحلى [٢].... فطالبه برد ما أخذه من ابنه فاعتذر ووعده برده الا أن موت القاضى قد اراحه من إعادة المبلغ الذى استولى عليه بل انه صادف ان مات ابنه شهاب الدين المذكور فى مكة فى نفس السنة فاستولى على تركته وكانت تقدر بألف وأربعمائة زكيبة [٣].

وشهدت سنة ٨١٢هـ توتر العلاقات بين أمير مكة وصاحب اليمن فقد أخذ الشريف حسن خمسة آلاف مثقال من سفيره عبد الله الهبى فى مقابل بيت شعر بعثه لصاحب اليمن فمنع صاحب اليمن التجار منالقدوم الى مكة ...[٤] وتأثرت الحركة التجارية كثيرا حتى ان الشريف حسن حاول غزو اليمن [٥]. ليمنع تهديدها المستمر للتجارة كلما ساءت العلاقات بينهما .

وتفكير الشريف حسن فى هذا الامر لابد أن يكون الدافع اليه سعة النفوذ والغنى الذى بلغه وبناء على ما سبق خشيت السلطات المملوكية من نزعته الاستقلالية واتساع سلطانه فرسم بعزله وعزل ولديه وكان قد طلب اشراكهما فى الحكم معه .. وهنا استخدم الشريف حسنالمال ليبقى على

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ج٤ ،ص ٩٩ .
(٢) من كبار تجار الكارمية فى مصر توفى سنة ٨٠٦هـ .
(٣) الفاسى : نفس المصدر ج٤ ، ص ٩٩ — ١٠١ .
(٤) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٢٩ .
(٥) الفاسى : العقد الثمين ،ج٤ ،ص ١٠٧ .

امارته فأرسل ألف زكيبة للسلطان فرج بن برقوق بيعت فى مصر بخمسين ألف مثقال [١] ومنذ هذا التاريخ زادت اطماع المماليك [٢] واصبح ارسال الاموال والهدايا عادة يتبعها امراء مكة وشرطا من شروط التولية [٣].

ويبدو ان المتاجر اليمنية قد عادت الى مكة فإن ابن فهد يذكر أنه فى آخر سنة ٨١٣هـ استولى الشريف حسن على الأموال التى كانت مع سفراء التاجر اليمنى القاضى وجيه الدين عبد الرحمن بن جميع [٤] وكانت تساوى ثمانين ألف مثقال فغضب صاحب اليمن مرة اخرى ومنع الجلاب من التوجه الى مكة وانقطع الواصل من اليمن حتى سنة ٨١٥هـ حين عاد الجلاب بعد اعتذار الشريف الى صاحب اليمن وتعهده بأن يعوضه عما اخذه واستعان بالحراشى نائبه على جدة فى تخليص المبلغ من التجار .[٥] .

وإذا كانت فترة ولاية حسن بن عجلان قد اتسمت بالاستقرار النسبى وتوقف الصراعات الداخلية على السلطة فإن الأمر لم يخل من حدوث اضطرابات فى بعض السنوات منها أنه فى سنة ٨١٦هـ هجم بعض الاشراف على مكة ولكنهم خرجوا منها خوفا من حسن وأقاموا باليمن مدة ثم عادوا إلى جدة واستولوا عليها ونهبوها ونهبوا بيت مسعود الصبحى نائب حسن الجديد فى جدة [٦]

وكانت هذه السنة شديدة على تجار اليمن فقد وردوا بمتاجر عظيمة غير أنهم تكبدوا خسائر جمة من غلمان الشريف حسن الذين تعسفوا معهم فى أخذ الضرائب [٧] وامام هذه الاساءات المتكررة للتجارة والتجار من قبل الشريف حسن وغلمانه لم يلجأ صاحب اليمن هذه المرة الى المقاطعة الاقتصادية لمكة وجدة فحسب .... بل لقد لجأ إلى إحياء المراع على مكة

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٣٠ .
(٢) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ١١١ .
(٣) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٥٢ – ١٥٣ . المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص ٧٠٧–٧٠٨ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ١٦٠ . ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ٢٥٥ .
(٤) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٣٢ .
(٥) الفاسى : العقد الثمين : ج٤ ، ص ١١٣ – ١١٤ .
(٦) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٣٧ .
(٧) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ١١٧ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٣٨ .

للاضرار بالشريف حسن من الناحية السياسية وانتزاع الامارة منه [١] .

وفى سنة ٨١٧هـ حدثت فتنة عظيمة فى مكة انتهكت فيها حرمة المسجد الحرام وضعف الأمن وانتهبت الأسواق كما تعرض الحجاج للنهب والسلب ،يقول الطبرى : " ولا يعلم فتنة أعظم منها بعد القرامطة "[٢].

وفى سنة ٨١٨هـ صادر الشريف حسن بعض كبار التجار المقيمين بمكة [٣] وكان مقدار ما أخذه من القاضى كمال الدين موسى بن جميع سبعة آلاف مثقال ومن الخواجا بدر الدين المزلق ثلاثة وثلاثين ألف افرنتى كما اخذ من الشهاب احمد العينى ما ظهر من مال موكله الخواجا برهان الدين بن مبارك شاه [٤]

وهكذا نجد أن سياسة حسن بن عجلان قد تحولت حين استقرت له الامور بمكة من جذب التجار وحماية تجارتهم والمحافظة علي مصالحهم الى مصادرة اموالهم ونهبها والمبالغة فى جباية الضرائب ونحوها وبذلك إختلت سياسته الاقتصادية إذ اصبح السعى الى جمع المال هدفه وغايته وكانت التجارة أهم العناصر المؤدية الى غرضه فكان السعى عن طريقها والضغط على التجار هو السبيل المألوف لزيادة ثروته فهو يمسك بزمام الحركة التجارية بسيطرته على الحجاز .

وكان من الطبيعى الا ترضى هذه الأعمال المماليك فكانت النتيجة عزل الشريف حسن وتولية ابن أخيه رميثة بن محمد بن عجلان ومع ذلك لم تسلم التجارة من تعرض الشريف حسن لمراكب التجار ونهبها [٥] ولم يكتف بذلك بل أمرها بالمضى الى ينبع حتى لا تجوز على جدة أو تدخل مكة [٦] وعندما سمع التجار بما حدث من السيد حسن آثروا العودة بمتاجرهم الى اليمن [٧]

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ،جـ٤ ، ص ١١٧–١١٨ .
(٢) الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ، ص ٥٢ – ٥٣ .
(٣) ابن حجر : ابناء الغمر ،جـ٣ ،ص ٥٦ .
(٤) الفاسى : نفس المصدر والجزء ،ص ١٢٠ ،ابن فهد : اتحاف الورى،ص ٣٤٢.
(٥) ابن حجر : المصدر السابق ،جـ٣ ص ٥٦ .
(٦) الطبرى : المصدر السابق ،ص ٥٣ ،السنجارى : المصدر السابق جـ١ ،ص٣٤٤.
(٧) الفاسى : العقد الثمين ،جـ٤ ،ص ١٢٢ .

وفى سنة ٨١٩هـ استولى الشريف حسن على غلال واموال اصحاب رميثة كما اخذ ثلاثة عشر ألف مثقال ومئتى مثقال من اموال تجار الكارم فى نظير ان يحمى تجارتهم ويمكنهم من السقيا من جدة [١] ومع ذلك ارسل الى السلطان المؤيد شيخ (٨١٣هـ - ٨٢٤هـ) يسترضيه ويستعطفه لكى يعود الى مكة والتزم للسلطان بمبلغ ثلاثين ألف مثقال [٢] ولم يجد السلطان بدا من الاستجابة له لانه وجد فيه الشخصية القوية التى تستطيع ان تمسك بزمام الامور فى البلد الحرام فارسل اليه التقليد فى سنة ٨١٩هـ فدخل مكة واخرج رميثة واعوانه بالقوة [٣].

الا ان الاشراف من بنى ثقبة لم يلبثوا ان نازعوا الشريف حسن ...... واستولوا على جدة سنة ٨٢٠هـ واعلنوا الامارة لثقبة بن احمد وميلب بن على وجعلوا لهما نوابا فيها ... واستولوا على كثير من الطعام فيها واخذوا الضرائب من الجلاب الواصلة اليها فاسرع اليهم الشريف حسن واستعاد جدة [٤] فما لبث الاشراف ان عرجوا على مكة وحاربوا نائبه فيها مفتاح الزفتاوى وقتلوه مع جماعة من عسكر حسن [٥] فاضطر حسن الى مهادنتهم بالصلح على الا يتعرضوا للحجاج والتجار فى الطرق الموصلة الى مكة ... مقابل مبلغ من المال يدفعه لهم . [٦]

وفى سنة ٨٢٤هـ اعلن كثير من الاشراف والقواد التمرد على الشريف حسن والخروج عن طاعته ولعل ذلك كان بسبب ابطاله للرسوم التى كان يدفعها لهم كل عام [٧] وانضم الخارجون الى ابن اخيه رميثة بن محمد بن عجلان واستولوا على جدة ونشروا الرعب فى الطرقات وأدت هذه الاحوال الامنية المضطربة الى تخوف تجار اليمن القادمين الى مكة بعد ان نجل اكثرهم خارج جدة [٨] واستمر

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٤٣ .
(٢) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٣٣- ١٣٤ ،ابن فهد :نفس المصدر ،ص ٣٥٢ .
(٣) السنجارى : منائح الكرم ،جا ،ص ٣٤٤ .
(٤) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٤٦ .
(٥) السنجارى : نفس المصدر والجزء ،ص ٣٤٦ .
(٦) الفاسى : العقد الثمين ،ج٤ ،ص ١٢٨ .
(٧) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٤١ - ١٤٢ .
(٨) الفاسى : العقد الثمين ج٤ ،ص ١٤٢ ،ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٥٣ .

النزاع فترات متقطعة حتى سنة ٨٢٦هـ كما تخللها نزاع بين ابراهيم وبركات ابنى الشريف حسن وجماعتهما [١]... ويبدو ان العلاقات بين الشريف حسن والسلطان المملوكى برسباى لم تكن على مايرام فقد ترك الشريف حسن مكة فى اوائل ذى القعدة من موسم سنة ٨٢٦هـ ولم يباشر خدمة المحمل المصرى وكان فيه عدد من امراء الالوف والطبلخانات لارتياب الشريف وتخوفه من أن يحدثوا فى مكة امرا يكون فى غير صالحه [٢] فقد اشيع ان السلطان يريد القبض عليه [٣] ويذكر الفاسى " ان الامراء راسلوا الشريف حسن وطلبوا منه المجىء الى مكة فاعتذر وبلغ الامر انهم استدعوا الشريف رميثة سرا واطمعوه بولاية مكة الا انه لم يستطع الوصول لوجوده مع عمه الشريف حسن [٤].

غير ان الاوضاع فى مكة سارت بصورة حسنة واستطاع الامراء حراسة الحاج والمحافظة على اموالهم واموال التجار حتى انتهاء الموسم وخرجوا من مكة والاحوال بها مستقرة ولم يحدثوا فيها ما يريب [٥] بيد أن الدعاء لصاحب اليمن قد ترك بمكة [٦] .

وقد ادى نزوح الشريف عن مكة وعدم لقائه لامراء الحاج الى تأزم العلاقات بين الشريف حسن والسلطان برسباى فجهز برسباى تجريدة لقتال اشراف مكة [٧] وتقليد الشريف على بن عنان ولاية مكة ودخل على مكة بدون قتال نظرا

---

(١) الفاسى : نفس المصدر ،ج٤ ، ص ١٤١ - ١٤٢ .
" كان الشريف حسن قد سأل السلطان المملوكى اشراك ابنه ابراهيم مع ابنه بركات وان يكون الاشراف مع ابراهيم والقواد مع بركات وان يكون لكل منهما ثلث الحاصل لامير مكة وله ان يصرف منه على جماعته بالصورة التى يراها سا ، الفاسى : نفس المصدر والجزء ،ص ١٤١ .
(٢) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٥٦ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ،ج١٤ ،ص ٢٦٠ .
(٤) الفاسى : نفس المصدر والجزء ،ص ١٤٦ ، ابن فهد : نفس المصدر ،ص ١٥٦ .
(٥) يذكر الطبرى ان الشريف عنان بن مغامس قد وصل الى مكة البا من قبل السلطان برسباى وان الشريف حسن اخرج من مكة وتوجه مع العسكر الى مصر فاحسن اليه السلطان وانعم عليه برد ولاية مكة له ... الا انه توفى فى مصر اثر مرض اصابه فى جمادى الآخر سنة ٨٢٧هـ ، اتحاف فضلاء الزمن ص ٥٦ .
(٦) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٥٧، فى اطار تحسين العلاقات مع اليمن وتوثيق الصلات الاقتصادية كان يدعى لصاحب اليمن على زمزم وبعد المغرب بموافقة السلطان المملوكى وبامر منه ، انظر الفاسى : العقد الثمين ،ج٤ ،ص ٩٧ .
(٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ،ج١٤ ،ص ٢٦٠

لخروج السيد حسن منها واعاد على الدعاء لصاحب اليمن [١] وبقى معه العسكر القادم من مصر لحفظ مكة من السيد حسن[٢] ،ثم عزل على فى جمادى الآخر سنة ٨٢٨هـ وتم استدعاء السيد حسن الى الابواب الشريفة فى مصر واستقبله السلطان وأرباب دولته استقبالا حافلا واعاده السلطان الى امارة مكة بعد أن التزم بثلاثين ألف دينار للسلطان المملوكى [٣] واضطر السيد حسن الى الاقتراض من تجار القاهرة لتسديد المال الذى التزم به غير انه توفى فى القاهرة سنة ٨٢٩هـ بعد ان دفع خمسة آلاف [٤] وفى القاهرة قلد السلطان امارة مكة للشريف بركات والزمه بان يقوم بما تأخر عنه والده وهو مبلغ خمسة وعشرين ألفا [٥] بالاضافة الى عشرة آلاف يحملها له بركات كل سنة والا يتعرض لشىء من عشور التجارة فى جدة [٦] .

ومما سبق يتضح ان حمل الاموال للسلاطين قد صار عاملا هاما من عوامل التولية بل ان ذلك قد امتد فيما بعد فشمل زوجة السلطان واولاده وأرباب دولته وكان لكل هوءلاء نصيب وافر مع السلطان من كل ما يقدم اليه [٧] وهذا بطبيعة الحال لابد ان يوءثر تأثيرا سيئا فى احوال مكة وخاصة من الناحية الاقتصادية فمكة بطبيعتها الجغرافية ليس لها موارد اقتصادية تعتمد عليها سوى التجارة التى تزدهر ايام الموسم فكان اشراف مكة يقترضون من التجار للقيام بالخدمة السلطانية ولا يطمع احد من التجار منهم بالوفاء [٨]........

ويذكر ابن فهد " ان سفر الشريفين بركات وابراهيم الى مصر بعد استدعاء السلطان لهما سنة ٨٢٩هـ قد اطمع الاشراف من آل نمى فتوجهوا من اليمن الى مكة للتشويش على اهلها ونهبوا بعض اعمال مكة فخرج السيد ابو القاسم

---

(١) الفاسى :نفس المصدر ج٤ ،ص١٤٨، ابن فهد: نفس المصدر ،ص ٣٥٨ .
(٢) ابن حجر : ابناء الغمر ،ج٣ ،ص ٣٦٤ .
(٣) الفاسى: نفس المصدر والجزء ،ص ١٥٢ ،ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٦٢ ، السنجارى : نفس المصدر ج٢ ،ص ١ .
(٤) ابن حجر : ابناء الغمر ،ج٣ ،ص ٣٦٤ .
(٥) الفاسى :المصدر السابق ج٤ ،ص ١٥٣، المقريزى : السلوك ،ج٤،ص ٧٢٣ ،ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٦٣،.
(٦) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة ،ابن حجر : نفس المصدر والجزء والصفحة ،ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٦٣ .
(٧) ابن تغرى بردى : المصدر السابق ج١٦، ص ٩٢ — ٩٣ .
(٨) الفاسى: المصدر السابق ج٤،ص ١٣٩، ابن حجر: المصدر السابق ج٣،ص ٢٥٣ .

بن حسن بن عجلان ومعه القواد من آل عمر وآل حميضة والاشراف آل عجلان وآل حسن ونازلهم خارج مكة وانتصر عليهم وتمكن السيد ابو القاسم من حفظ البلاد حتى عودة اخوية [١] .

وفى سنة ٨٣١هـ وصلت تجريدة عسكرية الى مكة المكرمة لنصرة السيد بركات على اخويه أبى القاسم وابراهيم [٢]وكان هدفها حفظ المال بجدة [٣] .

غير ان ابا القاسم اتجه بعد سفر الحاج سنة ٨٣٢هـ الى جدة وتعرض لبعض التجار واخذ منهم بعض الغلال واتجه الى ينبع وتبعه آخوه ابراهيم وساءت العلاقات بيهما وبين اخيهما بركات ووصل الامر الى قيام النزاع بينهم واستعان بركات بالمعسكر المملوكى لمنع اخويه من دخول مكة وتهديدهما للامن وسارت الرسل بين الاخوة بالصلح وطلب السيد ابو القاسم أن يجعل له اخوه رسوما جيدة بمكة فوافق السيد بركات على ان يتوجه ابو القاسم معه الى مكة فرفض ابو القاسم واتجه الى اليمن واخذ يتعرض للجلاب والمراكب القادمة الى مكة فاضطر السيد بركات الى ان يدفع له ألفين ومائة مقابل عدم التعرض للتجارة الصادرة والواردة من والى مكة وقد وافق السلطان المملوكى على اعطاء السيد ابى القاسم هذا المبلغ كل سنة حتى سنة ٨٣٦ هـ ثم اصطلحا صلحا شافيا فى العام التالى سنة ٨٣٧هـ .[٤]

وفى سنة ٨٣٩هـ قامت فتنة كبيرة فى جدة غير ان الشريف بركات استطاع اخمادها وساس الامر بحزم وحنكة [٥] .

ويبدو ان الاحوال الامنية فى الحجاز فى سنة ٨٤٤هـ كانت على غير مايرام فقد ورد كتاب من السلطان المملوكى يدعو فيه الشريف بركات للقدوم الى مصر فعزم على السفر فخشى التجار والمجاورون على انفسهم واموالهم

---

(١) ابن الفهد: اتحاف الورى ،ص ٣٦٣ .
(٢) المقريزى:السلوك،ج٤ ، ص٧٨-٧٨١، ابن فهد: نفس المصدر ،ص ٣٦٦.
(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ، ٧٨١ .
(٤) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٦٧ - ٣٧٣ .
(٥) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٧٧ .

واجتمعوا بالشريف بركات وسألوه ورغبوه فى البقاء وعدم السفر وان يعلم السلطان بذلك ويشير بان المصلحة تقتضى اقامته بمكة[١] فكتب بذلك محضر اشار فيه السيد بركات بانه يحمل الى الخزانة الشريفة فى طلب ماله عشرة آلاف دينار عن نفسه وخمسة آلاف عن آل شكر وشميلة فاذن له السلطان بالبقاء واعفاه من الحضور الى مصر كما اذن لآل شكر بدخول مكة وجدة وكان قد طلب اخراجهم منها وبعدوصول هذا الخبر جهز الشريف ما التزم به فلفلا بخمسة عشر ألف دينار وأرسلها من جدة عن طريق البحر الاحمر الى الطور فى مصر [٢]

وفى سنة ٨٤٥هـ عزل الشريف بركات وقلدت امارة مكة للشريف على بن حسن فجمع الشريف بركات جموعه سنة ٨٤٦هـ ودخل جدة وهدد التجار والنواخيذ الهنود وطلب من كل مركب أربعة آلاف دينار فكانت مصيبة كبيرة على التجار ذلك ان المراكب منها الصغير والكبير ومنها ما لا تساوى شحنته خمسمائة دينار واتفق التجار على أن يعطوه العشر اسوة بامير مكة السيد على وقدر ذلك بنحو أربعين ألف دينار فرفض واستطاع التجار ان يسلموا من قبضته بعد أن فاجأه على بالعسكر وكانت وقعة كبيرة بين الطرفين انتهت بنصر صاحب مكة ومع ذلك ظلت الاوضاع غير مستقرة فى مكة وجدة وخاصة بعد ان قبض المماليك على صاحب مكة السيد على وعلى اخيه ابراهيم ووضعت الاغلال فى اعناقهما وارسلا الى مصر فحصل بمكة امر عظيم استهالة كل فرد ووصل الامر الى انه لم توجد راوية ماء تباع فى مكة المكرمة ودعى للشريف ابى القاسم بن حسن بن عجلان على زمزم وقلد خلعة الامارة [٣].

وفى سنة ٨٤٧هـ حدثت وحشة بين امير مكة ابى القاسم وابنه زاهر فاستولى زاهر على بعض املاك ابيه وهدد الطرقات وقبض على احد تجار جدة ويدعى ابراهيم بن مشط وطلب منه أن يعطيه خمسة آلاف فصالحه التاجر على

---

(١) المقريزى:المصدر السابق ج٤،ص ١٢١١، ابن فهد:نفس المصدر ،ص ٣٨٧ .
(٢) ابن فهد : المصدر السابق ،ص ٣٨٧ .
(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٨٨ - ٣٩٣ .

سبعمائة افلوري ثم تمكن زاهر وبعض اعوانه من دخول مكة سرا واخذوا احد سكانها رهينة وطلبوا فيه فدية مقدارها أربعون ألف افلوري وتدخل الاشراف وغيرهم بالصلح بين الشريف وابنه فامتنع السيد زاهر .(١)

وفى نفس الوقت عاث الشريف بركات ـ امير مكة المعزول ـ فى الارض ... فسادا ،واخذ يهدد الامن والاملاك فى مكة وما حولها ويغير على القبائل ويسلبها ما تملكه وعجز صاحب مكة عنه واخيرا اتفق معه على ان يعطيه امير مكة الف افلوري مقدما وألفا اخرى على قسطين وثمانية آلاف من ثلث المتحصل من مكوس جدة وان يعطى عبيد السيد بركات الرسوم التى كانت لهم وكان هذا سنة ٨٤٨هـ .(٢)

وفى سنة ٨٤٩هـ تمكن الشريف ابو القاسم من القبض على ابنه الخارج عليه وسلمه للمماليك ثم سعى الاعيان فى مكة للصلح بينهما فتم ذلك بعد ان تعهد زاهر بعدم التشويش واثارة الفوضى فى البلاد وكما تم القضاء على مثيرى الشغب فى مكة الذين كثيرا ما هددوا الامن فيها وحصل للناس سرور بذلك .(٣)

وفى هذه السنة عزل الشريف ابو القاسم بسبب احداثه لبعض المكوس والمظالم على التجار وقلدت امارة مكة للشريف بركات اميرها السابق (٤) .

وكان للتاجر الخواجا شرف الدين موسى التتائي الانصارى دور كبير فى الوساطة لدى السلطان الظاهر جقمق وكبار رجال دولته فى اعادة الشريف بركات الى امارة مكة .(٥)

وفى موسم سنة ٨٥١هـ توقفت الحركة التجارية وكثر النهب والسلب بسبب تعدى بعض المماليك على غنم بنى سعد وحصل بينهم قتال انتهى بعد وصول

---

(١) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٩٥- ٣٩٦ .
(٢) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٩٩ .
(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٤٠١- ٤٠٢ .
(٤) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٤٠٤، الطبرى: اتحاف فضلاء الزمن ،ص ٦٩ .
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ،جـ١٥ ،ص ٢٧٩ .

الشريف بركات فسكن الامر ونادى بالامان والبيع والشراء [١].

وفى سنة ٨٧٣هـ امر السيد محمد بن بركات صاحب مكة بقتل القائد محمد بن بديد بن شكر الحسنى [٢] وخاله احمد بن قفيف لتواطئهما مع اخيه على ضده واستولى على اكثر اموال القائد ابن شكر كما نفى جماعة بديد وآل عمر من مكة فباعوا جميع اموالهم وخرجوا منها [٣].

وفى سنة ٨٧٥هـ اخرج الشريف محمد آل عجلان من مكة لمخالفتهم له وتعرضهم للتجار.[٤]

وفى سنة ٨٨٢هـ توجه الشريف محمد بعسكر كثيف الى جازان لتأديب صاحبها لانه اكرم اخيه عليا المناهض له . فرمى عسكره النار فى البيوت وقتلوا الرجال والنساء والولدان واسروا الكثير من الاشراف ونهبوها واخذوا ما بخزانة اميرها من متاع وثياب وكتب نفيسة واكثروا من الفساد [٥] يقول المؤرخ ابن فهد " كانت نازلة شنيعة عاد وبالها على اهل مكة فانها اقحطت سنين عديدة " ولم يكتف امير مكة بذلك بل فرض على صاحب جازان قطعة يؤديها كل سنة لشريف مكة .[٦].

وفى سنة ٩٠٦هـ اشار قانصوه المحمدى نائب السلطان فى الشام على السلطان الغورى بخلع بركات بن محمد وتعيين اخيه هزاع مكانه فى ولاية مكة – وذلك لحقده على الشريف بركات لانه لم يلتفت اليه فى اثناء اقامته فى مكة منفيا وعندما وصل الركب المصرى الى مكة ألبس هزاع الخلعة التى كانت لاخية بركات وتوجه مع الركب المصرى ومعه مائة فارس من بنى ابراهيم فخرج بركات لمحاربته والتقى الجمعان في وادى مر (وادى فاطمة) وهزم بركات هزيمة منكرة واستولى الركب المصرى على خزانته. وامواله ونسائه (٧) واضطربت احوال الناس وكثر

---

(١) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٤٠٧ .

(٢) هو ابن الشهاب بديد بن شكر وزير الشريف محمد بن بركات المتوفى سنة ٨٦٩ هـ ابن تغرى بردى : نفس المصدر ،ج١٦، ص ٣٣٨-٣٣٩ .

(٣) ابن فهد : المصدر السابق ،ص ٤٣٧ .

(٤) ابن فهد : المصدر السابق ،ص ٤٤٥ .

(٥) ابن الديبع : المصدر السابق ،ق٢ ، ص ١٦٤ – ١٦٥ .

(٦) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٤٤٨– ٤٤٩ .

(٧) ابن الديبع : المصدر السابق،ق٢،ص٢٠٢ ،يحيى بن الحسين: غاية الامانى،ص٦٢٦-٦٢٧.

الخوف والنهب فى الطرقات وانقطعت السبل ورجع حجاج البحر الى جدة ثم سعى الشريف ابراهيم عم الشريفين بينهما بالهدنة لتسكين الفتنة وتأمين الناس والحجاج على ان يدفع هزاع لبركات مبلغا وقدره ثلاثة آلاف اشرفى قبل يوم النحر ......فكان له ما طلبه .....غير ان الشريف هزاع عرف انه لا طاقة له لمقاومة اخيه بركات فتوجه الى ينبع مع الركب المصرى ورجع بركات الى مكة فأمن الناس وذهب عنهم اليأس والخوف [١] .

ولم يلبث الشريف هزاع أن هجم على اخيه بركات سنة ٩٠٧هـ وهزمه وقتل بعض الاشراف والمماليك ووصل الى جدة ونادى بالامان على الناس وجعل محمد بن راجح بن شميلة نائبا له بجدة وارسل اخاه احمد الجازانى الى مكة ليقرر احوالها ثم لحقه اليها ووصلته الخلع والمراسيم من مصر على طريق البحر الى جدة ولكن المنية عاجلته فمات فى العام نفسه وتولى بعده اخوه الجازانى بمساعدة من القاضى ابى السعود ابراهيم بن ظهيرة [٢] وعندما وصل خبر وفاته الى بركات دخل مكة ففر منها اخوه الجازانى اما القاضى ابو السعود فقد صادره الشريف بركات واخذ امواله ثم حبس فى جزيرة فى البحر الاحمر وانتهى امره بموته غرقا [٣].

اما الجازانى فقد هدد الامن فى مكة والطرقات ونهب الحجاج والتجار [٤] والتف حوله يحيى بن سبيع أمير ينبع ومالك بن رومى أمير خليص وطائفة من عرب الحجاز [٥] وجرت بينه وبين اخيه الشريف بركات وقائع كثيرة [٦] .

وكان السلطان الغورى قد أمر بأن يأخذ المكس على السكر دراهم لاجل ضرر العرب بأرض الحجاز ورسم بان تخرج تجريدة من دمشق الى مكة للقضاء

---

(١) يحيى بن الحسين : نفس المصدر ،ق ٢ ، ص ٦٢٧–٦٢٨ .
(٢) ابن الديبع :المصدر السابق،ق٢ : ص ٢٠٤–٢٠٥،يحيى بن الحسين:المصدر السابق ق٢،ص ٦٢٨، الطبرى : المصدر السابق: ص ٨٩–٩٠، ابن اياس:المصدر السابق،ج٤، ص ص ٤٧ – ٤٨ .
(٣) يحيى بن الحسين :نفس المصدر ق٢،ص ٦٢٨،الطبرى:نفس المصدر ،ص ٩٠ .
(٤) ابن طولون : المصدر السابق ق٦،ص ٢٦١، ابن اياس : نفس المصدر ج٤،ص ٣٥.
(٥) ابن اياس : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٦) ابن الديبع :نفس المصدر والقسم ،ص ٢٠٦،يحيى بن الحسين:نفس المصدر والقسم ، ص ٦٣٢ .

على الفتنة وتهدئة الاحوال [١] وعندما وصلت العساكر الى مكة قبضت على الشريف واخوته ووزيره واخوه ووضعوهم فى زناجير حديد وارسلوا الى القاهرة [٢] . اما الجازانى فقد عجزت عن تحصيله وكان فى شهر ربيع الاول من سنة ٩٠٩هـ وفى رجب من هذه السنة تمكن جماعة من المماليك من قتل الجازانى فى الحرم عند باب الكعبة وولوا اخيه حميضة امارة مكة . [٣].

وتعد فتنة الجازانى من اعظم فتن الحجاز التى نشبت بسبب النزاع حول الامارة والطمع فيها يقول ابن اياس : (وقد كادت مكة أن تخرب فى هذه الوقعة عن آخرها وتقرب واقعة الجازانى من واقعة ابى ظاهر القرمطى وما فعله بمكة من النهب وقتل الناس .[٤]

وفى سنة ٩٠٩ هـ هرب الشريف بركات الى مصر وقدم مكة بجيش كبير جمعه من بنى لام ومن اهل المشرق وسائر المفسدين ومنع الناس من الوقوف بعرفة حتى صالحه امراء الحج على اربعة آلاف اشرفى يسلمونها اليه واستولى اصحابه على قافلة واصلة من جدة على باب مكة معظمها لاهل زبيد .[٥]

وفى سنة ٩١٠هـ توجه الشريف حميضة ومعه جماعة من بنى ابراهيم الى جدة وأرادوا نهب بعض التجار فيها فلم يحصل لهم ذلك فدخلوا مكة غير أن العساكر المقيمة فيها تمكنت من القبض عليهم ولكنهم سرعان ما ثاروا عليهم وانهزموا الى جدة مرة اخرى ونهبوها واستولوا على ما فيها من اموال [٦].

ووصل التفويض بامارة مكة للشريف بركات بن محمد سنة ٩١٠هـ وكان قد دخل مكة بالسيف واخرج حميضة منها واستطاع بركات ان يشيع الامن ويؤمن الحجاج فاطمأنت به البلاد ثم ان الشريف بركات طلب من السلطان الغورى

---

(١) ابن طولون : نفس المصدر والقسم ،ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .
(٢) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٦ - ٥٧ .
(٣) ابن الديبع :المصدر السابق ق٢،ص ٢٠٧،يحيى بن الحسين : المصدر السابق،ق٢ ص ٦٣، ابن اياس : ج٤ ،ص ٦٢ .
(٤) ابن اياس : نفس المصدر ج٤،ص ٤٨ .
(٥) ابن الديبع : نفس المصدر والقسم ،ص ٢٠٧ .
(٦) ابن الديبع : المصدر السابق ،ق ٢ ،ص ٢٠٨ .

ان يشرك ابنه عليا معه فى امارة مكة فكان له ما آراده .[1]

وفى سنة ٩١١هـ خرج الشريف بركات الى مالك بن رومى امير خليص الذى كان سببا فى نهب مكة زمن أخيه الجازانى وتمكن من قتل مالك وأولاده واخيه وظائفتهم وارسل بروءسهم الى السلطان الغورى فنصبت على ابواب مصر وفرح الناس بالقضاء على روءوس الفتنة [2].

وهكذا كان النزاع على السلطة بين امراء البيت الحاكم فى مكة سببا مباشرا فى التأثير على الحركة التجارية وتهديد مصالح التجار وأموالهم علاوة على القضاء على الارواح والمرافق الاخرى فى مكة المشرفة .

" الجهود الخاصة باقرار الاوضاع فى مكة "

ليس هناك شك مطلقا فى ان اقرار الامن فى مكة المكرمة يأتى تحقيقا لقول الله تعالى :" فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا "[3] وعملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا بنى عبد مناف ان وليتم من هذا الامر فلا تمنعوا احد طاف او صلى اى ساعة من ليل او نهار "[4] وقوله عليه افضل الصلاة والسلام فى حجة الوداع " يا أيها الناس اى يوم هذا؟قالوا: يوم حرام .....قال " أى بلد هذا؟ قالوا:بلد..حرام ......قال فأى شهر هذا قالوا : شهر حرام ....قال ان اموالكم ودماءكم واعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا ثم اعادها مرارا ..ثم رفع رأسه الى السماء فقال : اللهم هل بلغت مرارا "[5].

---

(١) الطبرى : المصدر السابق ،١٠٤ .
(٢) الطبرى : نفس المصدر ،ص ١٠٥ .
(٣) سورة آل عمران : آية رقم ٩٧ .
(٤) الدارمى: الامام ابو محمد عبد الله بن عبدالرحمن، السنن، بيروت، بدون تاريخ ج٢ ،ص ٧٠، العاقولى : (محمد بن محمد) ،عرف الطيب فى اخبار مكة ومدينة الحبيب مخطوط بدار الكتب المصرية القاهرة رقم ٧٤ تاريخ ،ق ١٠أ .
(٥) ابن حنبل : (الامام الحافظ احمد بن حنبل ، المسند وبهامشه منتخب كنز العمال فى سنن الاقوال - الافعال ،بيروت ،بدون تاريخ ج١ ،ص ٢٣٠، البخارى صحيح البخارى ،ج١ ،ص ٢٤ .

غير ان ما كان سائدا فى بداية العصر المملوكى من اضطرابات ومخاطر وانعدام الامن وانتهاك حرمة مكة ...... كل ذلك كان من اهم الدوافع التى حركت السلطان الظاهر بيبرس للعمل من اجل اقرار الاوضاع فى البلد الحرام ، ففى سنة ٦٦٧هـ لم يوافق السلطان المملوكى على طلب الشريف ابى نمى فى ان ينفرد بولاية مكة [(١)] الا بعد ان اشترط عليه شروطا قبلها يذكرها الفاسى وهى تسبيل بيت الله للعاكف والبادى والايؤخذ عنه حق ولا يمنع زائر فى ليل او نهار والا يتعرض لتاجر ولا حاج بظلم وان تكون الخطبة والسكة للسلطان بيبرس ولابى نمى على ذلك عشرون ألف درهم كل سنة [(٢)] .

ومن اجل ضمان تحقيق الامن فى البلد الحرام قام السلطان فى حجته سنة ٦٦٧هـ باصلاح ذات البين بين الشريفين ابى نمى وعمه ادريس واشرك ادريس فى امرة مكة واكد فى وصيته لاميرى مكة على اقامة العدل والامن وعدم ظلم التجار [(٣)] .... كما أقام الامير شمس الدين مروان الظاهرى نائبا عنه بمكة بناء على طلب شريفى مكة [(٤)] .

ونجح السلطان قلاوون سنة ~~٦٦١هـ~~ ٦٨١هـ فى اجبار شريف مكة على الاعتراف بسيادة مصر وحدها على الحرمين [(٥)] واظهر قدرة على التنظيم الادارى فاستطاع ان يقيم نوعا من الولاء له ولابنائه فى مكة بصياغة يمين ولاء حلف فيها ابو نمى على لزوم الطاعة لهم واقامة الامن والعدل وان يمتثل لمراسيم السلطان " امتثال النائب المستنيب " [(٦)]

ولعل ابلغ دليل على رعاية المماليك لتجارة مكة ... استجابتهم لاقامة

---

(١) كان ابو نمى شريكا لعمه ادريس غير انه كثيرا ما وقع الخلاف بينهما فكان أحدهما ينفرد بالامارة وفى هذه السنة وقبل ان يحج الظاهر بيبرس انفرد ابو نمى بالحكم واخرج عمه من مكة وخطب لصاحب مصر وكتب اليه انه شاهد فى عمه ميلا الى صاحب اليمن وتحاملا على دولته فأخرجه من مكة وسأله مرسومه بذلك ، الفاسى : العقد الثمين ،ج١ ،ص ٤٥٩ .

(٢) الفاسى: نفس المصدر والجزء والصفحة ، السنجارى: منائح الكرم ،ج١ ،ص ٣٠١.

(٣) السنجارى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) الفاسى: نفس المصدر ج١ ،ص ١٧٧ ، المقريزى: السلوك ،ج١ ،ص ٥٨١.

(٥) الفاسى: نفس المصدر ج١ ،ص ٤٦٢-٤٦٣ ، احمد دراج: ايضاحات جديدة ،ص ٢٠٠ .

(٦) الفاسى: المصدر السابق ج١ ،ص ٤٦٢-٤٦٣ ، المقريزى: المصدر السابق ج١ ،ص ٧٠٦-٧٠٧.

العلاقات الودية مع سلاطين بنى رسول الذين حرصوا على تبادل السفارات والهدايا بينهما منذ ايام الظاهر بيبرس [١] حتى ايام السلطان الغورى [٢] ومن ذلك ان المظفر صاحب اليمن ارسل الى السلطان قلاوون هدية تشمل على طرائف اليمن مثل العود والعنبر والصينى ورماح القناء وغير ذلك كما طلب ان يكتب له امانا فكتب له السلطان الامان وارسل له هدية من اسلاب التتر وخيلهم [٣] .

بيد أن هذه العلاقة قد استندت الى قوة مصر اما طلب الامان المشار اليه فربما يكون نوعا من الاسترضاء او التقدير الادبى يكسب صاحبه قوة معنوية وخاصة بعد قيام المماليك بدورهم البطولى فى صد غارات المغول ثم الصليبين والحاق الهزائم الساحقة بهم .

وقد كان سلاطين المماليك يشجعون مثل هذا التودد السياسى لكسب صداقات اخرى تجاوزت حدود البلدين كما حدث مع ملك الحبشة يكونو [٤] .

ولا شك ان سياسة القوة التى انتهجها السلطان قلاوون مع الاشراف فى مكة وآل رسول فى اليمن قد القت الرعب فى قلوبهم وكانت نذيرا بنهاية التدخل الحربى فى مكة من قبل سلاطين آل رسول فى اليمن فاستعاضوا عنه بزعزعة السيادة المملوكية عن طريق زرع الدسائس والموءمرات ليبقوا لانفسهم نوعا من السيادة الاسمية على مكة تتمثل فى النفوذ الدينى . [٥]

على انه من الانصاف ان نذكر ان سلاطين المماليك كانوا حريصين على استتباب الامن بمكة وما استهدفت القوة التى كانوا يرسلونها الا تهدئة الاحوال فى بيت الله الحرام واقرار الامن والعدل فى ربوعه [٦] وتأمين طرق

---

(١) الخزرجى: العقود اللؤلؤية ق ٢،ص ١٦٩،يحيى بن الحسين : غاية الامانى ، ق٢،ص ٤٥٤،محمد عبد العال احمد: بنو رسول وبنو طاهر: ص ٢٦٨ .
(٢) ابن الديبع : قرة العين ،ق٢ ،ص ٢٢٠،يحيى بن الحسين : نفس المصدر،ق٢ ص ٦٣٧- ٦٤١ .
(٣) ابوالفدا :المختصر،ج٤،ص ١٥،وانظر محمد عبد العال احمد: نفس المرجع ،ص٣٩٨ .
(٤) محمد عبد العال احمد : المرجع السابق ،ص ٣٧٦ .
(٥) احمد دراج : المرجع السابق ،ص ٢٠٠ .
(٦) الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ،ص ٢٩ .

الحج والتجارة التى كانت بوءرتها مكة كما اسهموا كثيرا فى انقاذ مكة من الازمات الاقتصادية التى تعرضت البلاد اليها فأنفقوا الاموال الطائلة وارسلوا الغلال والارزاق والهبات لاهل مكة والمجاورين .

والواقع ان الشريفين حميضة ورميثة فى عامى (٧٠٣ - ٧٠٤هـ) قد اقاما العدل وابطلا بعض المكوس [١] وترتب على ذلك عودة الاسواق فى مكة وتبودلت المنافع العامة من بيع وشراء وانتعشت الحركة التجارية من جديد .

ولم يسكت المماليك امام التدخل المغولى السافر فأرسلوا فى سنة ٧١٨هـ تجريدة الى مكة للقبض على الشريفين حميضة ورميثة [٢] وقبض على رميثة وفر حميضة وبقى قائد الحملة الامير بدر الدين التركمانى حاكما ونائبا للسلطان فى مكة [٣] وعمل على قمع المفسدين ونشر العدل والامن بمكة [٤] .

وبناء على ما حدث من الشريفين قلد الناصر محمد سنة ٧١٩هـ ولاية مكة لعطيفة .....وكان مقيما بمصر [٥] وتأكيدا لسيادة المماليك حج الناصر فى هذه السنة ودخل مكة فى غاية التواضع .

وقد اسفرت حجة السلطان هذه عن نتيجتين هامتين :-

الاولى :

تثبيت سلطة المماليك ....وسيادتهم على مكة .

الثانية :

اقامة عسكر دائم فى مكة يتغير كل عام [٦] وذلك لتوفير الامن والراحة

---

(١) الفاسى: العقد الثمين، ج٤، ص ٤٠٦، الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٩٢، الطبرى: المصدر السابق ص ٢٩ .

(٢) ابوالفدا : المختصر، ج٤، ص ٨٤، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص٤٢٢، " كان رميثة مواليا للسلطان المملوكى وفر حميضة خوفا منه الى العراق ثم عاد ووثب على اخيه واخرجه من مكة ..ودعى لملك العراقيين ابو سعيد خربندا ثم تواطأ رميثة مع حميضة فغضب المماليك لذلك . الفاسى: نفس المصدر والجزء ، ص ٤٢١ - ٤٢٣ .

(٣) ابوالفدا : نفس المصدر ج٤، ص٨٤ ، .

(٤) المقريزى : السلوك ج٢ ، ص ١٩٠ .

(٥) ابوالفدا : نفس المصدر والجزء والصفحة ، المقريزى نفس الجزء والصفحة ، السنجارى: المصدر السابق ج١ ، ص ٣٠٩ .

(٦) الفاسى: العقد الثمين ج٦ ، ص ٩٦ .

للتجار والمجاورين [١] وقد أمنت اقطار مكة فى ايام عطيفة وازدهرت التجارة ورخصت الاسعار وكثر الخير [٢]. وقد نالت مكة فى هذه الفترة قسطا كبيرا من التقدم المادى والازدهار التجارى وابرز مثل على ذلك ان تجار اليمن والكارم آخذوا يتوافدون على مكة باعداد كبيرة [٣] وهذا يوءكد ان مكة حظت بنوع من الاستقرار والامن والعدل حتى ان الناس بمكة تألموا عند مجىء رميثة من مصر شريكا لعطيفة [٤] فقد كان عطيفة مشكور السيرة فيهم وكانوا يحبونه لعدله .[٥] .

ويرى الموءرخون ان امتناع السلطان الناصر سنة ٧٢٤هـ عن ارسال القوة العسكرية التى طلبها منه صاحب اليمن الملك المجاهد لمساعدته فى اقرار الاوضاع الداخلية المضطربة فى اليمن ربما يرجع الى رغبة الناصر فى استمرار تلك الاوضاع وذلك لاضعاف نفوذ اليمن التجارى الذى طالما مكن لسلاطين بنى رسول التدخل فى شئون الحجاز وتأليب الاشراف على سلطنة المماليك ولعله اراد باضعافه المكانة التجارية لعدن [٦] ابراز اهمية مكة من الناحية التجارية باعتبارها اكبر موزع لمتاجر الشرق او لعله آراد بذلك لفت النظر الى فرضتها جدة التى استطاعت انتزاع مكانة عدن بعد قرن من هذا التاريخ . غير ان السلطان المملوكى لم يلبث فى سنة ٧٢٥هـ وبعد الحاح من صاحب اليمن ان ارسل حملة عسكرية [٧] اراد بها اظهار قوة المماليك ووقوفهم بحزم ضد كل من تحدثه نفسه من سلاطين ~~المماليك~~ اليمن او غيرهم بالخروج عن طاعة المماليك والولاء لهم .[٨]

---

(١) الفاسى : نفس المصدر ،ج٤ ،ص ٢٤٣ ، ابن حجر : المصدر السابق ،ج١ ،ص ٣٩٣،٥٠٨، الجزيرى : درر الفوائد ،ص ٢٩٨ ، السنجارى : منائح الكرم ج١ ،ص ٣٠٩ .
(٢) الفاسى : نفس المصدر ج٦ ،ص ٩٦، الطبرى : المصدر السابق ،ص ٣٢ .
(٣) الفاسى : نفس المصدروالجزء،ص ٩٧، الجزيرى : نفس المصدر ،ص ٢٩٩ .
(٤) الفاسى : نفس المصدر ج٤ ،ص ٤١١ .
(٥) الفاسى : نفس المصدر ج٦ ،ص ٩٧ .
(٦) محمد عبد العال احمد : بنو رسول ، ص ٤٠٧ – ٤٠٨ .
(٧) ابن الربيع : قرة العيون ،ق ٢ ، ص ٧٥– ٧٧ .
(٨) محمد عبد العال احمد : نفس المرجع ،ص ٤٠٩ .

وعلى اثر الفتنة التى قامت بمكة فى سنة ٧٣٠هـ ومقتل ايدمر وخروج عطيفة ورميثة عن الطاعة واثارة الفوضى فى مكة تأثرت العلاقات بين الملك الناصر محمد وامراء مكة حتى انه جهز عسكرا كثيفا فى سنة ٧٣١هـ ليرسله الى مكة وعزم على استئصال الاشراف والقضاء عليهم قضاءا نهائيا فقام فى وجهة قاضى القضاة القزوينى ووعظه وذكره بحرمة مكة وشرفها وان من دخلها كان آمنا ومازال به حتى رده عن عزمه [1].

ولهذا اقتصرت مهمة العسكر الذى وجهة الى مكة على اقرار الامن وكان وصول تلك القوة بعد ان هرب الاشراف وعبيدهم جميعا وكتب امير العسكر للشريف رميثة يعلمه بامان السلطان له وتقليده ولاية مكة واخذ له المشايخ والاعيان بمكة الايمان المؤكدة من العسكر بعدم التعرض له بسوء اذا حضر وعندما جاء بذل لهم الطاعة وولوه امرة مكة ولم يسفك بمكة دم ولم يحدث أى اذى [2] ولكن صاحب النجوم الزاهرة يذكر غير ذلك ويشير الى ان العسكر المبعوث قد اخذ بثأر الدمر وانهم اسرفوا فى قتل العبيد وشتتوا اشراف مكة وان المماليك حكموا مكة من تلك السنة وانهم ازالوا سطوة الاشراف الرافضة .. والعبيد [3] بيد ان هذا الكلام مبالغ فيه ومجانب للحقيقة ويمكننا الاعتماد هنا على المصادر المكية وهى تؤكد ان هذه القوة لم يحصل منها الا كل خير، وانه لم يسفك بمكة دم وانها قلدت الشريف رميثة ولاية مكة من قبل السلطان وعندما عادت تلك القوة الى مصر شكر لها السلطان حسن فعالها واثنى القاضى جلال الدين على اميرها بقوله " ان ما فعله

---

(١) ابن كثير : (عماد الدين ابو الفدا اسماعيل ، البداية والنهاية بيروت ، ١٩٦٦ ، جـ٤ ، ص ١٤٩-١٥٢ ، ابن فهد : المصدر السابق ، ص ٢٩١ ، السنجارى : المصدر السابق جـ١ ، ص ٣١٢ - ٣١٣ ، محمد عبد العال احمد بنو رسول ، ص ٣٧٠ هـ ٤ .

(٢) الفاسى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٤١٣ - ٤١٤ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٩ ، ص ٢٨٣ .

" كان الاشراف شيعة زيدية والمماليك سنيين وقد ادى الاختلاف المذهبى الى اثارة العديد من المتاعب والصعوبات فى وجه السيطرة المملوكية على الحجاز .

على بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ، ص ٢٨-٢٩ .

هو الاسلام (١) .

واتسمت الفترةمن (٧٣٢ - ٧٣٥هـ) بشئ من الهدوء النسبى(٢)والاستقرار التجارى ووجود السلع والمتاجر ورخاء الاسعار(٣) حتى ان المجاورين مع كثرتهم (٤)كانوا فىاطيب عيش وأهناه (٥)، وعندما استقل الشريف عجلان بن رميثة بامارة مكة سنة ٧٤٦ - ٧٤٧هـ احتلت تجارتها مكانة بارزة واليه يرجع الفضل فى تشجيع التجار على ورودها فتوافدوا منالهند واليمن (٦) بعد ان اسقط ربع الضرائب واقام العدل ونشر الامن فى ربوع مكة ورفع الجور عن التجار والمجاورين وبالجملة فقد وضع حدا للمتاعب الناجمةعن النزاع ..... والتنافس وكان لهذه السياسة الحكيمة اثرها الحسن عليه فحصل على الارباح الطائلة والاموال العظيمة من التجار (٧).

وقد شارك رجال السلطنة فى مصر فى هذا التطور التجارى فقد كانت لهم متاجر خاصة بهم تباع لحسابهم الخاص فى مكة (٨).

وليس ادل على رعاية السلاطين للتجارة مناكرام السلطان المملوكى حسن (٧٤٨- ٧٥٢هـ) لصاحب اليمن الملك المجاهد وكان قد جئ به الى القاهرة مقيدا فأمر بنزع قيوده ورسم له بالعودة الى بلاده بعد ان تعهد للمماليك بالولاء وقدم فدية تشتمل على مبلغ من المال وعدد من الجوارى والعبيد والازر والقماش والعود واللبان وغيرها من التحف (٩)ولكنه ما لبث ان عاد

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ج٤، ص ٤١٣ - ٤١٤ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٢٩١ ، السنجارى : منائح الكرم ،ج١ ،ص ٣١٣ ،٠
(٢) يلاحظ ان النزاع بين الشريفين عطيفة ورميثة على امرة مكة كان مستمرا
(٣) المقريزى : المصدر السابق ج٢ ،ص ٣٤١ .
(٤) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٢٩٣ .
(٥) ابن ايبك : كنز الدرر ،ج٩،ص ٣٩٣ .
(٦) ابن فهد : المصدر السابق ،ص ٢٩٧ .
(٧) الفاسى : نفسالمصدر ،ج٦ ،ص ٦١ ، ابن فهد : نفس المصدر ص ٢٩٨ ،الجزيرى المصدر السابق ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ ، احمد السباعى : تاريخمكة ج١ ،ص ٢٥٦ .
(٨) المقريزى : السلوك ،ج٢ ،ص ٧٠١ ، .... من امثلة ذلك انه فى سنة ٧٤٦هـ بيعت بمكة غلة لنائب السلطنة فى مصر آل ملك وكانت نحو مائة وثلاثين ألف أردب وعشرينألف جلد من صنع الحبشة ، المقريزى : نفس المصدر ، والجزء والصفحة .
(٩) ابن اياس : بدائع الزهور ،ج١ ،ص ٥٣٧ .

الى الاسر وبقى مسجونا قرابة العام [١] ونظرا لقوة المماليك فانه لم يستطع بعد عودته الى بلاده اظهار عدائه لهم بل تظاهر بالولاء بارسال الهدايا لهم [٢] وتقديم التسهيلات للمراكب التجارية [٣]... غير انه اضر بتجارة مكة بمقاطعتها مقاطعة اقتصادية .

وتصمت المصادر التاريخية عن الاشارة الى رد الفعل الذى احدثته المقاطعة اليمنية لمكة لدى سلاطين المماليك أو عن الوقت الذى انتهت فيه المقاطعة اليمنية لمكة وجدة لكن ابن فهد يذكر انه فى سنة ٧٦١هـ وقع الوباء فى قافلة اليمنيين بعد خروجهم من مكة وانه مات الكثير منهم فى الطريق وان ثقبة جباهم فى الواديين بطريق الظلم [٤] .

واستوجب الوضع المضطرب فى مكة القيام بعمل حازم من قبل السلطان المملوكى لاعادة الهدوء والاستقرار فعزل الشريفان ثقبة وعجلان سنة ٧٦٠هـ واستدعيا الى مصر وقلدت ولاية مكة لمحمد بن عطيفة وسند بن رميثة [٥] ، وارسل السلطان المملوكى جيشا كبيرا الى مكة لاعادة الامن واقرار الاوضاع وقمع المفسدين [٦] واستطاع الواليان الجديدان تحقيق قسط من الازدهار التجارى بنشر العدل واسقاط الضرائب على المأكول فعم الرخاء وجلبت السلع ورخصت الاسعار [٧] .

وقد وافق استقلال عجلان بامارة مكة بعد وفاة شريكة ثقبة سنة ٧٦٢هـ [٨] ، تدعيم هذا الاستقلال بمد سلطانه الى حلى ابن يعقوب فقد استولى عليها سنة ٧٦٣هـ وغنم اموالا جزيلة [٩] وارتفع شأنه بهذا النصر ومدحه الشعراء ذلك انه لم يحدث ان استولى عليها احد من امراء مكه قبله سوى أبى الفتوح

---

(١) ابن الربيع : قرة العيون،ق٢،ص ٨٨،يحيى بن الحسين: غاية الامانى،ق٢ ص ١٥٦،محمد عبد العال احمد: المرجع السابق ، ص ٤٢٤-٤٢٧ .
(٢) الخزرجى:العقود اللؤلؤية ،ج٢،ص ٩٣ ، ابن الربيع :نفس المصدر ق٢،ص٨٩ .
(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ،ص ٨٦٧.
(٤) ابن فهد: اتحاف الورى ،ص ٣٠٦ .
(٥) الفاسى:العقد الثمين ج٦،ص ٣٠٦- ابن فهد : نفس المصدر والصفحة .
(٦) ابن حجر : الدرر الكامنة ج١ ، ص ٥٢٤- ٥٢٥ .
(٧) الفاسى:نفس المصدر ج٢،ص ١٤٢ ، ابن فهد :نفس المصدر ،ص ٣٠٦، السنجارى،المصدر السابق، ص ٣٢٠-٣٢١ ، الطبرى: اتحاف فضلاء الزمن ،ص ٣٧ .
(٨) ابن حجر :نفس المصدر ج١، ص ٥٣٠-٥٣١.
(٩) ابن فهد: نفس المصدر،ص ٣١٠ .

الحسن بن جعفر [١] ولم يتفق لاحد بعده سوى الحسن بن عجلان[٢].

وسجلت التجارة فى عهد احمد بن عجلان معدلات مرتفعة جدا من النمو والتطور فقد عمل على رعاية التجار والسهر على مصالحهم فى مكة وجدة وامن لهم الطرق ونشر العدل وتسامح معهم[٣] واجتهد فى حل مشاكلهم وازالة العراقيل منطريقهم وتأمين حياتهم ولا عجب ان نراه فى سنة ٧٧٧هـ يعرض عن قصده لينبع وقيل لوادى الصفراء[٤]ويهب لنجدة التاجر سليمان بن راشد احد تجار مكة وابنه حسب الله عندما علم باختطاف ابناء عمه ثقبة لهما ولم يرجع الى مكة الا بعد ان امنهم واعادهم اليها .[٥] .

ولعل اهم قضايا التجار التى عرضت عليه واظهر فيها عدله انه بعد موت احد تجار مكة ارسل اليهولد هذا التاجر مائتى ألف درهم فردها فظن ابن التاجر انه ربما استقلها فضاعفها ولكنه عاد وردها ووضح للرسول موقفه وقال : لم ارده استقلالا وانما رددته لانه لا وجه لاخذى له [٦] ولعل مثل هذا الاجراء كان سائدا بمكة وابطله احمد بن عجلان بدليل ما حدث بينه وبينابن التاجر .

وقد حرص الشريف احمد بن عجلان على الاحتفاظ بود التجار وطيب ثنائهم عليه فكثر تردد تجار الكارم واليمن والعراق والهند على مكة [٧] وشهد ميناء جدة حركة دائبة فى استقبال البضائع وشحنها [٨]كما عمل على تحسين علاقته بصاحب اليمن [٩].

---

(١) امير مكة تولى الامارة سنة ٣٨٤هـ ودامت امارته ستا واربعين سنة وتوفى سنة ٤٣٠هـ الفاسى : العقد الثمينج٤،ص ٦٩-٧٩ .
(٢) الفاسى:نفس المصدر ،ج٣ ، ص ٧٠-٧١ .
(٣) الفاسى : نفس المصدر ،ج٣ ،ص ٩٥
(٤) كان احمد قد عزم على السفر الى جهة ينبع لحرب اميرها وقيل لازالة امر بوادى الصفراء حصل منه الضرر للحجاج ،الفاسى:نفسالمصدرج٣،ص ٩٠.
(٥) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٠٧ .
(٦) الفاسى : العقد الثمين ج٣ ،ص ٩٦.
(٧) الفاسى: نفس المصدر ج٣،ص ٩٦، ابن فهد : المصدر السابق ،ص ٣٠٦
(٨) الفاسى : نفس المصدر والجزء ،ص ٩٥ .
(٩) الخزرجى:المصدرالسابقج٢،ص ١٦٩، ابن حجر: ابناءالغمرج١،ص ٢٦٣، ابن الديبع المصدر السابق ق٢،ص ١٠٦ .

وفى الحقيقة يعد قيام دولة المماليك الجراكسة سنة ٧٨٤هـ [١] بداية عهد جديد فى تاريخ التطور التجارى والعلاقات بين مصر والحجاز التى غلب عليها الطابع الاقتصادى التجارى البحت [٢] وكان لذلك اعظم الاثر فى التقدم الاقتصادى والازدهار التجارى اللذين احرزتهما مكة .. وفرضتها جدة فى هذا العهد .

وقد صادف قيام دولة الجراكسة فى مصر ان امارة مكة كانت فى يد الشريف احمد بن عجلان (٧٧٤ – ٧٨٨ هـ) [٣] الذى احبه التجار وذاع فى الآفاق صيت عدله وحسن معاملته للتجار يقول الفاسى : " وكان اعيان البلاد الشاسعة فى العراق والهند يحبونه لطيب الثناء عليه ويها دونه [٤].

ولم يستطع عنان بن مغامس ضبط الامور فى مكة بعد وفاة احمد بن عجلان وكان من الطبيعى الا يرضى الوضع المضطرب فى مكة وجدة سلاطين المماليك فعزل السلطان برقوق عنانا وولى امارة مكة لعلى بن عجلان سنة ٧٨٩هـ واعانه بعسكر جيد لاقرار الاوضاع فى الحجاز [٥] .

ويبدو ان التجار تجار مكة وتجار اليمن المقيمين فى مكة كان لهم مركز اجتماعى ومالى مرموقا وقد تجلى ذلك فى دورهم فى حل الازمات الاقتصادية التى تتعرض لها البلاد فقد استعان بهم على بن عجلان عندما احتاج الى مال لازالة الفرر الذى احدثه عنان فى جدة [٦] ولكن المصادر لم توضح هل كان هذا المال قرضا اوكان مساهمة من التجار فى التغلب على المشاكل وان كنا نرجح كونه مساهمة لان المؤمن لابد ان يكون عونا لاخيه المؤمن فى كل وقت

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ج٦ ،ص ٢٨٢ .
(٢) على بن الحسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ص ٤٢ .
(٣) ابن حجر : الدررالكامنة ج١ ، ص ٢٠١–٢٠٢، ابناء الغمر ج١ ص ٣٢٠ .
(٤) الفاسى : العقد الثمين ج٣ ،ص ٩٦ .
(٥) الخزرجى : المصدر السابق ج٢ ،ص ١٩٤ ، ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٢١
(٦) الفاسى : نفس المصدر ج٦ ،ص ٢٠٧، ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣١٥ .

وخاصة فى وقت الازمات وعندما اشترك عنان مع على سنة ٧٩٢هـ فى امارة مكة عانى التجار كثيرا من نوابهما وقل الامن بمكة وكثر النهب وسرقة الاموال [١] واقتضى الامر تدخل السلطان المملوكى فاستدعى عنانا وعليا الى مصر فلما حضرا قرب السلطان عليا وأنعم عليه بالمال والغلال والخيل [٢] كما احسن اليه كبار رجال الدولة فى مصر وعاد سنة ٧٩٤هـ ومعه تقليد بامارة مكة منفردا ومئة من الخيل ومئة من المماليك للمساعدة فى اعادة الهدوء [٣] والاستقرار فى مكة [٤].

وبعد مقتل على وتصاعد الاضطرابات فى مكة وجد السلطان برقوق ان حسن بن عجلان هو الرجل القوى الذى يمكن الاعتماد عليه فى اعادة الامور الى نصابها وكان مسجونا بمصر [٥] فاطلق سراحه وقلده الامارة سنة ٧٩٨هـ واشترط عليه المحافظة على الامن ورعاية التجار والحجاج وتسهيل كل ما يتصل بشئونهم [٦] والواقع ان هذا اجراء دأب عليه سلاطين المماليك منذ ايام الظاهر بيبرس حرمة للمكان وتأمينا للتجارة وكانت نسبة كبيرة منها تحمل بطريق البر الى مكة وهى المركز الرئيسى ومنها تتشعب طرق ودروب تجارية تغطى شبه الجزيرة العربية بكاملها .

اما حسن بن عجلان فكان شخصية فذة قوية استطاع من الناحية السياسية ان يمسك بزمام الامور وان يضرب قوى التمرد من الاشراف وغيرهم بيد من حديد [٧] واشاع الامن والعدل .

ومن الناحية الاقتصادية أثرت تلك الخصائص فى حركة التجارة فاصبحت البلاد اكثر ملائمة للانتعاش التجارى طوال العام فعاد التجار الذين فروا

---

(١) انظر (امرة مكة والصراع بين بنى قتاده على توليها) ص٨٩ .
(٢) ابن حجر : ابناء الغمر جا ،ص ٥٠١ .
(٣) المقريزى : السلوك ،ج٣ ،ص ٧٧٤ .
(٤) الفاسى : العقد الثمين ،ج٦ ،ص ٢١٠ .
(٥) كان حسن قد اختلف مع اخيه على وطمع فى امارة مكة وتوجه الى مصر ليأخذ تقليدا من السلطان برقوق بولايته لها ،لكن السلطان ابقاه فى مصر وسجنه فيها ، الفاسى : نفس المصدر ،ج٦ ، ص ٢١٢ - ٢١٣ .
(٦) الفاسى: نفس المصدر ج٤، ص٨٧-٨٨، على بن حسين السليمان :العلاقات الحجازية المصرية ،ص ٤٤ .
(٧) المقريزى: المصدر السابق ج٣، ص ٨٢-٩٠، ابن فهد: المصدر السابق، ص ٣١٩-٣٢٠ .

بأموالهم الى متاجرهم فى مكـــــــــة (١) .

وارضت سياسة حسن بن عجلان الحكيمة السلطان المملوكى برقوق فأرســـل له بذهب وخلعتين اعجابا منه بمهارته وقدرته على ضبط الامور فى مكة (٢) ، وهذا يوءكد حرص سلاطين المماليك علىتحقيق الامن والعدل فى البلد الحرام ، وبهذا التقدير ضمن الشريف حسن تفوقه على الاشراف واعترافهم له بالسيـادة (٣) فعظمت هيبته وقوى مركزه فى الحجاز وخاصة بعد استيلائه على حلى بنى يعقوب ولم يكن لاحد من امراء مكة بعد احمد بن عجلان من الحشمة مثل ما للسيـــد حسن بن عجلان وله من العقار بمكة اكثر مما كان لاخيه احمد وملك من العقار بوادى مر قريبا مما ملك اخوه وملك من العبيد نحو خمسمائة فيما قيـــل ولم يكن لاخيه على من العقار ولا من العبيد مثل ما له ولا قاربه فى ذلك ولا فى السلاح وقد رزق حسن منه اشياء حسنة "(٤).

وامتازت علاقاته بالمماليك ببروز شخصيته فاستطاع بماله وثرائـــه ان يهادى سلاطين المماليك ويستميلهم اليه (٥) ووجد سلاطين المماليك انه الرجـــل الذى يمكن الاعتماد على حنكته وقوته فى تأمين التجارة والعمل على ازدهارها فأرسل اليه السلطان المملوكى سنة ٨٠٤هـ مرسومين :
الاول .... اقراره على ما قام به من الدعاء لصاحب اليمن (٦) وذلك تمكينا للروابط الاقتصادية والمصالح المشتركة وكانت العلاقات الودية بين المماليك واليمن قد تحسنت وتبودلت الهدايا بين الطرفين (٧) كما تبودلـــــت الخبرات والمنافع (٨) .

---

(١) الفاسى: العقد الثمين ج٤، ص ٩٠-٩١، احمد السباعى: تاريخ مكة ص ٣٣٤.
(٢) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ٩١ .
(٣) الفاسى: العقد الثمين ج٤، ص ٩٤-٩٥، ابن فهد : اتحاف الورى، ص ٣٢١-٣٢٢.
(٤) الفاسى: نفس المصدر والجزء ، ص ١٥٤ .
(٥) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٢٢ .
(٦) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ٩٧ .
(٧) الخزرجى : العقود اللوءلوءية ، ص ٢٨٣-٢٩٤-٣٠٠ .
(٨) من ذلك ان السلطان المملوكى ارسل سنة ٨٠٠هـ طبيبا ماهرا من يهود مصر الى اليمن ، الخزرجى : نفس المصدر ، ص ٢٩٤ .

اما المرسوم الثانى ....

فقد كان فيه تدعيم لسلطان الشريف وتقوية لنفوذه ويذكر الفاسى انه جاء فيه " ليس لاحد من الامراء الواصلين من مصر من اوساط السنة على صاحب مكة السيد حسن يد ولا حكم بل يعضدونه ويقوون كلمته ويعلون شأنه وان لم يسمع الامير وخالف وطلبكم القتال قاتلوه .[١]

وابتداء من سنة ٨١١هـ تولى الشريف حسن نيابة السلطنة فى الحجاز كله[٢] وقد أدى ازدياد النشاط المالى فى مكة الى استئثار الشريف حسن بالامرة وبالمنفعة العائدة عليه من الضرائب التجارية ... فضلا عن الغنى العريض الذى وصل اليه .. غير انه لم يلبث ان شارك التجار تجارتهم فغضب السلطان المؤيد شيخ سنة ٨٢٣هـ فكتب اليه يعنفه فى ذلك ويعتب عليه لتأخره فى ارسال ما تبقى من المبلغ الذى التزم به نظير اعادته للامارة ـ وكان قد عزل منها ـ ومما جاء فى الكتاب " ولا تظن ان اهمالنا لك عجز عن حصولك فى قبضتنا الشريفة وانما لما احسنت منك السيرة فى بعض الاموقلنا لعل الله أن يحسن فى الباقى .[٣]

لقد كان لهذا الانذار أثره البالغ فى نفس السيد حسن فآثر التخلى عن امارة مكة وسأل تفويضها لابنيه بركات وابراهيم على ان يقوما للخزانة المملوكية بالعشرة آلاف مثقال المطلوبة عند ولايتهما[٤] ولكى يظهر للسلطان المملوكى حسن نواياه والتزامه الطاعة .. بالغ فى خدمة امراء المحمل المصرى واعتنى برعاية مصالح الحجاج الا انه تجدر الاشارة الى ان الشريف حسن لم يدفع فى خدمتهم من ماله الخاص بل أخذ مالا من التجار والمتسببين فى مكة

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ج٤، ص ٩٧ .
(٢) ابن فهد : اتحاف الورى، ص ٣٢٢ ، السنجارى : منائح الكرم ج١ ، ص ٣٣٨.
(٣) الفاسى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٥١ - ٣٥٢ .
(٤) الفاسى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٥٢ .

على سبيل القرض .(١)

وفى ربيع الاول من سنة ٨٢٤هـ وصل الى الشريف حسن كتاب من مصر يتضمن الاخبار بسلطنة المظفر احمد بن الملك المؤيد وتفويضه امرة مكة للسيد حسن وابنه بركات وحثهما على النظر فى مصالح الرعية والتجار (٢) وفيه امر للشريف حسن برد ما اخذه من التجار واسقاط ما تجدد من المكوس كما جاء فيه اعفاؤه من تقديم اى شئ لامراء المحمل (٣) يقول ابن حجر : " فخف عنهم بسبب ذلك ظلم كان يعم الناس لانهم كانوا يقترضون ذلك من التجار ولا يطمع احد منهم فى الوفاء (٤)" .

وقد كان منفذ هذه الامور التى خدمت النشاط الاقتصادى فى مكة مدبر الدولة ططر(٥) الذى اشتهر بحرصه على مصالح الناس ومعرفته بأحوالهم لكثرة اجتماعاته بالعلماء والفقراء والتجار من مشارق البلاد ومغاربها .(٦)

ولهذا ليس غريبا على الظاهر ططر عندما تولى السلطنة فى شعبان من هذه السنة ان يهتم بتفقد احوال التجار ويعمل على ازالة العوائق والاعباء التى تثقل كاهلهم فى مكة فأرسل الى الشريف حسن ألف افلورى تعويضا له عن المبالغ التى تكلف بها لامراء الحج (٧) وشرط عليه الا يتعرض للتجار بظلم او اقتراض وتأكيدا على اهمية هذا الامر بنقشه على اعمدة المسجد الحرام (٨) غير ان هذه السياسة العادلة لم يكتب لها الدوام لان المنية عاجلته .

وعموما كان للظاهر ططر مآثر عظيمة وتميزت فترة نيابته وسلطنته بالعدل بوجه عام يقول العلامة البدر العينى " وشاهد ذلك ما صدر منه فى

---

(١) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٣٩ .
(٢) الفاسى : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص ٢١١ ، الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ، ص ٥٤ .
(٣) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٥٣ ، الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٣٢١ .
(٤) ابن حجر : ابناء الغمر ، ج٣ ، ص ٢٥٣ .
(٥) الفاسى: العقد الثمين ج٤ ، ص ١٤ ، ابن فهد: اتحاف الورى ، ص ٣٥٣ .
(٦) العينى: (بدر الدين ابى محمد محمود بن احمد) الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ططر ، الجمهورية العربية المتحدة ، ١٩٦٢ ، ص ٢٠ .
(٧) ابن فهد: نفس المصدر ، ص ٣٥٣ ، الجزيرى: درر الفوائد ، ص ٣٢١ ، الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ، ص ٥٥
(٨) ابن حجر: نفس المصدر ، ج٣ ، ص ٢٥٣ ، ابن فهد: نفس المصدر ، ص ٣٥٣ ، الطبرى: نفس المصدر ، ص ٥٥ .

احكامه منذ مات الملك المؤيد فانه لم يصدر منه الا كل حكم يضرب به المثل بين العباد فى البلاد وهو ظاهرلكل احد يحتاج اليه بيانه ويدل على ذلك ما صدر منه من احكامه فى ايام امرته فى نيابته عن السلطنة وفى ايام حكمه على المماليك وغيرهم فانه لم يشتهر عنه مد كف الى اخذ شىء ولا ميل الى ظلم وكان يحرر القضايا اذا وقعت عنده احسن من كثير من القضاة ويفصلها على الوجه الشرعى من غير ميل الى احد من ذلك وغير التفات الى الدنيا ولو كانت شيئا كثيرا ولقد شاهدت ذلك مرارا عديدة فانه كان يهرب من باب الرشوة والبرطيل كما يهرب احد من النار "(١) .

وفيما يتعلق بسياسة مكة الخارجية سعى الشريف حسن الى تمكين علاقته بالمغول فقد بعث عقب الحج من سنة ٨٢٣هـ رسولا وهدية الى صاحب الشرق الملك شاه رخ بن تيمور لنك وكان مع الوفد العلامة شمس الدين ابن الجزيرى الذى قدم مكة فى تلك السنة وأدى مناسك الحج وانتفع بعلمه طلاب المعرفة فى الحرمين الشريفين (٢).

ولقد كانت كسوة الكعبة ذات الطابع الدينى هى الوسيلة التى طرق بها شاه رخ بن تيمور لنك باب الاتصال بمكة لمد نفوذه على الحجاز .. اذا سعى سنة ٨٣٣هـ وسنة ٨٣٦هـ للحصول على اذن من السلطان برسباى للسماح له بكسوة الكعبة (٣) غير ان طلبه قوبل بالتجاهل من قبل السلطان المملوكى فى كلتا المرتين ذلك ان التفكير فى كسوة الكعبة كان فى نظر سلاطين المماليك تحديا لسلطانهم .

وعلى الرغم من اخفاقه فى المرتين فقد عقد العزم على اعادة طلبه فى سنة ٨٣٨هـ وارسل بكتاب وهدية الى السلطان وعمد فى كتابه الى التلويح بان رفض طلبه سيؤدى الى حدوث ما لا يحمد وذكر انه نذر ان يكسو الكعبة

---

(١) البدر العينى : الروض الزاهر ،ص ٣٠ .
(٢) الفاسى : نفس المصدر السابق ج٤ ،ص ١٣٩ .
(٣) المقريزى : السلوك ،ج٤ ،ص ٩٢٧ .

البيت الحرام وطلب ان يبعث له من يتسلمها ويعلقها فى داخل البيت [1] ، وادرك السلطان برسباى خطورة الموقف فاتخذ جانب الحذر واحاط رده هذه المرة بفتوى شرعية افتاها القاضى بدر الدين العينى[2] جاء فيها ان نذر شاه رخ لا ينعقد ولا يتحتم اجابته [3].

ولم تكد رسل السلطان المملوكى تصل الى شاه رخ بانباء الفتوى حتى ثارت ثائرته ونشأت تطورات خطيرة فى الموقف السياسى وظهر النذر بحدوث ازمة حادة بين الطرفين فقد ارسل شاه رخ سنة ٨٣٩هـ بخلعة للسلطان المملوكى وعده من ضمن ولاته وامره بالدعاء له على منابر مصر والحرمين وان يضرب السكة باسمه وقد كان اندلاع الحرب بين الطرفين وشيكا لولا أن الله سلم [4]

واخيرا اسفر عهد الظاهر جقمق (٨٤٢ – ٨٥٧هـ) عن تحقيق مطلب شاه رخ وعد مطلبه قربة الى الله ووصلت رسل الشاه الى مكة مع الركب المصرى وكسيت الكعبة وتصدق على اهل مكة وكان ذلك سنة ٨٤٨هـ [5] .

وتشير المصادر التاريخية الى الاهتمام الكبير الذى اولاه المماليك لشئون الامن والمحافظة على اقرار الاوضاع فى مكة ففى سنة ٨٦٦هـ علم السلطان ان العساكر التى يبعثها الى مكة للسهر على شئون الامن ورعاية مصالح التجار قد شاركوا التجار تجارتهم واخذوا يتعاطون البيع والشراء فارسل الى امير مكة يامر بمنعهم وبنفيهم من مكة اذا لم يمتثلوا .[6] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج٤ ،ص ٩٢٧ .
(٢) قاضى القضاة بدر الدين محمود بن احمد تولى الحسبة مرارا وقضاء الحنفية وله تصانيف عديدة توفى سنة ٨٥٥هـ . السيوطى: حسن المحاضرة ،ج١ ، ص ٤٧٣ – ٤٧٤ .
(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ،ج١٥ ،ص ٧٢ .
(٥) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٤٠١، السنجارى : منائح الكرم ج٢ ،ص ٦ .
(٦) ابن فهد : نفس المصد ،ص ٤٢٨ .
وليس ادل على رغبة المماليك فى استتباب الامن من مطالبتهم لامراء مكة بعدم التفرقة والنزاع فيما بينهم وتذكيرهم لهم بان المسلم لابد ان يشد من عضد اخيه وخاصة اذا كان فى موضع المسئولية ....
انظر ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٤٣٦ .

وتجدر الاشارة هنا الى التطور الهائل الذى احرزته مكة منذ ايام السلطان برسباى حتى ايام الغورى فقد ساهم سلاطين تلك الفترة فى تحقيق الازدهار التجارى الذى تربعت فيه مكة وفرضتها جدة على عرش التجارة حتى ان العائدات التجارية التى كانت تؤخذ فى جدة ومكة أصبحت موردا هاما من موارد الدولة ومعينا لها على مواصلة جهادها البطولى فى خدمة الاسلام .

" توفير الحراسة واقرار الامن واصلاح الطرق البرية "

من الثابت ان ازدهار التجارة فى مكة المكرمة طيلة العصر المملوكى لم يخضع لعامل المصادفة فمكة بحكم كونها بلد الله الحرام وفيها البيت المقدس واليها يتوجه المسلمون للحج والعمرة والمجاورة والتجارة وطلب العلم ارتبطت بشبكة من طرق القوافل البرية لا مع انحاء شبه الجزيرة العربية وحدها بل ببقية انحاء العالم الاسلامى كلها وفى هذا الاطار سارت التجارة فكانت مكة مناكبر مناطق التبادل والتوزيع لتجارة الشرق والغرب .

وكان اهتمام سلاطين المماليك بمكة كبيرا نظرا الى مكانتها الدينية فتركز جهدهم على اقرار الامن والعناية بالطرق وتأمينها تحقيقا لراحة الحجاج فعاد ذلك على التجارة بالازدهار .

بيد ان تأمين وصول التجارة وتفادى ما قد يعترض طريقها من مخاطر كان يحتاج الى قوة ودعم مالى كبير وقد قام المماليك بدور هام فى هذا المجال وانتهجوا سياسة تجارية حكيمة اذ تفادوا خطر القبائل بتوكيل حراسة قوافل الحج والتجارة لاقواهم ممن تقع مضاربهم على الطريق من مصر الى مكة [1] وكان لتلك السياسة أعظم الاثر فى حفظ الطرق وتأمينها وانتظام حركة النشاط التجارى البرى .

---

(١) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٤٤٩- ٤٥١ ، على بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ، ص ٧٣ - ٧٦ .

ولم يقتصر الامر على السلطات المملوكية بل تعداه الى غيرهم فقد حرص السلطان المغولى احمد اغا هلاوون على تأمين السبل وتنشيط الاتصال التجارى ويتضح ذلك من رسالة بعثها الى السلطان قلاوون سنة ٦٨١هـ وكانت العلاقات بينهما حسنة وقد جاء فيها " وامرنا بتعظيم امر الحجاج وتأمين سبلها فى سائر الفجاج وتجهيز وفدها واطلاق سبلها وتسيير قوافلها وتسهيل فعلها واطلقنا ايضا سبيل التجار الذين هم عمارة سائر الامصار وكذلك المترددين الى البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم تطمينا للعباد آمنين على انفسهم من حوادث الفساد وحرمنا على العساكر والقراول والشحاتى فى الاطراف التعرض لهم فى مصادرهم ومواردهم وان يمشوا حيث شاءوا على احسن ما كانت عادتهم فى قواعدهم "(١).

وكان سلاطين المماليك يهتمون ايضا بتأمين طريق الحج العراقى برغم انه لا يخضع لسلطانهم لان تأمينه كان من واجب ايلخانات المغول المسلمين الذين كانوا يحكمون العراق فى ذلك الوقت ففى سنة ٧٢٠هـ خيف على الركب العراقى من بعض عرب مهنا الذين كثر فسادهم وقطعهم الطريق على التجارة ويبدو ان الملك الناصر كانت له حرمة عند العرب وكانت له ارتباطات قوية مع القبائل الضاربة على طول الطرق التجارية يقول المقريزى :" فاقتضى رأى السلطان ان استدعى سيف ابن فضل اخى مهنا من البلاد وقرر معه ان اباه فضلا يمنع مهنا حتى كف عنهم ولم يتعرض لاحد منهم وبعث مهنا بابنه موسى الى السلطان بانه لم يتعرض للركب فأكرمه السلطان وخلع عليه وعلى من معه(٢)

وليس ادل على تلك الحرمة التى للسلطان الناصر من ان عرب البحرين خرجوا فى تلك السنة على الركب العراقى وكان معه محمل بالغ السلطان ابو سعيد فى تزيينه بحلى من الجواهر واللؤلؤ والذهب قومت بمائتين وخمسين ألف دينار من الذهب المصرى (٣) وقد طمع العرب فى الركب فأرادوا أخذه واخيرا

---

(١) ابن ايبك : كنز الدرر ،جـ٨ ،ص ٢٥٢ .
(٢) المقريزى : السلوك جـ٢ ،ص ٢١١ - ٢١٢ .
(٣) الفاسى : العقد الثمين جـ١ ،ص ١٩٤ .

وبعد مفاوضات بينهم وبين امير الركب استقر رأيهم على اخذ ثلاثة آلاف دينار الا انهم ما لبثوا ان اعادوا المال بعد ان علموا بان الركب جاء بامر الملك الناصر ......وقالوا " لاجل الملك الناصر نخفركم بغير شيء "(١) ثم ان كتاب الناصر لتجار العراق واهلها للسير الى الحجاز فى موسم الحج وتسهيل امورهم وارساله الهدايا والخلع لامراء المغل واعيانهم دليل واضح على اهتمامه بجذب التجار واغرائهم بالمسير الى مكة التى اسهمت بنشاط وافر فى مضمار التجارة المملوكية ..... (٢)

وبسبب اضطرابات الاحوال فى مصر بعد وفاة الناصر سنة ٧٤١هـ لم يحج من مصر فى العام التالى الا القليل (٣) وتعرض عرب مهنا للتجار وقطعوا عليهم الطريق بعد ان بلغهم القبض على اميرهم فى مصر الا انه فى العام التالى أنعم على اميرهم بعد ان التزم الطاعة وعدم التعرض لاموال التجار .(٤)

ولمعالجة موضوع حماية قوافل الحجيج والتجار لم يكتف السلطان برقوق بالاجراءات التى اتخذها المماليك منذ قيام دولتهم وكانت تتلخص فى تقديم مبالغ من المال او ضريبة سنوية الى القبائل القوية المسيطرة على طول الطريق لضمان حمايتها للقوافل وتأمين سلبها وامدادها بالجمال لنقل الحبوب والازواد (٥) فانه اعد سحابة (٦) تسير مع قوافل الحجيج فى كل سنة لحمايتها والمحافظة عليها ......والجدير بالملاحظة انه اوقف عليها اوقافا بناحية بهتت(٧) تتويجا لصنيعه مع اهل الحجاز فقد ساهم فى توفير الارزاق ورخص الاسعار وحل الازمات

---

(١) المقريزى : السلوك ،جـ٢ ،ص ٢١٤ .
(٢) المقريزى : نفس المصدر ،جـ٢ ، ص ٢١٤ – ٢١٥ .
(٣) الشجاعى : تاريخ الملك الناصر ،ق ١ ، ص ١٩٩ – ٢٠٠ .
(٤) المقريزى : السلوك ،جـ٢ ،ص ٦٩٢ .
(٥) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٤٩٧– ٥٠٩ – ٥١٢ ،على بن حسين السليمان : المرجع السابق ،ص ٩٤.
(٦) طائفة ممن يرافقون الحاج للمحافظة عليه .
(٧) وهى بذاتها ناحية بهتيم واصلها من المدن المصرية القديمة اسمها المصرى حبت حيم– والقبطى بهتت – تقع شمال القاهرة على بعد ٧ كم ومساحة اراضيها ٢٦٣٢ فدان ، النجوم الزاهرة ، جـ٢ ،ص ١٠٨ ،هـ .

الاقتصادية التى تحتاج البلد الطاهر[١] ولا ريب ان فعل الخير فيه وفى الطريق اليه من اعظم القربات التى يتقرب بها الى الله .[٢]

وقد تميزت جهود الشريف حسن بن عجلان فى هذا المجال باجتذاب التجار والاحسان اليهم [٣] فقد اغرى تجار اليمن بالقدوم الى جدة واسقط ثلث الضرائب المأخوذة منهم وقدم التسهيلات الكبيرة لهم واعتنى بحفظهم وحراستهم فى الطريق الى مكة وفى العودة الى جدة وغيرها[٤] فكان لذلك اثر عظيم فى ازدياد الحركة التجارية.

وليس ادل على ذلك من ان التجار القادمين من اليمن بطريق جدة وحدها كان خروجهم من مكة سنة ٧٩٩هـ فى قافلتين كل قافلة ازيد من ألف جمل محملة بالبضائع والسلع المختلفة [٥].

ولما كان الاحتفاظ بولاء الاشراف والقواد فى الحجاز امرا يحتاج الى حنكة ودراية فان الشريف حسن كان يعمل على مهادنتهم ويلتزم لهم بمبلغ من المال على الا يتعرضوا للتجارة والتجار كما احسن الى القبائل الضاربة على الطريق التجارى بشىء من المال وطلب منهم الا يمكنوا الاشراف من الاقامة عندهم او التعرض للتجار فاذا لم تنفع هذه السياسة الصبورة استعمل القوة لبتر الفساد [٦] .

ورغبة فى زيادة النمو التجارى فى مكة حرص الشريف حسن على توثيق علاقاته باليمن فعاد المحمل اليمنى الى الظهور ثانية فى مكة

---

(١) ابن تغرى بردى : نفس المصدر ،ج١٢، ص ١٠٨ - ١٠٩ .
(٢) ابن الجوزى : مثير الغرام ،ق ٤٩أ .
(٣) السنجارى : منائح الكرم ،ج١ ،ص ٣٣٤ .
(٤) الفاسى : العقد الثمين ج٤ ، ص ٩٠ - ٩١ .
(٥) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ .
(٦) الفاسى : العقد الثمين ،ج٤ ، ص ٩١ - ٩٣ ، ابن فهد : اتحاف الورى ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

سنة ٨٠١هـ [١] بعد انقطاع دام ثمانين سنة وعاد من اليمن فى صحبة المحمل الشريف محمد بن عجلان اخو حسن وهو فى غاية الاكرام [٢] ولعله كان سفيرا لتقوية الصلات بين اخيه حسن صاحب مكة وصاحب اليمن ولتعزيز هذه الصلة امر الشريف حسن بالدعاء لصاحب اليمن فى المسجد الحرام وبعد الدعاء للسلطان المملوكى . [٣]

وقد اثرت هذه العلاقات بوضوح فى النشاط التجارى فصار اكثر كثافة واوسع انتشارا كما ان تحركات التجار اتسمت بالانتظام النسبى طوال العام وعاد ذلك على الشريف حسن بفائدة جمة [٤] وقدم التجار من اليمن من غير توقف فى الدخول الى جدة ومكة لاذن السلطان لهم فى ذلك [٥].

وعندما هدد الاشراف طريق التجارة الى مكة سنة ٨٢٠هـ اضطر الى مهادنتهم بالصلح على الا يتعرضوا للحجاج والتجار فى الطرق الموصلة الى مكة لقاء مبلغ من المال يدفعه لهم [٦] وقد اتاح هذا الصلح الفرصة لتأمين التجارة وتثبيت دعائمها وتوسيع دائرة التعامل التجارى .

ويلاحظ ان جهود سلاطين المماليك قد تركزت بصفة خاصة على الطريق الذى يربط مصر بمكة لانه الطريق الذى تسلكه اكبر قوافل الحج والتجارة فحجاج المغرب وافريقية كانوا يأتون الى مصر ومنها يسافرون الى مكة مع الركب المصرى [٧] ولهذا زاد اهتمام السلاطين والامراء باصلاحه وانشاء المخازن والمحطات والخانات والابراج المزودة بالجنود للحراسة وتقديم الخدمات

---

(١) الخزرجى : العقود اللوءلوءية ، جـ٢ ، ص ٢٩٨ ، الفاسى : نفس المصدر جـ١ ، ص ١٩٦ .

(٢) الخزرجى : نفس المصدر والجزء والصفحة ، " يذكر ابن فهد ان انقطاع المحمل اليمنى دام عشرين سنة ويعد هذا المحمل آخر محمل ارسلته اليمن .

(٣) الفاسى : نفس المصدر جـ٤ ، ص ٩٣ .

(٤) الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ٩٤ — ٩٥ ، ابن فهد نفس المصدر ص ٣٢١—٣٢٢ .

(٥) الفاسى : نفس المصدر جـ٤ ، ص ١٢٨ .

(٦) الفاسى : العقد الثمين ، جـ٤، ص ١٢٨ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٤٥—٣٤٦ ، السنجارى : منائح الكرم ، جـ١ ، ص ٣٤٦ .

(٧) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ٥ ، ص ٢٩٣ ، المقريزى : الذهب المسبوك ص ١١٣ ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣١٥ .

للقوافل كما حفروا المناهل واقاموا المصانع واحواض المياه على طول الدرب وقد جرت العادة ان يخرج البناءون والفعلة والحجارون لاصلاح الطريق وتمهيده وحفر ما اندثر من آبار فى الاماكن التى تحط فيها القوافل رحالها [١] ، وقد تم اكتشاف بعض الآثار فى هذا الطريق وفيها ذكر الاعمال الخالدة التى قام بهما سلاطين المماليك [٢] .

ولما توترت العلاقات بين المماليك والمغول فى العراق وفارس بسبب تهديد المغول لسلطان المماليك فى الشام والحجاز ،ثم ما نشب من الحروب والصراعات الداخلية فى العراقين واستمر اكثر من ثلاثين عاما كان لذلك اثره فى تخريب بغداد وتوقف مسير الحج من العراق مدة من الزمن [٣] وانتهى الامر بقدوم مبعوث اسكندر ابن قرايوسف صاحب عراق العجم للخدمة السلطانية فى القاهرة وابدى حسن النية فى اقامة العلاقات الطيبة مع المماليك فقد اخبر بان بلاده وقعت الصلح مع قرابلك على الا يتعرض لشئ من طرق المملكة وان يسهل طرق الحجاج والتجار ونحوهم من المسافرين وان يضرب السكة ويقيم الخطبة للسلطان بديار بكر وان يمتثل لما يرد عليه من مراسيم السلطان [٤] والذى يهمنا هنا ما يرتبط بعودة الطريق وعودة الاتصال التجارى بين مكة وبلاد العراق وفارس .

وعلى الرغم من شدة الاهتمام بالطرق وحراستها لم يسلم الامر من وقوع بعض الحوادث تعرض فيها التجار وقوافل الحجيج للخطر وهجوم الاعراب فمع وجود القوة المملوكية فى الحجاز سنة ٨٢٨هـ لم تستطع ان تحقق الامن فى مكة وفى الاطراف اذ تعرض الركب العقيلى للنهب واخذت اموالهم وجمالهم

---

(١) المقريزى : السلوك ج٤ ،ص ٨٦٠، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ،ج٩، ص ٦٠، ج١١، ص ٧٤ ، ج١٤، ص ٣٥٥، ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٦٧، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٩٤، ٣٩٧، ٤٠١، ٤٠٨، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٥٢، ابن اياس ج٤ ، ص ١٢٩، ١٥٢ .
(٢) سيد بكر عبد المجيد : الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ،ص ١١٥ .
(٣) ابن تغرى بردى : نفس المصدر ج١٥ ، ص ٧٢ — ٧٣، احمد دراج: ايضاحات جديدة ، ص ٢١١ .
(٤) المقريزى : السلوك ج٤ ، ص ٨٩٧ .

ونهب قاضى مكة سراج الدين الحنبلى وعمر بن عبد الحميد فى اثناء وصولهما من بلاد العجم كما خرج قطاع الطرق من الاعراب على الحجاج فى منى ليلة التاسع من ذى الحجة واخذوا احمالهم وجمالهم وعاقوا بعض الحجاج عن الحج[١] كما تعرض الركب العقيلى ايضا للنهب فى سنة ٨٣٠هـ وكان مع الركب الشريفان احمد وعلى ولدا الشريف حسن بن عجلان وكانا قد انتجعا المشرق وعادا بمال وفير نهب جميعه [٢] ونهب للتجار العراقيين اموال عظيمة كثيرة جدا [٣]. منها لتاجر واحد مائة جمل محملة بضائع ما بين شاشات وأزر وبهار وغير ذلك [٤].

وفى سنة ٨٣٤هـ قدم سعد الدين بن المرة مباشر جدة ومعه ألف نفس بقصد المجاورة فى مكة [٥] وكانت عدة احمالهم نحو ألف وخمسمائة جمل [٦] وقد تعرض قطاع الطريق للركب مرتين الاولى حين عارضهم عرب زبيد وكادت ان .. تقوم فتنة بينهم لولا حسن سياسة سعد الدين بن المرة فقد صالحهم على مبلغ مائة دينار[٧] وقيل ألف دينار [٨] دفعها ابن المرة من ماله الخاص ولم يكلف الركب شيئا غير انه لم يلبث ان خرج عليه فى رابغ الشريف زهير الحسنى ومعه مائة فارس وحاولوا الاستيلاء على الركب ونهبه فقاتلهم ابن المرة حتى صالحوه على مال [٩] مقداره ألف ومائة افلورى وعلى ثياب صوف وخرج وغيرها تقدر بأربعمائة دينار [١٠].

ولا نعلم السبب الذى منع السلطان المملوكى من القيام بأى عمل لتأديب عرب الحجاز الذين كثر تعرضهم للطرق المؤدية الى مكة وتهديدهم الامن

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٦١ .
(٢) المقريزى :السلوك ج٤ ،ص ٧٥٦، ابن حجر: ابناء الغمر ج٣ ،ص ٣٨٣، ابن فهد: اتحاف الورى ،ص ٣٦٥ .
(٣) ابن حجر: نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٥) ابن حجر : نفس المصدر والجزء ،ص ٤٥٦ .
(٦) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٧١ .
(٧) ابن فهد : نفس المصدر والصفحة .
(٨) ابن حجر : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٥٦ .
(٩) ابن حجر : ابناء الغمر ،ج٣ ،ص ٤٥٦ .
(١٠) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٧٢ .

والسلامة فيها فقد اكتفى باضعف الحلول وهو منع الناس من السفر بصحبة ابن المرة فى عام ٨٣٦هـ ولكن لحرص الناس على السفر الى الحجاز سنة ٨٣٩هـ اضطر السلطان المملوكى الى ارسال خمسين مملوكا مع الرجبية [(١)] ليقوموا بتقرير الاوضاع فى الحجاز بدلا ممن كانوا بها من المماليك وتقرر عودتهم الى القاهرة [(٢)] ولعل السبب فى هذا التهاون يرجع الى انشغال الدولة بالفتوحات العظيمة فى جزر البحر المتوسط .

وفى السنة نفسها اراد السيد بركات صاحب مكة ان يضع حدا لعنت بعض القبائل النازلة حول عسفان بعد ان تزايد خطرهم واخذهم السابلة فأعد بعثا بقيادة اخيه السيد على بن حسن بن عجلان وعدد من وجوه مكة والامير المملوكى ارتبغا - امير الخمسين المذكورين بمكة من المماليك السلطانية وبصحبته عشرون من عسكره غير انهم هزموا وعادوا يجرون اذيال الخيبة بعد ان قتل منهم اكثر من اربعين رجلا وغنم الخارجون فرسانهم واسلحتهم يقول ابن فهد : " فقامت عند ذلك بمكة صرخة من جميع نواحيها لم ير مثلها شناعة "(٣) .

وفى سنة ٨٤١هـ تعرض عربان بلى لركب الغزاوى ومن معه من اهل الرملة والقدس وبلاد الساحل واهل ينبع وحصل من العربان بلاء عظيم للركب فطلبوا من الركب مالا فدفع الينابعة مبلغا من الذهب وخلصوا انفسهم منهم اما الغزاويون فقد واجهوهم واقتتلوا معهم فقتلوا من الاعراب ثلاثة فحملوا على الركب حملة منكرة واخذوا يقتلون ويأسرون وينهبون حتى قدر ما أخذوه ، بثلاثة آلاف جمل باحمالها وعليها من المال ما بين ذهب وفضة وبضائع وزاد مالا يقدر من كثرته ووصل من خلص من الركب الى ديارهم وهم فى أسوأ حال

---

(١) يلاحظ ان الناس اعتادوا القدوم الى مكة قبل موسم الحج بوقت طويل ... وذلك للمجاورة والاستفادة من الحركة التجارية النشطة فى مكة المكرمة وخاصة بالنسبة للتجار .
(٢) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٧٣ - ٣٨٠ .
(٣) ابن الفهد : اتحاف الورى ،ص ٣٧٧ .

وتعد هذه الحادثة من اشنع حوادث الطريق .[١]

" تأمين طريق البحـــــــر الاحمر وتنشيط الحركة التجارية فيه "

يبلغ طول البحر الاحمر من السويس الى باب المندب ٢٢٤٠ كـــــم وعرضه فى اوسع جهاته ٣٥٠ كـــــم اما تسميته فهىتسمية اغريقية بسبب لون الشعب المرجانية التىتكثر فيه وقد اطلق عليه المسلمون اسمـاء متعددة هى اسماء المدن والبلاد المطلة عليه مثل بحر القلزم وبحر جــدة وبحر اليمن وبحر الحجاز وبحر فرعون ....[٢]

ويعد طريق البحر الاحمر من اهم الطرق البحرية التى ربطت بين الشرق والغرب منذ اقدم العصور وقد جعله الاسكندر المقدونى احد الطرق التجاريـــة الرئيسية التى تربط بلاده بالهند ..... وزاد الاهتمام بتجارة البحر الاحمـر فى مصر فى عهد البطالمة ولذلك شرعوا فى حفر قناة بين البحر الاحمر والبحر المتوسط ووصلت عمليات الحفر حتى البحيرات المرة الا انهم عدلوا عن المشروع اذ ظنوا ان مستوى الارض دون مستوى البحر الاحمر بثلاث اذرع [٣] وتحـــول المشروع الى الربط بين البحرين الاحمر والمتوسط عن طريق النيل وذلك بحفر قناة تربط النيل بالبحر الاحمر وكانت هذه القناة تهمل احيانا ثم يجدد حفرها احيانا اخرى من جديد لربط مصر بالحجاز ولما فتح عمرو بن العاص مصر اعـاد حفرها من جديد لربط مصر بالحجاز واطلق عليها اسم خليج امير المؤمنيـن نسبة الى الخليفة عمر بن الخطاب الذىاشار بحفرها وصار هذا الخليج مسلكا لسفن التجار والحجاج تمضى فيه الى البحر الاحمر لتتجه الى الحجـــاز واليمن والهند .[٤]

---

(١) ابن فهد : نفسالمصدر ، ص ٣٨١.
(٢) احمد مختار العبادى ،والسيد عبد العزيز سالم ،تاريخ البحرية الاسلامية ، ص ٢٥٣- ٢٥٤ ،سمى بحر فرعون لان فرعون مصر غرق فيه اثناء مطاردته لنبى الله موسى عليه السلام .
احمد مختار العبادى نفس المرجع ،ص ٢٥٤ .
(٣) سونيا هاو : فى طلبالتوابل ترجمة محمد عزيز رفعت مراجعة الدكتور / محمود النحاس القاهرة ١٩٥٧م ، ص ٣١ - ٣٢ .
(٤) احمد مختار العبادى والسيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ،ص ٢٥٨.

ويرى المؤرخون ان التغيير الكبير الذى طرأ على طرق التجارة وقع فى مستهل القرن السابع الميلادى بظهور الاسلام .

فقد كان لانتشار الاسلام اعظم الاثر فى تجارة الشرق لان الكثير من العرب المسلمين الذين كانوا يدعون الى الاسلام استقروا بشاطىء الهند يعملون تجارا للتوابل والعطور ...... او سماسرة لها [١] حتى صار خليج البنغال مجالا مشتركا للعرب والصينيين فمنذ القرن الثامن الميلادى كان العرب المسلمين يستخدمون المراكب الصينية التى تحمل مئة وخمسين او مئتى رجل واستؤنفت تجارة الافاوية نحو السويس والغرب منذ القرن الثامن تحت الرقابة العربية [٢] ذلك ان السفن الهندية والصينية لم يكن يسمح لها بان تمخر عباب البحر الاحمر وكانت عدن آخر نقطة تصلها هذه السفن [٣].

غير ان ازدهار هذا الطريق صاحب قيام الدولة الفاطمية التى عملت على تنشيط تجارته وحمايتها فكان لذلك اعظم الاثر فى تقدمها الاقتصادى وازدهارها الحضارى .[٤].

ثم كان الاهتمام الشديد بتأمين التجارة والعمل على اجتذاب السفن التجارية الى البحر الاحمر دافعا للايوبيين الى القيام بارسال الشوانى لحراسة السفن التجارية فى المحيط الهندى وحمايتها من غارات القراصنة .[٥]

وابدى سلاطين المماليك اهتماما كبيرا بالتجارة البحرية فعملوا على تأمين الملاحة فى شمال البحر الاحمر وجنوبه وعلى جذب التجار من الصين والهند باصدار المنشورات التى تشجع هؤلاء التجار وتغريهم بالقدوم وغشيان

---

(١) سونيا هاو: نفس المرجع ،ص ٣٩ ،ك.م.بانكيار اسيا والسيطرة الغربية ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد مراجعة احمد خاكى ز صص ٣٢ - ٣٣ .

(٢) جورج لوفران: تاريخ التجارة منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث ، ترجمة هاشم الحسينى ،بيروت ،بدون تاريخ ،ص ٦٤ .

(٣) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ، ص ١٣٦ .

(٤) احمد مختار العبادى : نفس المرجع ، ص ١٥٣ .

(٥) محمد عبد العال احمد : بنو رسول ،صص ٣٨٧ - ٣٨٩ .

الموانىء الحجازية والمصرية وقد جاء فى مرسوم السلطان قلاوون للتجار سنة ٦٨٢ قوله " ومن يؤثر الورود الى بلادنا الفسيحة ارجاؤها الظليلة أفياؤها وأفناؤها فليعزم عزم من قدر الله له فى ذلك الخير والخيرة ويحضر الى بلاد لا يحتاج ساكنها الى ميرة ولا ذخيرة لانها فى الدنيا جنة عدن لمن فطن ومسلاة لمن تغرب عن الوطن ويكفيها ان من بعض اوصافها انها شامة الله فى أرضه فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم فليأخذ الاهبة فى الإرتحال إليها والقدوم عليها ليجد الفعال من المقال اكبر ويرى احسانا يقابل فى الوفاء بهذه العهود بالاكثر ويحل منها فى بلدة طيبة وفى سلامة فى النفس والمال وسعادة تمول الامال ولهم مناكل ما يؤثرونه" .(١)

كما أن استقرار الأوضاع والأمن بين ربوع البحر الاحمر وموانيه والعمل على رعاية التجار كان من اهم اعمال ولاة الاقاليم التابعة للسلطان المملوكى(٢)

ومن أبرز التنظيمات التى خدمت التجارة فى مكة تحديد الشريف حسن بن عجلان للوقت الذى يسمح فيه باستقبال التجار والبضائع التجارية القادمة من البحر الاحمر فمنع تنجيل الجلاب خارج جدة طوال العام عدا أيام الموسم . فكان هلال ذى الحجة وما قرب منه بايام يسيرة هو الوقت الرسمى الذى اذن فيه بالتنجيل خارج جدة وقد نفذ هذا النظام بدقة وصرامة .(٣)

ولعله اراد بذلك تخفيف الضغط على جدة كما أنه كان مطمئنا إلى أن جميع المتاجر سوف تقصد مكة فلا تفوته الفائدة التى يحصل عليها من التجار وربما كان يرسل من طرفه من يقوم بقبض الضرائب من التجار والحجاج ولا سيما ان الفترة قصيرة ومحدودة وهذا يسهل أحكام الرقابة على التجار والى الشريف

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج١٣، ص ٣٤٠ — ٣٤٢ ، احمد مختار العبادى ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية ، ص ٢٦٤ .
(٢) القلقشندى : نفس المصدر ج١١، ص ٤٢٨ ، الفاسى : العقد الثمين ج١ ، ص٤٥٩ ج٤ ، ص ٨٧ — ٨٨، ١٤٦، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٥٦-٣٦٠، السنجارى : تاريخ الكرم ، ج١ ، ص ٣٠١ .
(٣) الفاسى : العقد الثمين ، ج٤ ، ٩٢ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٢٠ .

حسن يرجع الفضل فى تفويض امر جدة للفقيه التاجر جابر بن عبد الله الحراشى سنة ٨٠٦هـ وكان شغوفا بالعمارة والبناء [١] مخلصا فى خدمة الشريف حسن فنظم الضرائب التى توءخذ من التجار .[٢]

وعموما فقد قطعت جدة شوطا فى التوسع والازدهار فى ظل سياسته الرشيدة التى اوضحت الجوانب المفيدة لهذه الفرصة فى اطار التوسع التجارى وهيأتها لخطواتها الكبيرة فيما بعد فى مجال التجارة .

ومن الطبيعى ان استخدام هذا الطريق واتساع النشاط التجارى فيه كان يتوقف الى حد كبير على امكانيات المحطات النهائية له وعلى ازدهارها وتوفر الامن فيها .

والواقع ان هجر التجار الشرقيين او الهنود لميناء عدن واتجاههم الى البحر الاحمر يمثل حركة اقتصادية بارزة لها ابعادها وخصائصها فقد ظهرت نتائج المعاملة السيئة والتعسفية التى اتبعها سلاطين بنى رسول وفرضهم الضرائب الباهظة على التجار فعدل التجار عن الرسو بسفنهم فى ثغر عدن ولجئوا الى موانىء اخرى مثل جدة والهند والمليبار .[٣]
وادى ذلك كله الى اهمال ثغر عدن وتدهور اقتصادياته بسبب انقطاع المراكب التجارية الواصلة اليه من الهند والشرق الاقصى .[٤]

وفى الحقيقة بذل سلاطين المماليك جهودا جبارة لتأمين الحركة التجارية فى البحر الاحمر كما قاموا بتوثيق علاقاتهم التجارية مع الشرق والغرب حتى استطاعت الدولة المملوكية فى عهد الجراكسة ان تبنى لنفسها قوة بحرية عظيمة مكنتها من المحافظة على ازدهار النشاط التجارى فى البحر الاحمر ولذلك كان من الطبيعى ان يهتم السلطان برسباى باستغلال الظروف التى يواجهها

---

(١) " بنى فرضة جدة ليحاكى بها فرضة عدن كما بنى حصنا لحسن بن عجلان فى حلى وحفر حوله خندقا ، الفاسى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٠٠- ١٠١ .
(٢) الحضراوى: الجواهر المعدة ، ص ٤٧ .
(٣) ابو مخرمة : تاريخ ثغر عدن ، ج١ ، ص ١٢ .
(٤) يحيى بن حسين : غاية الامانى : ق ١ ، ص ٥٦١ .

التجار فى اليمن لصالح تدعيم الحركة التجارية فى الموانئ التابعة للمماليك فى البحر الاحمر عن طريق جذب هوءلاء التجار للتعامل المباشر مع المماليك [1].

وليس هناك شك فى ان السلطان برسباى قد اسهم فى جعل جدة فى هذه الفترة مدينة تجارية من الطراز الاول واهتم بتمكين علاقاتها التجارية مع الهند والصين منذ ان تحول النشاط التجارى اليها وفى الوقت الذى أساء فيه شريف مكة معاملة التاجر الهندى الذى تجاوز عدن وتوجه رأسا فى البحر الاحمر الى جدة سنة ٨٢٥هـ وتعرض فى جدة لمصادرة بضائعه وباعها الشريف على التجار فى مكة بالسعر الذى حدده .[2]

وقد اغضب هذا التصرف السئ السلطان برسباى لان ذلك كان يتعارض مع السياسة الاقتصادية الحكيمة التى تقوم بها الدولة المملوكية .

وتشير المصادر التاريخية الى ان السلطان برسباى ارسل الى الشريف حسن بخطابين سنة ٨٢٦هـ الاول يعنفه فيه على اخذه فلفل التجار الهنود ويطلب منه رده اليهم والثانى يبين فيه مدى ثقة المماليك به وتعظيمهم له ولسياسته التى ضمنت للحجاز فترة طويلة من الاستقرار والرخاء وقد جاء فى الخطاب : " وانه بلغنا عنك انا نريدبك الاستبدال ولا يعقل لمكانتك عندنا وان غبت عن عيننا فأنت فى القلب وما كنا نولى فى حرم الله تعالى احدا من الترك فان ينبع دون ذلك ولم نول فيها الا شريفا ووصلنا كتابك يتضمن طلبك منا خاتم الامان ومنديل الرضا وقد جهزنا لك ذلك فطب نفسا وقر عينا .
وسألتنا فى استنابة ابنك الشريف بركات فى امرة مكة وما نثق فى ذلك لابنك وفى ذلك سبب للشحناء بين الاخوة فان اردت ذلك فاستنبه وباشر خدمة المحمل

---

(١) محمد عبد العال احمد : بنو رسول ، ص ٤٥٥ .
(٢) ابن فهد : المصدر السابق ، ص ٣٥٥ .

الشريف والامراء "(١).

ويبدو ان السلطان برسباى لم يكن مطمئنا الى الشريف حسن فما لبث انعزله فيتلك السنة التى ارسلاليه فيها الخطابين وقلد امارة مكةللشريف على بن عنان وزوده بقوة مملوكية كبيرة ولعله اراد ان يكون مطمئنا على الا يتكرر ما حدث مع التجار الهنود ولذلك فان التاجر عندما عاد فى هذه السنة رفق به صاحب مكة وعامله احسن معاملة (٢) حتى قويت رغبته ومضى شاكرا (٣).

والواقع ان عودة هذا التاجر فى سنة ٨٢٨هـ ومعه جماعة من التجار الهنود تبين ان الظروف صارت ملائمة لكى تزدهر الحركة التجارية فى البحر الاحمر وخاصة جدة مرفأ مكة قلب العالم الاسلامى ومركزه الثقافى وجسر الاقتصاد والتبادل التجارى بين اقطاره ونتيجة ذلك ان أدرك السلطان برسباى ما يمكن ان تستفيده الدولة من تحصيل الرسوم المستحقة على السفن التجارية فى جدة ومنذ هذا التاريخ صار نظر جدة " وظيفة سلطانية " (٤) وغدت " بندرا عظيما الى الغاية "(٥) ومن الملاحظ ان سلاطين المماليك قد قاموا باتخاذ اجراءات من شأنها المحافظة على ازدهار الحركة التجارية فى البحر الاحمر منها تشجيع السفن الهندية والصينية على الرسو بميناء جدة وتدعيم مصالحهم التجارية عن طريق تحسين علاقتهم ومعاملتهم للتجار الهنود والصينيين فى الوقت الذى كانوا يصادرون السفن اليمنية التى ترسو بعدن (٦) بغية السيادة على طريقالتجارة الذى كانت تحتكره عدن وبفضل الجهاز الادارى.... والتوجيه الاقتصادى المنظم اضحت جدة القاعدة التجارية فى البحر الاحمر تصلها السفن من مختلف الاقطار للتبادل التجارى وقد ادى ذلك الى فقدان عدن السيطرة على البحر الاحمر وسواحل افريقية بعد ان انتقلت التجار البحرية

---

(١) الفاسى:العقدالثمينج٤،ص ١٤٦، ابن فهد: اتحاف الورى، ص ٣٥٦ .
(٢) الفاسى: شفاءالغرام ج٢ ،ص ١١، العقدالثمين ج٤،ص ١٤٨، ابن حجر: ابناءالغمر ج٣ ،ص ٣٢٦.
(٣) المقريزى :السلوكج٤،ص ٦٨١، ابنفهد : نفس المصدر ،ص ٣٥٨ .
(٤) ابنفهد: اتحاف الورى، ص ٣٦٠، ابن اياس: بدائع الزهورج٢ ، ص ١٠٣ .
(٥) المقريزى : السلوك ج٤ ،ص ٦٨١ .
(٦) المقريزى:نفسالمصدروالجزء،ص ٩٢٩، ابن حجر: ابناء الغمرج٣ ،ص ٥٣٩، ابنفهد ص ٣٧٨ .

من ايديهم الى المماليك .

واكبر الظن ان المماليك كانوا يتعجلون هذا الوضع ويتوقون للوصول اليه[١] وآية ذلك ان السلطان المملوكى حاول اخذ اليمن سنة ٨٢٨هـ[٢] ولعله أراد بذلك تهديد السلطان الرسولى حتى لا يقوم باى عمل من شانه ان يفقد جدة تلك المكانة التىاكتسبتها وفى الوقت نفسه اولى السلطان المملوكى اهتماما كبيرا للتجارة الخارجيةوعمل على زيادة ازدهارها وادى ذلك الى ترك التجار لبندر عدن وتلاشى امر عدن من اجل هذا وضعف حال متملك اليمن[٣] ولم يستطع السلطان الرسولى الظاهر يحيى ان يغفر للتجار الهنود ما حل بعدن فشرع بتجهيز السفن وشحنها بالمقاتلة والسلاح عند باب المندب لرصد السفن القادمة من الهند ومنعها من التقدم الى جدة وارغامها على التوجه الى عدن ومصادرة بعض السفن بعد اجبارها على دخول عدن .[٤]

وعندماعلم السلطان برسباى بالتهديد الرسولى لامن وسلامة التجارة فى البحر الاحمر بادر بتجهيز قواته وهدد باحتلال اليمن لانه عد ما قام به السلطان الرسولى تحديا سافرا لشخصه[٥] ولم يتخل السلطان المملوكى عن تهديده الا بعدان تعهد صاحب اليمن بعدم التعرض للسفن التجارية وان يترك لها الحرية فى اختيار الموانىء التى تريد الرسو بها .[٦]

وعلى الرغم من ان ماقام به السلطان برسباى يعد جزءا من سياسة المماليك الدفاعية وتأمين سلامة الملاحة التجارية فى البحر الاحمر فان ذلك جعل المماليك يدركون انهم قد اصبحوا قوة بحرية تجارية لها وزنها وان الموقف الجديد صار يحتم عليهم الفصل فى سيادة هذا البحر وانتزاعه نهائيا

---

(١) انظر القلقشندى: صبح الاعشى ج٨، ص ص ٧٧ - ٧٨ ، ج١، ص ٤٣٧، ص ٤٢٠-٤٢١، ج١٣، ص ٣٤٠ - ٣٤٢ .
(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٦٠ .
(٣) المقريزى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٧٠٧ ، ابن فهد : نفس المصدر، ص ٣٦٠.
(٤) محمد عبد العال احمد : بنو رسول ، ص ٤٥٨-٤٥٩ .
(٥) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك ، ص ١٣٧ ، محمد عبد العال احمد : بنو رسول ص ٤٥٩ .
(٦) المقريزى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٩٢٩ ، محمد عبد العال احمد : نفس المرجع والصفحة .

من قبضة عدن .

وكان لتلك الجهود الرائعة اثرها فى ازدهار تجارة المماليك فى جدة واصبحت تمثل المركز الاقتصادى الاساسى فى البحر الاحمر غير ان ميزان القوة الاقتصادية اخذ يسجل تراجعا لصالح طريق آخر عن طريق البحر الاحمر فقد كان وصول فاسكو ديجاما الى الهند سنة (٨٩٨هـ ١٤٩٨م) بعد اكتشافه لرأس العواصف [١] او رأس الاعاصير [٢] رأس الرجاء الصالح حاليا بداية لعصر جديد خفت فيه حدة النشاط التجارى فى جدة وعبر البحر الاحمر واضحت الامور منذرة بتدهور اقتصادى كبير للمماليك ما لبث ان تطور الى كارثة وانهيار اقتصادى [٣] .

ولعل البحث فى تاريخ الكشوف البرتغالية يوضح لنا ارتباطها الوثيق بالحروب الصليبية ذلك ان السبب الحقيقى لهذه الكشوف هو محاربة الاسلام [٤]. يقول جورج لوفران " وبعض الشخصيات البارزة كهنرى الملاح دفعها فضولها العلمى الى تشجيع الاسفار الا ان هذه الرحلات لم تبلغ الاهمية التى بلغتها الرغبة في محاربة الاسلام فى افريقيا تلك الرغبة التى قامت عليها شبه الجزيرة الايبرية اذ ان بعض المتحمسين كانوا يسعون لايجاد نفوس جديدة لدفعها الى الايمان ولم تتضاعف اهمية رأس الرجاء الصالح بسبب التجارة بل بسبب الرغبة فى البحث عن مسيحيين ملونين .[٥]

غير ان جورج يعود فيذكر عاملا وسببا آخر اقتصاديا فيقول : "والسبب ايضا يمكن ان ينسب الى مناهضة المجاعة النقدية اذ ان حدة المبادلات ... التجارية التى اصبحت خاضعة لمراقبة الدولة اخذت تستوجب الكثير من الآلات .. النقدية وفى كل مكان خاصة فى اوربا نشأت الرغبة فى استغلال المناجم التى اهملت منذ العصور القديمة لكن النتائج خيبت الآمال وبقيت القوة

---

(١) محمد عبد العال احمد: اضواء جديدة، ص ١٥٥-١٥٧، بنو رسول، ص ٤٧١ ، جورج لوفران : تاريخ التجارة ، ص ٦٧ .
(٢) احمد مختار العبادى والسيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية ، ص ٢٦٦ .
(٣) محمد عبد العال احمد : بنو رسول ، ص ٤٩٢ .
(٤) محمد عبد العال احمد : نفس المرجع ، ص ٤٧٢ .
(٥) جورج لوفران : تاريخ التجارة ، ص ٦٦ .

الشرائية لكل من الذهب والفضة مرتفعة . [١]

وقد تمكن البرتغاليون بعد سلسلة من الهجمات المدمرة علي المراكز التجارية فى المحيط الهندى والخليج [٢] ان يخضعوا المياه الشرقية لسيطرتهم ويحققوا هدفهم من هذه السيطرة المتمثل فىاحتكار التجارة والسيطرة عليها وخاصة تجارة التوابل [٣] واستنادا على ذلك كان للاكتشافات البرتغالية اثر فى الاعلان عن احتكار تجارى جديد . [٤]

وبرزت رغبة البرتغاليين فىتحطيم الاقتصاد الاسلامى واضعاف القوة الاسلامية فى تزايد اعمال القرصنة على السفن التجارية العربية [٥] والهندية [٦] المتجهة الى جدة والبحر الاحمر ووصل بهم الامر الى تخصيص قطع من اسطولهم الحربي للمرابطة بالقرب من باب المندب والقيام باغلاق البحر الاحمر وتشديد الحصار عليه [٧] .

ونظرا لخطورة الوضع فى المياه الهندية والبحر الاحمر تعلقت الامال بالقوة المملوكية وبعث كل من صاحب قاليقوط وسلطان كجرات وسلطات اليمن يستنجد بالسلطان المملوكى الاشرف قانصوه الغورى ويحثه على تشكيل قوة سريعة لحماية التجارة الشرقية وممراتها البحرية . [٨]

غير ان الاستغاثة بالسلطان المملوكى لم تسفرعن نتيجة ايجابية سريعة لانها جاءت فى ظروف استثنائية صعبة فالدولة المملوكية فى تلك الفترة كانت فى حالة ضعف بعكس ما كانت عليه من قبل فقد كانت تعانى من سوء الاحوال

---

(١) جورج لوفران : تاريخ التجارة ،ص ٦٦ .
(٢) ابن الربيع : قرة العيون ق٢ ، ص ٢١١، ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ٨ ،ص ٦٠ ،يحيى بن الحسين : غاية الامانى ق ٢ ص ٦٢٢، محمد عبد العال احمد بنو رسول ،ص ٤٨٣.
(٣) زين الدين : تحفة المجاهدين ،ص ٣٧، ٤٦ .
(٤) جورج لوفران : نفس المرجع ،ص ٦٨ .
(٥) محمد عبد العال احمد : بنو رسول ،ص ٤٨٣ .
(٦) احمد مختار العبادى والسيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ،ص ٢٦٦ .
(٧) زين الدين : المصدر السابق ،ص ١٣٢، محمد عبد العال احمد البحر الاحمر والمحاولات البرتغالية الاولى للسيطرة عليه ـ الاسكندرية ١٩٨٠،ص ٧٩ .
(٨) محمد عبد العال أحمد : البحر الأحمر ص ٨١ ـ ٨٢ .

الداخلية والخارجية يضاف الى ذلك انها لم تكن تملك اسطولا حربيا قويا يكون ندا للاساطيل البرتغالية (١)

ومع انفجار الازمة تضاعف الضغط البرتغالى على التجارة العربية الاسلامية والتجارة الشرقيةولم يجد السلطان الغورى امامه الا الحل العسكرى ومواجهة البرتغاليين لاحباط خططهم فى ضرب الاسلام والقوة الاقتصادية الاسلامية ولذلك وجه جهوده لاعداد اسطول كبير (٢)جهزه بالمدافع والاسلحة النارية واحتكر خشب السفن فى مصر وعمل علىاستيراده من آسيا الصغرى ومن جمهورية البندقية التى أضر بتجارتها هى ايضا هذا الطريق .(٣)

وفى سنة ٩١١هـ وصل الامير حسين الكردى قائد الاسطول المملوكى الى جدة فى ثلاث برشات وثلاثة اغربة (٤) هذا وقد شرع القائد الكردى فى بناء سور عظيم حول جدة لتحصينها وحماية الاماكن المقدسة التى تؤدى اليها .(٥)

وعلىالرغم من فجاح المماليك فى جهادهم ضد البرتغاليين فان تصدع الدولة قد حال دونا اكمال مسيرتها فى مواصلة الكفاح فقد تضافرت عدة اعتبارات عجلت بنهاية دولة المماليك واسهمتبشكل غير مباشر فى تشبيت الوجود البرتغالى فىالمياه الشرقية .(٦)

ويشير جورج لوفران الى تمكن البرتغاليين فى الهند بقوله " كانت محاولة العرب واهل البندقية غير مجدية فى ردهم لانهم غلبواعلىامرهم وانتهت بذلك سيطرة البحرية العربية على المحيط الهندى (٧)غير انه تجدر الاشارة هنا الى ان الوجود العربى لم يكن يهدف الىاى سيطرة فى المياه الشرقية بل كان هناك تنافس تجارى شريف يصفه مؤرخ منصف بقوله :

(١) محمد عبد العال احمد : البحر الاحمر ،ص ٨١ - ٨٢ .
(٢) محمد عبد العال احمد : نفس المرجع ، ص ٨٩ - ٩٤ .
(٣) احمد مختار العبادى ،السيدعبد العزيز سالم : تاريخ البحرية ، ص ٢٦٦.
(٤) ابن الديبع : قرة العيون ،ق ٢ ،ص ٢١١ .
(٥) ابن اياس : بدائع الزهور ج٤ ،ص ٩٥- ٩٦، ١٠٩ ، الحضراوى : الجواهر المعدة ، ص ٤٨ - ٥٠ ،محمد عبد العال احمد : نفسالمرجع ،ص ٩٢.
(٦) محمد عبد العال احمد : نفس المرجع ، ص ٩٢ - ٩٣ .
(٧) تاريخ التجارة ، ص ٦٩ .

" لم يحدث قط ان شابت نشاط العرب التجارى اية شائبة سياسية وكان العرب يتجرون بمنتهى الحرية مع الموانئ الهندية وينطلقون بسفنهم الى المحيط الهادى بل يبلغون ساحل الصين ويلوح انهم بعد القرن التاسع دخلوا حلبة منافسة فعالة الاثر مع التجار الجواجراتيين على تجارة الافاوية المستجلبة من الجزر الاندونيسية وذلك ان أفونسو البوكرك عندما وصل الى ساحل الملايو لاحظ أن التجار العرب والهنود والصينيين كانوا يتنافسون فى اسواق تلك المنطقة تنافسا صريحا لا لبس فيه "[1].

وهكذا كان للوجود البرتغالى فى المياه الهندية وتحويل طريقة التجارة اثره الكبير فى اضعاف طريق البحر الاحمر وفى التأثير على ازدهار جدة لقلة المتاجر التى كانت تصل اليها بعد ذلك .

---

(١) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ٣٢ – ٣٣ .

الفصلُ الثّالِثُ

أنواع السّلع الصّادرة والواردة

- التوابل .
- العقاقير الطبية .
- العطور والبخور .
- الأحجار الكريمة .
- المنسوجات .
- المواد الغذائية .
- المواشي والخيول والجمال
- أسباب الغلاء .

لا شك انه كان لمكة المكرمة دور كبير فى ازدهار حركة التجارة فى العصور الوسطى فمكانتها الدينية وموقعها الجغرافى قد اسهما فى نشأة كيانها الاقتصادى وترسيخه فانصرف اهلها الى التجارة فعملوا تجارا او وسطاء لاهم السلع التجارية بين الشرق والغرب وفى مقدمتها التوابل والعقاقير الطبية والاحجار الكريمة التى كان الطلب عليها كبيرا وخاصة بالنسبة لاوربا .

ولقد اسهمت مكة بطريقها البرى بدور هام فى هذا المجال .... كما كان لازدهار فرضتها جدة على حساب ميناء عدن اثره الكبير فى زيادة النشاط التجارى وتمركزه فى ميناء جدة ثم فى مكة منذ بداية الربع الثانى من القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) وهكذا اصبحت جدة من اكبر مراكز التجارة العالمية اثر تحول تلك التجارة اليها وقد ادى هذا الى اقبال تجار مكة على استغلال الفرصة لزيادة حجم تجارتهم الواردة وايجاد سوق كبيرة لما تنتجه شبه الجزيرة العربية وتحقيق الاتصال المباشر بين تجار مكة ومراكز التجارة العالمية وخاصة فى الشرق

** التوابل ....

كانت توابل الشرق وتحفه وكنوزه ترد الى جدة ثم الى مكة حيث يتم تنظيم حركة نقلها الى كل من مصر والشام تمهيدا لاعادة تصديرها من موانئ البحر المتوسط الى اوربا فقد كان اقبال الاوربيين على تلك السلع كبيرا لما كان يشاع عنها من انها كانت تأتيهم من الفردوس الارضى (١) وكانت تحقق ارباحا خيالية للمتاجرين فيها والعاملين على نقلها .

---

(١) " ساد الاعتقاد بوجه عام ابان القرون الوسطى بان التوابل والاحجار الكريمة تأتى من جنة عدن ، تحملها الى الدنيا انهار تنبعث منها وكان الجغرافيون يوضحون موقعها على خرائطهم برسم دائرة او نصف دائرة يكتبون الى جانبها فى ثقة تامة " هنا موضع الجنة . وكانوا يعتقدون انها تقع بالشرق فى اقصى شماله عالية مرتفعة حتى انها تلامس القمر، تحيط بها اسوار شامخة تكسوها اوراق الاشجار الخضراء وتقوم من حولها الحصون " ،سونيا هاو: فى طلب التوابل ،ص ١٣ .

ولا شك ان الارباح التى كان يجنيها التجار الاوربيون من تلك السلع جعلتهم يعيشون عيشة الملوك [١] بل لقد كانت تلك التوابل من عوامل دفع الاوربيين الى الانطلاق بسفنهم عبر المحيطات لاكتشاف مصادرها والعمل على استعمار مناطق انتاجها واغتصاب ثرواتها [٢] واحتكار تلك التجارة وانتزاعها من ايدى المسلمين ، وقد جاء فى كتاب (فى طلب التوابل)" آنه لا يوجد فى العالم تجارة اوفر ربحا ولا اكثر اهمية من التجارة التى تتصل اسبابها بتلك البلاد الشرقية . فمن تلك الجزائر الخصبة التى تشرف عليها الشمس من مسافة اقرب من المسافة التى بيننا وبينها تستورد اثمن السلع التى تساعدعلى رغد العيش ورفاهيته وفخامة المظهر وروعته فمن جزائر الهند تستورد الجواهر والاحجار الكريمة الى جانب الحرير الثمين والقرفة والفلفل والقرنفل وجوزة الطيب " .[٣]

والواقع ان سيطرة البرتغاليين فيما بعد على المياه الشرقية واحتكارهم لتجارة التوابل كان وسيلة لتحقيق هدفهم الرئيسى وهو اضعاف القوة الاسلامية والقضاء على الاسلام [٤] يقول المؤرخ زين الدين :" وسبب وصولهم الى مليبار على ما يحكى عنهم طلب بلاد الفلفل لتختص تجارته بهم [٥] ثم يعقب على ذلك بقوله : " ثم ان بغيتهم العظمى وهمتهم الكبرى قديما وحديثا تغيير دين المسلمين وادخالهم فى النصرانية نعوذ بالله من ذلك " .[٦]

---

(١) عبد العزيز محمد الشناوى : اوربا فى مطلع العصور الحديثة ،ط٣ ،مصر الجديدة ١٩٧٧م. جا ،ص١٠٩ - ١١٠ .

(٢) سونيا هاو : فى طلب التوابل ،ص٩ .

(٣) سونيا هاو : نفس المرجع ،ص٣٥٦ .

(٤) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ،ص١٠ .

(٥) زين الدين : تحفة المجاهدين فى بعض احوال البرتكاليين ،لشبونة ١٨٩٨هـ. ص ٣٧ .

(٦) زين الدين : نفس المصدر ،ص٤٦ .

ويؤكد هذا القول خطبة البوكرك التى القاها فى رجالة بعد هجومه على ملقا والتى جاء فيها " الخدمة الجليلة التى سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد وباطفائنا شعلة شيعة محمد بحيث لا يندلع لها بعد ذلك لهيب .... وذلك لانى على يقين اننا لو انتزعنا تجارة ملقا هذه من ايديهم (يعنى المسلمين) لاصبحت كل من القاهرة ومكة أثرا بعد عين ولامتنعت عن البندقية كل تجارة التوابل ما لم يذهب تجارها الى البرتغال لشرائها من هناك " .(١)

والحق ان تجارة التوابل كانت عنصرا هاما فى القطاع التجارى فى العصور الوسطى وكانت تمثل المركز الاول فى التجارة العالمية وكانت مصراكبر مركز لتصريف تلك التجارةوخاصة بالنسبة لاسواق اوربا ونظرا لازدياد الطلب الاوربى عليها اخذت اوربا تستهلك كميات ضخمة منها واصبحت من الفروريات وغدت جزءا لا يتجزأ من حياة الاوربيين .(٢)

وليس من شك فىانه كان لتجارة التوابل اثر كبير فى اقامة العلاقات والاحتكاك بينالشعوب فى ذلك الحين وفى ايجاد اتصال دائم ومستمر بين الشرق والغرب وكان لكل من عدن ومكة وجدة وسواكن وعيذاب والقاهرة والاسكندرية اهمية عظمى لا بوصفها من المراكز التجاريةببلاد الشرق فحسب بل باعتبارها همزة الوصل ايضا بين الهند والصين وغيرهما وبين اوربا سواءكان هذا الاتصال عن طريق التعامل المباشر أو عن طريق الوساطة فى النقل .

ومما يستحق الذكر ان سلاطين المماليك قاموا بتنشيط هذه التجارة وتوسيع

---

(١) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ،ص ٤٨ .

(٢) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ،ص ١٩٢ .

الصلات البحرية التجارية بين مراكز تصديرها فى المحيط الهندى وبين موانىء البحر الاحمر الى مراكز تصريفها فى دولتهم [١] ويوءيد ذلك ويوءكده تلك التنظيمات الرائعة لعمليات النقل التجارى البرى [٢] ولحركة الملاحة فى البحر الاحمر واصدار المنشورات لاغراء التجار اينما كانوا فى اليمن والهند والصين والسند وغيرها وتشجيعهم على القدوم بمتاجرهم الى البلاد الخاضعة لسلطان المماليك [٣] تلك الجهود والمنشورات ارست قواعد التجارة فى البحر الاحمر وشبهها الموءرخون بالدعاية السياحية فى وقتنا الحاضر . [٤]

وفى اطار العلاقة التجارية مع الغرب قدم المماليك التسهيلات الكاملة والميزات الكبيرة لتجارة الاوربيين وكانت الاسكندرية ودمياط الواجهة التجارية التى تعكس ازدياد حركة التعامل التجارى مع الغرب واطراد نموه [٥]

ومن اهم الاسباب التىادت الى ازدهار تجارة التوابل شدة الاقبال الاوربى على هذا النوع من المتاجر لاقتناعهم بفوائدها للصحة والجسم بعد ان تأكد لهم اثرها الفعال فى المساعدة على تسهيل الهضم [٦] وتدفئة الجسم خاصة فى ايام الشتاء القارص وايام الصيام التى تمتد الى ساعات طويلة من النهار بالاضافة الى تجميلها للطعام وتحسينها نكهته واستعمالها فى حفظ الاطعمة والمشروبات من العفن والتلف بسبب رطوبة الجو كما دخلت التوابل فى صناعة

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكر ،ج٩ ،ص ٢٤٣ ، المقريزى السلوك ج١ ،ص ٥٨١، ٧٠٢، ابو الفدا: المختصر ج٤ ،ص ١٥ ،محمد عبدالعال احمد : بنو رسول ص ٣٩٨

(٢) الجزيرى : درر الفوائد المنظمة ،ص ٤٩٧ ، ٥٠٨ .

(٣) القلقشندى:صبح الاعشى ج١٣ ،ص ٣٤٠-٣٤٢، محمدعبدالعال احمد : بنو رسولص ٤٤٧

(٤) احمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الاسلامية ،ص ٢٦٤ .

(٥) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ط ٢ ، القاهرة ١٩٧٦،ص ٣٠٠، عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ،ص ١٥٧ .

(٦) سونيا هاو : المرجع السابق ،ص ٣٧ .

الكثير من العقاقير الطبية [1].... واستهلكت الكنيسة كميات هائلة منها فى الطقوس الكنيسية وغيرها وتقاضى روءساوءها العشور توابل كما كان العبيد والاتباع يشترون حريتهم ببضعة ارطال من التوابل كما فرض رجال الكنيسة على الجاليات اليهودية المقيمة فى اوربا جزية ضرائبية قوامها الفلفل والجنزبيل والشمع مقابل السماح لهم بحق حيازة مدافن لموتاهم ومدارس.... لابنائهم [2] وقامت التوابل مقام المعادن الثمينة فى البيع والشراء وقدمت مهورا للعرائس[3] ودفعت ايجارا للاراضى الزراعية.[4]

ويضاف الى اسباب ازدهار هذه التجارة عامل آخر هو تلك الهيئة الاسلامية التجارية - الكارمية - التى سيطرت على تجارة التوابل وسلع الشرق وانجبت عددا من الاسر التى توارثت هذا النوع من النشاط التجارى واشتهرت بحذقها فى ادارة الاعمال التجارية والمصرفية وضخامة رءوس الاموال .

ومن اشهر هذه البيوتات التجارية آل الخروبى والكويك [5] .. وحسبنا ان نشير فى علو مكانتهم وتفوقهم التجارى ، الى ان سلاطين المماليك كانوا يقترضون المال منهم اذا واجهتهم ازمات مالية واضطرتهم الظروف الى ذلك.[6]

واذا كانت هذه الهيئة التجارية قد نجحت فى الهيمنة على تجارة البهار والفلفل والاحتفاظ بها طوال العصرين الفاطمى والايوبى وفى خلال عصر دولة

---

(١) نعيم زكى فهمى : المرجع السابق ،ص ١٩٢، على بن حسين السليمان: النشاط التجارى ،ص ٢٢٨ .

(٢) سونيا هاو : المرجع السابق ،ص ٢٢ ، ٢٣ ،نعيم زكى : نفس المرجع ،ص ١٩٩.

(٣) عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ،ص ١١٠ .

(٤) سونيا هاو : نفس المرجع ،ص ٢٣ .

(٥) صبحى لبيب : التجارة الكارمية ،ص ٣١ .

(٦) المقريزى : السلوك ،ج٢ ،ص ١٠٣ .

المماليك الاولى فلا جدال فى ان دولة المماليك الثانية كانت سببا فى تفكك عرى هذه الهيئة فقد احتكرت هذه التجارة واقصت التجار الكارمية عنها وانزلت الضرر بالتجار الاوربيين بسبب رفعها للاسعار بشكل فاحش مع اجبار هوءلاء التجار على الشراء من التوابل السلطانية وبالاسعار التى تحددها الدولة وقد اتعبت هذه السياسة القوى التجارية فى غرب اوربا وازعجت العالم الاوربى فسعت الى مضاعفة الجهود للوصول الى الهند والشرق الاقصى وكان نتيجة ذلك تحول فى طرق التجارة العالمية صاحبه انقلاب خطير فى عالم السياسة والاقتصاد الدولى(١)

وايا ما كان الامر فانه تجدر الاشارة الى بعض انواع السلع ونبدأها بالتوابل ....

الفلفل ....

يعد الفلفل من اكثر التوابل رواجا وشهرة فى عالم العصور الوسطى لاستعماله فى تحسين نكهة الطعام وصناعة الشراب وحفظ الاطعمة واللحوم (٢) وهو هاضم للطعام عدر للبول (٣) ... كما ان له فوائد كثيرة اذا استخدم عقارا طبيا " فهو عندما يمزج بورق الغار يكون دواءا ناجحا فى حالات لدغ الكائنات السامة وعندما يمزج بالتراب يفيد فى النزلات الشعبية والتهاب الرئة وعندما يمزج .. بالزيت يكون مرهما مفعوله بعيد الاثر (٤) .

وكانت للفلفل قوة شرائية فى اوربا حينذاك فقد كان يقوم مقام المال فى

---

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ،ص ٣٠٧ - ٣٠٨ ، نعيم زكى فهمى : المرجع السابق ،ص ١٩٣ .

(٢) حسنين محمد ربيع : البحر الاحمر ،ص ١١٦ ،وثائق الجنيزة ،ص ١٣٨ .

(٣) الدمشقى : جعفر بن على ، الاشارة الى محاسن التجارة ، القاهرة ، ١٣١٨ هـ ،ص ٢٢ .

(٤) سونياهاو : فى طلب التوابل ،ص ٢١ .

كثير من الاحيان نظرا لارتفاع ثمنه حتىأصبح يضرب به المثل فيقال " غال كالفلفل " [١] وفى مكة كانت المتاجرة بهذه السلعة مصدر ثراء لصاحبها ويكفى للتدليل على ذلك ان احد التجار بها اشترى فلفلا بدرهم ونصف للمن وباعه كل من بعشرة دراهم حتى بلغ ماله ألف درهم .[٢]

وقد كان اهل مكة والطائف وبقية بلاد الحجاز يقبلون على هذا التابل ويكثرون من استخدامه حتىانهم يضعون فى أطعمتهم من الفلفل نحومايضعه غيرهم نحو عشرة اضعاف أو اكثر .[٣]

وقد كانت العادة المتبعة فى بيع الفلفل فى تجارة البحر الاحمر خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين بيعه بالحمل وكان ثمن الحمل يتراوح ما بين ٥٠دينارا و ١٢٥ دينارا .[٤]

وفى العصر المملوكى اشتدت الرغبة فى الحصول عليه اكثر من اى تابل آخر على الرغم من ارتفاع ثمنه وكان يصل الى مصر من مكة ويقترن رخاء الاسعار فيه بموسم الحج ، ففى سنة ٧٤٧هـ عز وجود الفلفل بالقاهرة وبيع الرطل منه بستة وأربعين درهما فى حين انه بيع بعد دخول الحاج وقدوم تجار الهند بخمسة دراهم للرطل [٥] وفى عام ٨١٥هـ قل الفلفل فى كل من مكة ومصر ووصل سعر الحمل فى مصر الى ٢٢٠ دينار بعد ان كان سعره لا يزيد عن ٦٠ دينارا وارسل صاحب مصر يطلب شراءه من مكة وأمر أن يحمل اليه ما قيمته ٥ آلاف دينار واتفق ان صاحب اليمن ارسل الى مكة كميات كبيرة من الفلفل ليبيعها

---

(١) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ،ص١٩٩،سونيا هاو : نفس المرجع ص ٢٢ .

(٢) الفاسى : العقد الثمين ،ج ٥ ،ص ٤٥٤ .

(٣) ابن قيم الجوزية : شمس الدين محمد بن ابى بكر ، الطب النبوى ،دار الباز للطباعة والنشر ،ص ٧٦ .

(٤) حسنين ربيع : البحر الاحمر ،ص ١٦ .

(٥) المقريزى : المصدر السابق ج٢ ،ص ٧٢٥، الجزيرى : المصدر السابق ،ص ٣٠٨.

فيها فحمل منها للسلطان ما طلبه بسعر الحمل ٢٥ ديناراوبيع الباقى بمكة بسعر الحمل ٣٥ دينارا بعدان كان يباع وقت وفرته بعشرة دنانير [١] ويذكر ابن حجر انه عرض فى ذلك العام والذى يليه على تجار الفرنج فى مصر بسعر ٢٤٠ دينارا .[٢]

ومنذ عام ٨٣٣هـ صار الفلفل ينقل من جدة الى الطور ثم الى مصر والزم السلطان المملوكى الفرنج بشراء الحمل من المتاجر السلطانية بسعر ١٣٠ دينارا فى حين كان يباع فى القاهرة بمبلغ ٥٠ دينارا كما منع السلطان تجار الاسكندرية من بيع ما عندهم للفرنج وكانوا قد عرضوا ثمنا للحمل ٦٤ دينارا وذلك رغبة منه فى شراء ما عند التجار بعد ان يبور عندهم بالسعر الذى يحدده . [٣]

ويزرع الفلفل قرب الاشجار واوراق شجره تشبه اوراق العليق ويثمر عناقيد صغارا تكون خضراء اللون فى حالة النضج فتقطف وتفرش على الحصر فى الشمس حتى تجف ويسود لونها ثم يحفظ الفلفل فى جرار من الفخار لبيعه [٤] وثمر الفلفل يكون فى حال ابتدائه طويلا يشبه اللوبيا والسيسبان ويعرف بالدار فلفل ويكون فى جوفة حب صغير اذا استحكم ونضج فهو الفلفل الاسود واذا اجتنى غضا فهو الفلفل الابيض [٥] واذا طالت المدة بالدار فلفل تآكل ولا يحس الذائق بلذعة مذاقة الا بعد قليل [٦] ويذكر البحريون ان على كل عنقود من عناقيد الفلفل ورقة تكننة من المطر فاذا انقطع المطر ارتفعت الورقة فاذا عاد المطر

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٢٤٠، السباعى : تاريخ مكة جا ،ص ٢٦٥-٢٦٦.
(٢) ابن حجر : ابناء الغمر ،ج٢ ،ص ٥٢١ .
(٣) المقريزى : المصدر السابق ،ج٤ ،ص ٨٢٣-٨٢٤ .
(٤) ابن بطوطة : الرحلة ،ص ٥٤٩ .
(٥) الدمشقى : شمس الدين ابى عبد الله محمد ابى طالب الانصارى ،نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ،ص ٩٩- ١٠٠ .
(٦) الدمشقى : الاشارة الى محاسن التجارة ،ص ٢٢ .

عـــــادت .[١]

واحسن انواع الفلفل الاسود وهو أسود من الخارج باطنه أبيض وهو حـار حريق المذاق رائحته طيبة [٢] واجود الاسود ما كان ثقيلا شديد السواد نظيف خاليا من التراب والحصى سليما من الاحتراق والعفن [٣] ولبعض انواع الفلفل رائحة قوية وبعضها لا رائحة له .[٤]

واهم مصادر الفلفل ساحل المليبار الذى يعرف " ببلاد الفلفل " حيـث يزرع الفلفل بكثرة فى مدينة ملبار ومنجرور[٥] وده فتن[٦] وكولام التى تعد آخر بلاد الفلفل [٧] .

والواقع ان السفن ظلت زهاء ألفى سنة تقلع منها دون توقف متوجهـة الى الخليج العربى والبحر الاحمر وهى محملة بتوابل الهند وجزر المحيط الهادى [٨]

ويذكر ابن بطوطة انه رأى الفلفل بقاليقوط يصب للكيل كالذرة فى بلادنا[٩] ويزرع بملى الفلفل ما يوسق مراكب التجار اذا اجتمعت فى يوم واحد[١٠][١١] كما يوجد الفلفل بجبل سرنديب وهو الجبل الذى يقال ان آدم عليه السلام هبط عليه[١٢]

---

(١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ،ص ٦٢ – ٦٣ .
(٢) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ،ص ١٩٧ ،سونيا هاو : نفس المرجع ،ص ٢١.
(٣) الدمشقى : الاشارة الى محاسن التجارة ،ص ٢٢ .
(٤) سونيا هاو : نفس المرجع ،ص ٥٤ .
(٥) الدمشقى : نخبة الدهر ،ص ١٧٣ .
(٦) ابن بطوطة : نفس المصدر ،ص ٥٤٩ – ٥٥١ .
(٧) الدمشقى : نخبة الدهر ،ص ١٧٣ .
(٨) بانيكار : نفس المرجع ،ص ٣٦ .
(٩) ابن بطوطة : الرحلة ،ص ٥٤٩ .
(١٠) ابن خرداذبة : المسالك الممالك ،ص ٦٢ – ٦٣ .
(١١) الدمشقى : نخبة الدهر ،ص ١٥٩ .
(١٢) ابن خرداذبة : نفس المصدر ،ص ٦٤،بزركبن شهريار : عجائب الهند بره وبحره وجزايره ،ص ١٧٩ .

ويزرع الفلفل بكميات كبيرة فى جزيرة رامنى وفى كنباية[١] ولا تقتصر زراعة الفلفل على تلك المناطق الاسيوية بل يوجد ايضا فى بعض مناطق شرق افريقية ويتم تصديره عن طريق ميناء مقديشو وتنمو اشجاره على مساحات شاسعة وتثمر ثلاث مرات فى السنة وتأخذ حبوبه بعد ان تجففها الشمس لونا أشهب [٢] اما فلفل غانه فى غرب افريقية فيحتكر اهل المغرب تجارته وتصل كميات منه الى برقة حيث يتم تصديره عن طريق مينائها ويعرف هذا النوع من الفلفل بذى الذنب .[٣]

وحتى بعد وصول البرتغاليين للهند ونشوب الصراع بينهم وبين المسلمين على تجارة التوابل كان الفلفل يهرب الى مكة ومنها الى اوربا غير انه لم يسلم من الغش بسبب الاوضاع الاقتصادية غير المستقرة وصار ذلك الغش مصدر شكوى كثير من التجار [٤] فاضطر التجار الاوربيون الى التعامل مع اسواق لشبونة .

القرنفل ......

من النباتات الاقتصادية والطبية التى تزايد الطلب عليها وقد استخدم فى الاغراض الطبية لعلاج المعدة والكبد والقلب وهو مريح للدماغ ويذهب الصداع واذ خلط بنوع من الشراب واكتحل به زاد من قوة الابصار وحدته ويدخل فى علاج التهاب العيون واحمرارها وينفع فى معالجة هبوط القلب كما انه مهدئ للاعصاب [٥] وتستعمل براعمه الزهرية الجافة منبها عطريا وفى تحضير نوع من

---

(١) الدمشقى : نفس المصدر ،ص ١٥٣ – ١٥٤ ، ١٧٢ .

(٢) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ،ص ١٩٨ .

(٣) سونيا هاو : فى طلب التوابل ،ص ١١٣ .

(٤) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ،ص ١٩٨ – ١٩٩ ،على بن حسين السليمان : النشاط التجارى ،ص ٢٣٠ – ٢٣١ .

(٥) سونيا هاو : المرجع السابق ،ص ٢١ .

الزيوت الطيارة .[١]

والقرنفل من اغلى الافاوية سعرا وقد بلغ ثمنه ضعف ثمن الفلفل منذ الحروب الصليبية وحتى اوائل القرن السادس عشر الميلادى وقد استعمله الاغنياء فى تطييب نكهة اللحوم وفى حفظ الاطعمة وخاصة الاسماك .[٢]

واشجار القرنفل كبيرة [٣] وهى تشبه الياسمين [٤] وتنتشر اوراقها من منتصف الشجرة مكونة شكلا هرميا واما لحاوءها فهو فى لون الزيتون وثمارها بيضاء تأخذ فى الاحمرار كلما اخذت فى النضج ويسودلونها عندما تجف وتجنى مرتين فى العام ولثمرها راائحة قوية طيبة وللاوراق واللحاء نفس الراائحة مادامت خضراء [٥] وزهره غليظ اسود وهى كباش القرنفل ومنه ذكر ومنه انثى والذكر منه ثمرته كنواة الزيتون واطول وله علك كعلك البطم وقرفة القرنفل قشر شجرته [٦] والذى يسقط من زهره هو نوار القرنفل .[٧] وتضم الفصيلة القرنفلية ما يقرب من ٨٠ جنسا و٢١٠ نوع غالبيتها عشبية [٨]

ويخلط ابن بطوطة بين التوابل فهو يقول : أن ثمر القرنفل هو جوزبوا المعروف فى بلاده بجوزة الطيب وان زهرها هو البسباسة [٩] فى حين يشير المؤرخون والجغرافيين الى كل نوع من هذه الانواع فى سياق كلامهم عن متاجر وجزر الشرق الاقصى كقولهم وبهذه البسباسة وجوزبوا وجوز الطيب

---

(١) مصطفى عبد العزيز وآخرون : النبات العام ،ط٤ ،القاهرة ١٩٧٩،ص ٥٩٦.
(٢) على بن حسين السليمان:نفس المرجع ،ص ٢٣١،نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .
(٣) ابن بطوطة : نفس المرجع ،ص ٦١٢ .
(٤) الدمشقى : نخبة الدهر ،ص ١٦٠ .
(٥) سونيا هاو : فى طلب التوابل ،ص ٢٤١ .
(٦) الدمشقى : نخبة الدهر ،ص ١٦٠ .
(٧) ابن بطوطة : الرحلة ،ص ٦١٢ .
(٨) مصطفى عبد العزيز وآخرون : المرجع السابق ،ص ٥٦٦ .
(٩) ابن بطوطة : نفس المصدر ،ص ٦١٢ .

وكباش القرنفل [١]......الخ

ومما لا شك فيه ان التجار المسلمين من العرب كانوا وسطاء تجارة هذه السلعة منذ القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) [٢] وكانت تجلب من سومطرة وجاوة وبورينو وجزر ملوك الى ملقاتيث ينقلها التجار من هناك الى الغرب [٣] وتزرع فى بلاد الهند [٤] وجزر صنجى [٥] وجزر بحر الصين [٦] ، وجزيرة بندا [٧] .

القرفة ..... (الدارصينى)

من السلع الهامة التى كانت ترد الى مكة المكرمة وكان الطلب عليها كثيرا جدا على الرغم من ارتفاع ثمنها وكان يعادل ثمن الفلفل وربما ارتفع عنه قليلا [٨]وللقرفة اهمية كبرى فى نظر الصيادلة فقد كانت تستخدم شرابا منعشا وخامة فى فصل الشتاء وفى حفظ الاطعمة وقد استعملها الاطباء العرب فى صناعة العقاقير الطبية [٩] فهى مفيدة للمعدة وتجلو البصر وتدفىء الجسم ويستخرج من ورقها زيت قوى الراشحة مفيد فى امراض الامعاء يستخدم ملينا ويصنع منه مرهم للجروج والحروق .[١٠]

وشجرة القرفة تشبه شجرة الصفصاف غير أنها أطول منها وتنمو أغصانها

---

(١) ابن خرداذبة : المصدر السابق ،ص ٧٩ ،المسعودى : مروج الذهب ج١ ،ص ١٥٤، الدمشقى : نفس المصدر ،ص ١٥٤ .

(٢) جورج لوفران : تاريخ التجارة ،ص ٦٤ .

(٣) سونيا هاو : نفس المرجع ،ص ٤١ .

(٤) المسعودى : نفس المصدر ج١ ،ص ٣٤، ١٥٤ .

(٥) الدمشقى : نخبة الدهر ،ص ١٥٤ .

(٦) ابن خرذاذبة : المسالك والممالك ،ص ٦٦ ، ٧٧ .

(٧) سونيا هاو : فى طلب التوابل ،ص ١٠٩ .

(٨) سونيا هاو : نفس المرجع ،ص ٢٠٢ .

(٩) الدمشقى : الاشارة الى محاسن التجارة ،ص ٢٣ .

(١٠) ابن البيطار: الجامع لمفردات الادوية والاغذية ،القاهرة ، ١٢٩١هـ ،ج١ ،ص ١٠٤ .

آفقيا ولحاء أغصانها أكثر جودة وأطيب نكهة من لحاء الساق وأوراقهـــــا وثمرتها تشبه ورق الغار وثمرته غير انها اكبر حجما منها .(١)

واكثر اشجارالقرفة تنبت على شواطئ أنهار الهند وبلاد المالبار وتستعمل الاغصان وقودا اذا جردت من لحائها وثمرتها يقول ابن بطوطة " وجميع الاشجار التى على هذا النهر(٢) اشجار القرفة والبقم وهى حطبهم هناك ومنها كنا نقد النار لطبخ طعامنا فى ذلك الطريق".(٣)

وافضل انواع القرفة ما كان لونه أحمر وحريق المذاق والردىء منه رقيق وصلب يميل الى السواد .(٤)

وكانت القرفة تصل الى مصر من مكة المكرمة بطريق البحر الاحمر (٥) ، ويقال ان اصل القرفة من الصين لذا عرفت باسم " الدراصينى "كما عرفت فى فارس باسم " خشب الصين"وفى اوربا باسم " اوراق الهند " . (٦)
وكانت الصين من اهم مصادر القرفة فى العصور الوسطى (٧) وتزرع بكثرة فى جزائر الصنف ورامنى والصنجى (٨) وفى بلاد المالبار (٩) كما كانت تستورد من جزيرة تبعد ١٦٠ فرسخا الى الجنوب من قاليقوط (١٠) والقرفة المزروعة فـــى سرنديب اجود من المزروع فى ساحل المالبار (١١) واسعارها تعادل اربعــــة

---

(١) سونيا هاو : نفس المرجع ،ص ١١٠ .
(٢) لم يذكر ابن بطوطة اسم النهر ولكنه ذكر ذلك فى سياق حديثة عن بلاد المالبار.
(٣) الرحلـــــــــة ،ص ٥٥٧ .
(٤) ابن البيطار : الجامع لمفردات الادوية والاغذية ،ج١ ،ص ١٠٤ .
(٥) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ،ص ٢٠٢ ،على بن حسين السليمان : التشاط التجارى ،ص ٢٣٢ .
(٦) ابن البيطار : نفس المصدر ج١ ،ص ٨٣ – ٨٤ .
(٧) ابن خرداذبة : المصدر السابق ،ص ٧٠ .
(٨) الدمشقى : نخبة الدهر ،ص ١٥٣ ، ١٥٤ .
(٩) ابن بطوطة : نفس المصدر ،ص ٥٧ .
(١٠) سونيا هاو : نفس المرجع ،ص ٢٠٢ .
(١١) بزرك بن شهريار : نفس المصدر ،ص ١٨٠ .

اضعاف الاسعار فى قاليقوط وقد كان ذلك سببا فى حملة البرتغاليين الاولى على سرنديب رغبة منهم فى الاستحواذ على هذه السلعة واحتكارها .(١)

وقد زرعت القرفة فى شبه الجزيرة العربية فى اليمن ووصفت هذه المنطقة بانها "تفوق كل ما عداها فى العالم خصبا فى النباتات النادرة والمواد البلسمية والجزء الواقع فى اقصى جنوب هذه المنطقة تكسوه غابات البخور واشجار المر والقرفة والكاسية واللادن فما ازكى وارق الرائحة العتيقة المنبعثة من هذه الاشجار حتى لكأنها لم تكن من اشجار الدنيا وانما هى اشجار قدسية علوية وكأنما الطبيعة قد حشدت فى هذه الرقعة من الارض أروع .. العطور شذى وأعبقها ارجا واكثرها حلاوة واسرعها فى شفاء الناس." (٢)

الزنجبيل ....

ورد ذكره فى القرآن الكريم على انه من شراب جنة الخلد التى وعد الله بها عبادة الصالحين فقال تعالى :" ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا"(٣)

والزنجبيل احد انواع التوابل التى كان لها دور هام فى تجارة مكة وهو لا يقل اهمية عن الفلفل والبهار وقد شاع استعماله فى حفظ الاطعمة والمشروبات وفى تركيب الادوية فهو يذهب البرد ويعين على هضم الطعام وهو مفيد للكبد والمعدة نافع لظلمة البصر الناتجة عن الرطوبة أكلا واكتحالا كما انه ملين للبطن مهدئ للمعدة مسكن للمغص محلل للرياح الغليظة الحادثة فى الامعاء

---

(١) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ،ص ٢٠٣ .

(٢) سونيا هاو : فى طلب التوابل ،ص ١٩ - ٢٠ .

(٣) سورة الانسان : آية ١٧ .

والمعدة [١] وهو جيد فى علاج امراض القصبة الهوائية [٢] وبالجملة فهو جم الفوائد على انه عقار طبى الى جانب استعماله فىتتبيل الطعام . [٣]

والزنجبيل الذى يطرح فى الاسواق نوعان أخضر أو مخلوط بالسكر [٤] واجوده الصينى المائل الى الصفرة وهو لاذع المذاق [٥] ويذكر ابن بطوطة ان اهـل الهند "كانوا يأخذون الزنجبيل الاخضر ويجعلون عليه الملح ويصيرونه كما يصير الليم والليمون ثم يأكلونه مع الطعام يأخذون بأثر كل لقمة شيئا يسيرا منه" [٦]

ويسعى كثير من تجار شبه الجزيرة العربية الى بلاد الهند والمليبار من اجل الحصول على افضل انواع الزنجبيل [٧] وتزرع الصين وسمرقند وبعض المناطق العربية كميات كبيرة منه والذى يصل من هذا التابل هو مايزرع فى بلاد العرب والهند [٨] .

ويمتاز الزنجبيل الهندى باختلاف انواعه فمنه ، الجبلى والبلدى والدلى ويزرع الاول والثانى على الجبال وان كان الاول يفوق الثانى جودة [٩] وما يحمل من بلاد العرب وارض عمان يشبه الفلفل فى طعمه وكان يتم حفظه فى اوان خزفية فىاثناء نقله [١٠] ويستورد الزنجبيل من مدينة كولام ويطرح فى أسواق مكـة

---

(١) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ،ص ٢٤٦ .
(٢) الدمشقى : الاشارة الى محاسن التجارة ،ص ٢٣ .
(٣) سونيا هاو : فى طلب التوابل ،ص ٢١ .
(٤) نعيّم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ،ص ٢٠٥ .
(٥) على بن حسين السليمان : النشاط التجارى ،ص ٢٣٤ .
(٦) الرحلـــة : ص ٣٩٢ .
(٧) ابن بطوطة : نفس المصدر ،ص ٥٥٠، سونيا هاو : نفس المرجع ،ص ١٤٩ .
(٨) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ،ص ٢٠٥ – ٢٠٦ ،على بن حسين السليمان : نفس المرجع ،ص ٢٣٤ .
(٩) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع والصفحة ،على بن حسين السليمان :نفس المرجع والصفحة .
(١٠) ابن البيطار : الجامع لمفردات الادوية والاغذية ج٢ ،ص ٢٦٧.

زنجبيل مدغشقر وزنجبيار ،وسعره ضعف سعر الزنجبيل فى كولام .[١]

الخلنجـــــــــــــــان ......

وهو من بين العديد من السلع التى تاجرت فيها مدن الحجاز واليمن فـى العـصور الوسطى [٢] وا ستخدم فى تتبيل الاطعمة واللحوم وتطييب طعمهـــا وقد كثر استعماله ايضا فى الاغراض الطبية وذلك لفائدته فى علاج امراض الكلى والمعدة والقصبة الهوائية والاطباء يفرقون بين نوعيه : الكبير وهو الاحمـر القانى والصغير وهو البنى ....[٣]

واشجاره تعرف باسم " خرودار " وهى ذات عروق متشعبة لها عقد لونها بين السواد والحمرة وكان يتم استيراده من الهند [٤] والصين [٥].

جـــــــــــوزة الطيب ....

ومن التوابل التى يصدرها الشرق الى الغرب جوزة الطيب وكان لها دور كبير فى حرب التوابل التى قامت بها بعض الدول الاوربية لاحتكار هذه السلـع والسيطرة على مصادر انتاجها .[٦]

وقد استخدمت عقارا طبيا لما لها من تأثير قوى على منع القئ وخفقان القلب [٧] واستعملت فى طهو الاطعمة وصناعة بعض المشروبات .[٨]

---

(١) نعيم زكى فهمى : المرجع السابق ،ص ٢٠٦ .
(٢) حسنين محمد ربيع : وثائق الجنيزة ، ص ١٣٨ .
(٣) الدمشقى : الاشارة الى محاسن التجارة ،ص ٢٣ ،ابن البيطار : نفس المصدر جا ،ص ٨٩ - ٩٠ .
(٤) الدمشقى : نفس المصدر والصفحة ،ابن البيطار : نفس المصدر ،جا ،ص ٨٩-٩٠.
(٥) ابن خرداذبة : المصدر السابق ،ص ٧٠ .
(٦) سونيا هاو : فى طلب التوابل ،ص ٩ .
(٧) سونيا هاو : نفس المرجع ،ص ٢١ .
(٨) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ،ص ٢١٨ .

وأشجار جوزة الطيب وأوراقها تشبه أشجار الجوز [١] وثمرتها لهـــا قرون مثل قرون القرنفل (٢) وتشبه جوزة الطيب عندما تقطف ثمرة السفرجل فى الشكل واللون وغطائها الخارجى غير انها اصغر حجما منها وغلافها الخارجى فى سمك قشرة الجوز الاخضر ويوجد البهار تحت غشائه الرقيق وهو شديد الحمرة [٣]

واجود انواعها ما يرد من جاوه وسومطرة وبورينو [٤] وتزرع فى جزيرة الصنجى .[٥]

حـــــب الهال .... (الحبهان)

ويعتبر الحبهان من اهم التوابل المعروفة فى العصور الوسطى وقد كثر الاقبال عليه فى الحجاز [٦] كما ازداد الطلب عليه من جانب الاوربيين وكان يتم تصدير ما يصل منه الى مصر عن طريق الاسكنـــــــدرية الى اوربا .

ويكسب هذا التابل الطعام والشراب مذاقا لذيذا للغاية اما فائدتـــه العلاجية فقد عرفتها اوربا عن العرب والفرس واستخدم فى حفظ الاطعمـــة [٧]

وكان التجار يفاضلون بين ثمرة حب الهال الخشبية وبين تلك التى تجلب من الحدائق واماكن تصديره جزر الهند وقاليقوط وما جاورها .[٨]

---

(١) سونيا هاو : نفس المرجع ،ص ٢٤١ .
(٢) على بن حسين السليمان : النشاط التجارى ،ص ٢٣٥ .
(٣) سونيا هاو : نفس المرجع ص ٢٤١ .
(٤) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ،ص ٢١٨،سونيا هاو : نفس المرجع ،ص ١٤٩.
(٥) الدمشقى : نخبة الدهر ،ص ١٥٤ .
(٦) حسنين ربيع : وثائق الجنيزة ،ص ١٣٨ .
(٧) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ،ص ٢١٨ ،على بن حسين السليمان: النشاط التجار ،ص ٢٣٤ – ٢٣٥ .
(٨) نعيم زكى فهمى: نفس المرجع والصفحة ،على بن حسين السليمان : نفس المرجع والصفحة .

الزعفـــــــــــــران ...... (الورس)

اما الزعفران فهو من السلع التى لها رواج كبير فى مكة [١] ويتميــز براثحته العطرية المعروفة ولهذاكان يدخل فى صناعة العطور والتلوين كمـا استخدم فى الطهو وقد عرفه أطباء العرب وغيرهم منذ القدم واستعملوه فـى علاج بعض الامراض [٢].

وقد ورد ذكره فى بعض الاحاديث النبوية فذكر الترمذى من حديث زيد بن أرقم عن النبى صلى الله عليه وسلم : " أنه كان ينعت الزيت والورسهن ذات الجنب ،قال قتادة " يلد به ،ويلد من الجانب الذى يشتكيه " . [٣]

وروى ابن ماجة فى سننه من حديث زيد بن ارقم قال " نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذات الجنب ورسا وقسطا وزينا يلد به " .[٤]

وصح عن ام سلمة رضى الله عنها انها قالت : " كانت النفساء على عهـد رسول الله صلى الله عليه وسلم تقعد بعد نفاسها اربعين يوما أو أربعيـن ليلة وكنا نطلى على وجوهنا الورس من الكلف". [٥]

وقد استخدم الورس علاجا شافعا للكلف والحكة والبثور والبهق والسعفـة والوضح كما ان له قوة قابضة صابغة . [٦]

---

(١) حسنين ربيع : وثائق الجنيزة ،ص ١٣٨ .

(٢) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ،ص ٢١٩ ،على بن حسين السليمان : نفس المرجع ،ص ٢٣٥ .

(٣) الترمذى : الجامع الصحيح ،جـ٣ ،ص ٢٧٥ .

(٤) ابن ماجة : السنن ،جـ٢ ،ص ١١٤٨ .

(٥) ابن حنبل : المسند ،جـ٦ ،ص ٣٠٤ .

(٦) ابن قيم الجوزية : المصدر السابق ،ص ٣١٥ .

واهم مصادر الزعفران بلاد فارس حيث يزرع بكميات كثيرة فى بواشجرد وقسم وهمذان وشيراز [١] وأجوده ما زرع فى منطقة اصفهان التى يصفها ابن رستة بقوله " وبها من الزعفران الذى وان كان فى غيرها من البلدان موجودا فان فضله على كل ما فى سائر المواضع منه ظاهر لانه اذكى رائحة وأبين نفعا واشبع صبغا فى كل ما يستعمل ولا يبتاع فى شئ من المواسم التى يجلب اليها شئ منه ما يوجد فى زعفران أصفهان"[٢] ويجلب الزعفران من بلاد الاندلس [٣] ويعود الفضل الى المسلمين فى نقل بذوره اليها بعد فتحهم لتلك البلاد[٤]

وزعفران اليمن يعرف " بالورس " وهو اقل ثمنا ويحمل منها الى الحجاز لبيعه فيها [٥] واجود الزعفران الاحمر اللين ، القليل النخالة [٦] .

العقاقير الطبية ....

بلغت تجارة العقاقير الطبية اوج عظمتها فى مكة وامتلأت اسواقها بمئات النباتات المتبادلة بين الشرق والغرب فكانت مكة بلدا مصدرا للكثير من النباتات والاعشاب المستخدمة فى الطب والتى كثيرا ما نسبت اليها ومن اهم هذه السلع الشرقية والمكية : الكافور ،واللبان ،والمن ،والصبر ،والسنا ، والراوند ،والاهليلج ،والخيارسنبر،والاراك ،والكباث ،والعسل .

---

(١) المقدسى : احسن التقاسيم ،ص ٣٢٦،٣٦٦ ، ٤٤٢ .

(٢) الاعلاق النفيسة ،ص ١٥٧ .

(٣) المقدسى : نفس المصدر ،ص ٢٣٥ .

(٤) نعيم زكى فهمى : المرجع السابق ،ص ٢١٩ .

(٥) على بن حسين السليمان : المرجع السابق ،ص ٢٣٥ .

(٦) ابن قيم الجوزية : المصدر السابق ،ص ٣١٥ .

الكـــــــــــــافور ......

هو صمغ شجرة بحرية اسفنجية ضخمة وطويلة تنبت فى أطراف الصين والهند (١) تشبه القصب غير انها أطول وأغلظ (٢) ويتضخم جذعها كثيرا وتحمل أوراقـــا بسيطة جلدية رمحية عديمة الاذينات ذات حافة كاملة .(٣)

ويصور لنا الدمشقى كيفية استخراج الكافور وجمعه بقوله :" انهـــــم يقصدون شجره فى وقت معلوم من السنة فيحفرون حولها حفرة ويجعلون فيهـــا اناءا كبيرا ثم إن الرجل منهم يقبل وبيده فأس ماض ويكون قد تلثم وسد انفــه ومكن الاناء من أصل الشجرة ثم يضرب الشجرة بالفأس بحيث يجرى ما يخرج منهـا فى ذلك الاناء ويطرح الفأس من يده ويهرب لئلا يفور فى وجهه ما يخرج مـــن الكافور فيقتله فاذا برد الماء الذى يخرج من الشجرة فى ذلك الاناء الموضوع جعلوه فى اوعية وعمدوا الى الشجرة التى استخرجوا ماءها فقطعوها وتركوهـا حتى تجف ثم يقطعونها قطعا صغار أو كبار ويشققونها ويستخرجون ما يجدون بين لحائها وخشبها مثل الصمغ صغارا وكبارا وقال قوم يجدونه فى قلب العود... منظما مثل الملح .(٤)

ويبين المسعودى تأثير البيئة فى نمو الكافور بقوله :" فالسنة التـــى تكون كثيرة الصواعق والبرق والرجف والقذف والزلازل يكثر فيها الكافور واذا قل ذلك كان نقصانا فى وجوده ".(٥)

---

(١) ابن خرداذبة : المصدر السابق ،ص ٦٥ ، الدمشقى : نخبة الدهر،ص ١٠٣-١٠٤.
(٢) ابن بطوطة : المصدر السابق ،ص ٦١١ .
(٣) مصطفى عبد العزيز وآخرون : النبات العام ،ص ٥٩٤ .
(٤) نخبـــــــــة الدهر ،ص ١٠٤ .
(٥) المسعودى : مروج الذهب ،جا ،ص ١٥٢ .

هذا وترجع معرفة العرب المسلمين له الى ايام الفتوحات الاولى فى بلاد فارس [١] وكانت له فى مكة المكرمة سوق رائجة [٢] ويرد اليها من الهند و جزر الصين [٣] وجزيرة جاوه [٤] .

وافضل انواع الكافور الرباحى [٥] واجوده القنصورى وهو حسن الجوهر شديد البياض وناعم الفرك ذكى الرائحة ولا يوجد الا فى رؤس الشجر وفروعها وكل انواع الكافور لا تدخل فى صناعة الادوية عدا الرباحى المجلوب من ارض قنصورة فى بلاد الصين [٦] وهو جم الفوائد من الناحية الطبية [٧] فهو مفيد للاعصاب والقلب والكبد ومذهب للرطوبة [٨] .

البيلسان ....(البلسم)

من النباتات الطبية التى نالت شهرة واسعة فى عالم العصور الوسطى ويستورد من البلاد العربية ونظرا لارتفاع اسعاره وتهافت الغرب الاوربى على الحصول عليه قام سلاطين المماليك باحتكار استغلاله والاستفادة من الارباح العظيمة التى تدرها تجارته لدرجة ان السلاطين كانوا يحضرون بأنفسهم عملية استخراج زيت البيلسان الثمين ووضعه فى كئوس من الفضة [٩] وكان السلاطين يهادون به ملوك وامراء اوربا وملك الحبشة وكبار الشخصيات المارة ببلادهم . [١٠]

---

(١) نعيم زكى فهمى : المرجع السابق ،ص ٢١٢ .
(٢) ابن جبير : الرحلة ،ص ٩٧ ، البلوى : تاج المفرق ،جـ١ ،ص ٣٠٨ .
(٣) ابن خرداذبة : المصدر السابق ،ص ٦٥، ٦٦، ٦٩، المسعودى : المصدر السابق جـ١ ص ١٥٢، ١٥٤ .
(٤) ابن بطوطة : المصدر السابق ،ص ٦٠٧ ، ٦١١ .
(٥) نسبة الى اول من عرفه وهو ملك يقال له رباح ، الدمشقى: نخبة الدهر، ص ١٠٤ .
(٦) الدمشقى: نفس المصدر ،ص ١٠٤ – ١٠٥ .
(٧) يستخدم الزيت المستخرج من تقطير الاوراق مطهرا للوقاية من بعض الامراض مثل الانفلونزا والالتهابات الشعبية ،مصطفى عبد العزيز: المرجع السابق، ص ٥٩٦ .
(٨) الجزيرى : تحفة العجائب (مخطوط بدار الكتب رقم ١٣٤٤ ورقة ٤١٧–٤١٨ .
(٩) سونيا هاو : المرجع السابق ،ص ١٧ .
(١٠) نعيم زكى فهمى : المرجع السابق ،ص ٢٠٨ .

وشجرته تشبه شجرة الآس ويبلغ ارتفاعها نحو ذراع ويستخرج دهنهـــــا من الاغصان والجذوع بعد ان تشرط بمشرط من حجر ويحفظ فى الاصداف والقوارير(١)

وينبت البيلسان فى الحجاز(٢) ومصر (٣) والشام وفلسطين واليمن (٤).. غير ان افضله ما نبت فى مكة وفى منطقة المطرية فى مصر (٥) ومن عجائـــب الدنيا بئر البلسم بمصر يسقى منه نبات البلسان ولا يسقى بغيره لانه لا يأتى الدهن بغيره (٦) وينمو شجر البلسان الانثى فى مصر وحدها فى حين ينمو فـــى مكة الذكر منه ولونه أشهب.(٧)

والبلسان نبات برى لا ينبت حيثما يزرع واذا نبت فى غير مكانه لا يخرج دهنا يقول ابن اياس:" ومن النوادر ان البلسان وهو الذى يسمونه البلسم كان قـد انقطع زريعته من ارض المطرية من اوائل سنة تسعمائة من القرن التاسع وكانت مصر تفخر بذلك على سائر البلاد وكانت ملوك الفرنج تتغالى فى دهن هذا البلسم ويشترونه بثقله ذهبا ولا يتم عندهم التنصر حتى يضعوا من دهنه شيئا فى ماء المعمودية وينغمسوا فيه وكان يستخرج دهنه فـى فصل الربيع فى برمهات فلمـا انقطعت زريعته فى ارض المطرية تنكد السلطان لذلك ولازال يفحص عن امره حتـى احضر اليه بلسان برى من بعض اماكن بالحجاز وهو فى طينه فزرعه بالمطرية فـــى مكانه المشهور به فنتج وطلع لما سقى من ماء تلك البئر التى هناك.(٨)

---

(١) الجزرى : المصدر السابق ،ورقة ٤٨٤ .
(٢) الجزيرى : دررالفوائد المنظمة ،ص ٥٣٠ .
(٣) المقدسى : المصدرالسابق ،ص ٢٠٤ .
(٤) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ،ص ٢١٠ .
(٥) سونيا هاو : المرجع السابق ،ص ١٦ .
(٦) الدمشقى : نخبة الدهر ،ص ١٢٠، ٢٣٤ .
(٧) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ،ص ٢١١ .
(٨) بدائــــــع الزهـــــور : ج٤ ،ص ١٤٩ .

وكان عدد الشجر المنقول من الحجاز ستين شجرة حملت من وادى العقيق ومن مدرج الامام عثمان رضى الله عنه ومن حول فساقى مكة المشرفة (١) وقد عرف عند الكيمياثيين والصيادلة في الاندلس باسم " حب البلسان " . (٢)

ومن جملة فوائده الطبية انه يذيب ويلطف ويغنى ويبيد وعصيـــره جيد للدماغ يلهبه حتى لكأنه يشعل نارا ويستخدم فى تحنيط جثث الموتـــى لحفظها من التعفن . (٣)

المـــــــــــــن ....

الى جانب شهرة مكة المكرمة بالبلسان اشتهرت كذلك بتوفر نبات المـــن بجانب كونها مركز تجمع لتجارة هذا النبات الذى يعتبر من حاصلات شبه الجزيرة العربية (٤).

وقد جاء فى الاثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله " الكمـأة من المن وماءوها شفاء من العين " . (٥)

يقول ابن قيم الجوزية وقوله صلى الله عليه وسلم " الكمأة من المن " فيـــــه قولان :

احدهما ان المن الذى نزل على بنى اسراثيل لم يكن هذا الحلو فقـــط بل اشياء كثيرة من الله عليهم بها من النبات الذى يوجد عفوا من غير صفـة ولا علاج ولا حرث فان المن مصدر بمعنى مفعول اى ممنون به فكل ما رزقه اللــه العبد عفوا بغير كسب منه ولا علاج فهو من الله تعالى لانه لم يشبه كســـب

---

(١) الجزيرى : درر الفوائد ،ص ٥٣٠ .
(٢) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ،ص ٢١١ - ٢١٢ .
(٣) سونيا هاو : المرجع السابق ،ص ١٦ .
(٤) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ص ٢١٦ .
(٥) الترمذى : السنن ، المجلد الثالث ،ص ٢٧١ .

العبد ولم يكدره ما لا كسب له فيه ولا صنع باسم المن فانه من بـــلا واسطة العبد وجعل سبحانه قوتهم بالتيه الكمأة [١] وهى تقوم مقام الخبـز وجعل أدمهم السلوى وهو يقوم مقام اللحم وجعل حلواهم الطل الذى ينزل على الاشجار وهو يقوم لهم مقام الحلوى فكمل عيشهم . وتأمل قوله صلى الله عليه وسلم " الكمأة من المن الذى انزل الله على بنى اسرائيل فجعلها من جملته وفردا من افراده والترنجبين الطل الذى يسقط على الاشجار نوع من المن ثـم غلب استعمال المن عليه عرفا حادثا .

والقول الثانى انه شبه الكمأة بالمن المنزل من السماء لانه يجمع من غير تعب ولا كلفة ولا زرع بذر ولا سقى .[٢]

وكان صيادلة واطباء العصور الوسطى فى اوربا يلحون فى طلب المـــن العربى لفضله على جميع الانواع المعروفة وقد اكدت الدراسات الطبية الحديثة مميزات المن المكى الذى عد اجود انواع المن ونسبت وثائق الغرب الحديثـة تسميته الى مكة فعرف هناك تحت اسم ماكينا .[٣]

ومن اهم مصادر هذا النبات الطبى بالاضافة الى مكة وشبه الجـــزيـرة العربية ،شبه جزيرة سيناء والقسطنطينية وجزيرتا قبرص وصقلية .[٤]

---

(١) تعرف الان باسم عيش الغراب

(٢) ابن قيم الجوزية : المصدر السابق ،ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

(٣) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ،ص ٢١٦ .

(٤) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع والصفحة .

الصـــــــــــــبر ......

وهو صمغ يستخرج من شجرة لها اوراق كورق السوسن الا ان اوراقها تتميز بوجود اشواك صغار على طول اطرافها وورق الصبر اطول من ورق السوسن وعليه رطوبة تلصق باليد ولورقة عرق واحد .(١)

وكانت كل من الهند وفارس وحضرموت والاحقاف وسقطرة من مناطق انتاج الصبر(٢) ويذكر المسعودى انه كان لنباتات سقطرة شهرة كبيرة وخصائص عجيبة وكانت تستخدم منذ اقدم العصور فى تحضير بعض العقاقير الطبية وقد حدا ذلك الاسكنـــــدر الاكبر الى الاستيلاء على تلك الجزيرة (٣) ومنذ ذلك العهد نقل الاغريق زراعة بعض النباتات ومنها الصبر الى بلادهم (٤) الا انه لم يكن فى جودة الصبـــر السقطرى(٥) ولعل ذلك يرجع الى تأثير البيئة .

ويغلب على صبر سقطره اللون الاحمر فى حين ان صبر فارس لامع (٦) وقد نال الصبر السقطرى شهرة واسعة فى العصور الوسطى واعطى الاولوية فى ميدان التجارة وامتاز برخصه الى جانب جودته وورد ذكره كثيرا فى كتب الرحالة وجغرافيى العصـــور الوسطى وكان يصدر الى اوربا عن طريق مصر .(٧)

ويعد العصير المستخرج من ورق الصبر عنصرا اساسيا فى تجهيز الادوية .(٨)

---

(١) الدمشقى : نخبة الدهر ،ص ٨١ .
(٢) الدمشقى : نفس المصدر ،ص ٢١٧ .
(٣) مروج الذهـــــــب ، المجلد الثانى ،ص ١٩ - ٢٠ .
(٤) سونيا هاو : المرجع السابق ،ص ٥٤ .
(٥) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ،ص ٢١٧ .
(٦) الدمشقى : نخبة الدهر ،ص ٢١٧ .
(٧) نعيم زكى فهمى : المرجع السابق ،ص ٢١٧ .
(٨) سونيا هاو : المرجع السابق ،ص ٥٤ .

والصبر الهندى مفيد فى علاج امراض الصدر وسقوط الشعر[١] وهو ينقى المخ واعصاب البصر واذا مزج بماء الورد وطلى على الجبهة والصدع نفع فى علاج قروح الانف والفم ويستعمل مسهلا فى بعض حالات الامساك .

وصبر فارس يذكى العقل ويشد الفؤاد وهو جيد للمعدة ولكنه مضر اذا ... استخدم فى البرد . [٢]

وكان النساء يستعملن الصبر ويطلين به وجوههن ففى السنن لابى داود من حديث ام سلمة انها قالت : " دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين توفى ابو سلمة وقد جعلت على صبرا فقال " ما هذا يا ام سلمة ؟ فقالت انما هو صبر يا رسول الله ليس فيه طيب ،قال : انه يشب الوجه فلا تجعليه الا بالليل وتنزعيه بالنهار .[٣]

السنا .... " سنامكة " [٤]

يعد سنا مكة من النباتات الطبيعية التى نالت شهرة فى عالم الطب فى العصور الوسطى وقد اقترن اسمه بمكة لشهرتها به وهو نبت حجازى آفضله المكى .[٥]

وهومن الادوية الشريفة المأمونة الغائلة [٦] وعن اسماء بنت عميس

---

(١) الجزرى : تحفة العجائب،ورقة ٤٦٥، الدمشقى : الاشارة الى محاسن التجارة ص٢٠.
(٢) ابن قيم الجوزية : المصدر السابق ،ص ٢٥٨ .
(٣) ابو داود : سنن ابى داود مراجعة محمد محى الدين عبدالحميد ،دار الفكر ، ج٢ ،ص ٢٩٢-٢٩٣ .
(٤) المقدسى : المصدر السابق ،ص ٩٨ .
(٥) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، ص ٥٩ .
(٦) ابن قيم الجوزية نفس المصدر والصفحة .

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سالها بم تستمشين ؟ قالت بالشبرم [(١)] قال :" جار جار " قالت : ثم استمشيت بالسنا فقال النبى صلى الله عليه وسلم لو ان شيئا كان فيه شفاء من الموت لكان فى السنا .[(٢)]

وروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله : " عليكم بالسنا والسنوت فان فيهما شفاء من كل داء الا السام " قيل يا رسول الله وما السام ؟ قال الموت .[(٣)]

وقد استخدمت اوراق السنا المنقوع ملينا فى حالات الامساك مع مراعاة كمية الشربة وهى تختلف من شخص الى آخر وللسنا تاثير جيد فى تقوية جرم القلب وهذه فضيلة شريفة فيه وخاصيته انه ينفع من الوسواس السوداوى ومن الشقاق العارض فى البدن واستخدم فى علاج القمل والصداع المزمن والجرب والبثور والحكة والصرع .[(٤)]

الـــــــــــــراوند ....

كان الراوند من السلع الهامة التى لقيت سوقا رابحة فى مكة وقد عرفه العرب منذ اقدم العصور واستخدموه فى صناعة العقاقير الطبية ويتكون من معدن النحاس ولونه اخضر كالزبرجد وهو لين الملمس .[(٥)]

ويرد الراوند من آسيا الصغرى وخراسان والهند والصين واجود انواعه الصينى وكانت له سوق رائجة فى مصر اذ كان الاوربيون يطلبونه ويفضلونه

---

(١) من الادوية اليثوعية وقد اوصى الاطباء بترك استعماله لخطره وفرط اسهاله ابن قيم الخوزية : نفس المصدر ،ص ٥٨ ، ٢٠٣
(٢) الترمذى : المصدر السابق ،ص ٢٧٦ .
(٣) ابن ماجة :السنن المجلد الثانى ،ص ١١٤٤، "السنوت العسل وقيل الشبثوقيل الكمون ، ابن ماجة : نفس المصدر والصفحة .
(٤) ابن قيم الجوزية : المصدر السابق ،ص ٥٨ - ٥٩ .
(٥) الجزيرى:تحفة العجائب،ورقة ٤٦٢، الدمشقى: الاشارة الى محاسن التجارة ص ٢١.

على الانواع الاخرى وكان البحر الاحمر هو طريقة الطبيعى .[١]

وقد استخدم الراوند فى علاج كثير من الامراض وخاصة امراض المعدة ، والكلى والكبد وللبيئة تاثير كبير على لونه فهو يصفا بصفاء الجـــو ويتكدر بكدرته .[٢]

الاهليلـــــــــــج ....(الهند شعيره)

وهو من السلع الطبية التى كانت معفاة من المكوس فى ثغر عدن وكان يجلب من الهند .[٣]

والهليلج نبات ذو ثمرة صغيرة ذات نواة من نوع الخوخ والبرقـــوق مستطيلة الشكل غير انها اقل حجما من البرقوق وافضل انواعه الشديد الصفرة الضارب الى الخضرة .

والاطباء يستخدمون هذه الثمرة فى تركيب الادوية التى تفيد فى علاج المعدة والامعاء والبصر .[٤]

التوتيـــــــــــا ....

حجر له الوان عديدة احسنها الابيض ثم الاصفر ثم الفستقى وقد نالت هذه السلعة شهرة كبيرة ادت الى تزايد الطلب عليها من الشرق والغـــرب وقد جلبت بكميات كبيرة لمختلف البلاد الاسلامية وعن العرب عرف الغرب فوائدها واصبحت مقرونة بالاسكنـــــــدرية لشدة الطلب عليها هناك .[٥]

---

(١) نعيم زكى فهمى : المرجع السابق ،ص ٢١٥ .
(٢) الجزيرى : نفس المصدر والورقة ، الدمشقى : نفس المصدر والصفحة .
(٣) ابو مخرمة : تاريخ ثغر عدن ج١ ،ص ٦٢ .
(٤) الجـزرى : تحفة العجائب ،ورقة ٤١٧ .
(٥) الجزرى : نفس المصدر ،ورقة ٣٨٤ .

واشهر مناطق استخراج التوتيا قرى وجبال اصفهان [1] واقليم كرمان بفارس حيث اشهر الانواع معروفة باسم " التوتيا المرازى " وسمى بذلك لانهم يصبونه فى اصابع كبيرة من الخزف فيلتزق بها ويبقى كالمزاريب يقول المقدسى " ورأيتهم يجمعونه من الجبال وقد بنوا اكوارا عجيبة طويلة يصفونه كما يصفى الحديد ولم اراه الا بالقرى ." [2]

كما يوجد كذلك فى الهند والصين وتشتهر جزيرة ملقا بوجود هذا الحجر بصورته الطبيعية كما ان بها مصانع لتنقيته واستخلاصه ،ويستخدم الاطباء والصيادلة حجر التوتيا بعد تنقيته فى علاج امراض العيون والقروح السرطانية [3]

الخيـــــــــار شنبر ....

من النباتات التى اختصت بها مصر وحجم شجرته قدر شجرة الجوز غير انه اصغر قليلا منها وتستعمل براعمه فى صناعة العقاقير الطبية واجودانواعه البراق الاملس القشرة .

وقد اقتصرت تجارته على الشرق وكان يحمل من مصر الى الاسواق العربية فى بلاد الشام والعراق والحجاز .

وقد استعمله الاطباء العرب علاجا مدرا للصفراء ومسكنا لآلام الاورام ، والمفاصل وضيق التنفس .[4]

---

(١) ابن رستة : المصدر السابق ،ص ١٥٦ – ١٥٧ .

(٢) المقدسى: المصدر السابق ،ص ٤٧٠ .

(٣) الجزرى : المصدر السابق ورقة ٣٨٤، ابن البيطار :المصدر السابقجا ،ص ١٤٣ ، ١٤٥ .

(٤) الجزرى : نفس المصدر ورقة ٤١٦، ابن البيطار : نفس المصدر جا ،ص ٨١ .

الاراك ....

نبات برى ينتشر بكثرة فى اودية مكة المكرمة [١] وهو من اسباب حفظ الصحة والعرب تكثر استعماله فى تطهير الفم وتنظيف الاسنان ولهذا يمكننا اعتباره من صادرات مكة .

وقد ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم احاديث فى الحث على السواك ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم " السواك مطهرة للفم ومرضاة للرب ".[٢] وقوله صلى الله عليه وسلم " لولا ان اشق على امتى لفرضت عليهم السواك كما فرضت عليهم الوضوء " .[٣]

واجود ما اتخذ السواك من خشب الاراك وينبغى فى هذه الحالة التأكد من شجرته فلا يوءخذ من شجرة مجهولة قد تكون سامة وافضل استعمالاته اذا بل بماء الورد .[٤]

ومن منافع السواك أنه يطيب الفم ويقوى اللثة ويقطع البلغم ويجلو الاسنان ويمنع حفرها وينقى الدماغ وهو جيد للمعدة معين على هضم الطعام ويطلق الصوت ويصفى الحواس .[٥]

---

(١) ابن رستة : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ، ابن بطوطة : المصدر السابق ،ص ١٤٣ ، الوريثلانى : نزهة الانظار ،ص ٤٤٠ .

(٢) ابن حنبل : المسند : جـ١ ،ص ١٠ .

(٣) ابن حنبل : نفس المصدر ،جـ١ ،ص ٢١٤ .

(٤) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ،ص ٢٤٩ .

(٥) ابن قيم الجوزية : نفس المصدر ،ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

الكبـــــــــــــــات ....

نبات حجازى وهو ثمر الاراك وقيل ورقه واحسنه الاسود فقد جاء فـــــى الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : " كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران نجنى الكبات " فقال عليكم بالاسود منه فانه اطيبة ." (١)

واستخداماته الطبية كثيرة ومنافعه كمنافع الاراك يقوى المعدة ويسهل الهضم ويزيل البلغم ويستعمل فى علاج اوجاع الظهر ويمسك الطبيعـــــة واذا شرب طبيخه ادر البول ونقى المثانة . (٢)

العســــــــــــــل ....

قال تعالى : " يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس " (٣) وما يوءخذ من الجبال والشجر له فضل على ما يوءخذ من الخلايا وقد اشـــار الله عز وجل الى ذلك بقوله تعالى :" واوحى ربك الى النحل أنْ اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون " .(٤)

ويكفى هذه السلعة فضلا وشرفا انها طعام اهل الجنة قال تعالى :" وانهار من عسلٍ مصفى " . (٥)

---

(١) البخارى : الصحيح ،جـ٦ ،ص ٢١٣ .

(٢) ابن قيم الجوزية : المصدر السابق ،ص ٢٨٤ .

(٣) سورة النحل : آية ٦٩ .

(٤) سورة النحل : آية ٦٨ .

(٥) سورة محمد : آية ١٥ .

لقد بارك الله جل وعلا فى العسل فعظمت قيمته وفوائده يقول ابن قيم الجوزية " وهو غذاء مع الاغذية ودواء مع الادوية وشراب مع الاشربة وحلو مع الحلو وطلاء مع الاطلية ومفرح مع المفرحات فما خلق لنا شئ فى معناه افضل منه ولا مثله ولا قريب منه ولم يكن معول القدماء الا عليه واكثر كتب القدماء لا ذكر فيها للسكر البتة ولا يعرفونه فانه حديث العهد حدث قريبا ." (١)

وفى سنن ابن ماجة فى الزوائد اسناد صحيح عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : " عليكم بالشفاءين العسل والقرآن " . (٢)

ويحمل العسل الى مكة من السراة (٣) ومن وادى نعمان (٤) يقول الاصفهانى : " وبنعمان الاصدار وهى صدور الوادى التى يجئ منها العسل الى مكة .... ولهم أى (لهذيل) ايضا واد يقال له رهجان يصب فى نعمان به عسل كثير (٥) والعسل المسعودى الذى بمكة والذى يذكر ابن جبير انه اطيب من الماذى المضروب به المثل (٦) ولعل تسميته بالمسعودى نسبة الى بنى مسعود من هذيل كانت لهم قلعة على رابية بوادى نخلة تعرف بسولة (٧) .

---

(١) الطب النبوى ، ص ٢٦ .

(٢) المجلد الثانى ، ص ١١٤٢ .

(٣) ابن جبير : المصدر السابق ص ٩٨ . ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ١٦٠ .
" السراة جبال جنوب الطائف كانت تتخذ اسماء القبائل التى سكنتها مثل هذيل وبجيلة والازد والمع ودوس وغيرها " ياقوت: معجم البلدان ، مادة السراه ج٣ ، ص ٢٠٥ .

(٤) نعمان وادى عظيم جنوب عرفات كثير المياه والمزارع بين الطائف ومكة على طريق كراء ، الحسن الاصفهانى : بلاد العرب ، ص ٢٠ .

(٥) الحسن الاصفهانى : بلاد العرب ، ص ٢٠ - ٢١ .

(٦) ابن جبير المصدر السابق ، ص ٩٨ .

(٧) ياقوت : معجم البلدان ، مادة سوله ، ج٣ ، ص ٢٨٥ .

ويأتى العسل الى مكة ايضا من مصر وهو من النوع الممتاز الذى يفخر به على غيره ويقال ان النبى صلى الله عليه وسلم بارك فيه لما اهداه اليه المقوقس كما يصل الى مكة ايضا الشمع المتخذ من الشهد وعسل الاسطروس .(١)

ويجلب العسل كذلك الى مكة من الموصل وحران ومن اصفهان (٢) وهو العسل الماذى الخالص النقى الذهبى الجوهرى الذى اذا قطر على الارض منه لم تأخذ منها ولم تعطها .(٣)

وللعسل منافع عظمية قدوصفه الاطباء للاستشفاء من علل كثيرة ومن جملة فوائده " انه جلاء للاوساخ التى فىالعروق وغيرها محلل للر طوبات اكلا وطلاء ، نافع للمشايخ واصحاب البلغم وهو مغذ ملين للطبيعة مذهب لكيفيات الادوية الكريهة منق للكبد والصدر ومدر للبول وموافق للسعال الكائن عن البلغم واذا شرب حارا بدهن الورد نفع من نهش الهوام وشرب الافيون واذا شرب وحده ممزوجا بماء نفع من عضة الكلب الكَلِبْ واكل الفطر (٤) واذا جعل فيه اللحم الطرى حفظ طراوته ثلاثة اشهر وكذلك ان جعل فيه القثاء والخيار والقرع .... والباذنجان ويحفظ كثيرا من الفاكهة ستة اشهر ويحفظ جثة الموتى ويسمى الحافظ الامين واذا لطخ به البدن المقمل والشعر قتل قمله وصئبانه وطول الشعر وحسنة ونعمة وان اكتحل به جلا ظلمة البصر وان استن به بيض الاسنان وصقلها وحفظ صحتها وصحة اللثة ويفتح افواهالعروق ويدر الطمث ولعقه على الريقيذهب البلغم ويغسل خمل المعدة ويدفع الفضلات عنها ويسخنها تسخينا معتدلا ويفتح سددها ،ويفعل

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ،ص ٣٢٦ – ٣٢٧ .

(٢) المقدسى : المصدر السابق ،ص ١٤٥ .

(٣) ابن رستة : المصدر السابق ،ص ١٥٧ .

(٤) نوع من الكماة قتال ويعرف الان بعيش الغراب السام .

ذلك بالكبد والكلى والمثانة وهو اقل ضررا لسددالكبد والطحال من كل حلو " (١)
وحقيق بشيء هذه منافعه ان يحمل الى الآفاق وان يطلب في كل مكان وزمان.

العطـــــــور والبخور ....

جاء في الاثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :" حبب الى من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني الصلاة " .(٢)

والطيب غذاء الروح ولا عجب ان تكون له تجارة رائجة في مكة فقد كان اهلها يستعملون الطيب كثيرا وكان نسوءها يكثرن التطيب ومما قاله ابن بطوطة في هذا الصدد ان احداهن لتبيت طاوية وتشترى بقوتها طيبا .(٣)

وكانت اسواق مكة زاخرة باشواع العطور والبخورالمختلفة كالمسك والعنبر وخشب الصندلوالكاذىوالبان و اللبان ومعظم المتاجر ترد اليها من الهند والصينواليمن .

العـــــــود ....

من افخم انواع العطور والبخور واكثرها شذى وعبيرا ويعرف بالعود الهندى وهو نوعان :ـ

احدهما : الكست ويقال له القسط ويستعمل ايضا في صناعة العقاقير الطبية ويرد من بلاد السند .(٤)

الثاني يستعمل في الطيب ويقال له الالوه وعن ابن عمر رضى الله عنهما "أنه كان يستجمر بالالوة غير مطراة وبكافور يطرح معها ويقول " هكذا كان يستجمر رسول الله صلى الله عليه وسلم" كما ثبت عنه في صفة نعيم اهل الجنة (٥)

---

(١) ابن قيم الجوزية : المصدر السابق ،ص ٢٥ ــ ٢٦ .
(٢) احمد بن حنبل : المسند ،المجلد الثالث ،ص ١٢٨ ، ٢٨٥ .
(٣) ابن بطوطة : المصدر السابق ،ص ١٤٣ .
(٤) ابن خرداذبة : المصدر السابق ،ص ٦٢ ، ٧١ .
(٥) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ،ص ٢٦٥ .

وشجرة العود الهندى تشبه شجرة البلوط الا ان قشرها رقيق ولا ثمر لها وعروقها طويلة ممتدة تنبعث منها الرائحة العطرة اما عيداتها وورقها فلا رائحة لها .(١)

اما عن كيفية اعداده للاستخدام فيقول القلقشندى : ان الشجرة تقطع وتدفن فى التراب سنين حتى تأكل الارض منه مالا ينفع ويبقى العود لا تؤثر فيه الارض(٢)

ومن اشهر انواع العود المندلى ،والقمارى ، والقاقلى ،والصينى واجودها الاسود والازرق الصلب الرزين الرطب كثير الماء والدهن واقله جودة ما خف وطفا على الماء .(٣)

وللعود تأثير قوى فى ادخال البهجة والفرح على القلوب كما انه يقوى الاحشاء والقلب والحواس وينفع الدماغ وفى التجمير مراعاة جوهر الهواء واصلاحه فانه احد الاشياء الستة الضرورية التى فى صلاحها اصلاح الابدان .(٤)

ومن اهم مصادر انتاجه الهند والصين (٥) وبمل جاوة .(٦)

وعلاوة على استخدام العود من ضمن الروائح العطرية وفى صناعة العقاقير الطبية فهو يدخل فى صناعة الاثاث الفخم فى العصور الوسطى .(٧)

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ،ص ٦١١ .

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ،جـ٢ ،ص ١٢٥ .

(٣) ابن قيم الجوزية : نفس المصدر ، ص ٢٦٦ ،القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ١٢٦ – ١٢٧ .

(٤) ابن قيم الجوزية : نفس المصدر ،ص ٢٦٦ .

(٥) ابن خرداذبة : المصدر السابق ،ص ٧٠ ،الدمشقى : نخبة الدهر ،ص ١٥٤–١٥٥.

(٦) ابن بطوطة : المصدر السابق ،ص ٦١٠ – ٦١٢ .

(٧) نعيم زكى فهمى : المرجع السابق ،ص ٢٢٧ .

المســــــــك ....

يعد المسك اجود انواع الطيب وقد ورد بشأنه احاديث كثيرة فعن ابـــى سعيد الخدرى رض الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : أطيب الطيب المسك .

وعن عائشة رض الله عنها قالت : "كنت أطيب النبى صلى الله عليه وسلم قبل ان يحرم ويوم النحر وقبل ان يطوف بالبيت بطيب فيه مسك ". (١)

وعن انس رض الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ان لاهل الجنة سوقا يأتو منها كل جمعة فيها كثبات المسك فاذا خرجوا اليها هبت الريح قال حماد قال احسبة قال شمالى قال فتملأوجوههم وثيابهم وبيوتهم مسكا فيزدادون حسنا وجمالا قال فيأتون اهلهم فيقولون لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا . (٢)

وقيل عن المسك انه ملك انواع الطيب واشرفها واطيبها وهو الذى يضرب به الامثال ويشبه به غيره ولا يشبه بغيره وهو كثبات الجنة . (٣)

والمسك فضل دموى يستخرج من غدة فى بطن نوع من الغزلان يعرف بظباء المسك تتواجد فى التبت والصين ويمكن التمييز بينها وبين الغزلان العاديـــــــة فلكل ظبى من ظباء المسك نابان أبيضان خارجان من الفكين .

ويشير المسعودى الى تأثير الطبيعة والهواء فى تكون هذا الدهن العطرى فى بطون الظباء وكيفية الحصول عليه بقوله " وخير المسك ما نضج فى وعائـــة وادرك فى سرته واستحكم فى حيوانه وتمام مواده وذلك ان الطبيعة تدفع مواد

(١) مسلم : الجامع الصحيح ،ج٤ ،ص ١٣ .

(٢) احمد بن حنبل : المسند ، المجلد ٣ ،ص ٢٨٤ – ٢٨٥ .

(٣) ابن قيم الجوزية : المصدر السابق ،ص ٣٠٨ .

الدم الى السرة فاذا استحكم كون الدم فيها ونضج آذاه ذلك وحكه فيفزع حينئذ الى احد الصخور والاحجار الحارة من حر الشمس فيحتك بها مستلذا بذلك فينفجر حينئذ ويسيل على تلك الاحجار كانفجار الخراج والدمل اذا نضج ما فيه عند ... ترادف المواد عليه فيجد لخروجه لذة فاذا فرغ ما فى نافجتة اندمل حينئذ ثم اندفعت اليه مواد من الدم ويجتمع ثانية ككونها بداءة فيخرج رجال التبت يقصدون مراعيها بين تلك الاحجار والجبال فيجدون الدم قد جف على تلك الصخور والاحجار .... وقد احكمته المواد وانضجته الطبيعة فى حيوانه وجففته الشمس وأثر فيه الهواء فيأخذونه فذلك افضل المسك فيودعونه نوافج معهم قد أخذوها من غزلان قد اصطادوها مستعدة معهم فذلك الذى تستعمله ملوكهم و يتهاودونه .. بينهم ويحمله التجار فى النادر من بلادهم". (١)

وقد لقيت تجارة المسك رواجا كبيرا فى بلاد العرب وكثر الطلب عليه ،لذا نجد ان كثيرا من التجار العرب كانوا يسافرون الى الجزء الشرقى من الهند بحثا عن اجود انواع المسك .(٢)

ويفضل مسك التبت مسك الصين من ناحيتين :ـ

الاولى : ان ظباء المسك التيتى ترعى سنبل الطيب وانواع الافاوية وظباء الصين ترعى فى حشائش اقل غنى من حشائش الطيب التبتية .

الثانية : ان اهل التبت لا يتعرضون لاخراج المسك من نوافجه ويتركونه على ما هو عليه فى حين يخرجه اهل الصين من النوافج ويغشونه بالدم وغيره كما ان طول المسافة وكثرة الرطوبة واختلاف الهواء تؤثر فى المسك الصينى وتجعله اقل جودة .(٣)

---

(١) المسعودى : المصدر السابق ،المجلد الاول ،ص ١٥٩ .

(٢) الجزرى : تحفة العجائب ورقة ٢٤١ ،الدمشقى : الاشارة الى محاسن التجارة ص ١٩ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ،المجلد الاول ،ص ١٥٨ .

وتختلف اسماء المسك باختلاف مصادره اما باعتبار اصول وجودة فيها او باعتبار مصيره اليها [١] ويذكر تجار الهند ان هناك صنفين آخرين من المسك يوءخذان من نبات يزرع فى الارض غير ان احدهما يفسده حفظه والاخر يفسد لطول المدة [٢] ولضمان الاحتفاظ بالرائحة النفاذة للمسك يشترط ايداعه فى اوان محكمة الا غلاق من الزجاج [٣] او من الرماص .[٤]

ويعد البحر الاحمر الطريق الطبيعى لنقل المسك التبتى حتى بعد وجود .. البرتغاليين فى الهند وكان يصل الى اوربا بواسطة مصر والشام [٥] .

العنبـــــــــــر ....

من افخر انواع الطيب بعد المسك وهو مادة صلبة ذات الوان مختلفة فمنه الابيض والاشهب والاحمر والاصفر والاخضر والازرق والاسود وذو الالوان واجوده الاشهب ثم الازرق واردأ انواعه الاصفر والاسود .[٦]

وقد اختلفت الآراء فى عنصره فقيل انه نوعان ......خام ومبلوع .... فاما الخام فهو الذى يتسرب من عيون فى قاع البحر وهو فى اثناء خروجه شديد الفوران والحرارة فاذا لاقى برد الماء جمد على الصخور كجمود الشمع وتكور على شكل قطع كبار وصغار [٧] وعند هبوب الاعاصير تقتلعه الامواج وتقذفه الى الشواطىء [٨]

---

(١) ابن البيطار: الجامع لمفردات الادوية والاغذية ص ١٥٥، الجزرى: نفس المصدر ورقة ٢٤١.
(٢) القلقشندى : المصدر السابق ،ج٢ ،ص ١٢١ .
(٣) المسعودى : نفس المصدر والمجلد والصفحة .
(٤) الخزرجى : العقود اللوءلوءية ،ج١ ،ص ٣٥٠ .
(٥) نعيم زكى فهمى : المرجع السابق ،ص ٢٢٨ .
(٦) ابن البيطار: المصدر السابق ج٣ ،ص ١٣٤، ابن قيم الجوزية : المصدر السابق، ص ٢٦٤-٢٦٥.
(٧) الدمشقى : نخبة الدهر ،ص ١٣٤ .
(٨) المسعودى : مروج الذهب ،ج١ ،ص ١٥٠-١٥١، الدمشقى : نفس المصدر والصفحة .

ويذكر البعض ان هذا النوع ينمو فى البحر كالاسفنج قبل ان يلقيه الموج على الساحل .(١)

اما المبلوع فهو المستخرج من بطون الاسماك المعروفة بالاوال او العنبر(٢) وهو عندما يخرج من بطونها يكون سهكا ويعرف عند العطارين فى العراق وفارس بالند . (٣)

وقيل ان العنبر طل ينزل من السماء فى جزائر البحر فتقذفه الامواج الى الشاطىء وقيل روث دابة بحرية ضخمة وقيل بل هو جفاء من جفاء البحر " اى الزبد " .(٤)

ويؤكد بعض سكان الجزر ان العنبر هو افراز طائر ضخم وان رائحته تعود الى الاعشاب التى يأكلها . (٥)

ويرى بعض المؤرخين ان العنبر من بطون الاسماك وليس من بطون البحار ولابد ان اسماكا معينة تلفظه . (٦)

وعلى كل حال فكثيرا ما يعثر على العنبر بين امواج البحر ووسط الصخور وفى احشاء الاسماك .(٧)

---

(١) القلقشندى : المصدر السابق ج٢ ،ص ١٢٣ .

(٢) المسعودى : نفس المصدر والجزء ص ١٥١، الدمشقى نفس المصدر والصفحة .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ،ج١ ،ص ١٥١ .

(٤) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ،ص ٢٦٥ .

(٥) ابن البيطار : الجامع لمفردات الادوية والاغذية ج٣ ،ص ١٣٤ .

(٦) على بن حسين السليمان : النشاط التجارى ،ص ٢٤٧ .

(٧) الجزرى: تحفة العجائب ورقة ٣٢٥، الدمشقى الاشارة الى محاسن التجارة ص ١٩.

وتمتد مناطقه على طول ساحل المحيط الهندى من الساحل الشرقى لافريقيا عند بربرة والزنج حتى بلاد الصين [١] كما يوجد العنبر الجيد بشواطىء الاندلس على المحيط الاطلسى . [٢]

ويعد اقليم صحار على الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية من اغنى مناطق انتاج العنبر الذى يمتاز برائحته الزكية الطيارة ويخرج الاهالى فى الليل لجمع العنبر ويستدلون على مكانه بواسطة النجب المهرية المدربة ءاذا احست هذه النجب بالعنبر قد قذفه البحر بركت عليه واجود العنبر ما وقع على شاطىء الشحر وما قذفه ساحل بحر الزنج [٣] وما يعثر عليه فى باب المندب [٤] .

وللعنبر مزية على انواع العطور الاخرى وهى انه كالذهب لا يدخله التغيير على طول الزمان .[٥]

وقد كانت عدن وجدة من اكبر مراكز تجارته واسواقها لا تزخر به فى صورة عطر فقط بل تصنع منه العقود والسبح وغيرها كما كان يطعم به الخشب المحفور فى بيوت الامراء [٦] وقد استخدم فى صناعة العقاقير الطبية فى العصور الوسطى [٧] غير ان الطب الحديث لم يثبت اى فائدة علاجية له .[٨]

---

(١) ابن خرداذبة :المسالك والممالك ص٦١،المسعودى: نفس المصدر ج١ ،ص ١٥٠-١٥١، المقدسى : احسن التقاسيم ،ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) المقدسى : احسن التقاسيم ،ص ٢٣٩ ، الدمشقى نخبة الدهر ،ص ٢٤٥ .

(٣) المسعودى :المصدر السابق ج١ ،ص ١٥٠، ابن البيطار : الجامع لمفردات .. الادوية والاغذية ج٣ ،ص ١٣٤ .

(٤) محمد الاكوع الحوالى:اليمن الخضراء مهدالحضارة ،القاهرة ، ١٩٧١/١٣٩١ ص ٩٨-٩٩.

(٥) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ،ص ٢٦٤ .

(٦) ابن البيطار:نفس المصدر ج٣ ،ص ١٣٤، نعيم زكى فهمى: المرجع السابق ،ص ٢٣١.

(٧) ابن البيطار :نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٨) ابن قيم الجوزية : نفس المصدر ،ص ٢٦٤ ،هـ ٢ .

خشـــــــب الصندل ....

من العطور الشرقية التى حفلت بها الاسواق العربية فى العصور الوسطى وله فيها تجارة مربحة وخاصة بعد ان تزايد الطلب عليه فى اوربا فأصبح على رأس قائمة العطور التى يعاد تصديرها الى الغرب بعد وصوله من مصادر انتاجه فى الشرق الى اماكن تصريفه فى البلاد العربية . (١)

ويذكر القلقشندى سبعة اصناف للصندل .... اجودها نوع يعرف بالمقاصيرى وهو اصفر اللون وصنف آخر جعد الشعر يستعمل فى البخور . (٢)

ويرد خشب الصندل من جزر الصين (٣) والهند خاصة جزيرة شلاهط(٤) وجزر مملكة المهراج (٥) ومن جزائر ملوكوسومطرة وبورينو وجاوه .(٦)

الكـــــــــاذى ....

الكاذى شجر يشبه النخل الا انه اقصر منه يستخرج منه طلعة دهن ونبت طيب الرائحة ويحسن بالميزان (٧) وخاصيته التبريد والتسكين لحرارة الدم(٨)

---

(١) نعيم زكى : المرجع السابق ،ص ٢٣١ .

(٢) القلقشندى : المصدر السابق ج٢ ،ص ١٣٠.

(٣) المقدسى : المصدر السابق ص ٩٧ .

(٤) ابن خرداذبة : المصدر السابق ،ص ٦٦ ،ص ٧٠ .

(٥) المسعودى : المصدر السابق ،ج١ ،ص ١٥٢ .

(٦) سونيا هاو : المرجع السابق ،ص ١٤٩ .

(٧) الحسينى : الجواهر الثمينة فى محاسن المدينة ورقة ٧٨ب .

(٨) الدمشقى : المصدر السابق ،ص ١٥٣ .

وله تأثير فى ادخال السرور الى النفس وتقوية الحواس وشد البدن ومنع الاعياء والخفقان .(١)

اما عن كيفية صناعة الروائح العطرية من شجرة الكاذى فيوءخذ طلع الشجرة قبل ان ينشق ويلقى فى الدهن ويترك حتى يأخذ الدهن رائحته العبقة .(٢)

واشهر مناطق انتاجه المدينة المنورة الا ان سلطنته بام القرى (٣) كما يوجد ايضا فى جزيرة الصنف ببحر الصين وجزائر الديبا وهى مقصد التجار فـــى ممرهم الى كيش والى الهند واليمن ومقديشو .(٤)

وتجدر الاشارة هنا الى ان لحاء شجرة الكاذى استخدم فى العصور الوسطى فى الكتابة وهو ارق من الورق الصينى وكانت تتكاتب به ملوك الصين والهند .(٥)

البـــــــــــــان ....

يدخل البان فى العطور الغوالى والاطياب وهو شجر يقارب الاثل وهناك نوع منه قصير دون شجر الرمان وهو ذو رائحة عطرية ناعمة . (٦)

والبان اختصت به المدينة المنورة حتى نسب اليها " بان يثرب " (٧) وهو ينبت بكثرة فى العقيق بنواحى النقى وبارق والابرق ورامة .(٨)

---

(١) الحسينى: الجواهر الثمينة ورقة ٧٨ب - ٧٩ أ .

(٢) الدمشقى : نخبة الدهر ،ص ١٥٣ ، الحسينى : نفس المصدر ورقة ٧٨ب .

(٣) الحسينى : نفس المصدر ورقة ٧٩ أ .

(٤) الدمشقى : نفس المصدر ،ص ١٥٣ ، ١٦٠ .

(٥) المسعودى : المصدر السابق ج١ ،ص ٢٦٦ .

(٦) الحسينى : نفس المصدر ،ورقة ٤٧ أ .

(٧) المقدسى : احسن التقاسيم ،ص ٩٨ .

(٨) الحسينى : نفس المصدر ،ق ٤٧ أ .

اللبـــــــــــان المر ....(الكندر)

نوع من البخور شاع استعماله فى العصور الوسطى كما استخدم فى الادويـــة الطبية (١)

وشجرة اللبان الجاوى (٢) صمغية وهى بقدرقامة الانسان او اقل اغصانها تشبه الخرشف وهى ذات اوراق رقيقةصغيرة وقد تسقط اوراقها فتبقى الشجرة بدون اوراق أما المادة الصمغية فهى فى اغصان الشجرة . (٣)

وتشتهر بعض مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية بانتاج اللبان ففى الشحر (٤) وظفار ومرباط تنمو اشجار الكندر (٥) فى الاودية ومسايل الماء (٦) وليس لهـا بزر وورقـها رقيق واذا شرطت الورقة واللحاء قطر ماء يشبه اللبن سرعان مـا يتجمد ويصبح صمغا هو " اللبان " .(٧)

وقد تتكون مادة اللبان على جذوع الشجرة وافضل أنواعها الابيض المائل الى الخضرة .(٨)

الاحجـــــــــــار الكريمة ....

معشوقة النفوس اثار اليها الرحالة فى اثناء حديثهم عن اسواق مكة ما تحفل به من عروض تجارية (٩) ولم يقتصر النشاط التجارى بهذه المتاجر النفيسة علــى

---

(١) بزرك بن شهريار : عجائب الهند ،ص ١٧٠ .
(٢) نسبة الى جزيرة جاوة التى اشتهرت بانتاج كميات كبيرة منه .
(٣) ابن بطوطة : الرحلة ،ص ٦١١ .
(٤) ابن خرداذبة : المصدر السابق ،ص ١٤٧ ، المقدسى : نفس المصدر ،ص ٨٧ .
(٥) القلقشندى : المصدر السابق جه ،ص ١٥، الدمشقى الاشارة الى محاسنالتجارة ص ٢٢.
(٦) بزرك بن شهريار : نفس المصدر ،ص ١٧٠ .
(٧) ابن بطوطة : نفس المصدر ،ص ٢٥٧ – ٢٥٨ .
(٨) القلقشندى : المصدر السابق جه ،ص ١٧٠ ، الدمشقى المصدرالسابق ،ص ٢٢
(٩) ابن جبير : المصدر السابق ،ص ٩٧ ، البلوى : المصدر السابق،جا ،ص ٣٠٨.

الاسواق الداخلية بل تطرق الى المجال الخارجى حيث كان لتجار مكـــة دور الوسيط فى نقلها وهى علاقة قديمة ترجع الى ما قبل الاسلام . (١)

وقد كان سلاطين المماليك حريصين على جمع الاحجار الثمينة النادرة اذ كانت من اعظم ما يتهادى به الملوك والسلاطين .(٢)

الياقـــــــــــــوت ......

تصدر الياقوت الزعامة فى عالم المجوهرات فى العصور الوسطى وقال عنه العلماء " انه انسان المعدن وسيد الاحجار التى لا تذوب " (٣) .

وللياقوت أربعة ألوان أصلية الاحمر ،والاصفر ،والازرق الاسمانجونيـــــة "اى الذى تشوب زرقته حمرة" والابيض المهاتى وتحت كل لون ألوان كثيرة علـــى درجات .

الاحمر المشرق الخالص البهرمانى :

وهو اشرف انواع الياقوت ويتدرج تحته الاحمر الصافى ثم المائل فـــى اشراقه الى البياض ثم اللون الوردى الشفاف ثم الوردى القريب الى البيـــاض ثم لون بعد آخر الى اللون الابيض المهاتى الخالص بياضه وهو أردأ انـــواع الياقوت .

الازرق الاسمانجونى الشبيه بلون السوسن الازرق :

يأتى فى المرتبة الثانية من الجودة ويـــأتى بعده اللون الازرق الصافى المائل الى البياض ثم الازرق الصافى الذى تشوب زرقته حمرة تليه الوان اخرى حتى يبلغ البياض النقى المهاتى .

---

(١) احمد ابراهيم الشريف : دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة ص ٤٣ ،السيد احمد ابو الفضل : مكة فى عصر ماقبل الاسلام ،ص ١٣٩ – ١٤٠ .

(٢) الدمشقى : نخبة الدهر ، ص ٨٦–٨٨ .

(٣) الدمشقى : نفس المصدر ص ٦١ .

الاصفر الخالص الذهبى ذو البريق والشفافية :

وهو الثالث فى مراتب الجودة وله صبر ومنعة يليه لون اصفى صفرة ثم لون اصفى منه حتى يصل الى لون الليمون المائل الى البياض الخالص المهائى.

الابيض :

وهو آشدها وانقاها شعاعا واكثرها مائية .

وهناك انواع من الياقوت المتسافل وهو اقل قيمة مثل لعل والبلخش والبجادى والنيلى والكحلى الزيتى وهو أردأها وآقلها قيمة .(١)

وكانت اليواقيت ترد من مصادرها خاما الى مناطق صقلها وتهذيبها فى قاليقوط(٢) وتعتبر الهند اهم مصدر لانتاج الياقوت وجبل سرنديب هو جبل الياقوت(٣) وفيه جميع انواعه واشباهه (٤) واجود انواعه ما يرد منه (٥) وكذلك كان الياقوت من صادرات بلاد الاندلس فى العصور الوسطى حيث معادنه هناك (٦) كما يوجد الياقوت فى جبال جزيرة القمر فى شرق افريقية (٧) وفى بلاد اليمن(٨).

والجمشت من توابع الياقوت وهو حجر بنفسجى مشف والقطعة منه تكون قدر الرطلين عليها قشر ابيض اذا كسر ظهر لونه ولهذا الحجر اربعة الوان :

---

(١) الدمشقى : نفس المصدر ،ص ٦١ – ٦٢ .

(٢) الجزرى : تحفة العجائب ،ورقة ٣١٨ ، القلقشندى : صبح الاعشى ج١ ،ص ٣٤٢–٣٤٣.

(٣) بزرك بن شهريار : عجائب الهند : ص ١٧٩ .

(٤) ابن خرداذبة المسالك والممالك ،ص ٧٠ .

(٥) الجزرى : نفس المصدر والورقة .

(٦) يحيى بن الحسين : غاية الامانى ،ق ٢ ،ص ٦٢٥ – ٦٢٦ .

(٧) الدمشقى : نفس المصدر ،ص ١٦١ .

(٨) محمد الاكوع الحوالى : اليمن الخضراء ،ص ٩٨ – ٩٩ .

سماوى وهو اجودها ،ووردى شديد الوردية ،وآخر رقيق الوردية ،وسماوى عميق السماوية ،ويمكن الاستفادة من القشرة التى عليه فهى تشبه الملح وهى تجلى وتحك المجوهرات .

ويوجد هذا المعدن بوادى الصفراء من الحجاز .(١)

وقد اشتد الطلب على الياقوت فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب على السواء وكان سعره مرتفعا جدا .(٢) وكانت قيمته بحسب وزن جرمه فلو كان وزنه مثقالا كانت قيمته ألفا فاذا طحن ذلك حتى صار دكا كانت قيمته دينارا (٣)

وتشير المصادر الى الهدية الجليلة التى بعثها الشريف بركات بن حسن بن عجلان الىالسلطان جقمق بعد توليه السلطنة فى مصر سنة ٨٤٢هـ ومن ضمنها قطعة ياقوت احمر زنتها خمسة عشر قيراطا .(٤)

الالمـــــــــاس ......

اجل انواع الاحجار النفيسة واعظمها تطلبه الملوك وتتشدد فى طلبـــه وذلك لاحتفاظه بقيمته العالية الثابتة التى لا تتأثر فىاى مكان من العالـم لا بالاحوال السياسية ولا الاقتصادية ويتطلب الحصول عليه جهدا ضخما منالبحث والتنقيب ويجلب النوع النادر منه من نواحى كشمير فى الهند (٥) كما يوجد هذا النوع فى جزيرة سرنديب .(٦)على جبلها المعروف بجبل الياقوت والالماس (٧)

(١) الدمشقى : نخبة الدهر ،ص ٦٥ .

(٢) الجزرى : تحفة العجائب ،ق ٣١٨، القلقشندى : صبح الاعشى جـ١ ،ص ٣٤٢-٣٤٣.

(٣) الدمشقى : نفس المصدر ،ص ٤٩ .

(٤) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٨٢ .

(٥) بزرك بن شهريار : عجائب الهند ،ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٦) ابن خرداذبة : نفس المصدر ،ص ٧٠ .

(٧) بزرك بن شهريار : نفس المصدر ،ص ١٧٩ .

والالماس نوعان :-

البلوري : ويكون فى لون البلور وهو افضله وارقى درجاته الناصع البياض الذى لا لون له تقريبا . ثم اللون القريب اليه ويليه لون آخر اقل شفافية .

الديتى : وهو الذى تخالطه صفرة وهو درجات الاصفر الباهت جدا ثم الاصفر الخفيف - ثم اللون المائل الى الصفار .(١)

ويتم هندمة الماسة بكل دقة حتى تعطى اعلى نسبة من الانعكاسات الضوئية وعادة ما يكون للماسة ٥٨ وجها او سطحا ... وهناك نوع من الماس البلورى يتخذه الملوك حلية له شعاع يشبه قوس قزح ، والذى يكون مع التجار منهذا النوع ليس له مثل هذه الشعاع .(٢)

ومن خواص الالماس انه يقطع غيره من الجواهر من حين ليس شئ من الاحجار يأكله ولا يكسره ولا يفسده الا الرصاص ومن عجيب شأنه أن من أراد كسره جعله فى انبوبة قصب او شمع او قارورة ثم يضرب بأى شئ فيتفتت الحجر .(٣)

وقد كان امراء مكة والمشرفون على التجارة فى جدة يهادون به سلاطين المماليك ومن ذلك انه فى سنة ٨٤٢هـ ارسل الشريف بركات بن حسن بن عجلان الى السلطان جقمق بعد توليه السلطنة قطعة من الماس زنتها تسعة عشر قيراطا .(٤) كما اهداه ناظر جدة الصاحب كريم الدين بن كاتب المناخ

---

(١) القلقشندى : نفس المصدر ،جـ١ ،ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٢) الدمشقى : نفس المصدر ،ص ٦٦ .

(٣) الدمشقى : نفس المصدر والصفحة .

(٤) ابن فهد : نفس المصدر والصفحة .

قطعة اخرى زنتها نحوا من عشرين قيراطا .[١]

الزمـــــــــــرد .....

من الجواهر المطلوبة ويقال ان معادنه جبال خضر ترابها شبيــــــه بالحناء وحجارتها خضراء موشاة بسواد وبياض ومجزعة كذلك [٢] وقد اشتهــــر صعيد مصر منذ القدم بمناجم الزمرد وهو يكثر فى فصول من السنة وللهـــواء والضوء آثر على لونه واشعاعه .[٣]

وللزمرد مناجم بارض خيبر ووادى القرى وبارض هدية من الحجاز [٤] ، وبارض اليمن [٥] وهناك نوع من الزمرد الهندى يعرف بالمكى لانه يوءتى بـــه من الهند الى مكة .[٦] ومن الزمرد ما يحمل من مناجم الاندلس .[٧]

والزمرد يتكلس بالنار لرخاوته واجوده الشفاف وانواع الزمرد أربعة :
الذبابى :وهو اغلاها قيمة واعلاها قدرا وهو شديد الخضرة حسن المائية .
الرياحانى : نسبة الى الريحان الاخضر النضير .
السلقى : نسبة الى نبات السلق .
الصابونى : نسبة الى صابون مصر الاخضر وهو أردأها ولا قيمة له .[٨]

واجود ما يوجد من الزمرد العروق فى الارض وهو المتنافس فيه " اذا سلم

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ،ج٢ ،ص ٢١٢ .
(٢) الدمشقى : نفس المصدر ،ص ٦٧ .
(٣) المسعودى : مروج الذهب ،ج٢ ،ص ٢٣ — ٢٥ .
(٤) الدمشقى : نفس المصدر ، ص ٦٧ — ٦٨ .
(٥) محمد الاكوع الحوالى : اليمن الخضراء ،ص ٩٨ .
(٦) المسعودى : نفس المصدر والجزء ،ص ٢٥ .
(٧) يحيى بن الحسين : غاية الامانى ،ق ٢ ، ص ٦٢٥— ٦٢٦ .
(٨) الدمشقى : نفس المصدر ،ص ٦٧ ، القلقشندى : نفس المصدر ج٢ ،ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

من الاعوجاج والثقب واستقام سلكه واستطال ما استدار و أردأه ما ينحل فى منجمة من التراب ويلتقط من الطين ".[1]

والقطعة من الزمرد تزن خمسة مثاقيل الى قيراط وأقل وتسمى قصبة [2] غير انه من معدن الزمرد فى مصر سنة ٧٠٤ هـ وقبل ٧٠٥هـ قطعة زنتها مائتان وخمسة واربعون مثقالا وقيل مائة وخمسة وسبعون مثقالا وقد اخفاها الضامن وباعها على تاجر كارمى ثم حملها التاجر الى سلطان اليمن فدفع فيها مائة وعشرين ألف درهم فطمع التاجر بمبلغ أكبر وأبى بيعها بهذا الثمن ثم ورد بها الى مصر وشاع خبرها وذكر الضامن انه رهنها عند التاجر على تسعمائة دينار فطلب التاجر واخذت منه غصبا وحملت الى الخزائن المملوكية لان استغلال انتاج مناجم الزمرد كان ملكا لسلاطين المماليك حتى سقوط دولتهم[3].

ومن توابع الزمرد الزبرجد وهو اقل جودة منه ويستخرج من الدفائن القديمة بالاسكندرية ومنه نوع جيد يمتاز بصفاء لونه وخضرته والصنف الاقل منه هو الاصفر ويوجد فى سيلان .[4] ويوجد الزبرجد ايضا فى اليمن .[5]

---

(١) المسعودى : نفس المصدر جـ٢ ،ص ٢٤ .

(٢) الدمشقى : نفس المصدر ،ص ٦٨ .

(٣) ابن ايبك :كنزالدررجـ٩، ص ١٣٢-١٣٣، السيوطى:،حسن المحاضرة جـ٢ ،ص ٩٩ < ١٠٠)

(٤) القلقشندى : نفس المصدر جـ١ ،ص ٢٤٧ - ٢٤٨ ،ويذكر الدمشقى :" ان الزبرجد اصله زمرد غير ان لين المعدن وضعفه قصر به فتغير لونه " نخبة الدهر ،ص ٦٧ .

(٥) محمد الاكوع : المرجع السابق ،ص ٩٨ .

العقيـــــــــــــق .....

من الاحجار التى تزداد مضاء وجلاء اذا ألقيت فى الشمس الحارة ثـــم احيطت بالنار والعقيق عندما يستخرج من مناجمه يكون عليه غشاء رقيق ينـزع منه فيظهر جوهره .(١)

وقد اختصت ارض صنعاء باليمن بمناجم العقيق وكان فى مقدمة سلعهـــا التجارية (٢) وقد ورد فى ذلك " من اراد العقيق اشترى قطعة ارض بموضـــع بصنعاء ثم حفر فربما خرج له شبه صخرة واقل وربما لم يخرج شىء". (٣) ويوجد ايضا فى بلاد الهند ومنه ما يكون خارج الارض ومنه ما يكون تحتها والمستخرج من الارض اجود من العقيق اليمانى .

وللعقيق الهندى عدة الوان اجودها الياقوتى ثم الدموى ثم اللحمـــى الصافى ثم الرطبى ثم العصفرى ثم الاحمر الصافى الموشى بنقط بيضاء .

أما العقيق اليمانى فانواعه خمسة : ازرق وابيض واسود واحمر ورطبى وبينها الوان تقاربها كالخمرى والمجزع والحائل والعسلى والدبسى والموشـــى والقطعة منه عشرون رطلا فى النادر .

ويستعمل العقيق فى تزيين الاوانى والحلى وغيرها .(٤)

المرجـــــــــــــان .....

وهو من الاحجار التى يصدرها الغرب للشرق وفى عصر دولة المماليك ... الثانيه احتكر السلاطين تجارة بعض السلع ومن بينها المرجان فقد اشتد ولـــع

---

(١) الدمشقى : نفس المصدر ،ص ٦٩ .
(٢) المقدسى : احسن التقاسيم ،ص ٩٨، الدمشقى : نفس المصدر والصفحة .
(٣) المقدسى : نفس المصدر ،ص ١٠١
(٤) الدمشقى : نفس المصدر ،ص ٦٩ .

الهنود به فالزم السلاطين اشراف مكة بالا يعاد تصدير البضائع الواردة اليهم من المرجان الى الهند الا بعد ان ترسو السفن الهندية على ساحل جدة وكانت قد صارت بندر التجار بعد تحول النشاط التجارى ووصول سفن الهند والصين اليها .[١]

والمرجان حجر نباتى وهو من خصائص اقليم المغرب والاندلس ومصايده فى قعر البحر الرومى " البحر المتوسط فى مرسى الخزر[٢] ومرسى سبتة وجزيرة صقلية [٣] كما يوجد المرجان فى مغاص البحر الاحمر فى اليمن [٤] .

والمرجان اذا اخرجه الغواصون من الماء ولاقى الهواء تحجر واحمر ولا يزال غضا لينا مادام فى منبته ومن خواصه ان الخل يذيبه والزيت ودهن الجوز يظهر حسن لونه واشراقه ومن المرجان نوع ازرق وآخر ابيض[٥].

اللؤلؤ ......

من اجل الحلى قيمة وندرا ومن المصادر الاساسية فى تجارة شرق شبه الجزيرة العربية وتعد مياه الخليج من اهم مصايده [٦] ويوجد فى مياه جزيرة سرنديب ايضا [٧] وله مغاصات فى عمان والبحر الاحمر وافضله ما يستخرج

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٧٤ ، السنجارى : منائح الكرم ، ج٢ ، ص ١٢.
(٢) المقدسى : نفس المصدر ، ص ٢٣٩ .
(٣) الدمشقى : نفس المصدر ، ص ٧٢ - ٧٣ .
(٤) محمد الاكوع الحوالى : نفس المصدر ، ص ٩٨ .
(٥) الدمشقى : نفس المصدر ، ص ٧٢ - ٧٣ .
(٦) المسعودى : نفس المصدر ، ص ١٤٨ .
(٧) ابن خرداذبة : نفس المصدر ص ٦٤ ، المسعودى : نفس المصدر ، والجزء والصفحة .

من مياه الخليج ثم خليج عمان وأردأه الهندى والقلزمى .(١)

واللوءلوء من اصل حيوانى اجوده النقى المستدير وله نوعان :
كبير وسمى الدر وصغير ويسمى اللوءلوء واحسن انواع الدر المستدير الصافى الشفاف الذى يمتاز بالنقاء وكبر الجرم . وهو يتفاوت فى الوزن من نصف مثقال الى مثقال ونصف .

واللوءلوء له الوان بحسب ملاصقته لاعضاء الحيوان فمنه الاصفر والاحمر والاخضر والازرق ويوءخذ من طبقات الصدف اللوءلوءى صفائح شبيهه باللوءلوء تسمى عروق اللوءلوء .(٢)

والغوص على اللوءلوء يكون فى اوقات معينة من السنة (٣) ويتحمل الغواصون مشقة كبيرة للحصول عليه ويتنافس التجار فى الحصول عليه رغبة فى الارباح الجليلة التى تعود عليهم من تجارته .(٤)

المنسوجات .....

اشتهرت اسواق مكة وخاصة فى موسم الحج بوجود الانواع المختلفة من المنسوجات التى يرد بها التجار من الشرق والغرب حيث تلاقى رواجا عظيما وتقام لها الاسواق العامرة . (٥)

---

(١) القلقشندى : نفس المصدر ،جـ١ ،ص ٣٤١ – ٣٤٢ .
(٢) الدمشقى : نفس المصدر ،ص ٧٧ – ٧٨ .
(٣) المسعودى : نفس المصدر جـ١ ،ص ١٤٨ .
(٤) المقدسى : نفس المصدر ،ص ١٠١ .
(٥) الطبرى : القرى القاصد ام القرى ،ص ٥٣٤ ،البلوى : المصدر السابق ، ص ٣٠٨ .

والحق ان ايام موسم الحج كانت تمثل قمة النشاط التجارى المزدهر فى مكة وكان لذلك اعظم الاثر فى ان تتبوأ المكانة العالية فى الميدان التجارى . وكان من الطبيعى ان تتصدر قائمة المنسوجات الاقمشة الحريرية والكتانية والقطنية والصوفية التى صنعت فى مصر وقد امتازت جميعها بالجودة والدقة وثبات الالوان . (١)

والجدير بالذكر ان صناعة النسيج وتجارته لقيت تشجيعا كبيرا فى الاقطار الاسلامية ففى مصر انتشرت دور الطراز الخاصة والعامة (٢).

وظهر التأثر بالطراز الصينى فى بعض المنسوجات المملوكية وخاصة فى الاقمشة الحريرية التى تعرف باسم " الكمخة " وصدرتها مصر فيما صدرت الى اوربا وغيرها كما زينت الثياب الكتانية بفرز من الحرير الفائق الدقة (٣)

واشتهرت مصر كذلك بصناعة الفرش والستور والخيام والفسطاط والحبال (٤)

غير ان الاهتمام بالانتاج المحلى اخذ يقل فى العصر المملوكى الثانى نتيجة لشراء الدولة بعد تحول التجارة الى طريق البحر الاحمر اذ فتح باب التعامل المباشر مع الصين ووصلت عن هذا الطريق الانواع المختلفة الفخمة من الثياب والمناديل والقطنيات والحرير والشيلان .(٥)

---

(١) المقدسى : احسن التقاسيم ،ص ٢٠٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ،ص ٣٢٧، سعيد عاشور : العصر المملوكى ،ص ٢١٩ .

(٢) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ،ص ٢٤٥ .

(٣) آرنست كونل : الفن الاسلامى ،ترجمة احمد موسى ، بيروت ١٩٦٦،ص ١١٩-١٢٠.

(٤) السيوطى : نفس المصدر ،جـ٢ ،ص ٣٢٦-٣٢٦،سعيد عاشور: نفس المرجع والصفحة

(٥) نعيم زكى : نفس المرجع ،ص ٢٤٥ .

وكانت المنسوجات تصل الى جدة باعتبارها الميناء الرئيسى لهذه التجارة فى البحر الاحمر حيث يتم التوزيع الى مكة المكرمة او يعادتصديرها وتوزيعها لتصل الى مصر والشام وفارس والعراق والمغرب والاندلس (١). وقد اختص كل اقليم من تلك الاقاليم بصناعة نوع أو اكثر من المنسوجات التى ربما نسبت اليها مثل الموسلين نسبة الى الموصل والحرير الدمقس نسبة الى دمشق اما اقليم فارس فقداشتهر بالثياب الكندكية والقصب والديباج والكتان والاكسيه البركانات والمنيرات ولها قدرة على تحمل الكد مع رقة وحسن وثياب القز والوشى والستور المثمنة والابريسمية والفروش الرفيعة والمناديل الترابية والمخملية التى تحمل الى الافاق (٢) وثياب الحرير من القخ والكمخة . (٣)

وتاجرت العراق فى الخز والبز والثياب الرفيعة الكتانية والقصب وثياب القز الملونة وثياب الصوف العسلية الحسنة الصنع والصوف التكريتى والازر، والعمائم الفاخرة والمناديل القصرية والبويبية والستور الواسطية (٤) كما اشتهرت ثياب الموسلين المنسوبة الى الموصل . (٥)

واشتهر اقليم الديلم بصناعة المناديل البيض الفاخرة من القطن المعلم وحمل منها الى اليمن المقانع القز وثياب الخيشى المحمولة الى الافاق ويباع منها بمكة شىء كثير وبها اكسية وطيالس تفضل على الفارسية . (٦)

ونقلت المغرب والاندلس متاجرها من الثياب الصوفية والاكسية والثياب الجيدة والبز الكثير . (٧)

---

(١) ابن جبير : نفس المصدر ،ص ٩٧ ، البلوى : نفس المصدر جا ، ص ٣٠٨ .
(٢) المقدسى : نفس المصدر ،ص ٤٤٢ — ٤٤٣ .
(٣) ابن بطوطة : نفس المصدر ،ص ٣٧٤ .
(٤) المقدسى : نفس المصدر ،ص ١٢٨ — ١٢٩ .
(٥) نعيم زكى : طرق التجارة ،ص ٢٤٥ .
(٦) المقدسى : احسن التقاسيم ،ص ٣٦٧ .
(٧) المقدسى : نفس المصدر ،ص ٣٣٩ .

وينبغى الاشارة الى ان الثياب البيضاء كانت تجد رواجا كبيرا فاهل مكة اكثر لباسهم البياض [١] وعلاوة على القماش الابيض كان الطلب يتزايد على القماش الازرق والشاش والازر [٢] والانسجة الحريرية الهندية والشامية [٣] وكان اهل مكة يزينون الهوادج بقلائد من الحرير والاستار المزركشة التى تسحب الى الارض عند خروجهم الى العمرة .[٤]

المواد الغذائية ......

تغلبت مكة على ظروف البيئة الشحيحة واستثمرت موقعها وعلاقاتها الاقتصادية الخارجية والاقليمية باعتبارها قبلة المسلمين لسد النقص الذى تعانى منه فى الموارد الغذائية فقامت حركة تجارية متواصلة فى مجموعة من الطرق العرضية والطولية . واصبحت اسواق مكة مركزا لحركة اقتصادية مزدهرة تغشاها القوافل المحملة بمختلف السلع .

ومن اهم السلع الغذائية فى اسواق مكة الحبوب وتأتى فى مقدمتها الحنطة وهى انواع اجودها ما يعرف عندهم بالحنطة القيمية وأردأها المابيه [٥] ثم الذرة والشعير والدخن " الذرة الشامية " وتعود اهميتها الى كونها اساس الطعام لاهل مكة فى ذلك الوقت وكانت شحنات الغلال والدقيق تصل الى مكة من السراة [٦] معدن الحبوب والخيرات .[٧] ومن اليمن وسواكن [٨] وزيلع [٩]

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ،ص ١٤٣ .
(٢) ابن طولون : مفاكهة الخلان جـ١ ،ص ١٣٥، ٣٥٣ .
(٣) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ،جـ١ ،ص ٢٠٦ .
(٤) ابن جبير : الرحلة ،ص ١٠٧ .
(٥) الفاسى : تحصيل المرام ،ق ٩٥أ .
(٦) ابن جبير : نفس المصدر ،ص ١٠٠ ،ابن بطوطة : نفس المصدر ،ص ١٥٩ — ١٦٠ .
(٧) المقدسى : نفس المصدر ،ص ٨٩ .
(٨) الفاسى : شفاء الغرام ،جـ٢ ،ص ٢٧٠ — ٢٧٧ .
(٩) الجزيرى : درر الفوائد ،ص ٣٢٩ .

ومن مصر وبلاد الشام .[١]

ويتعجب الرحالة من توفر الارزاق وانواع الفواكه بمكة على الرغم من جفافها وندرة الامطار بها وكونها فى واد غير ذى زرع .

يقول ابن جبير " كنا نظن ان الاندلس اختصت من ذلك بمزية على سائر حظوظ البلاد حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألفيناها تغص بالنعم والفواكه كالتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والاترج والجوز والمقل والبطيخ والقثاء والخيار الى جميع البقول كلها كالباذنجان واليقطين والسلجم والجزر والكرنب ويعقب على ذلك بقوله " واكثر هذه البقول كالباذنجان والبطيخ لا يكاد ينقطع مع طول العام " .[٢]

ويقول ابن بطوطة " لقد اكلت بها من الفواكه العنب والتين والخوخ والرطب ما لا نظير له فى الدنيا كذلك البطيخ المجلوب اليها لا يماثله سواه طيبا وحلاوة .[٣]

ويصل اكثر هذه الفواكه والخضر الى اسواق مكة من الطائف [٤] ومن بساتين حول مكة يزرع بها مختلف الاشجار حتى التمر هندى [٥] ومن وادى نخلة وبطن مر [٦] ومن المدينة المنورة التى اشتهرت ببساتينها وكرومها .[٧]

---

(١) المقريزى : السلوك ،ج٤ ،ص ٦٣١ .
(٢) ابن جبير : نفس المصدر ،ص ١٧ .
(٣) ابن بطوطة : نفس المصدر ،ص ١٢٦ .
(٤) المقدسى : نفس المصدر ،ص ٧٩ ،ابن بطوطة : نفس المصدر ،ص ١٢٦.
(٥) الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ،ص ٧١ .
(٦) ابن بطوطة : نفس المصدر ،ص ١٢٦، " بطن مر " وادى فاطمة حاليا " ،حمد الجاسر : مجلة العرب ج١ السنة الثانية رجب ١٣٩٣آب اغسطس ١٩٧٣ ص ٣٥.
" وادى مخلة واديان نخلة الشامية ونخلة اليمانية يلتقيان فيكونان واديا واحدا فى بطن مر ياقوت : المعجم ،ج١ ،ص ٤٤٩ .
(٧) الحسينى : الجواهر الثمينة ،ق ٦٠ أ .

ومن المواد الهامة السكر وقصب السكر ويحمل اليها[1] من الشام ومصر وخوزستان وكانت الاخيرة تعد اكبر مراكز انتاجه يقول المقدسى : والتجارات به مفيدة لان كل سكر تراه ببلدان الاعاجم والعراق واليمن فمن ثم [2]

وموطن قصب السكر الاصلى الهند والشرق الاقصى [3] ويرجع للمسلمين الفضل فى نشر صناعة السكر وتطويرها وفى نقل زراعة القصب الى العراق وبلاد الشام ومصر والاندلس وعنهم انتقل الى الشرق والغرب . واكثر السكر واجوده يصل من مصر وخاصة من صعيدها . [4]

وافضل السكر الابيض الشفاف وعتيقه ألطف من جديده ويدخل السكر وقصب السكر فى تركيب بعض العقاقير الطبية .[5]

كما كانت اسواق مكة تغطى المنتجات التهامية من السمن والزبيب الاسود ، والاحمر والزيت واللوز وغيرها .[6]

ويحمل من مصر الطير الى البلدان فى الشرق والغرب والاسماك المملحة [7]

وشملت قوائم المواد الغذائية التمور على اختلاف انواعها ومصادرها

---

(١) ابن جبير : الرحلة ،ص ٩٨ .

(٢) المقدسى :احسن التقاسيم ،ص ١٨٠، ١٨١، ٢٠٣، ٤١٦ .

(٣) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٦٦ .

(٤) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة ،ص ٢٤٢ .

(٥) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ،ص ٢٧٥ .

(٦) ابن جبير : نفس المصدر ،ص ٩٨، ابن بطوطة : نفس المصدر ،ص ١٦٠ ، الورثيلانى: نزهة الانظار ،ص ٤٤٣ .

(٧) السيوطى : المصدر السابق ج٢ ،ص ٣٢٧ .

ولا نظير لثمانية اجناس تمور صيحانى المدينة وبردى المروة ومسقر ويلة ومصين عمان ومعقلى البصرة وازد الكوفة وانقلى صغر وكرماشانى كرمان .[١]

ولقيت تمور المدينة سوقا رائجة وعدت من اجل الهدايا التى يحملها الحجاج والمعتمرون يقول الحسينى " ومازال الناس يهدون تمر المدينة المنورة الى الافاق ويتبارك به كل محب مشتاق . [٢]

والتمر من اكثر الثمار تغذية للبدن وهو فاكهة وغذاء ودواء وشراب وحلوى وهو مقوى للكبد وملين للطبع وأكله على الريق يقتل الدود وله فوائد جمة .[٣]

وثبت من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال :" من تصبح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره فى ذلك اليوم سم ولا سحر ." [٤]

وقد استخدم اهل مكة سعف النخيل الذى كان يجلب لهم من المدينة وينبع وغيرها فى صناعة المراوح والحصير والزنابيل وهى من السلع المتداولة فى مكة [٥]

وتشير سجلات تجارة الشرق فى العصور الوسطى الى الحصير باعتباره من السلع المطلوبة فى مدن بحر الحجاز وتمدنا بتفصيلات عن صناعته وصفاته واسعاره .[٦]
ولاتزال هذه الصناعات اليدوية البسيطة مستمرة حتى وقتنا الحاضر عند بعض سكان القرى ولكن بشكل ضئيل جدا وذلك لمنافسة السلع الحديثة الراقية .

---

(١) المقدسى : المصدر السابق ،ص ٤٧٠ .
(٢) الحسينى : المصدر السابق ،ورقة ٦١أ .
(٣) ابن قيم الجوزية : المصدر السابق ،ص ٢٢٥ .
(٤) البخارى : الصحيح ،جـ٦ ،ص ٣١٢ .
(٥) احمد السباعى : تاريخ مكة ،جـ١ ،ص ٢٠٨ .
(٦) حسنين ربيع : وثائق الجنيزة ،ص ١٣٨ .

البـــــــــن ......

وتجدر الاشارة هنا الى البن الذى انتشر فى اوائل القرن العاشر الهجرى ونال شهرة واسعة فىاليمن وكان مبدأ ظهوره فيها ثم مكة وبلاد الحجاز ثم فى الشام ومصر ثم فى سائر البلاد،و كان الاقبال شديدا على احتساء القهوة التى من خصائصها انها تبعث الانتعاش والنشاط فى الاعضاء علاوة على تأثيرها القوى فى تخفيف الدماغ واجتلاب السهر .

ونظرا لشدة تأثيرها فقد اصبحت مثار جدل العلماء فى ذلك الوقت حتى ذهب بعضهم الى تحريمها غير ان أكثر العلماء يميلون الى الاباحة فهى مباحة فى نفسها كما انها معينة على السهر فى العبادة ويستعين بها الطلبة كثيرا فى المطالعة الليلية . (١)

ويذكر ابن العماد الحنبلى ان اول من عرف شرب القهوة هو احد علماء اليمن واسمه ابو بكر بن عبد الله الشاذلى وان اصل اتخاذه لها انه مر فى سياحته بشجر البن فاقتات من ثمره حين رآه متروكا مع كثرته فعرف فوائده واتخذه قوتا وطعاما وشرابا وارشد اتباعه اليه ولم يلبث ان اصبح من السلع التجارية المتداولة والتى يكثر الطلب عليها . (٢)

المواشى والخيول والجمـــــــال ....

وتزدهر تجارة المواشى فى مكة وخاصة فى موسم الحج فتذبح اعداد كبيرة منها هديا واضاحى اقتداء بنبى الله ابراهيم عليه السلام وامتثالا لامر الشريعة الغراء وروى عن الرسول صلىاللهعليه وسلم انه قال فى الاضحية :" لصاحبها بكل شعرة حسنة ويروى بقرونها " كما ثبت عنه صلى اللهعليه وسلم انه ضحى بكبشين أقرنين املحين

---

(١) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ،جـ٨ ،ص ٣٩-٤٠، الورثيلانى : المصدر السابق ،ص ٢٦٧ - ٢٦٩ .

(٢) ابن العماد الحنبلى : نفس المصدر والجزء ،ص ٣٩ .

ذبحهما بيده وسمى وكبر ووضع رجله على صفاحهما". [١]

ويذكر الرحالة ان اللحوم التى فى مكة تفضل غيرها فى جميع الاقطار فى لذة الطعم وان لبركة مراعيها اثرها على سمن المواشى. [٢]

وبطبيعة الحال يمكننا ان نعد الصوف والوبر والجلود المدبوغة من أهم صادرات مكة نتيجة لازدهار هذه التجارة فيها خاصة بعد الموسم ويبدو انهم كانوا يستفيدون ايضا من الصوف والوبر فى بعض الصناعات اليدوية البسيطة كالبسط والخيام وغيرها.

وقامت مكة بدور الوسيط فى تجارة الخيول والجمال فى شبه الجزيرة العربية وقد اهتم سلاطين المماليك بتربية الخيول واقتناء افضل السلالات منها ودفع المبالغ الباهظة للحصول عليها من آل مهنا فى شمال شبه الجزيرة وتنافس أهل البحرين والحسا والقطيف والحجاز فى جلب كرائم خيولهم الى سلاطين المماليك وقد تراوحت اسعار الخيول التى دفعها السلطان الناصر محمد بين عشرة آلاف وثلاثين ألف درهم ، عدا الثياب الفاخرة والمسكن وغير ذلك. [٣]

وكان يتم تصدير الخيول الى الهند عن طريق اليمن وغيرها وكانت المتاجرة فيها تدر ارباحا طائلة. [٤]

ويذكر المقريزى ان شريف مكة رميثة ابن ابى نمى قدم للسلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون عندما حج سنة ٧٣٢هـ مائة فرس وألف رأس من الغنم فرد الجميع واخذ منها فرسين لا غير. [٥]

---

(١) الترمذى : المصدر السابق جـ٣ ،ص ٢٦ .
(٢) ابن جبير : المصدر السابق ص ٩٨ - ٩٩، ابن بطوطة : المصدر السابق ،ص ١٢٦.
(٣) المقريزى : الخطط ،جـ٣ ص ٦٩ .
(٤) على بن حسين السليمان : النشاط التجارى ،ص ٢٥١ .
(٥) المقريزى : السلوك ،جـ٢ ،ص ٣٥٧ .

اما الجمال سفن الصحراء فقد كانت تجارتها واسعة وهى مطلوبة دائما لنقل البضائع والمسافرين فى الطرق البرية التى تربط ارجاء شبه الجزيرة العربية بعضها ببعض وكانت بلاد الشام مركز تصديرها كما نقلت الهجن من بلاد السودان الى جدة ومنها الى مكة [١] واجود الابل البخاتى ذوات السنامين ومصدرها الاساسى بلاد ما وراء النهر وفى مكة كانت الجمال توءجر للحجيج والمعتمرين وغيرهم وقد يرتفع كراء الجمل فى بعض السنين فيها الى اربعين دينارا .[٢]

كل هذه المتاجر وكثير غيرها كانت تنقلها مكة وتتاجر فيها فصارت منتدى التجار ومجمع تجارتهم واتسعت دائرة النشاط التجارى فيها وعم الرخاء سائر ديار الاسلام .

أسباب الغـــلاء .....

لا يخفى على دارس تاريخ مكة المكرمة ذلك التأرجح الكبير فى اسعار سلعها فعلى الرغم من كونها ملتقى الصادر والوارد ومجمع المتاجر الشرقية والغربية وعلى الرغم من تمتعها بالمركز الرئيسى فى تجارة بلاد الحجاز فانها شأنها شأن اى مدينة تجارية كان لابد ان تتأثر بما يتأثر غيرها من ظروف وازمات من شأنها ان توءدى الى تفاوت اسعار السلع والبضائع زيادة .. ونقصا غير ان الغالب على اسعارها الغلاء خاصة فيما يتعلق بالاقوات ويمكننا ان

---

(١) المقريزى : السلوك : جـ٤ ،ص ٧٩٨ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ٤ ،ص ١١٩٢ .

نوجز اسباب ذلك فيعدة نقاط منها :-

اولا - تعد المجاعات وانتشار القحط والاوبئة من اهم العوامل الطبيعية التي كثيرا ما تسببت في ارتفاع الاسعار ولعل القحط الذى اصاب الحجاز في سنة ٦٦٣هـ واستمر حتى سنة ٦٦٨هـ لم يسمع بمثله في ذلك العصر فقد دام خمس سنوات واشتدت وطأته على الناس وعمهم الغلاء والبلاء وهم صابرون محتسبون[١]

وفي سنة ٧٢٢هـ توقف نزول المطر واشتد جدب مكة وعدمت الاقوات وتزايد الغلاء فبلغت غرارة [٢] الحنطة خمسة وعشرين دينارا [٣] والذرة قريبا من ذلك وعم الغلاء سائر المأكولات وارتفع سعر السمن ارتفاعا فاحشا [٤] ويشير ابن فهد الى قسوة هذا القحط واثره في تعطيل الصنائع بقوله :"وهلك الفقراء وافتقر الاغنياء وكان الموجود في الاسواق الفول والحمص والعدس فأكلها الناس وبلغت ويبة [٥] الفول اربعة عشر افلوريا[٦] والحمص سبعة عشر افلوريا [٧] واستسقى الناس ثلاثا فلم يسقوا واضطر شريف مكة عطيفة الى السفر الى مصر واخبر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بقحط مكة فأمر السلطان بارسال ألف أردب الى مكة فلما وصلت الغلال تصدق بها وانحلت الاسعار ثم اغيث الناس . [٨]

وتعد سنة ٧٦٦هـ من سني الشدة بمكة حتى انها سميت بسنة ام جرب " لان المواشي عمها الجرب واستسقى الناس بالمسجد الحرام فلم يسقوا ثم ادخلت

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ،جـ٢ ،ص ٢٧١ - ٢٧٢ .
(٢) الغرارة : = ٤٠ ربعا مكيا = ١ر٢٥ اردب مصرى .
(٣) ابن حجر : ابناء الغمر ،جـ٢ ،ص ١٠٣ .
(٤) الفاسي : تحصيل المرام ،ق ٩٥ أ .
(٥) الويبة : مكيال للحبوب ،سعة سدس الاردب .
(٦) الافلوري : عملة ذهبية في ضرب فلورنسا " انظر النقود " .
(٧) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٥٥ .
(٨) المقريزي : السلوك جـ٢ ،ص ٢٣٨ .

المواشى المسجد الحرام للاستسقاء وجعلت فى اتجاه مقام المالكية وما يسر الله لهم سقيا ويقال ان الناس بمكة قد اكلوا لحم بعض الحمير الميتة (١) واشتد الغلاء (٢) وتوقفت حال السوق واقفرت مكة من سكانها بسبب هلاك اكثرهم جوعا ونزوح الكثير عنها (٣) ويذكر ابن فهد " ان غرارة الحنطة بلغت ستمائة وثمانين والذرة اربعمائة وازيد وعدم الحب واقام السوق نحو الشهر لم يوجد به حب ولا تمر الا قليل من اللحم والخضر (٤) عندما وصل خبر هذه الشدة الى السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون سارع فى ارسال القمح الى مكة برا وبحرا فوصل ألفا اردب قسمت على الاهالى (٥) ثم توالى ارسال المؤن فى البحر حتى بلغ مجمل ما حمل الى مكة اثنى عشر ألف أردب فعم النفع وفرج على الناس وانتعشت احوالهم . (٦)

ويذكر الفاسى ان اعظم غلاء شاهده بمكة كان سنة ٧٩٣هـ فقد بيعت غرارة الحنطة بخمسمائة واربعين درهما كاملية (٧) واكل الناس سائر الحبوب واختبزوها (٨) وجاء هذا الغلاء مصحوبا بانتشار الوباء الذى راح ضحيته كثير من الناس حتى انه كان يموت بمكة فى اليوم الواحد أربعون شخصا .(٩)

---

(١) الفاسى : تحصيل المرام ،ق ٩٤ب ،شفاء الغرام جـ٢،ص ٢٧٤،العقد الثمين جـ١،ص٢٠٩.

(٢) ابن العماد : المصدر السابق جـ٦ ،ص ٢٠٧ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ٣ ،ص ٩٧ ، ابن فهد : المصدر السابق ،ص ٣٠٣.

(٤) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٠٣ .

(٥) الفاسى:تحصيل المرام ،ق ٩٤ب،شفاء الغرام ،جـ٢ ،ص ٢٧٤،العقدالثمينجـ١ ،ص ٢٠٩.

(٦) المقريزى : المصدر السابق جـ٣ ،ص ٩٧، ابن فهد: المصدر السابق ،ص ٣٠٢ .

(٧) نسبة الى السلطان الايوبى الملك الكامل انظر النقود .

(٨) الفاسى : تحصيل المرام ،ق ٩٤ ب ،
العقد الثمين ،جـ١ ،ص ٢١٠ ،

ابن فهد : المصدر السابق ،ص ٣١٧ .

(٩) الفاسى : شفاء الغرام ،جـ٢ ،ص ٢٧٤ .

وكان عام ٨١٥هـ شديد الجدب على الناس غير انه كان اقل وطأة مما حدث عام ٧٩٣هـ (١) وارتفعت فيه اسعار المؤن حتى وصلت غرارة الحنطة عشرين افلوريا والتمر ثمانية مسعودية [٢] وبيع الدقيق كل ويبة مصرية بافلورين وعشرة دراهم والارز كل ويبة بعشرة افلوريه ورطل البقسماط بعشرة دراهم فضة وعلف الدواب كل ويبة بافلوري وبيعت البطيخة بافلوري وبما زاد وحمل الفلفل بمائتين وعشرين مثقالا من الذهب.[٣] والشعير كل ويبة بدينارين ونوى التمر - ويسمى العضا - بدينار [٤] .

وقنت الناس وواصل الامام القنوت فى الصلاة شهرا ونحوه [٥].

وانتشر الوباء فى مكة واوديتها سنة ٨٣٧هـ واشتد حتى بلغ عدد من يموت فيها (اى فى مكة) فى اليوم خمسين ما بين رجل وأمرأة [٦] .

ويشير المؤرخون الى المجاعة والوباء الذى انتشر فى مكة سنة ٨٩٩ هـ وما صاحبهما من اشتداد الغلاء [٧] الذى وصفه احدهم بالغلاء المهول حتى انه مات من اهلها نحو منألفين وخمسمائة من شدة الجوع وانهم اكلوا الجيف

---

(١) الفاسى : تحصيل المرام ،ق ٩٥أ .

(٢) نسبة الى الملك المسعود صاحب اليمن - انظر النقود .

(٣) ابن فهد المصدر السابق ،ص ٣٤٠ .

(٤) ابن حجر : ابناء الغمر ج٢ ص ٥٢٠ - ٥٢١ .

(٥) الفاسى : شفاء الغرام ،ج٢ ،ص ٢٧٥ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج١٥ ،ص ٤٣ .

(٧) ابن اياس : المصدر السابق ج٣ ،ص ٣٠١ ،
ابن طولون : المصدر السابق ،ق ١ ،ص ١٥٣ .

والميتـــــــات .(١)

ثانيا – قد ترتفع الاسعار فى مكة نتيجة لسوء الاحوال الاقتصادية فـــــى البلاد التى تمدها بالسلع والمواد الغذائية وبطبيعة الحال كان لابـــد ان تتأثر مكة بذلك لانقطاع وصول هذه السلع والموءن – ففى سنة ٦٩٤هـ قل فيضان النيل بمصر وترتب على ذلك فساد الزراعة وقلة المحصول فتزايد بها الغلاء واشتد البلاء ولم يكن ذلك قاصرا على مصر انما عمّ الجدب والقحط ممالـــك المشرق والمغرب والحجاز(٢) وتكرر ذلك عام ٦٩٦هـ . (٣)

ومن ذلك ما حدث فى موسم سنة ٨١٦هـ فقد وقع الغلاء فى الخضر والحبـــوب حتى بلغ سعر البطيخة الكبيرة بافرنتى (٤) وازيد فى عرفة ومنى (٥) ووصلت غرارة الحنطة الى خمسة عشر افلوريا والذرة بنحو ذلك وبلغ المن مــــن التمر الى النصف ثمانية مسعودية (٦) ويرجع الفاسى سبب ذلك الى قلـــــة الغيث وعدم وصول الموءن من بلاد سواكن واليمن فقد كانتا تعانيان من ســـوء الاحوال الاقتصادية فقد تعرضت زراعة الذرة بسواكن لهجوم الجـــــراد الذى أكل المزروعات فادى ذلك الى ارتفاع سعر الذرة فيها فكل غرارة مكية مـــن الذرة بيعت بثلاثين دينارا وهذا سعر فاحش لم يعهد له مثيل من زمن طويـــل .

اما بلاد اليمن فسبب الغلاء فيها يعود الى قلة الزرع بسبب قلة الامطار لان الزراعة فى بلاد اليمن تقوم اصلا على مياه الامطار فصار اهل مكة وسواكـــن

---

(١) ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ،ص ٣٠١ .
(٢) المقريزى : المصدر السابق ،جـ١ ،ص ٨١٠ .
(٣) ابن اياس : نفس المصدر جـ١ ،ص ٣٩٠ – ٣٩١ .
(٤) الافرنتى : عملة ذهبية من ضرب البندقية – انظر النقود .
(٥) الفاسى : شفاء الغرام ،جـ٢ ،ص ٢٧٦ .
(٦) ابن فهد : المصدر السابق ،ص ٣٤٢ – ٣٤٣ .

واليمن يجلبون الذرة من قرية صغيرة بقرب حلى .(١)

اما غلاء الاسعار سنة ٨٢٢هـ فقد كان عاما فى سائر المأكولات بمكة فبلغ الفول بأربعة عشر افلوريا والحمص بسبعة عشر (٢) وغرارة الحنطة عشرين افلوريا وأزيد والذرة قريبا من ذلك وفحش فى السمن لان المن فيه بلغ سبعة افرنتيا ونصفا (٣) ولعل ذلك يعود الى سوء الاحوال فى مصر التى كانت تمد مكة باكثر الغلال .

فقد حكى ابن حجر العسقلانى عن ذلك بقوله : " وكان سبب ذلك الغلاء بمصر ان النيل نزل بسرعة فزرعوا فى الحر على العادة فى السنين الماضية فأفسدت الدودة البرسيم وتأخر المطر فى الخريف والشتاء فى الوجه البحرى فلم تنجب الزروع وخرج السلطان (المؤيد شيخ المحمودى) الى سرحة البحيرة فأتلف شيئا كثيرا . (٤)

وفى سنة ٨٨٤هـ حدث الغلاء الذى عم اكثر البلاد كاليمن والشحر وحضرموت وزيلع والهند ودام الى سنة ستة وثمانين وثمانمائة .(٥)

ثالثا – ومن اسباب ارتفاع الاسعار الحوادث او الكوارث التى تعتبر من اسوا الحالات التى تصيب التجار والتى كثيرا ما يتعرضون لها وخاصة فيما يتعلق بالسلع الاتية عن طريق البحر حيث الشعاب المرجانية التى قد تتسبب فى اغراق كثير من المراكب العابرة فيه .

---

(١) الفاسى : المصدر السابق ،جـ٢ ،ص ٢٧٦–٢٧٧ .
(٢) الجزيرى : درر الفوائد ،ص ٣٢١ .
(٣) الفاسى : العقد الثمين ،جـ١ ،ص ٢٠١ .
(٤) ابن حجر: المصدر السابق جـ٣ ،ص ٢٠١ .
(٥) ابن الديبع : قرة العيون ،ق ٢ ،ص ١٧١ .

ومن أسوأ الحوادث التي تعرض لها التجار القادمون الى مكة ما حدث سنة ٧٩٤هـ اذ انكسر في بندر جدة ستة وثلاثون مركبا كانت تحمل المتاجر من اليمن .(١)

كان لاشتداد الرياح البحرية سنة ٨٩٢هـ اثرها في ايقاف حركة المراكب والحاق الضرر بالكثير منها وقد انكسر بسببها في بندر عدن ثلاثة عشر مركبا وحدث مثل ذلك في الشحر وغيرها .(٢)

كما حدث طوفان كبير سنة ٩٠١هـ بنواحي الهند وادى الى اتلاف الكثير من الاموال والمتاجر وتسبب في اغراق اربعة عشر مركبا في بندر ديو منها اربعة للتجار العرب .(٣)

رابعا – لعل اهم اسباب الغلاء منذ بداية القرن العاشر الهجري وحتى سقوط دولة المماليك هو وصول البرتغاليين الى الهند وقيامهم باعمال القرصنة ضد السفن التجارية العربية يقول بانيكار : " وقد شرع دا جاما وعصبته حتى قبل وصولهم الى ساحل الهند في ان يطبق بالقوة ادعاء مولاه انه " سيد الملاحة ومولاها " فكان يقطع الطريق دون اى تحذير على اية سفينة يلتقي بها في طريقه ويدمرها تدميرا وهو يصف أعماله بانها من أسوأ امثلة الارهاب والقرصنة فقد كان يتعرض لسفن مكة التجارية غير المسلحة فيلقي القبض عليها ويقوم بتفريغها من البضائع ثم يأمر باشعال النيران فيها فتحترق بمن فيها من بحارة وتجار .(٤)

---

(١) الفاسي : العقد الثمين جـ٦ ، ص ٢١٠ .

(٢) ابن الديبع : المصدر السابق ق ٢ ، ص ١٧٧ ، يحيى بن الحسين : المصدر السابق ق ٢ ، ص ٦٢٣ .

(٣) ابن الديبع : نفس المصدر ق ٢ ، ص ١٩٣ .

(٤) بانيكار : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

ونظرا لاعتقاد البرتغاليين ان استقرارهم فى الهند واحتكارهم للتجارة الشرقية لن يتم الا بالقضاء على تجارة المسلمين وتشديد وطأتهم فى ضرب التجارة الاسلامية قاموا بسد منافذ البحرالاحمر والخليج واستولوا على بعض السفن العربية وخصصوا قطعا من الاسطول البرتغالى للمرابطة بالقرب من باب المندب لغرض الحصار على البحر الاحمر والقضاء على تجارته [1] التى كانت جدة مركزا لها .

ويشير ابن اياس الى خطورة الوضع فى البحر الاحمر وتهديد البرتغاليين المباشر لامنه وتجارته بقوله : " تزايد الضرر من الفرنج فيما بعد وترادفت مراكب الفرنج ببحر الحجاز حتى بلغوا فوق عشرين مركبا وصاروا يعبثون على مراكب تجار الهند ويقطعون عليهم الطريق فى الاماكن المخيفة ويأخذون ما معهم من البضائع حتى عز وجود الشاشات والارز من مصر وغيرها من البلاد [2]

خامسا - قد تكون الكثافة البشرية عاملا من عوامل الغلاء وبسبب جاذبية المركز الدينى لمكة المكرمة يظهر هذا العامل وهو يبرز فى اثناء قدوم المعتمرين للعمرة الرجبية - وفى موسم الحج وان كان الاخير يشكل فى معظم الاحيان مواسم الازدهار التجارية فى مكة حتى مع كثرة التجمع البشرى فالعناصر المرتبطة بالخصائص الطبيعية للمكان جعلت من الصعب الاعتماد على اهمية الموقع التجارى وحركة التجارة التى قد تتأثر فى بعض الاحيان بعوامل معينة تؤدى الى نقص الواردات وفى هذه الحالة - لم تكن التجارة - وخاصة فى هذه المنطقة القاسية من الناحية الطبيعية قادرة على كفاية الاعداد المتزايدة علاوة على انعدام التخطيط المسبق لمواجهة مثل هذه الحالة ولعل هذا ما يفسر شدة الغلاء سنة ٦٥١هـ يقول الجزيرى : " وجاء الى الحج عالم كبير من البر والبحر لم يسمع مثله فيما مضى وحصل للناس ايام الموسم عطش شديد ." [3]

---

(١) محمد عبد العال : البحر الاحمر ،ص ٧٩ .

(٢) ابن اياس : المصدر السابق ج٤ ،ص ١٠٩ .

(٣) الجزيرى : المصدر السابق ،ص ٢٧٨ .

فالقاعدة هنا ان الطلب صار اكثر من العرض ووصل الامر الى ان بيعت الشربة من الماء بدرهم والشاه بأربعين درهما .(١)

ويلاحظ ان معتمرى العمرة الرجبية فى سنة ٧٨٣هـ كانت اعدادهم كبيرة وكان لذلك اكبر الاثر فى زيادة الاسعار وحدوث الغلاء بمكة فقد ارتفعت اسعار جميع المواد الغذائية ووصلت قيمة الويبة من الدقيق عشرين درهما والشعير من عشرين الى ثلاثين درهما ثم ارتفعت الاسعار بعد قدوم الحاج فى السنة نفسها فبلغت الويبة من الدقيق خمسين درهما وازيد والويبة من الشعير اربعين درهما وعظمت المشقة على الناس من غلاء الاسعار .(٢)

وكان لكثرة المجاورين سنة ٨٤٣هـ اثر كبير فى ارتفاع الاسعار لدرجة ان كراء الجمل على سبيل المثال بلغ اربعين دينارا . (٣)

سادسا – لعل انعدام الامن بسبب الاحوال السياسية المتردية فى بعض الاحيان من اهم العوامل التى كان لها اثر كبير فى ارتفاع الاسعار بل فى فرار التجار من مكة فالتنافس بين الاشراف على الحكم من جهة وسوء العلاقات بين الاشراف وسلطان مصر او صاحب اليمن من جهة اخرى فى بعض الفترات كل ذلك كان له أسوأ الاثر فى الحياة الاقتصادية فى مكة فتنقطع عنها الاقوات ويقل وجود المؤن ومن ابرزها الغلاء الذى حدث نتيجة لذلك سنة ٧٠٧هـ بمكة وكان سببه ان صاحب اليمن المؤيد قطع الميرة عن مكة لجفوة بينه وبين شريفى مكة رميثة وحميضة .(٤)

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٧ ،ص ٣٠، الجزيرى : نفس المصدر والصفحة احمد السباعى : المرجع السابق ،ج١ ،ص ٢١٨ .

(٢) المقريزى : المصدر السابق ج٣ ،ص ٤٦٠

(٣) المقريزى : نفس المصدر ج٤ ،ص ١١٩٢ .

(٤) الفاسى : شفاء الغرام ج٢ ،ص ٢٧١، ٢٧٣ .

وقد تأثر النشاط التجارى حتى سنة ٧١٢ هـ وقل ورود التجار الى مكة بسبب سوء معاملة الشريفين لهم وتعرض اموالهم للنهب والسلب فقل الوارد وارتفعت الاسعار .(١)

وفى سنة ٧٣٠هـ هاجم بعض الاشراف الطامعين فى الامارة مكة واشتبكوا مع الركب العراقى فى قتال شديد ودخل الفرسان بخيلهم الى المسجد الحرام ... ونهبت الاسواق وعم الغلاء وكانت فتنة عظيمة .(٢)

ولعل ارتفاع الاسعار والغلاء الذى استمر منذ عام ٧٥١هـ حتى عام ٧٦٠هـ يعد من اقسى الاحوال الاقتصادية التى شهدتها مكة حتى اضطر الناس والتجار فى النهاية الى الخروج منها والفرار بأنفسهم واموالهم وكان سبب ذلك جور الاشراف وظلمهم وكثرة الفتن التى ادت الى تدهور الاوضاع الداخلية وتفاقمها (٣) يضاف الى ذلك المقاطعة الاقتصادية التى فرضها صاحب اليمن للانتقام من اشراف مكة .(٤)

وبسبب الفتنة التى حدثت سنة ٨٩٨هـ ارتفعت الاسعار بشكل فاحش حتى بلغ سعر حمل الدقيق ثلاثين اشرفيا ورطل الخبز بمحلق وكذلك البقسماط والفول كما اشتد الغلاء فى عرفة ومنى .(٥)

وايا ما كان الامر فقد احتلت مكة مكانة تجارية مرموقة وكانت درة عقد الاسواق التجارية وكان تأثير الغلاء عليها موقوتا فى معظم الحالات وهذا مما اتاح الفرصة لاستمرار الحفاظ على تلك المكانة التجارية الكبيرة التى كان للعامل الدينى اكبر الاثر فى الابقاء عليها وتوطيدها .

---

(١) الفاسى:العقدالثمين ج٤،ص٤٠٦، الجزيرى : نفس المصدر ،ص ٢٩٣-٢٩٤ .
(٢) ابن ايبك : كنز الدرر ج٩،ص ٣٥٣،٣٥٤ ، ابن فهد : المصدر السابق ،ص ٢٨٨ .
(٣) الفاسى شفاء الغرام ج٢ ،ص ٢٧٣-٢٧٤، ابن فهد :المصدر السابق ،ص ٣٠٣.
(٤) المقريزى : السلوك ج٢ ، ص ٨٦٧ .
(٥) الجزيرى : المصدر السابق ،ص ٣٤٥ .

الفصل الرابع

المكوس والمعاملات التجارية

- العشور والمكوس التجارية وطرق جبايتها.
- المعاملات التجارية.
- أنواع النقود والقيم النقدية.

العشـــــــور والمكوس التجارية وطرقجبايتها ...... "

نظمت الشريعة الاسلامية النظام المالى .. ووضعت من التشريعات مـــا يصون التوازن الانسانى ويحقق العدالة الاجتماعية والأحوال الاقتصادية وفـــق تقرير العليم الخبير من منع للاحتكار الى نهى عن الربا ومن تنظيــــم للعقود الى تحريم للغش ومن أمر بحسن المعاملة الى حـــض على الصـــدق والامانة والوفاء فى الكيل والميزان ومن نهى عن اكتناز الاموال الى أمـر واجب بالزكاة والبذل ، ودعوة الى التكافل ،واشاعة الحب والخير .

وتعد العشور من أهم ما فى النظام المالى الاسلامى وهى تتنوع بتنـوع الحاجات الاجتماعية فى الدوله الاسلامية ويتصل منها بالتجارة ما يدفعـــه التجار المسلمون زكاة وتسمى ايضا الصدقة .....

والزكاة فى اللغة النمو والبركة وكثرة الخير ،يقال زكا الزرع اذا نما،وزكا المال اذا كثر . وهى شرعا ايتاء جزء من النصاب الحولى الـــى فقير (١) ... وتطلق على التطهير ،قال تعالى :" قد أفلح من زكاهـــا "(٢) اى طهرها . وتطلق على المدح ،قال عز وجل :" فلا تزكوا انفسكم هو أعلـم بمن أتقى " (٣) أى تمدحوها .

والزكاة من الموارد الشرعية الثابتة فرضت على الاغنياء والقادريـن وهى واجبة بالكتاب والسنة والاجماع . والقرآن يثنى على الذين يعطونها بقوله تعالى :" الذين يوءمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهـــــم ينفقون " (٤)

---

(١) العينى : عمدة القارى ،جـ٨ ،ص ٢٣٣ .

(٢) سورة الشمس : آية ٩ .

(٣) سورة النجم : آية ٣٢ .

(٤) سورة البقرة : آية ٣ .

وقال عز وجل :" والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم "[١] اى نصيب معين يستوجبونه على انفسهم تقربا الى الله تعالى واشفاقا على الناس ،من الزكاة المفروضة والصدقات الموظفة للسائل الذى يسأل والمحروم الذى لا يسأل فيظن أنه غنى فيحرم .[٢]

والزكاة تطهير للمال وتزكية له لقوله تعالى : " خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم " [٣] ويقول ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : " ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات " [٤] وهذا تهييج الى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحط الذنوب ويمحصها ويمحقها وأخبر تعالى أن كل من تاب اليه تاب عليه ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فان الله تعالى يتقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل أُحد كما جاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " [٥] وجاء فى تفسير قوله تعالى :" يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم " [٦] أى من طيبات ما رزقكم من الاموال ،يعنى التجارة فالله سبحانه أمر بالانفاق من أطيب المال واجوده وأنفسه ،ونهى عن رديل المال او خبيثة فان الله طيب لا يقبل الا طيبا [٧] ويختم الله سبحانه الآية بقوله :" واعلموا أن الله غنى حميد " أى وان يأمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غنى عنها ، وما ذاك الا أن يساوى الغنى الفقير .[٨]

---

(١) سورة المعارج : آية ٢٤ – ٢٥ .

(٢) ابو السعود : تفسير ابو السعود ،جـ٥ ،ص ٣٩٢ .

(٣) سورة التوبة : آية ١٠٣ .

(٤) سورة التوبة : آية ١٠٤ .

(٥) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ،جـ٢ ،ص ٣٦٧ .

(٦) سورة البقرة : آية ٢٦٧ .

(٧) ابن كثير : نفس المصدر ،جـ١ ،ص ٣٢٠ .

(٨) ابن كثير : نفس المصدر والجزء ،ص ٣٢١ .

كقوله : " لن ينال الله لحومها ولا دماوءهاولكن يناله التقوى منكم " (١) ولقد جاء فى الاثر عن سمرة بن جندب قوله : " ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كانيأمرنا أن نخرج الصدقة من الذى نعد للبيع ." (٢)

ومقادير الزكاة وتحديداتها جاءت بنص السنة المطهرة فقد قال عليه الصلاة والسلام :" هاتوا ربع العشر من كل اربعين درهما ... درهما " وعن ابن عمر وعائشة رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأخذ من كل عشرين دينارا ، فصاعدا نصف دينار ... ومن الاربعين دينار ..دينارا وعن عائشة رضى الله عنها انها قالت " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :" لا زكاة فى مال حتى يحول عليه الحول " .(٣) وبناء على ذلك فزكاة المال مقدارها ٢ر٥ ٪ وكذلك الذهب والفضة ونصابهما مئتا درهم من الفضة أى ما يعادل ٥٩٥ جراما ،أو عشرون مثقالا من الذهب اى ما يعادل ٨٥ جراما

والزكاة يخرجها التاجر المسلم بدون تذمر ولا ملل لعلمه بانها حق اجتماعى وليست منه واحسانا امتثالا لقوله عز وجل :" يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يوءمن بالله واليوم الآخر ،فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا " (٤) .

وكان تجار الكارمية يدفعون زكاتهم للدولة تقديرا منهم لرعايتها لهم ولتجارتهم فى البر والبحر .(٥)

والتاجر اذا كتم زكاة ماله وأخفاها عن العامل مع عدله أخذها العامل منه اذا ظهر عليها ونظر فى سبب اخفائها فان كان ليتولى اخراجها بنفسه لم يعزره وان اخفاها ليغلها ويمنع حق الله منها عزره ولم يغرمه

---

(١) سورة الحج : آية ٣٧ .

(٢) ابو داود : السنن ،المجلد الاول ،ج٢ ،ص ٩٥ .

(٣) ابن ماجة : السنن ، المجلد الاول ،ص ٥٧٠ – ٥٧١ .

(٤) سورة البقرة : آية ٢٦٤ .

(٥) المقريزى : السلوك ،ج١ ،ص ٧٣ – ٧٤ .

زيادة عليها ، وقيل يأخذ منه شطر ماله لقوله صلى الله عليه وسلم :" من غل صدقة فأنا آخذها وشطر ماله عزمة من عزمات الله ليس لآل محمد فيها نصيب ..." وقوله :" ليس فى المال حق سوى الزكاة " .(١)

وتشير المصادر التاريخية الى انه فى جمادى الاخرة من سنة ٨٢٧هـ عقد السلطان برسباى مجلسا بحضور القضاة الاربعة ومشايخ العلم ، وسألهم عن جواز أخذ الزكاة من التجار ، ووقع الجدل فى ذلك ، وانفصل الامر على أن التجار يوءدون الى السلطان من المكوس أضعاف مقدار الزكاة ،وهم مأمونون على ما تحت ايديهم من الزكاة . غير ان القاضى الحنفى زين الدين التفهنى قال : " مرجع جميع الاموال فى اخراج الزكاة الى اربابها الا زكاة التجارة فللامام أن ينصب رجلا يقيم على الجادة يأخذ من المسلمين ربع العشر ومن اهل الذمة ،نصف العشر ،ولا يوءخذ من المسلم فى السنة اكثر من مرة" (٢) وثم انفض المجلس وبطل ما راموه من أخذ أموال الناس (٣) ولعل القاضى الحنفى رجع فى فتواه الى ما حدث زمن عمر بن الخطاب عندما كتب اليه أهل منبج ومن وراء بحر عدن يعرضون عليه أن يدخلوا بتجارتهم أرض العرب ولهم العشور منها فشاور عمر فى ذلك أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فأجمعوا على ذلك فهو أول من أخذ منهم العشور . عن انس قال : بعثنى عمر وكتب لى أن آخذ من أموال المسلمين ربع العشر ومن أموال أهل الذمة اذا اختلفوا بها للتجارة نصف العشر ومن أموال أهل الحرث العشر " .(٤)

أما عن الموارد المالية وما كان مقررا على التجار بجدة ومكة فنذكر منها ضريبة الربع التى يأخذها شريف مكة من التجار الذين تتعرض

---

(١) الماوردى : (ابو الحسن على بن محمد بن حبيب) الاحكام السلطانية .. والولايات الدينية ،بيروت ،١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م ،ص ١٢١ .

(٢) ابن حجر : ابناء الغمر ،جـ٣،ص ٢٣٧، ابن اياس: بدائع الزهور،جـ٢،ص ٩٢- ٩٣ .

(٣) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ،ص ٩٣ .

(٤) ابن حنبل : المسند ،المجلد الثانى ،ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

مراكبهم للخراب ويصلحونها فى جدة ... وبلغ ما جبى من تجار الكارم الذين انصلح مركبهم بقرب مكة سنة ٨٠٤هـ اكثر من خمسة وستين ألف دينار . وقد أدى هذا الامر الى تذمر التجار فسعوا فى عزل شريف مكة فى هذه الفترة وهو حسن بن عجلان .(١)

وفى سنة ٨٠٩هـ سأل تجار الكارم الشريف حسن أن ينجلوا بجدة لخراب مراكبهم فأجابهم بعد أن حصل له منهم ومن ولى أمر المكس بجدة نحو أربعين ألف دينار (٢) .

وفى سنة ٨١٣هـ أخذ من رسل صاحب بنجالة السلطان غياث الدين ما يساوى ثلاثين ألف دينار لان مركبهم انصلح فى بعض مراسى الشقات وكان صاحب بنجالة قد ارسلهم بهدية طائلة لاميرى مكة والمدينة وصدقة لاهل الحرمين و لعمارة مدرسة بمكة . (٣)

وحصل بجدة فى أوائل سنة ٨٢٣هـ خلل فى بعض مراكب الكارم عندما عزموا الى ينبع ، فأمرهم الشريف بالتنجيل ، فصالحوه فى ذلك بالفى افرنتى وتوجه هذا المركب وغيره من مراكب الكارم وجلابهم الى ينبع ونجلوا بها وكان فى المراكب التى أخذت منها الفريبة حصل منسوب الى السلطان المملوكى الملك المؤيد او ما يسمى " بالمتاجر السلطانية " فغضب السلطان وكتب لصاحب مكة يعتب عليه ولوح له بما ازعج خاطره فآثر الشريف التنازل عن الامارة لولديه ابراهيم وبركات .(٤)

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ، ج٤ ،ص ٩٩ – ١٠٠ ،ابن فهد : اتحاف الورى ص ٣٢٥ .

(٢) الفاسى : نفس المصدر ،ج٤ ،ص ١٠٣ ،ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٣٠ .

(٣) الفاسى : نفس المصدر والجزء ،ص ١٠٨ – ١٠٩ .

(٤) الفاسى : نفس المصدر والجزء ،ص ١٣٦ – ١٣٧ .

وكان هناك نوع من الجباية أو الضريبة السنوية يأخذه الاشراف فى مكة من التجار لقاء حمايتهم يقول الفاسى " ان لكل من بنى حسن أو أكثرهم صاحبا من تجار مكة وغيرهم ، وله على التاجر نفع يأخذه منه فى كل سنة فاذا أراد صاحب مكة أو أحد من بنى حسن التعرض للتاجر المذكور بطمع منع صاحبه من ذلك " (١)

ومن الموارد المالية مال من توفى بغير وريث او ما يعرف بالمواريث الحشرية .. قال عليه الصلاة والسلام: " أنا وارث من لا وارث له أفك عانية وأرث ماله " .
وعنه انه قال : "من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك دينا فعلى وعلى الولاة ، من بعدى من بيت مال المسلمين " .(٢)

وتشير المصادر الى أن ورثة التجار كانوا يقدمون لاشراف مكة مبلغا من المال عند وفاة مورثيهم وان كان الشريف أحمد بن عجلان قد تورع عن أخذه .(٣) وكانت المراسيم قد وردت منذ سنة ٨٤٣هـ بان جميع من مات بمكة من غير أهلها ليس لصاحب مكة فى ميراثه شئ وأن ميراثه لصاحب مصر ...وأن صاحب مكة ليس له ميراث إلا من مات من أهل مكة .(٤) ثم قرر السلطان المملوكى سنة ٨٨١هـ أن يكون نصيب شريف مكة من مال من يموت بها وبجدة اذا لم تتجاوز التركة ألف دينار فاذا بلغت أكثر من ذلك تئول تركته للسلطان ومن مات وله وارث غائب يئول أمر الحفاظ على تركته الى نائب السلطان فى جدة وهو الذى يختم على أمواله وليس القاضى .(٥) هذا وقد الزم السلطان

---

(١) العقد الثمين ،جـ٤ ،ص ١٥٤ .

(٢) ابن حنبل : المسند ، المجلد الرابع ،ص ٢٢٦ .

(٣) الفاسى : نفس المصدر ،جـ٣ ،ص ٩٦ .

(٤) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٨٥ ، السنجارى : منائح الكرم جـ٢ ،ص ٥ .

(٥) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٤٤٧ .

الغوري أبناء أحد كبار التجار ويدعى عيسى القاري بعد وفاته في مكة سنة ٩١٨هـ بمبلغ مائة ألف دينار فلما أظهروا تظلمهم رفعها الى مائتي ألف دينار .[1]

وهناك نوع من الجباية " الضرائب " كان شريف مكة يفرضها على البلاد التي تعد من أعمال مكة مثل الطائف ووادي مر وغيرهما وتتراوح الجباية بين الاعتدال والارتفاع تمشيا مع الأحوال الأمنية وظروف العلاقات الخارجية ففي سنة ٧٥٥هـ وبعد تأزم العلاقات اليمنية الحجازية نتيجة لما حدث للملك المجاهد مع صاحب مكة في موسم الحج ومنعه للتجار من السفر الى مكة ..... قل ما بيد الشريف عجلان فاتجه الى وادي مر وعشر النخيل الذي بها وحصل له من ذلك مال جزيل وكان قد جعل على كل نخلة من درهمين الى أربعة دراهم[2]

وعندما امتنع أهالي الطائف عن دفع ما قرره الشريف حسن بن عجلان سنة ٨٢١هـ لزيادته على العادة ، فضلا عما هم فيه من ضيق الحال بسبب ما أخذه منهم في العام السابق .... سار اليهم الشريف وضرب املاكهم وحصونهم وتسلم منهم ما أرضاه وأصابهم من العنت والمضايقة وفساد الارباح ما أرهقهم وأدى الى كساد أحوالهم .[3]

ومن الموارد التي ليس لها سند شرعي المكوس ويطلق عليها الجباية أو الزالة او العرافة ، وهي نوعان : مكس الحاج .... والمكس المتصل بالتجارة.

فأما مكس الحاج فهو بدعة ابتدعها القرامطة سنة ٣٣١هـ عندما جعلوا على الحجاج في كل سنة نحوا من خمسين ألف دينار مقابل تمكينهم من الدخول

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ،جـ٤ ،ص ٢٨٤ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ،جـ٦ ،ص ٦٤ – ٦٥ .

(٣) الفاسي : نفس المصدر ،جـ٤ ،ص ١٣٣ .

الى مكة .... وهو أول مكس أخذ على الحجاج .(١)

وكانت تتم جبايته من الحجاج بعيذاب فمن يدفعها يعلم اسمه علامة الاداء ومن لم يدفعها بعيذاب دفعها بجدة والا حبس وعذب بشتى انواع العذاب ومنع من الحج والتجارة .(٢) وينفرد بأخذ مكس الحاج أمير مكة ومقداره سبعة دنانير مصرية ونصف عن كل حاج .(٣)

وكان صلاح الدين الايوبى أول من ألغى هذا المكس (٤) وعوض أمير مكة عن ذلك بألفى دينار وألف أردب قمح واقطاعات بصعيد مصر وجهة اليمن .(٥) وقيل انه عوضه عن ذلك ثمانية آلاف أردب قمح تحمل اليه كل عام الى ساحل جدة (٦) غير أن الابطاء فى ارسال ذلك لامير مكة يؤدى الى عودة امير مكة الى ترويع الحاج والعسف معهم فى اخذ المكس .(٧)

ويبدو أن خلفاء السلطان صلاح الدين الايوبى قد اهملوا فى ارسال ما التزم به لأمير مكة فعاد امراء مكة الى اخذ هذا المكس .. يدل على ذلك أن الملك المنصور صاحب اليمن أبطل فى سنة ٦٣٩هـ جميع المكوس والجبايات بمكة ....وكتب بذلك رقعة جعلت قبالة الحجر الاسود واستمرت عدة سنوات الى أن نزعها ابن المسيب .(٨)

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ،ج٤ ،ص ٩٠ .

(٢) الفاسى : تحصيل المرام ،ق٨٨ب ، السيوطى :حسن المحاضرة ،ج٢،ص ٢٠ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ،ص ٢٨-٢٩، الفاسى : نفس المصدر والورقة .

(٤) ابن خلدون : العبر ،ج١ ،ص ٢٣٤ .

(٥) ابن جبير : نفس المصدر ،ص ٥٥، الفاسى : نفس المصدروالورقة ، العقد الثمين ج١ ، ص ١٨٩ ، السيوطى : نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٦) الفاسى:العقد الثمين ،نفس الجزء والصفحة ،تحصيل المرام ،ق٨٨ب .

(٧) ابن جبير : نفس المصدر ،ص ٥٤ .

(٨) الفاسى : تحصيل المرام ،ق ٨٩ب ، العقد الثمين ،ج١ ،ص ١٩١،المقريزى : السلوك،ج١ ،ص ٣٣٢- ٣٣٣،يحيى بن الحسين : غاية الامانى ،ق ١، ص ٤٣١ ، " ابن المسيب عامل صاحب اليمن نور الدين عمر بن رسول على مكة.ساءت ====

وعندما حج السلطان المملوكى الظاهر بيبرس سنة ٦٦٧هـ الغى شريف مكة أبو نمى جميع ماكان يأخذه من الحجاج القادمين من البر عن طريق مصر والشام واعمالها اكراما للسلطان واشهد على نفسه أنه ترك أخذ الجبايات من سائر الحجاج المصريين والشاميين تاجرهم وغنيهم وفقيرهم .(١)

ويذكر التجيبى السبتى وقد حج سنة ٦٩٦هـ انه كان بجدة عامل من قبل شريف مكة أبى نمى يتولى جباية المكوس والضرائب مثل ضريبة الطعام وكانت على كل غرارة طعام ربع غرارة وضريبة المتاع وضريبة الجمال التى يكتريها الحاج (٢).

وقد تعرضت المكوس التى كانت تجبى فى جدة من قبل اميرمكة للالغاء وللاعادة اكثر من مرة بناءا على تدخل سلاطين المماليك مقابل تعويضهم لامير مكة عنها . (٣)

ومن شأن هذه المكوس التى يدفعها الحجاج أن تؤمن طريقهم الى مكة المكرمة وتحقق لهم الحماية فيها وفى جدة .

ودفع الجشع بعض امراء المحمل الى اخذ المكس من الحجاج .. ففى سنة ٨٠٩هـ فرض أمير المحمل المصرى ويدعى كزل العجمى على كل جمل دينارا والزم الركب بذلك ......فلما علم السلطان الملك الناصر فرج بما عمله قبض عليه وصادر امواله .(٤)

واستلزم الوضع الاقتصادى فى مكة .. وما كان يعانيه امراؤها من

(=) سيرته فى مكة حيث أعاد الجبايات والمظالم وقطع الصربعة التى وضعها نور الدين واستولى على الصدقات التى كانت ترسل من اليمن " .
ابن الربيع : قرة العيون ،ق ٢ ،ص ١٥ .

(١) الجزيرى : درر الفوائد ،ص ٢٨١ .

(٢) التجيبى السبتى : مستفاد الرحلة ،ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٣) الفاسى: العقد الثمين،جـ١ ،ص ٤٥٩،٤٦٣، الجزيرى : نفس المصدر،ص ٢٩٧ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ،جـ١٣،ص ٥٣ .

حاجة الى الاموال فرض المكوس على القوافل التجارية الواردة والمارة بمكة والبضائع القادمة من طريق البحر عبر ثغرها جدة .

ولم تكن هذه المكوس التجارية حدثا جديدا فى مصر والحجاز فقد عرفت منذ أيام الفاطميين ووزرائهم [1]. وكان السلطان صلاح الدين الايوبى رحمه الله قد أبطلها وأول من أعادها فى العصر المملوكى الوزير هبة الله الفائزى [2] الذى استحدث الكثير من المكوس والمظالم .[3]

والواقع ان المكوس التجارية غدت موردا هاما وثابتا للدول ... وقد عنى ابن خلدون بتحليلها ولا سيما آثناء حديثة من أسباب عمران الدول وهرمها ومن ذلك قوله :" واعلم ان السلطان لا ينمى ماله ولا يدر موجودة الا الجباية وادرارها انما يكون بالعدل فى أهل الاموال والنظر لهم بذلك وبذلك تنبسط آمالهم وتنشرح صدورهم للاخذ فى تثمير الاموال وتنميتها فتعظم منها جباية السلطان .[4]

وتفيد المصادر التاريخية أنه فى القرن السابع الهجرى كانت الجباية تؤخذمن التجار على كل ما معهم من متاجر ... اما الحاج الذى ليس له متجر فكان لصاحبمكة معلوم على كل جمل يوقفه الركب عند قبر ابى لهب ولا يتعدى هذا المكان جمل الا بعد آخذ المقرر عليه [5] وكان المقررعلى كل جمل من القوافل القادمة من اليمن ثلاثين درهما ويزيد هذا المقرر على القوافل القادمة من مصر فعلى كل جمل خمسين درهما ، ولم يلبث أن تساوى الحجاج المصريين باليمنيين منذ سنة ٦٨٣هـ بعد تدخل السلطان الظاهر

---

(١) من الادلة التاريخية على فرض المكوس فى مرفأ جدة فى القرن الرابع الهجرى انه كانت تؤخذ على سلة الزعفران رسوم قدرها دينار وعلى حمل البر دينار وعلى حمل الصوف ديناران ، الاصطخرى:المسالكوالممالك،ص ١٤ .

(٢) هو وزير عزالدين ايبك اول سلاطين المماليك اصله من مسالمة القبط مات مقتولا ، السيوطى: حسن المحاضرة ،جـ٢ ،ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٣) السيوطى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) ابن خلدون: العبر ،جـ١ ، ص ١٣٦ .

(٥) الجزيرى : درر الفوائد ،ص ٢٨١ .

بيبرس .[١]

ومما يلاحظ أن هذه النسبة تزيد تبعا للاحوال الامنية فى مكة وعلاقاتها الخارجية[٢] كما يبدو واضحا أن شريف مكة ابا نمى لم يف بما قطعه على نفسه من تركه الجبا على الحجاج فعاد الى فرضها على الحجاج والتجار وتعسف فى طريق جبايتها .[٣]

اما فى القرن الثامن الهجرى فقد وافتنا المصادر بقيمة الرسوم ... المقررة على بعض البضائع وكان بعض الرسوم يلغى عن السلع الضرورية التى يكون الناس فى حاجة اليها .... ففى عامى (٧٠٣ – ٧٠٤هـ) أسقط شريفا مكة حميضة ورميثة جزءا من المكوس فيها .[٤] وفى سنة ٧٤٦هـ اسقط السيد عجلان بن رميثة ربع الجبايات وقد عرف عنه اظهار العدل والامان للتجار والحجاج والمجاورين .[٥] كما اصدر السلطان الناصر محمد بن قلاوون أمره فى سنة ٧٢٢هـ بابطال المكس المتعلق بالمأكول فى مكة وعوض أميرها عطيفة ثلثى دمامين [٦] من صعيد مصر [٧] وقيل أقطعه اياها [٨] ولكن يبدو أن مكس المأكولات قد عاد مرة اخرى بدليل ابطاله من جديد سنة ٧٦٠هـ [٩]. ولعل ذلك يعود الى انقطاع المعلوم الذى عوض به امير مكة نظير اسقاطه له .

ويشير الفاسى الى قيمة الضرائب المأخوذة على المأكولات فى تلك الفترة فالمقرر على حمل الجمل من الحنطة الواردة بحرا الى جدة

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ،ص ٧٢٤، الجزيرى: نفس المصدر ،ص ٢٨٥ – ٢٨٦ .

(٢) السنجارى: منائح الكرم جـ١ ،ص ٣٠٢، الطبرى: اتحاف فضلاء الزمن ،ص ٢٧ .

(٣) المقريزى :نفس المصدر والجزء والصفحة ، الجزيرى:نفس المصدر والصفحة .

(٤) الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ١ ،ص ٣٦٢، الفاسى : تحصيل المرام ،ق ٩٠ب الجزيرى : درر الفوائد ،ص ٢٩٢، الطبرى: اتحاف فضلاء الزمن ،ص ٢٩ .

(٥) الجزيرى : نفس المصدر ،ص ٣٠٧ – ٣٠٨ .

(٦) " دمامين " من مركز الاقصر بمديرية قنا وموقعها على الشاطئ الغربى للنيل ، المقريزى : السلوك جـ٢ ،ص ١٣٦ هـ .

(٧) الفاسى:نفس المصدر ،ق٩٠ب – ٩١أ، السيوطى: حسن المحاضرة جـ٢ ،ص ٣٠١ ، الجزيرى : نفس المصدر ،ص ٣٠٠ .

(٨) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٩) الفاسى : نفس المصدر ،ق ٩١أ ،شفاء الغرام ،جـ٢ ، ص ٢٤٨ ، الطبرى : نفس المصدر ،ص ٣٧ .

مـــــــدان مكيـــان (١) ، وامـــــا الحنطـة الواطـــــة مـــن الطائف وبجيلة ، فالمقـــرر على الحمل منها مد وربع (٢) ويعلق السباعـــى على ذلك بقوله " وهى نظرية اقتصادية تعمل بها اكثر حكومات اليوم لتحـــد من واردات الخارج وتشجع الانتاج المحلى " (٣).

وربما لان الواردات الاتية عن طريق البحر تكون اكثر ربحا للتجار فمـن الطبيعى أنهم يتبادلون التجارة فى الموانى ء والثغور التجارية التـــى يمرون بها ... فى حين أن التجار من المناطق القريبة انما يقصدون مكـــة لبيع انتاجهم أو ربما لان الطريق عبر الطائف وبجيلة أقصر فلا يتعرض فيـــه الانتاج المبيع فى مكة للرطوبة والى رحلة طويلة قد تفسده .

ومن الرسوم المقررة على المأكولات رسم حمل التمر اللبان وكـــــان ثمانية دنانير مسعودية وهذا الرسم يوءخذ من جالبة الى مكه وهو غير مـــا يوءخذ من الباعة والمتسببين حيث يوءخذ منهم على سلة التمر الواحـــــدة دينار مسعودى ، اما ما يباع من السمن والعسل والخضر فرسومها تساوى سدس وثمن سعرها فما يباع بخمسة دنانير مسعودية يوءخذ منها دينار مسعودى .(٤)

---

(١) المد المكى = ١ ٧/٣ رطل بغدادى = ١ر٢ رطل مصرى = ٤ر١٧ درهما من القمح = ٢١٧ درهما من الماء (دراهم بغدادية) = ٦٨٨ر٥ = ٦٨٨ر لترا .
محمد ضياء الدين الريس = الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ، ط٤ ، القاهرة ، ١٩٧٧م ، ص ٣١٩ .

(٢) الفاسى : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص ٢٤٩ ، ابن فهـــد : اتحاف الورى ، ص ٣٠٣ .

(٣) السباعى : تاريخ مكة ، ج١ ، ص ٢٥٤ .

(٤) الفاسى : نفــــس المصدر والجزء ، ص ٢٤٩ – ٢٥٠ ، ابن فهد : نفس المصـــدر والصفحة .
الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٣١١ .

ولا شك ان هذه الرسوم قد اثقلت كاهل التجار فى ذلك الحين وأدت الى زيادة اسعار تلك السلع ... فقاسى الناس من جراء ذلك شدة عظيمة لدرجة أن شخصا جلب شاه فلم تساو المقدار المقرر عليها [١] ووصل امر هذه الشدة للملك الاشرف شعبان فأمر فى سنة ٧٦٦هـ بالغاء مكس الحاج فى كل ما يحمل اليها من المتاجر ،خلا مكس تجار الكارم ، والهند ،والعراق ،وعوض امير مكة بثمانية وستين ألف درهم من بيت المال وألف اردب قمح سنويا. [٢] وقد كتبت بذلك ثلاثة محاضر وجعل واحدمنها بمكة والاخر فى المدينة المنورة والثالث بالقاهرة وقيد ذلك فى ديوان الاشرف شعبان رحمه الله [٣] ويشير الفاسى : الى أن شريف مكة عجلان بن رميثة قد طابت نفسه بذلك وعمل بها هو ومن بعده من امراء مكة . [٤] ومما يذكر ان التعويض كان اقطاعا بمصر وان ما حمل الى الشريف عجلان كان مبلغ اربعين الف درهم فضة [٥].

وقد التزم الشريف احمد بن عجلان بالعهود التى اخذت عليه فى اثناء تقلده ولاية الحكم والسلطة بمكة وسائر البلاد الحجارية فحفظ الحاج وترك المظالم والضرائب المترتبة على اهل الاسواق وأرباب الصنائع والمكس الشديد الذى كان يوءخذ فى جدة من حجاج البحر وغيرهم الا ما يوءخذ من تجار الكارم والعراق واليمن كما نصت بذلك المراسيم [٦] يقول الفاسى : "وكان لاحمد بن عجلان سيرة مشكورة ومحاسن مذكورة لانه كان كثير العدل فى الرعية مكرما للتجار وسمح لهم باشياء كثيرة فكثر ترددهم اليه فأثرى وكثر ماله مما كان يحصل له منهم من الموجبات والهدايا السنية وقرر بينه وبينهم ضرائب معروفة فى الزكائب والزواصل فلم يكن يتعدى ذلك وقرر آمورا يسمح لهم بها

---

(١) الفاسى : شفاء الغرام ،ج٢ ،ص ٢٤٩ — ٢٥٠ .

(٢) الفاسى : العقد الثمين ج١ ،ص ١٩٦، المقريزى : السلوك ،ج٣ ،ص ٩٨ ، ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٠٣، الطبرى: اتحاف فضلاء الزمن ،ص ٣٩آ .

(٣) الجزيرى : درر الفوائد ،ص ٣١١ .

(٤) الفاسى : شفاء الغرام ،ج٢ ،ص ٢٥٠ .

(٥) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٦) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٠٤ .

فيما لا يريد فيه بيعا من الازواد والقرطلات وغيرها مما يختص بالتاجر واتباعه فما خالف ذلك وكان نوابه بجده معه فى أرغدعيش لانهم كانوا يكارمون بالاسقاط ويكارمهم بالهدية ويعلم بذلك السيد احمد بن عجلان فلا ينالهم منه كبير ضرر وانما يوءدبهم بغرامة لطيفة". (١)

وفى سنة ٧٩٩هـ قام الشريف حسن بن عجلان باسقاط ثلث الرسوم التى على التجار فأدى ذلك الى زيادة نشاط الحركة التجارية فزادت ايراداته . (٢)

وقد نظمت السياسة الضرائبية على المتاجر القادمة من البحر سنة ٨٠٦هـ وشكلت على ثلاث حالات وأبطلت الرسوم السابقة التى كان التجار يدفعونها مع المكس وكانت كثيرة العدد الا أن ايراداتها اقل من الرسوم الجديدة المنظمة التى كان لحسن السياسة فى استيفائها من التجار وفى أدائها لبنى حسن أثرها فى راحة التجار وتنمية وازدهار النشاط التجارى فى جدة ومكة . (٣)

وبفضل هذا التنظيم والسياسة بدأ بريق جدة يظهر فى الوقت الذى أخذت فيه عدن تخبو من الناحية التجارية منذ هذا التاريخ عندما ضعفت احوالها وانقطعت المراكب الواصلة اليها من الهند وغيرها نتيجة لسوء الاحوال الداخلية (٤) والسياسة التعسفية فى جباية المكوس والتى تصل الى تفتيش العمامة والشعر والكمين وحزة السراويل وتحت الاباط كما وجدت عجوز لتفتيش النساء" فاذا نزلت التجار البلد نزلوا بدبشهم من الغد وبعد ثلاثة أيام تنزل الاقمشة والبضائع الى الفرضة تحل شدةشدة وتعد ثوبا ثوبا وان كان

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ،جـ٣ ،ص ٩٥ .

(٢) الفاسى : نفس المصدر جـ٤ ،ص ٩٠ – ٩٥، ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٢١–٣٢٢ .

(٣) الفاسى : نفس المصدر جـ٣ ،ص ٤٠٠ – ٤٠٣، جـ٤ ، ص ١٠٠ – ١٠١ .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الامانى ،ق ٢ ص ٥٦٠ – ٥٦١ .

من بضائع البهار بوزن بالقبان ويضرب فى جميع ما اشكل عليهم السبح لئلا يبقى شىء"(١) وأيا كان فمما لا شك فيه أن عدن ظلت القاعدة الرئيسية لمتاجر الشرق وتجارة البحر الاحمر الى ان حدث التحول الذى طرأ على تجارة البحر الاحمر فيما بعد .

ولكن يبدو أن غلمان الشريف حسن لم يسيروا على سياسة ثابتة ففى سنة ٨١٦هـ أظهروا التعسف مع تجار اليمن الذين قدموا بمتاجر كثيرة ولم يكتفوا بما يفرضونه من الجباية العالية بل استعملوا معهم القسوة حتى ان التجار كانوا يتوسلون فى التخفيف عنهم بالقاضى مفلح ــ وهو من كبار تجار اليمن ولم يفد تدخله فى الامر ،ولم تذكر المصادر قيمة ما جبى منهم . (٢)

وعلى الرغم من ذلك استمرت تجارة مكة فى تألقها وبلغ قيمة ما أخذه صاحب مكة الشريف حسن سنة ٨١٨هـ من ثلاثة من التجار فقط اكثر من أربعين ألف دينار(٣) وفى سنة ٨١٩هـ أخذ من تجار الكارم والجلاب الينبعية ثلاثة عشر ألف ومائتا ألف دينار(٤) ويلاحظ أنه كان قد عزل عن الامارة فى هذه السنة وهذا مما يوءكد الاذى والخسارة الكبيرة التى كانت تلحق بالتجار بسبب النزاع على السلطة فى مكة وينتج منه زيادة المكوس (٥) حتى انها كانت تجبى من التجار مرتين نتيجة الفوضى والاضطراب ورغبة كل من المتنازعين فى أخذ المكس لنفسه . (٦).

---

(١) ابن مخرمة : تاريخ ثغر عدن ،جا ،ص ٥٨ .
(٢) الفاسى : العقد الثمين ج٤ ،ص ١١٧، ابن فهد: اتحاف الورى ،ص ٣٤٢ .
(٣) الفاسى : العقد الثمين ج٤ ،ص ١٢٠ ، ابن فهد : اتحاف الورى ص ٣٤٥ ــ ٣٤٦ .
(٤) الفاسى : نفس المصدر ،ج٤ ،ص ١٢٢ ، ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٤٧ .
(٥) الفاسى : نفس المصدر ،ج٦ ،ص ٤٣٩ ، ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٤١ .
(٦) الفاسى : نفس المصدر ،ج٤،ص ١٢٠-١٢٢، ١٤٢-١٤٣،ج٦،ص ٦٢، ٦٤-٦٥،المقريزى: السلوك ج٢ ،ص ٨٨٧-٨٨٨، ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٥٠ .

وتشير المصادر الى أن نواب الشريف حسن فى جدة لم يعرضوا لتجار اليمن بسوء سنة ٨٢١هـ بل تساهلوا معهم فى جباية المكس فضلا عن تساهل الشريف نفسه معهم واسقاطه بعض المكس عنهم وعما هو خاص بحمل سلطان اليمن [١].

وفى سنة ٨٢٣هـ أبطل السلطان ططر ما استجد من المكوس فى مكة وقرر لصاحب مكة الشريف حسن ألف دينار كل عام يتم تدبيرها من بيت المال فى مصر لقاء ابطال مكس الخضرة والفواكه وغيرها من المأكولات .[٢]

ومنذ عام ٨٢٥هـ قرر التجار الهنود وضع حد للمتاعب الناجمة عن السياسة التعسفية والمبالغة فى المكوس التى فرضها سلاطين اليمن عليهم [٣] وذلك بنقل نشاطهم التجارى الى ميناء آخر سوى عدن وانحصر الخيار بين ينبع وجدة واخيرا وبفضل السياسة الحكيمة من سلاطين المماليك اتجه التجار الهنود الى جدة واصبحت المكوس تؤخذ منهم تحت اشراف الدولة المملوكية [٤]ولعل السلطان برسباى أراد من عقده لمجلس القضاء السالف ذكره سنة ٨٢٧هـ [٥] ... الحصول على فتوى بشرعية أخذ العشور من التجار وبالتحديد فى جدة فقد بدأت تدر الكثير من الواردات المالية وخاصة ان الدولة كانت بحاجة الى الاموال لتجهيز الجيوش للتصدى لاعداء الاسلام والطامعين فى أرضه .

---

(١) الفاسى : نفس المصدر ،جـ٤ ،ص ١٢٨ ، ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٥٢ .

(٢) الفاسى : العقد الثمين ،جـ١ ،ص ٢٠١، ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٥٧ ، الجزيرى : درر الفوائد ،ص ٣٢١ ، الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ،ص ٥٤–٥٥.

(٣) يذكر ابو مخرمة أنه كان يؤخذ من التجار فى عدن " خمس عشورات فى مرة واحدة ، عشور قديم وهو مال الفرضة ،وعشور الشوانى ،ودار الوكالة من الدينار قيراط،ودار الزكاة والدلالة "،تاريخ ثغر عدن ،جـ١ ،ص ٦٤ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ٤ ،ص ٧٠٧، ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٦٠،ابن اياس بدائع الزهور ،جـ٢،ص ١٠٣ .

(٥) انظر ص٢١٢– من هذا الفصل .

وينتقد ابن خلدون سياسة الدول فى اخذ المكوس بقوله :" اعلم أن الدولة اذا ضاقت جبايتها ... من الترف وكثرة العوائد والنفقات وقصر الحاصل من جبايتها على الوفاء بحاجاتها ونفقاتها ، واحتاجت الى مزيد من المال والجباية فتارة توضع المكوس على بياعات الرعايا واسواقهم .. وتارة بالزيادة فى القاب المكوس ان كان قد استحدث من قبل ، وتارة بمقاسمة العمال والجباة وامتكاك عظامهم لما يرون أنهم قد حصلوا على شىء طائل من أموال الجباية"(١) .

هذا وقد بلغ ما نقل الى الخزانة المملوكية من عشور التجار فى جدة سنة ٨٢٨هـ(٢) او سنة ٨٢٩هـ (٣) .... أكثر من سبعين ألف دينار سوى ما لم يحمل (٤).

وفى سنة ٨٢٩هـ أخذت العشور من التجار الهنود نقدا عن كل بالة من التوابل ثمانية افلورى وجهزت فى البحر الى القاهرة بعد رحيل الحاج (٥). كما فرضت الدولة المملوكية رسوما اخرى تؤخذ من التجار والحجاج فى بركة الحاج بعد اجبار التجار على السير من مكة الى مصر مباشرة لاخذ المكوس منهم هناك فكان هذا العمل مثار نقد المؤرخين " فان العادة لم تزل من قديم الدهر فى الجاهلية والاسلام أن الملوك تحمل الاموال الجزيلة الى مكة لتفرق فى اشرافها ومجاوريها فانعكست الحقائق وصار المال يحمل من مكة ويلزم اشرافها بحمله ومع ذلك فمنع التجار أن يسيروا فى الارض يبتغون من فضل الله وكلفوا أن يأتوا الى القاهرة حتى تؤخذ منهم المكوس على اموالهم."(٦)

---

(١) العبر ،جا ،ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٢٦٠، الجزيرى: درر الفوائد ،ص ٣٢٣ .

(٣) المقريزى:السلوك،ج٤،ص ٧٠٧-٧٠٨، ابن اياس : بدائع الزهور،ج٢ ،ص ١٠٣ .

(٤) المقريزى:نفس المصدر والجزء والصفحة ،ابن فهد : نفس المصدر والصفحة ابن اياس : نفس المصدر والجزء والصفحة ،الجزيرى : نفس المصدر والصفحة .

(٥) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٦٢ .

(٦) المقريزى: نفس المصدر ،ج٤ ،ص ٧٠٧-٧٠٨، ابن فهد: نفس المصدر ،ص ٣٦٠ .

وتأكيدا للتجار وتشديدا عليهم نودى فى مكة يوم عرفة سنة ٨٣٠هـ أن "كافة من اشترى بضاعة وسافر بها الى غير القاهرة حل دمه وماله للسلطان وتأخر التجار القادمون من الاقطار حتى ساروا مع الركب المصرى ليؤخذ منهم مكوس بضائعهم ثم اذا ساروا من القاهرة الى بلادهم من البصرة والكوفة والعراق اخذ منهم المكس ببلاد الشام وغيرها"(١) "فأصابتهم بذلك بلايا عديدة."(٢)

وفى سنة ٨٣١هـ وصل الى القاهرة من عشور تجار الهند بجدة صنفا ما تقدر قيمته بنحو خمسين ألف دينار(٣) هذا عدا ما بيع بمكة وجدة وماصرف على الحمول ونحوها .(٤)

وفى هذا العام سمح السلطان برسباى لتجار الشام بحمل متاجرهم الى بلادهم دون القدوم الى القاهرة بعد ان تشكو له لكنه رفع قيمة المكس، المفروض على بهارهم على غير المعهود ....."واصبح يؤخذ منهم بمكة عن كل حمل قل ثمنه او كثر ..... ثلاثة دنانير ونصف وان يعفوا عن حمل ما يقتضونه من جدة الى مصر فاذا حملوا ذلك الى دمشق اخذ منهم مكسها هناك على ما جرت به العادة"(٥)

غير ان السلطان برسباى لم يلبث أن قام سنة ٨٣٢هـ بالزام جميع التجار بالمسير الى القاهرة صحبة الركب المصرى وشددت المراقبة عليهم "بحيث لم

---

(١) المقريزى : السلوك ،ج٤ ،ص ٧٥٤-٧٥٥، ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٦٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ،ج١٤ ،ص ٣١٠ - ٣١١ ، الجزيرى : درر الفوائد ،ص ٣٢٥ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ،ص ٧٣٥ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ،ص ٧٦٥ .

(٤) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٦٧ .

(٥) المقريزى نفس المصدر والجزء ،ص ٧٦٨ ، ابن حجر : ابناء الغمر ج٣ ،ص ٤٠٠ ، ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ،ص ٣١٣ - ٣١٤ .

يقدر احدمنهم أن يتأخر بمكة ولا يتوجه الى الشام بل حضروا بأجمعهم واقيمت عليهم الاعوان فى طول الطريق بتفقدهم وبعد جمالهم حتى قدموا صحبة الحاج فحل بهم من البلاء ما لا يوصف." (١)

اما تجار الهند فقد اخذ منهم مباشروا جدة فى هذه السنة من كل صنف صنفة ومن كل بالة نصف افلورى وكتب ذلك بحجر من الرخام بالفرضة.(٢) ومن الملاحظ تخفيض قيمة الرسم الى درجة كبيرة عما كان مقررا منذ سنة ٨٢٩هـ لاغراء التجار بالاستمرار فى التعامل المباشر والوصول رأسا الى جدة ضمانا لزيادة المكاسب الضخمة التى تدفقت عليها وساعدت السلطات المملوكية على مواجهة مسئولياتها المالية والحربية .

ولكن يبدو أن الدولة لم تلتزم بخطتها ففى سنة ٨٣٧هـ ارسى جماعة من التجار بعدن بعد أن ضاقوا ذرعا بالتصرفات القاسية ضدهم فى جدة من احتكار وتحديد لاسعار البيع الى زيادة فى المكوس حيث يوءخذ منهم عشور بضائعهم بالاضافة الى رسوم اخرى مقررة للمشرفين على الجباية .(٣)

ولتحطيم المركز التجارى بعدن ومعاقبة التجار على ما فعلوه فرض المماليك سنة ٨٣٨هـ رسوما عالية على السفن التى تمر بعدن قبل وصولها الى جدة ورسوما مخفضة على السفن القاصدة لجدة رأسا وذلك "بألا يوءخذ من التجار الواردين الى جدة من الهنود سوى العشور ويوءخذ من تجار الشام ومصر اذا وردوا جدة ببضائع اليمن ضعف العشور اما من قدم الى جدة من التجار اليمنيين ببضاعة فتتم مصادرتها بأجمعها للسلطان من غير ثمن يدفع له عنها ." غير أن هذا المرسوم لم ينفذ لتدخل صاحب مكة الشريف بركات بن عجلان لدى السلطان برسباى حتى عفا عن التجار وأمر بالتسوية بين الجميع . (٤)

---

(١) المقريزى: السلوك، جـ٤ ،ص٧٩٤، ابن فهد: اتحاف الورى ،ص ٢٧٠، الجزيرى: درر الفوائد ص ٣٢٥ .

(٢) ابن فهد : نفس المصدر والصفحة .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ،ص ٩٢٩، ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٦٤ .

(٤) المقريزى: السلوك ،جـ٤ ، ص ٩٢٩-٩٣٠، ابن حجر : ابناء الغمر، جـ٣ ،ص ٥٣٩-٥٤٠ ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٧٤ - ٣٧٥ .

هذا وقد كانت سياسة المماليك الضرائبية محل نقد وانكار من بعض معاصريهم من الملوك مثل سلاطين آل عثمان وخاصة السلطان با يزيد " الذى كان ينكر على ملوك عصره تقاعدهم عن الجهاد وأخذهم المكوس" (١) أما القان شاه رخ ملك المشرق فقد وصل الامر به الى ان كتب للسلطان برسباى يرعد ويبرق وينكر عليه أخذ الرشوة من القضاة (٢) وأخذه المكوس من التجار ببندر جدة وتعاطيه نوع المتجر (٣) ويبدو أن شاه رخ قصد من وراء ذلك اشارة الشعب والتجار على السلطان برسباى بعد منعه له من كسوة الكعبة .

وفى سنة ٨٣٩هـ طلب السلطان جماعة من أعيان التجار بدمشق الى القاهرة وانكر عليهم حملهم التوابل من الحجاز الى دمشق مباشرة وقد تقدم مرسوم السلطان بالنهى عن ذلك - " وختم على حواصلهم بالقاهرة وغيرها - ثم افرج لهم عنها بعد ما صالحوا ناظر الخاص بمال قاموا به " (٤) .

وأراد السلطان جقمق سنة ٨٤٣هـ أن تكون تصرفاته فى أمر جدة وأخذ عشور التجار بها على مقتضى فتاوى أهل العلم فنمق بعض الفقهاء سؤالا على غرض السلطان يتضمن " ان التجار الواردين الى مكة من الهند والصين كانوا يردون ، الى عدن من بلاد اليمن فيظلمون بأخذ اكثر أموالهم وأنهم رغبوا فى القدوم الى جدة ليحتموا بالسلطان وسألوا أن يدفعوا عشر اموالهم ، فهل يجوز أخذ ذلك منهم؟ فان السلطان يحتاج الى صرف مال كثير فى عسكر يبعثه الى مكة فى كل سنة فكتب القضاة الاربعة بالقاهرة بجواز أخذه وصرفه فى المصالح (٥)

---

(١) " بايزيد بن عثمان من اكبر ملوك الاسلام وأتمهم يقينا وأكثرهم غزوا فى الكفار قتله تيمورلنك سنة ٨٠٥هـ، ابن حجر : ابناء الغمر، جـ٢ ، ص ٢٢٥ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ١٤ ، ص ٥٩ .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ٤ ، ص ٩٤٦ ، ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) المقريزى : السلوك ، جـ٤ ، ص ٩٦٥ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ١٥ ، ص ٣٣٨ - ٣٣٩ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٨٥ .

فقرئت الفتوى بالحرم الشريف بحضور القضاة والاعيان على رؤس الاشهـاد فانطلقت الالسنة بالوقيعة فى القضاة وانهم اعتادوا اتباع أهواء الملوك خوفا على مناصبهم أن يعزلوا منها وأى فرق بين ما يؤخذ من أموال التجار الواردين الى جدة وبين ما يؤخذ بالاسكندرية ،وما يؤخذ بالقاهرة ومصر ودمشق وسائر بلاد الشام من الناس عند بيعهم العبيد والاماء والخيل والبغال والحمير والجمال وما يؤخذ بقطيا من التجار الواردين من بلاد الشام والعراق [1] فكل احد يعلم أن هذا كله مكس لا يحل تناوله ولا الاكل منه وأن الاكل منه فاسق لا تقبل شهادته لسقوط عدالته ولكن الهوى يعمى ويصم ".[2]

وهكذا نجد انه فى الوقت الذى أيد فيه قضاة القاهرة السلطان وأفتوا بجواز اخذ المكس تورع قضاة مكة عن بيع ذممهم للسلطان وأبدوا تبرمهم من السياسة الضرائبية لسلاطين المماليك ... ووقفوا الى جانب التجار الذين ظلموا بأخذ أكثر ا موالهم .

وفى السنة نفسها ارسل السلطان الى مكة مرسوما يتضمن أن يؤخذ من التجار الواردين فى البحر الى جدة ١٠٪ فقط وان تكون صنفا وان يبطل ما كان يؤخذ من رسوم المباشرين ونحوهم [3] . " فكان هذا من جميل ما فعل"[4]

غير ان شريف مكة قد قام على ما يبدو بزيادة الرسوم وعدد وجوهها فى سنة ٨٥٠هـ وصل مرسوم الى مكة من السلطان المملوكى يأمر فيه بازالة المكوس التى احدثها شريف مكة أبو القاسم بن حسن بن عجلان على التجار[5].

---

(١) هذه اشارة الى كثرة الضرائب والرسوم التى كانت تجبى من التجار فى المراكز المتعددة التى تمر بها تجارتهم .

(٢) المقريزى:السلوك،ج٤ ،ص ١١٨٧-١١٨٨، ابن فهد: اتحاف الورى،ص ٣٨٥-٣٨٦ .

(٣) المقريزى:نفس المصدر والجزء ،ص ١١٩٣، ابن فهد: نفس المصدر ،ص ٣٨٥ ،الجزيرى درر الفوائد ،ص ٣٢٨ .

(٤) المقريزى: نفس المصدر والجزء والصفحة ،ابن فهد: نفس المصدر والصفحة .

(٥) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٤٠٣ .

وفى سنة ٨٥٥هـ صدر امر السلطان بابطال مكس بجيلة وان يكتب بذلك ويلصق بباب المعلاة [١] كما ابطلت جميع المكوس بمكة سنة ٨٧٢هـ وكتب ذلك على اسطوانة من اساطين الحرم بباب السلام [٢] وواضح ان هذه المكوس غير التى كانت تجبى فى جدة من التجار القادمين اليها من الهند فهذه الاخيرة ظلت حتى نهاية العصر المملوكى بدليل استمرار وصول المباشرين فى كل عام من مصر واخذهم العشور والعودة بها الى الخزانة المملوكية وقد زادت المكوس التجارية على بعض السلع الى ١٥٪ من اثمانها وفى اواخر العصور الوسطى بلغت حوالى ٣٥٪ من ثمن السلعة [٣].

ويبدو أن قدوم التجار والحجاج بمتاجرهم من طريق البحر جعل استخلاص المكوس منهم اكثر دقة ......ففى سنة ٩١٥هـ اصدر شريف مكة امرا الى نوابه بمنع حجاج اليمن من السير فى البر لانه بلغه انهم فى العام الماضى دخلوا من ناحية البر بمعشر كثير لم يطلع عليه ففاتته الفائدة .[٤]

والواقع ان جباية المكوس فى جدة كثيرا ما كان يداخلها الظلم والقسوة وارهاق التجار بالرسوم الاضافية وحملهم على دفع الرشاوى للمشرفين على تحصيل المكوس [٥] . " فالفرضة كالمحشر فيه المناقشة والمحاسبة والوزن والعدد فان كان رابحا طاب قلبه وان كان خاسرا اغتم [٦]" ووصلت المظالم الى درجة جعلت التجار يتحولون فى فترة من الفترات الى عدن [٧] وكانوا

---

(١) ابن فهد: نفس المصدر ،ص ٤١٠ .
(٢) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٤٣٦، الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ص ٨١ .
(٣) ابن اياس : بدائع الزهور،ج٢ ،ص ١٠٣،ج٤ ،ص ٢٨٦ - ٢٨٧ ،نعيم زكى فهمى: طرق التجارة ص .
(٤) ابن الديبع : قرة العيون ،ق ٢ ص ٢١٣ .
(٥) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٤٠٠ .
(٦) ابو مخرمة : تاريخ ثغر عدن ،ج١ ،ص ٤٨ .
(٧) المقريزى : السلوك ،ج٤،ص ٧٩١ .

احيانا يتوجهون الى شريف مكة للتدخل لدى السلطات المملوكية فى التخفيف[1] وكان الظلم يبلغ اقصاه اذا اعلن التجار شكواهم وتظلمهم علــى روؤس الاشهاد فعندئذ كانوا يتعرضون للاهانة ويعذبون بأشد انواع العذاب .[2]

ويبدو أن الامر وصل الى الحد الذى لا يمكن السكوت عليه فرفع التجار امرهم الىالسلطان بمصر مباشرة فتوالت المراسيم من السلطان آل باى ،ثم من السلطان تمربغا ثم السلطان خشقدم وكلها تأمر باسقاط المظالم ببندر جدة ورعاية مصالح التجار .[3]

وبسبب الظروفالصعبة التى واجهت الدولة فى القرنالعاشر جار نائب جدةعلى التجار فىامر العشر وظلم الناس قاطبة حتى ضجوا [4] واعتقـــد ان موقف الدولة فى اخذ المال فى هذا الوقت لا غبار عليه فالعدو قد هـــدد سلامة البلاد واستوجب الوضع ان تأخذ الدولة من اموال الناس والاغنيـــاء ما تدفع به الخطر وهناك قاعدة عند الاصوليين تقول :" انه يجب دفع الضرر الاعلى بتحمل الضرر الادنى من باب سد الذرائع وليس هناك شك فى ان التجار المسلمين لا يمكن أن يقفوا مكتوفى الايدى وهم يعلمون الخطر المحدق بالديار المقدسة فالمسلمون تتكافأ دماؤهم واموالهم والمؤمن للمؤمن كالبنيـــان يشد بعضه بعضا .[5] والله سبحانه وتعالى وعد المنفقين فى سبيله خيرا فى آيات عديدة فى كتابه العزيز . ولكن لعل القسوة فى طريقة الجبايـــة واظهار الفتك والتعالى والعظمة من قبل نائب جدة مع التجار .. بالاضافـــة الى هول الموقف ،كل ذلك جعل التجار والناس كافة يضجون باعلان سخطهـــم وتذمرهم .[6]

---

(١) ابن حجر : ابناء الغمر ،جـ٣ ،ص ٥٣٩ .

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .

(٣) ابن فهد: نفس المصدر ،ص ٤٣٦ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور جـ٤ ،ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٥) ابن حنبل : نفس المصدر ،المجلد الرابع ،ص ٤٠٥ ،٤٠٩ .

(٦) ابن اياس : بدائع الزهور ،جـ٤ ،ص ٢٨٧ .

والمسألة الجوهرية التي ينبغي بحثها هي اين كانت تذهب هذه المكوس؟ ومن كان المستفيد من تحصيلها؟.... وتجدر الاشارة الى انه طيلة العصر المملوكي اذا استثنينا فترة الازدهار التجاري في جدة ،كان صاحب مكة ينفرد بأخذ المكوس والاستفادة منها وكان يحصل من الاموال ما لا يحصى ويصرفها في نفسه وخاصته وما تتطلبه الامارة من نفقات ومحافظة على استقرار الاحوال كما كانت هدفا لامراء مكة المتنازعين على السلطة . (١)

اما الدولة المملوكية في تلك الحقبة ... فقد كانت في أوج قوتها وعظمتها ولم تكن بحاجة الى عشور التجار في الحجاز نظرا لنجاح نظام الاقطاع المعتمد على الزراعة في سد احتياجات الدولة من الموارد المالية ومن ثم فالدولة كانت حريصة مخلصة في توكيد النشاط التجاري في مكة وحث أمرائها على عدم التعرض للتجار ومساعدة الامراء مساعدة مادية لتحقيق هذا الغرض حتى يزداد أقبال التجار بتجاراتهم للوصول الى مكة فيتحقق بذلك الازدهار الاقتصادي في هذا البلد الامين . (٢)

وحتى بعد أن اتضح الكيان التجاري لجدة واصبحت تدر اموالا جمة على امارة مكة ظلت الاستفادة من العوائد التجارية قاصرة على امراء مكة حتى عام ٨٢٧هـ (٣) حين رأت الدولة انه من الافضل استثمار هذا المورد الجديد في تغطية جزء من نفقاتها وخاصة ان مكة وجدة كانتا تابعتين للدولة بل كان الحجاز كله تابعا لها . ثم ان ذلك لم يكن يوءثر على دخل امراء مكة فقد كانوا يجنون أرباحا طائلة من جباية المكوس على القوافل التجارية المارة بمكة وخاصة المتاجر القادمة من اليمن وقد بلغ هوءلاء

---

(١) الفاسي:العقدالثمين،ج٣،ص ٣٩٦، ٤٠١،ج٤،ص ٩٠-٩١، ١٠١، ١٠٣، ١٠٩، ١٢٠، ١٢٢،ج٦ ص ٦١ .

(٢) الفاسي : نفس المصدر ،ج٤ ،ص ٨٧-٨٨، المقريزي : السلوك،ج١ ،ص ٧٠٦-٧٠٧ ابن حجر: ابناء الغمر،ج١ ،ص ٣٩٣، ٥٠٨،السنجاري:منائح الكرم ،ج١،ص ٣٠١ .

(٣) ابن حجر : ابناء الغمر ،ج٣ ،ص ٣٢٦ .

الامراء من الشراء الى درجة جعلت سلاطين المماليك يلزمونهم بمبالغ من المال تدفع كل عام للمساهمة فى تغطية احتياجات الدولة من الاموال ويلزمونهم ايضا بعدم التعرض لما يوءخذ من عشور بضائع التجار الواصلة من الهند(١)

وبطبيعة الحال لم يرض هذا الوضع اشراف مكة الذين اعتادوا أخذ المكوس والانفراد بها فتوجه بنو عجلان سنة ٨٣٠هـ الى نائب جدة من قبل سلاطين المماليك وطالبوه بأخذ العشور التى اعتادوا أخذها أيام أبيهم ووصل الامر الى اخراج تجريدة عسكرية لتقوية شاد جدة وحفظ الاموال فيها .(٢)

ثم أن السلطان المملوكى لم يلبث أن أنعم على شريف مكة سنة ٨٣٢هـ ، بثلث متحصل المراكب القادمة من الهند وحمل الثلثين الباقيين الى الخزانة المملوكية على العادة فحصل لصاحب مكة السرور وزينت الاسواق (٣) ويبدو أنه أراد بعمله هذا كسب شريف مكة الى جانبه حتى يعينه فى تتبع التجار فى مكة فلا يتأخر احد منهم بعد الزامهم بالذهاب مباشرة الى مصر لاخذ المكوس التى تعددت جباياتها .(٤) ولم يلبث أن أنعم عليه سنة ٨٤٠هـ بنصف عشور مراكب التجار الهنود (٥) غير ان المراسيم وردت سنة ٨٤٣هـ وهى تتضمن أن جميع الجلاب الواصلة فى البحر الرجدة من سائر البلاد ليس لصاحب مكة منها الا الربع وان الثلاثة أرباع لصاحب مصر .(٦)

---

(١) المقريزى : السلوك جـ٤ ،ص ٧٠٦، ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٦٠ - ٣٦١، الجزيرى : درر الفوائد، ص ٣٢٤.
يذكر بعض الموءرخين أن التزام اشراف مكة بالمال وللسلطان يقابله عدم تعرض السلطان لما يوءخذ من العشور فى جدة وان هذه العشور لصاحب مكة ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٤ ،ص ٢٩٨، ابن اياس: بدائع الزهور جـ٢، ص ١٠٧.

(٢) المقريزى: نفس المصدر والجزء، ص ٧٨٠-٧٨١، ابن فهد: نفس المصدر ،ص ٣٦٤.

(٣) ابن فهد: اتحاف الورى، ص ٣٦٨، السنجارى: منائح الكرم ،جـ٢ ،ص ٣

(٤) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٧٠ .

(٥) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٧٦- ٣٧٧ ، السنجارى: نفس المصدر والجزء ،ص ٤ ، الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ،ص ٦٨ .

(٦) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٨٥ .

اما مكوس التجارة الواردة برا الى مكة من اليمن فقد ظلت من نصيب شريف مكة حتى عام ٨٨١هـ حين قرر السلطان مشاركته بالنصف فى عشورها "ولم يجر بذلك عادة فان ذلك كان مما يختص به الشريف دون غيره" (١) . ثم صدرت المراسيم سنة ٨٨٦هـ بالانعام على صاحب مكة بجميع عشورات المتاجر اليمنية وابطال ما قرر سابقا . (٢)

ومما سبق يتضح أن عشور التجارة فى جدة فى عصرها الذهبى قد شكلت جزءا ضخما من موارد الدولة وخاصة بعد أن اصبحت التجارة هى المصدر الاساسى للدخل كما استهدفت سياستها رفع الرسوم التجارية على السفن المجوزة بعدن لغرض الضغط السياسى والاقتصادى عليها مع المحافظة على بروز جدة لتستمر فى آداء دورها الجديد دعما للاقتصاد المملوكى بعد تطور المصالح التجارية مع الهند والصين .

الا أن تطورات الامور العسكرية والمشكلات المالية لم تجعلها تتبع خطة ضرائبية ثابتة فأدى ذلك الى تبرم التجار وسخط المعاصرين وتذمرهم من السياسة المملوكية واستمرت هذه المكوس حتى نهاية العصر المملوكى على الرغم من تحريم ذلك شرعا يقول الماوردى :" وأما أعشار الاموال المتنقلة فى دار الاسلام من بلد الى بلد فمحرمة لا يبيحها شرع ولا يسوغها اجتهاد ولا هى من سياسات العدل ولا من قضايا النصفة وقلما تكون الا فى البلاد الجائرة" (٣)

المعاملات التجارية :-

استمد التجار المسلمون نظم معاملاتهم من احكام الشريعة الاسلامية التى نظمت الجانب الاقتصادى وشجعت ألوان التجارة الخالية من الربا والخداع قال تعالى :" واحل الله البيع وحرم الربا " (٤) وقال عليه الصلاة والسلام

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٤٤٧، الجزيرى : درر الفوائد ،ص ٣٣٨، السنجارى نفس المصدر والجزء ،ص ١٢ .
(٢) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٤٥٤ .
(٣) الماوردى : الاحكام السلطانية ،ص ٢٠٨ .
(٤) سورة البقرة : آية ٢٧٥ .

" البيعان بالخيار ما لم يتفرقا أو قال حتى يتفرقا فان صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما وان كتما وكذبا محقت بركة بيعهما " [١] والتجارة وان كانت ممدوحة باعتبار كونها من المكاسب الحلال قد تذم اذا قدمت على مايجب تقديمه من الحقوق قال عز وجل :" واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وتركوك قائما ،قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة" [٢] وقال عز وجل : " رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله " [٣] وقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على السماحة فى المعاملة واستعمال معالى الاخلاق وترك المشاحنة والتضييق على الناس فى المطالبة وحض على اخذ العفو منهم فقد روى عنه أنه قال : " رحم الله رجلا سمحا اذا باع واذا اشترى واذا اقتضى" [٤] وقال : " يا معشر التجار ان البيع يحضره اللغو ... والحلف فشوبوه بالصدقة" [٥]

والتجارة اسم يقع على البيع والشراء [٦] وهى فى اللغة اعطاء شىء فى مقابله شىء آخر وفى الشرع مقابلة مال بمال قابلين للتصرف بايجاب وقبول واركانه ثلاثة عاقد ومعقود عليه وصيغة فالعاقد يشمل البائع والمشترى والمعقود عليه هو المبيع ، والصيغة هى الايجاب والقبول .[٧]

وقد وضع ابن خلدون تحديدا دقيقا للتجارة بقوله :" واعلم ان التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء أيا ما كانت السلعة من دقيق أو زرع أو حيوان أو قماش وذلك القدر النامى يسمى ربحا فالمحاولة لذلك الربح اما ان يختزن السلعة ويتحين بها حوالة الاسواق من

---

(١) صحيح البخارى : ج٣ ،ص ١١ .
(٢) سورة الجمعة : آية ١١ .
(٣) سورة النور : آية ٣٧ .
(٤) ابن حنبل : المسند، المجلد الثانى ،ص ٢٢٠ ،صحيح البخارى ،ج٣ ،ص ٩، ابن حجر : فتح البارى ج٤ ،ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .
(٥) ابو داود : السنن ،ج٣ ،ص ٢٤٢ .
(٦) العينى : عمدة القارى ،ج١١ ،ص ١٧٤ .
(٧) احمد عيسى عاشور : الفقة الميسر فى العبادات والمعاملات ،ط٤ ، القاهرة ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م ،ص ٢٠٩ .

الرخص الالغلاء فيعظم ربحه ، واما بان ينقله الى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة اكثر من بلده الذى اشتراها فيه فيعظم ربحه ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة انا أعلمها لك فى كلمتين :اشتراء الرخيص وبيع الغالى ".[١]

المقايضة :ـ

المقايضة بمعناها التقليدى هى " مبادلة كمية من السلع بكمية سلع اخرى بحيث تكون الكميتان متساويتين فى القيمة .. ولا شك أن طريقة التعامل هذه قديمة قدم التاريخ فقد كانت أول مظهر من مظاهر التجارة قبل اختراع النقود وما تزال مستخدمة حتى وقتنا الحاضر .

وتلجأ الدول فى الوقت الحاضر الى سياسة المقايضة أو ما يعرف بالتبادل التجارى بحكم الضرورة فى الحالات التى تندر بها العملة او يقل المتاح لها من التسهيلات الائتمانية اذا لم تكن الدولة المستوردة قادرة على سداد ثمن ماتشتريه من سلع بعملة الدولة البائعة .[٢] وهذا ما حدث اواخر القرن التاسع الهجرى ـ الخامس عشر الميلادى بعد ظهور ازمة الذهب وندرة العملة الذهبية ومع اشتداد الطلب الاوربى على التوابل والسلع الشرقية لجأت المدن التجارية الايطالية الى عقد المعاهدات مع الدولة المملوكية على اساس ان تكون المقايضة هى طريقة التعامل التجارى بينهم [٣].

اما فى مكة فقد اتسع نطاق المقايضة مع اهل السراة وبجيلة الذين يجلبون الحبوب والسمن والعسل والزبيب والزيت واللوز [٤] ويأخذون بدلا منها الخرق والعباءات والشمل والامتعة والملاحف المتان وما يشابه ذلك مما يلبسه الاعراب .[٥]

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ج١ ،ص ٣٣٠ .

(٢) محمود عساف ،طلعت اسعد عبد الحميد ، ادارة الاستيراد والتصدير ،ط٢ ، ١٩٨١م ،ص ٧٥ ـ ٧٦ .

(٣) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة ،ص ٣٦١ ـ ٣٦٤ .

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ،ص ١٥٩ـ١٦٠ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ،ص ١١٠ـ١١١ .

والصعوبة التيتواجه نظام المقايضة عند تطبيقه تتمثل فى تحديد الاثمان بالدقة والعدالة الواجبة فقد يتعرض احد طرفى العملية للخسارة وذلك لعدم تساوى قيمة السلعة المتبادلة فتكون النتيجة فى بعض الاحيان محاولة الرجوع فى المقايضة .

ويعد نظام المقايضة فى التجارة غرما لا غنم فيه وانما يلجأ اليه التجار لقصور العملة الذهبية والفضية عن الوفاء بأثمان السلع وخصوصا البسيطة منها فبدلا من تكدسها لدى التجار تكون المقايضة خير وسيلة للتعامل التجارى فى هذه الحالة .(١)

وقد حرم الاسلام المقايضة فى السلع التى تكون من جنس واحد أو صنف واحد وعدها من البيوع المحرمة وفى حالة التعامل بها قيدها بقيود فقال صلى الله عليه وسلم : " الذهب بالذهب ربا الا هاء وهاء (٢) والبر بالبر ربا الا هاء وهاء والشعير بالشعير ربا الا هاء وهاء ،والتمر بالتمر ربا الا هاء وهاء وثبت عنه قوله عليه الصلاة والسلام : " لا تبيعوا الذهب بالذهب الا سواء بسواء (٣) ولا الفضة بالفضة الا سواء بسواء وبيعوا الذهب بالفضة والفضة بالذهب كيف شئتم (٤) والبيع المرخص به فى هذه الحالة كما جاء فىالحديث هو التقابض فى المجلس قبل التفرق منه وان يكون العوضان متماثلين متساويين فىالوزن .(٥)

---

(١) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة ،ص ٣٦٣ .

(٢) المقصود من قوله هاء ... وهاء - يعنى خذ وهات .

(٣) المقصود من قوله سواء ..بسواء - اى مثل بمثل ووزنا بوزن .

(٤) ابن حنبل : المسند ج ٢ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ،صحيح البخارى : ج ٣ ،ص ٣٠ .

(٥) العينى : عمدة القارى ، ج ١١ ،ص ٢٥٢ .

أنـــــــــواع الشركات :-

كان التوسع التجارى فى العصور الوسطى وازدياد حركة التبادل بيـــن الشرق والغرب اثره فى بروز نظام الشركات التجارية لاستثمار الاموال وتنميتها والشركة فى اللغة : الاختلاط ،وفى الشرع : اجتماع فى استحقاق أو تصرف لشخصين فأكثر على جهة الشيوع(١) وهى من العقود اللازمة بمعنى أنه يجوز لكل مـــن العاقدين أن يستقل بفسخها ودون توقف على رضا المتعاقد الآخر (٢) وفى الشركة خير وبركة اذا قامت على الصدق والامانة والاصل فيها ما جاء فى الحديث القدسى " ان الله يقول : انا ثالث الشريكين ما لم يخن احدهما صاحبه فاذا خانــه خرجت من بينهما .(٣)

ومن انواع الشركات المتعامل بها فى مكة :-

شركة القـــــــــراض او المضاربة :-

القراض أو المضاربة بمعنى واحد والقراض مشتق من القرض هو القطـــع لان المالك قطع قطعة من ماله ليتجر فيها و قطعة من ربحه (٤). والمضاربـــة مشتقة من الضرب فى الارض وهو السفر للتجارة (٥)قال الله تعالى : " وآخـــرون يضربون فى الارض يبتغون من فضل الله " .(٦)

والمضاربة فى الفقة الاسلامى : عقد بين مالك رأس المال والمستثمر أوالتاجر على القيام بتجارة يكون رأسمالها من الاول والعمل من الآخر ،ويحدد الشريكـــان حصة كل منهما من الربح كالنصف او الثلث او الربع فان ربحت تجارتهما تقاسمـــا

(١) احمد عيسى عاشور : الفقه الميسر ،ص ٢٢٨ .
(٢) حسين حامد حسان : المدخل لدراسة الفقه الاسلامى ،ط٢، القاهرة ١٩٧٩م ،ص ٤٥٢.
(٣) ابو داود : السنن، المجلد الثانى ،ج٣ ،ص ٢٥٦ .
(٤) احمد عيسى عاشور : الفقه الميسر ،ص ٢٣٧ .
(٥) البهوتى : منصور بن يونس ، الروض المربع بشرح زاد المستنقع مختصر المقنع فى فقه امام السنة احمد بن حنبل الشبانى ط٦،" مكان وتاريخ النشر بدون " ج٢ ،ص ٢١٠ .
(٦) ســــــــورة المزمل : آية ٢٠ .

الربح المنصوص عليه فىالعقد وان ظل رأس المال كما هو لم يزد ولم ينقص لم يكن لصاحب المال الا رأس ماله اما التاجر فليس له شئ وان خسرت الشركة وضاع جزء من رأس المال أو كله فالخسارة على صاحب المال (١)" ولا يجوز تحميل العامل او التاجر المستثمر وجعله ضامنا لرأس المال الا بأن تتحول العملية الى اقراض من صاحب رأس المال للعامل وحينئذ لا يستحق صاحب رأس المال شيئا من الربح (٢) اما اذا كان الربح كله لصاحب المال والخسارة عليه فالشريك بالجهد أجير وهو وكيل لصاحب رأس المال بالاجر ، وفى هذه الحالة لا تعد الشركة مقارضة ولا مضاربة (٣) .

والاصل فى عقد الشركة انه صلى الله عليه وسلم ضارب لخديجة رضى الله عنها بمالها فى تجارة الى بلاد الشام فقد كانت رضى الله عنها من نساء قريش التاجرات اللاتى لهن نشاط فى ارسال القوافل الى الشام وغيرها . (٤)

وهناك شروط لابد منها لصحة عقد هذه الشركة وهى :-

اولا : أن يكون رأس المال من النقديين المضروبين فلا يجوز على حلى ولا على عروض التجارة .

ثانيا : أن لا يضيق على العامل فى البيع والشراء حتى لا يؤدى الى فوات مقصود الشركة فقد يجد شيئا يربح والزامه بمراجعة صاحب المال يؤدى الى فوات المقصود وهو الربح .

ثالثا : ان يكون الربح بينهما مشتركا فيأخذ هذا بعمله وذلك بماله .

---

(١) الجزيرى : الفقة على المذاهب الاربعة ، القاهرة ، ١٩٣٥م ، جـ٣ ، ص ٤٣ ، محمد باقر الصدر : البنك اللا ربوى فى الاسلام ، اطروحة للتعويض عن الربا ، ودراسة لكافة اوجه نشاطات البنوك فى ضوء الفقة الاسلامى ، ط٧ ، بيروت ، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م ، ص ٢٥ .

(٢) محمد باقر الصدر : البنك اللاربوى ، ص ٢٥ .

(٣) الجزيرى : الفقه على المذاهب الاربعة ، جـ٣ ، ص ٤٣ .

(٤) ابو الحسن الندوى : السيرة النبوية ، ص ٧٧ ، ٩٤ ، احمد عيسى عاشور : الفقه الميسر ، ص ٢٣٧ .

رابعا : ان يكون الربح معلوما بالجزئية كالنصف والربع والثلث والسدس وخلافة ولا يجوز لاحدهما جزء مجهول او دراهم معينة فلو اشترط العامل قدرا معلوما كمائة مثلا فسد العقد لان الربح قد ينحصر فى المئة فيختص العامل به وهو خلاف مقصود العقد .

خامسا : ان لا يقدر العقد بمدة معينة لان الربح ليس له وقت معلوم وربما لا يربح العامل فى هذه المدة كما انه عقد جائز يستطيع احد طرفيه الانسحاب متى شاء .

سادسا: ان لا يحدد الربح بمدة فلا يجوز لاحدهما ربح السفرتين او ربح تجارة فى شهر او عام بعينة لان ذلك يفضى الى الجهالة فقد يربح فى الاول ويخسر فى الثانى فيختص احدهما بالربح او الخسارة وهذا مخالف للعقد .

سابعا: لا يجوز للتاجر المستثمر ان ينفق من رأس المال لان النفقة قد تكون قدر الربح فيفوز به دون صاحب المال ولا سيما ان له جعلا معلوما فلا يستحق معه شيئا وليس له أن يسافر بغير اذن مالك رأس المال . (١)

ويعد عقد القراض أو المضاربة فى أوله وكالة وبعد ظهور الربح شركة وكلاهما عقد جائز ورأس المال أمانة لدى التاجر (٢) فان تلف كله أو بعضة قبل التصرف انفسخ العقد وإن تلف بعد التصرف جبر من الربح لانه دار فى التجارة وشرع فيما قصد بالعقد من الاعمال المؤدية الى الربح" ويقبل قول العامل فيما يدعيه من هلاك وخسران ومايذكر أنه اشتراه لنفسه أو للمضاربة لانه أمين " . (٣)

---

(١) احمد عيسى عاشور : الفقه الميسر ،ص ٢٣٧ – ٢٣٨ .

(٢) احمد عيسى عاشور : نفس المرجع ،ص ٢٣٩ .

(٣) البهوى : الروض المربع ، ص ٢١١ .

وتخبرنا وثائق الجنيزة أن هذا التاجر عند وصوله الى بلده أو ميناء كان يقوم بمراجعة حساباته لمعرفة أرباحه وخسائره ونصيب كل شريك ثم يبعث هذه المعلومات الى شريكه ويبادل الرسائل معه ليعرف رضاه من عدمه وفى وثيقة من وثائق الجنيزة خاصة بنقل شحنة من البضائع ارسلت من مصر الى جدة اتفق فى بداية الامر على أن نفقات شحن البضائع يتحملها التاجر لا الشريك الممول وفى نهاية الوثيقة تغير هذا الشرط الى أن يتحمل كل من الطرفين هذه النفقات مناصفة .(١)

شركة العنان

سميت بذلك لتساوى الشريكين فى المال والتصرف والفسخ واستحقاق الربح على قدر المال كاستواء طرفى عنان الدابة (٢) او كالفارسين اذا سويا بين فرسيهما وتساويا فى السير .(٣)

وشركة العنان نظام اسلامى يشترك فيه تاجران أو أكثر فى تمويل التجارة برأس ماليهما ويشتركان فى الادارة والسفر والاقامة بمعنى الاشتراك بالمال والجهد ويجوز أن يتاجر فى رأس المال احدهما على أن يكون له من الربح اكثر من ربح ماله فان كان بدونه لم يصح (٤) والاجماع منعقد على صحة هذه الشركة (٥)

أما شروط هذه الشركة فتتلخص فى عدة امور ....

---

(١) حسنين محمد ربيع : وثائق الجنيزة ،ص ١٣٥ .

(٢) احمد عيسى عاشور : الفقه الميسر ،ص ٢٢٩ .

(٣) البهوتى : نفس المصدر ، ج٢ ،ص ٢١١ .

(٤) البهوتى : نفس المصدر ج٢ ،ص ٢٠٩ .

(٥) احمد عيسى عاشور : نفس المرجع ،ص ٢٢٩ .

أولا : ان يكون رأس المال من النقدين المضروبين لانهما قيم الاموال واثمان البياعات [١] أو يكون على مثلي لان المثلي اذا اختلط بجنسه ارتفع التمييز .. فأشبه النقدين فتصح مثلا في القمح والشعير ونحوهما.. ولا تصح في العروض كالعقارات ونحوها لعدم تصور الخلط النافي للتمييز [٢].

ثانيا : الاذن منهما في التصرف وتصرف الشريك كتصرف الوكيل [٣]... "فلكل منهما أن يبيع ويشتري ويقبض ويطالب بالدين ويخاصم فيه ويحيل ويحتال ويرد بالعيب ويفعل كل ما هو من مصلحة تجارتهما " . [٤]

ثالثا : ان يكون الربح جزءا معلوما مشاعا على قدر المالين ولو اشترط التساوي في الربح والخسارة مع تفاضل المالين فسد العقد . [٥]

وعقد الشركة بين الشريكين غير ملزم فيستطيع أحدهما الانسحاب من الشركة بعد حصوله على حقوقه ولكل منهما عزل شريكه والموت والجنون يفسخان الشركة ... وكل منهما أمين على ما تحت يديه من تجارة [٦]

وهذا النوع من الشركات انتفع به التجار في مكة ومن امثلة ذلك ان احد التجار في مكة اشترك مع تاجر آخر ... ثم انفصلا والسبب ان الاول سافر في بعض السنين بمال مشترك بينهما فربحا فيه بحيث صار لكل منهما مائة ألف فاقتضى رأي الاخر ترك السفر والقناعة بربح التجارة المحلية واختلف مع شريكه فانفسخ عقد الشركة بينهما .[٧]

---

(١) البهوتي : الروض المربع ،ج٢ ،ص ٢٠٩ .
(٢) احمد عيسى عاشور : الفقه الميسر ،ص ٢٢٩ .
(٣) احمد عيسى عاشور : نفس المرجع ، ،ص ٢٣٠ .
(٤) البهوتي : نفس المصدر ،ج٢ ،ص ٢١٠ .
(٥) احمد عيسى عاشور : نفس المرجع ،ص ٢٣٠ .
(٦) احمد عيسى عاشور : نفس المرجع والصفحة .
(٧) الفاسي : العقد الثمين ،جه ،ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .

المعـــــــــــــــــاملات الربوية :ـ

من انواع التجارة التى حرمها الاسلام تحريما قاطعا الربا واصله الزيادة .. قال الله تعالى :" ذلك بانهم قالوا انما البيع مثل الربا واحل اللـــــه البيع وحرم الربا " .(١) وجاء فى تفسير قوله تعالى " يا أيها الذين آمنـوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة " (٢) كان الربا فى الجاهلية أن يكـــــون للرجل على الرجل حق الى أجل فاذا حل قال : " اتقضى أم تربى ؟.. فان قضاه أخذ والا زاده حقه وزاده فى الاجل وهكذا كل عام فربما تضاعف القليل حتـــى يصير كثيرا . (٣)

ومن المؤسف أن نجد فى مكة تجارا يتعاطون الربا سواء أكانوا مـــــن اهلها أم من المجاورين فكان هؤلاء التجار يطالبون الفقراء وغيرهم ممـــــن تضطرهم الحاجة الى الدين بفائدة كبيرة أثقلت كاهلهم وأرهقتهم وهم قليلون ولله الحمد فالمسلمون حريصون على اتباع شرع الله فى معاملاتهم وبيوعهـــــم غير ان لكل قاعدة شواذ .

ومن هؤلاء الشواذ التاجر المكى محمد بن حسب الله الزعيم المتوفـــى سنة ٧٨٣هـ كان واسع الثراء ويقال ان تركته بلغت ثلاثمائة ألف ألف وقيـــل ثمانمائة ألف ألف ومائتى درهم وقيل ثلاثمائة ألف ألف وستمائة الف درهم (٤) ويشير مصدر آخر الى ان ما ضبط من ماله بعده اكثر من عشرين ألف دينـــار سوى ما يخفى . (٥)

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٧٥ .
(٢) سورة آل عمران : آية ١٣٠ .
(٣) ابن كثير : " تفسير القرآن العظيم " ،ج ١،ص ٤٠٤ ،ابن حجـــر: فتـــح الباري ،ج٤ ،ص ٣١٣ .
(٤) الفاسى : العقد الثمين ،ج١ ،ص ٤٥٥ .
(٥) ابن حجر : ابناء الغمر ،ج١ ،ص ١٢٥ .

وكان مشهورا بمعرفة التجارة ولكنه كثير الربا لا يبالي في اعطـاء المال على وجه السلف بالفائدة .[١]

ومنهم نزيل مكة محمد بن احمد بن عثمان التونسي المتوفي سنة ٨١٩هـ ، كانت له دنيا واسعة فأذهبها بتسليفها لمن لا يتيسر منه كثير خلاص لفقره مع معرفته بحاله ولكن يحمله على ذلك ما يلتزم له به المتسلف من الربح الكثير وماحصل له من ذلك الا القليل وحصل منه في طلب ما لا يليق باهل العلم من كثرة التردد على الباعة للمطالبة واعراض بعضهم في حال طلبه .... " واتفق له ذلك بالحرمين " .[٢]

الرهـــن :-

الرهن يكفل للدائن دينة على تاجر سافر ولا يعرف عن اخباره شيئـا فهو توثقه دين بعين يمكن استيفاؤه منها ومن بعضها أو من ثمنها .[٣] ودليله من القرآن الكريم قوله عز وجل :" وان كنتم على سفر ولم تجدوا.. كاتبا فرهان مقبوضة " .[٤]

ويشترط في الرهن أن يكون عينا يصح بيعها لان الغرض منه حفظ المال لئلا يضيع حق الدائن فاذا عجز عن الوفاء بيع المرهون واستوفي الحق منه .

وينعقد الرهن بالقول والمعاطاة ويلزم بقبضة للمرتهن لقوله تعالى : " فرهان مقبوضة "وقبضه ان كان منقولا بنقله وان كان غير منقول بتخليتـه وهو امانة في يد المرتهن فلا يضمنه الا بالتعدي كسائر الامانات اما اذا تلف من غير تعد فلا شيء عليه ولا يسقط بتلفه شيء من دينه كما لا ينفك الديـن

---

(١) الفاسي : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن حجر: نفس المصدر والجزء ،ص ٢٥٠.
(٢) الفاسي : نفس المصدر ،جا ،ص ٣١٥ .
(٣) البهوتي : الروض المربع ،ج٢ ،ص ١٩١، احمد عيسى عاشور : الفقه الميسر ص ٢٢٠ .
(٤) سورة البقرة : آية ٢٨٣.

بقضاء بعضه .(١)

ومؤنة الرهن واجرة مخزنة ان كان مخزونا او محفوظا على الراهن لقوله عليه الصلاة والسلام:" لا يغلق الرهن من صاحبه الذى رهنه له غنمه وعليه غرمه والمعنى أن الرهن لا يستحقه اذا لم يستفكه صاحبه وأن له فائدته وعليه غرمه اذا تلف ولقوله صلى الله عليه وسلم " الظهر يركب اذا كان مرهونا ولبن الدر يشرب اذا كان مرهونا وعلى الذى يركب ويشرب نفقته " والمقصود أن الرهن لا يهمل ولا يعطل منافعه (٢) .

ونماء الرهن المتصل والمنفصل وكسبه وارش الجناية عليه ملحق به ويباع منه لوفاء الدين اذا بيع فلا يجوز الانتفاع بالمرهون والا كان قرضا جر نفعا وهو ربا محرم فمنفعة المرهون وثمرته ملك للراهن وليس للمرتهن أن ينتفع بشىء منه الا اذا كان ظهرا يركب او فرعا يشرب (٣) لقوله صلى الله عليه وسلم (الظهر يركب اذا كان مرهونا ولبن الدر يشرب اذا كان مرهونا وعلى الذى يركب ويشرب نفقته) .(٤)

الوديعة :-

عرفت مكة نظام الودائع منذ عهد بعيد بحكم موقعها فى ملتقى الطرق للقوافل التجارية اذ كانت محطة لازمة للتجار ومخزنا لتفريغ وشحن المتاجر والسلع .

ولتأمين البضائع التى لا يستطيع التاجر أن يحملها معه او لا يكون آمنا عليها فى مخزنة الخاص كان يلجأ الى ايداعها عند من يحفظها له وهو التزام جائز لقوله تعالى " ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها "(٥)

(١) البهوتى : نفس المصدر والجزء ،ص ١٩١ - ١٩٣، احمد عيسى عاشور : نفس المرجع ص ٢٢٠- ٢٢١ .

(٢) ابن ماجة : السنن ،المجلد الثانى ،ص ٨١٦ .

(٣) احمد عيسى عاشور : الفقه الميسر ،ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٤) البخارى : صحيح ج٣ ،ص ١١٦، ابن ماجة : المجلد الثانى ،ص ٨١٦ .

(٥) سورة النساء : آية ٥٨ .

وقوله عز وجل " فليؤد الذى اؤتمن امانته "[١] ولقوله عليه افضل الصلاة والسلام " اد الامانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك" [٢] .

ولان فى هذا النظام قضاء لحاجة المسلم ومعاونته كان حكم قبولها مستحبا لمن يجد فى نفسه الثقة والقدرة على حفظ الامانة [٣] ويفضل أن يكون هناك شهود فى حالة الايداع والرد لقوله تعالى " فاذا دفعتم اليهم اموالهم فأشهدوا عليهم " [٤]

ولا يضمن المستودع الوديعة اذا تلفت من بين ماله او فى حرز ولم يتعد ولم يفرط ولم يخن لانها امانة فى يد المستودع فلا ضمان عليه كسائر الامانات

ويذكر الفاسى : أن أحد تجار مكة كان قد أودع أمانة لدى بعض المسافرين فمات غرقا فغم التاجر على ضياع وديعته وتعلل حتى مات هو أيضا "[٥]

وان تعدى فيها او قصر فى حفظها فتلفت ضمن ومن الصور التى يجب فيها الضمان

١ - اذا حفظها فى غير حرز مثلها .

٢ - اذا سافر ولم يتركها لصاحبها او وكيله .

٣ - ان ينتفع لنفسه بغير اذن صاحبها .

٤ - اذا اخرجها من حرزها لينفقها ثم يردها .

٥ - اذا رفع الختم عن كيسها وكانت مشددة فأزال الشد .

٦ - أن يخلطها بما لا تتميزه كدراهم مثلا .

٧ - ان يحجدها ثم يقربها .

٨ - ان يمتنع عن ردها عند طلبها مع امكانه .

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٨٣ .

(٢) ابن حنبل : المسند ، المجلد الثانى ، ص ٤١٤ .

(٣) البهوتى : الروض المربع ج٢ ، ص ٢٢٩ ، احمد عيسى عاشور : الفقه الميسر ص ٢٥٦ .

(٤) سورة النساء : آية ٦ .

(٥) الفاسى : العقد الثمين ج٦ ، ص ٣٥٥ .

هذا ويقبل قول المستودع فى درها الى ربها فالقول بيمينه [1] لقوله تعالى :" فان أمن بعضكم بعضا فليوءد الذى أوءتمن أمانته " .[2]

الحـــــــوالات والنظام المصرفى :-

مشتقة من التمويل اى الانتقال لانها تحول الدين وتنقله من ذمة الى ذمة واختلف الفقهاء ... " هل هى بيع دين بدين رخص منه فاستثنى من النهى عن بيع الدين بالدين .... أو هى استيفاء ؟؟؟؟ وقيل هى عقد ارفاق مستقل[3] فالحكمة اذا من مشروعيتها ما فيها من الارفاق وتبادل المصالح بين الناس لقوله صلى الله عليه وسلم " مطل الغنى ظلم واذا اتبع احدكم على ملىء فليتبع "[4] .اى اذا احيل احدكم على غنى فليقبل .

ويشترط لصحة الحوالة عدة شروط ....

اولا - رضى المحيل ويقصد به المدين لان الحق عليه فلا يلزمه آداؤه من جهة الدين على المحال عليه وهو الذى يقوم بقضاء الدين وهذا لا خلاف فيه .

ثانيا - رضى المحال وهو الدائن عند الاكثر لان حقه فى ذمة المحيل فلا ينتقل الى غيره الا برضاه .

ثالثا - ان يكون الدين مستقرا فى الذمة .

رابعا تماثل الدينين - من المحال به والمحال عليه - من الصفات .[5]

---

(١) البهوتى : نفس المصدر والجزء ،ص ٢٢٩،٢٣١، احمد عيسى عاشور : نفس المرجع ،ص ٢٥٦ .

(٢) سورة البقرة : آيـــة ٢٨٣ .

(٣) ابن حجر : فتح البارى ،ج٤ ،ص ٤٦٤ .

(٤) البخارى : الصحيح ،ج٣ ،ص ٥٥ .

(٥) ابن حجر : نفس المصدر والجزء والصفحة ، البهوتى : الروض المربع ،ج٢ ص ١٩٧- ١٩٨ ، احمد عيسى عاشور : الفقه الميسر ،ص ٢٢٦ .

فاذا وقعت الحوالة صحيحة برىء المحيل من دين المحال وبرىء المحال عليه من دين المحيل ويتحول حق المحال الى ذمة المحال عليه لان ذلك فائدة الحوالة .(١)

واذا احال المدين دائنه على ملىء لزمه أن يحتال للحديث السابق .. " اذا اتبع احدكم على ملىء فليتبع ويشبه الوضع هنا الاحالة على البنوك الان اذ تعدتبرئة للذمة اذا التزم البنك المحال عليه بالدفع لانه فى حكم الاحالة على ملىء اما اذا أحالة على مفلس ولم يكن يعلم ذلك رجع بحقه على المحيل لان الافلاس عيب وفى هذه المسألة خلاف بين الفقهاء .....فمن قال ان الحوالة عقد لازم فلا يرجع ......ومن قال انها عقد جائز فله الرجوع .(٢)

ولقد كان نمو الموءسسات المصرفية فى الشرق الاسلامى فى العصور الوسطى نتيجة طبيعية لاتساع نطاق التجارة " فكان للتجار وكلاء أو عملاء فى أهم المدن التجارية يكتبون اليهم بحال السوق فى الاقاليم التى يكونون فيها " . ويقرضونهم المال فيكتب أولئك التجار للصيارفة صكوكا بديونهم بدلا من أن يدفعوا اليهم نقدا اذ كان التجار نادرا ما يدفعون المبالغ نقدا وكثيرا ما كان التجار يلجئون الى تصفية الديون بطريقة التحويل من شخص الى آخر فى المدينة نفسها أو بين مدينتين مختلفتين (٣) وسندات هذا النوع قد تكون موءجلة الدفع ولكن ترد دفعة واحدة وقد تكون مقسطة ... وردها بهذه الصورة يتطلب استخدام السفتجة والسفتجة مصطلح يعنى أن يتسلم شخص مالا لاخر

---

(١) احمد عيسى عاشور : الفقه الميسر ،ص ٢٢٦ .

(٢) ابن حجر : فتح البارى ،ج٤ ،ص ٤٦٤ ، العينى : عمدة القارى ،ج١٢، ص ١٠٩ .

(٣) صبحى الصالح : النظم الاسلامية ، نشأتها وتطورها ،ج٤ ،بيروت ١٩٧٨م ،ص ٣٩٧ .

وللاخر مال فى بلد آخر فيوفيه لصاحب الحق فيها .

وهذه الطريقة المالية ذات الصفة المصرفية تعد اضمن طريقة لحفظ المال من الضياع او المصادرة ويتولى هذه العملية الصيارفة فأصبح بامكان التجار ايداع اموالهم لدى الصيارف .... مقابل الحصول على سندات بقيمتها واجبة الدفع فى المكان القاصدين له . (١)

ويعد النظام المصرفى ابتكارا اسلاميا فالمسلمون هم اول من عرف نظام السندات المالية المحولة للغير وعنهم اخذت اوربا هذا النظام وطورته .(٢)

والواقع ان السوق المالية قد نشطت فى مكة المكرمة طوال العصور الوسطى واضحت مركزا للصيرفة يدفع فيها التجار اثمان السلع التى يطلبونها من مختلف البلاد وبحكم مكانتها الدينية أصبحت مصبا لمختلف العملات النقدية واستطاع التجار ان يحولوا نقودهم منها الى اى مكان يشاءون .

ومن اشهر صرافى مكة فى القرن التاسع الهجرى التاجر احمد بن عبد الله المكى المعروف بابى مغامس المتوفى سنة ٨١٥هـ وكانت له ثروة واسعة وصار يداين الناس كثيرا وذاع صيته بسبب ذلك . (٣)

---

(١) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة ،ص ٣٤٣ .

(٢) صبحى المالح : النظم الاسلامية ،ص ٣٩٧ ، نعيم زكى فهمى :نفس المرجع ،ص ٣٤٠ - ٣٤٢ .

(٣) الفاسى : العقد الثمين ج ٣ ،ص ٧٥ .

الاحتكـــــــــار التجارى :-

الاحتكار فى اللغة : حبس السلعة عن البيع [١] وفى الشرع " امساك الطعام عن البيع وانتظار الغلاء مع الاستغناء عنه وحاجة الناس اليه وهو امرمحرم شرعا [٢] وقد وردت الاحاديث الكثيرة فى ذم الاحتكار والترهيب منه كقوله صلى الله عليه وسلم " بئس العبد المحتكر ان ارخص الله تعالى الاسعار حزن وان اغلاها فرح "[٣] وقوله " الجالب مرزوق والمحتكر ملعون " وقوله : " من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والافلاس " .. وقوله : " من احتكر حكرة يريد ان يغلى بها على المسلمين فهو خاطئ " وقوله : من احتكر طعاما أربعين ليلة فقد برئ من الله تعالى وبرئ منه "[٤] وقوله " من دخل فى شئ من اسعار المسلمين ليغلى عليهم كان حقا على الله ان يقذفه فى جهنم رأسه اسفله " [٥]..... وان كان النهى عن الاحتكار عاما فقد خصت مكة بالنهى الشديد عن ممارسة مثل هذه البيوع فيها فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال " لا تحتكروا الطعام بمكة فان احتكار الطعام بمكة الحاد بظلم "[٦].

كما وردت الاحاديث الصحيحة فى النهى عن التسعير قال عليه الصـــلاة

---

(١) ابن حجر : فتح البارى ،جـ٤ ،ص ٣٤٨، العينى : جـ١١ ،ص ٢٤٩ .

(٢) ابن حجر : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) ابن حنبل : المسند ،المجلد الثانى ،ص ٢٣٦ .

(٤) ابن حنبل : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن حجر : نفس المصدر والجزء والصفحة ، القول المسدد فى الذب عن المسند للامام احمد رضى الله عنه ط٤ ،مكة المكرمة ،١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ،ص ٦٤ ، العينى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) ابن حنبل : نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن حجر : القول المسدد ،نفس الصفحة .

(٦) ابن حنبل : المسند ،نفس الجزء والصفحة ، ابن الجوزى: مثير الغرام ، ق ٩٤ ب ، الفاسى : تحصيل المرام ،ق ٢٣ أ .

والسلام" ان الله هو الخالق القابض الباسط المسعر وانى لارجو آن ألق الله ولا يطلبنى احد بمظلمة ظلمتها اياه فى دم ولا مال " .. وعندما سئل آن يسعر قال عليه الصلاة والسلام " الغلاء والرخص جندان من جنود الله اسم احدهما الرغبة واسم الاخر الرهبة فاذا اراد الله يغليه قذف الرغب فى صدور التجار فرغبوا فيه فحبسوه واذا أراد أن يرخصه قذف الرهبة فى صدور التجار.... فأخرجوه من ايديهم " وقال صلىالله عليه وسلم " ما سخط الله عز وجلعلى أمة الا غلا سعرها واكسد اسواقها واكثر فسادها واشتد جور سلطانها فعند ذلك لا يزكى اغنياوءها ولا يعف سلطانها ولا يصلى فقراوءها ". (١)

ومن هذه الاحاديث تتجلى الحكمة الالهية فى حرية التسعير من قبل التاجر وانه ليس لولى الامر او الدولة ان تسعر الا انه فى حالة الغلاء يمكن ان تدخل الدولة منافسة للتاجر لتعمل على تثبيت الاسعار وذلك عن طريق مقابلة زيادة الطلب بزيادة المعروض من السلع .

والاسلام عندما يحرص على عدم تلقىالركبان فى قوله صلى الله عليه وسلم " لا تلقوا الركبان ولايبيع بعضكم على بيع بعض ولا تناجشوا ولا يبيع حاضر لباد " (٢) انما يعمل من اجل توفير السلع بيد عدد من التجار يتنافسون بشكل حر على بيع البضاعة وعلى تقديم الاغراءات والتنازلات للمشترين وبذلك يضمن مصلحة المشترى ومصلحةالمجتمع على اساس واضح من منع للاحتكار والظلم.

والحقيقة ان هذه القيود انما وجدت لتقويم النفس البشرية على الدوام ضمن اطارات محددة وصهرها فى بوتقة العمل لمصلحة المجتمع وطمس الانانية وتقديم الايثار ولكن ينبغى الا نستغرب من منطلق واقعى ان هناك نفوسا جبلت على حب المال والاستغلال فاتجهت نحو احتكار السلع والتحكم فى اسعارها وقد شخص الخالق سبحانه هذا فى قوله " ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربى" (٣).

---

(١) ابن حنبل : المسند ، المجلد الثانى ، ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .
(٢) البخارى : الصحيح ، جـ٣ ، ص ٢٦ .
(٣) سورة يوسف : آية ٥٣ .

ولكن يبدو ان اخطر الاعمال التى اضرت بالتجارة والنشاط التجارى فى العصر المملوكى كان التوسع فى سياسة الاحتكار من قبل رجال الدولة الذين دخلوا منافسين للتجار فعملوا فى التجارة لحسابهم الخاص وانشاوا ما عرف باسم المتجر السلطانى (١) ثم احتكروا تجارة بعض السلع والبضائع وخاصة القادمة من الشرق فمن " الحقائق التاريخية الواضحة ان السلطان قد اشتغل بالتجارة كما اشتغل بها امراوءه وكبار رجاله وموظفيه وعلى الرغم من أن بعض السلاطين قد ادرك مغبة هذا العمل على المصلحة العامة للدولة و لطوائف التجار والحرفية فانهم لم يتخلصوا منه لان المتربع على اريكة السلطنة كان فى نفس الوقت التاجر الاول بين امراء دولته " .(٢)

وكان بعض اشراف مكة يمارسون التجارة ويحتكرون بعض الاقوات ويتحكمون فى اسعارها كما فعل الشريف عجلان غير ان ابنه احمد عندما قلد امارة مكة قام بالغاء جميع المظالم فيها ومن بينها ما اشير اليه .(٣)

وفى سنة ٨٢٣هـ عتب صاحب مصر الملك الموءيد على شريف مكة السيد حسن ابن عجلان لاحتكاره الطعام فكتب اليه الشريف قائلا : " انه لم يشترما اشتراه من الحب والتمر بقصد احتكاره وانما اشتراه لحاجته اليه لنفقته ولنفقة عسكره فلما رأى اضطرار الناس اليه باعه عليهم فكان فى خزنة لذلك وبيعه نفع للناس " . (٤)

وهذا تبرير ضعيف فمن ظاهر النصوص التاريخية يتضح حب الشريف حسن للمال وجمعه له باكثر من طريق كما ان سياسته مع التجار تتسم بعدم الثبات ويغلب عليها الطمع فيهم بل ان اهل القرى ومخاليف مكة كانوا فى ضيق من سياسته المتعنتة معهم .(٥)

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ج١ ،ص ٢٦٨-٢٦٩، ابن فهد اتحاف الورى،ص ٣٥٢ .

(٢) صبحى لبيب : التجارة الكارمية ،ص ٤٢ .

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٠٤ .

(٤) الفاسى:العقد الثمين،ج٤،ص ١٣٧-١٣٨، ابن فهد نفس المصدر ،ص ٣٥٢ .

(٥) الفاسى : نفس المصدر والجزء ،ص ٨٦ - ١٥٥ .

ومنذ عهد برسباى بلغت سياسة السلاطين الاحتكارية اشدها .... فقد بدأ باحتكار السكر وان لا يتعاطى احد بيعه الا من حواصله .[1] ثم احتكر تجارة الخشب والمعادن [2] وقد اجتذبت الحركة التجارية النشطة فى جدة نظره فوجه همه الى الاستفادة من تلك الحركة وحمايتها ... ثم احتكار تجارة التوابل الواردة من الهند الى جدة ففى سنة ٨٢٨هـ امر بان ينادى فى مكة " الا يباع البهار على تجار مصر والا يكون البهار الا بهارا واحدا [3] فلا يتجزأ توزيعه على التجار وبذلك يحتفظ وحده بحق شراء البهار حتى يبيعه لحسابه على تجار الفرنج وما يتبقى يبيعه للتجار بالسعر الذى يحدده .

والواقع ان كثرة المكاسب قد اغرته على التوسع فى احتكار التجارة الشرقية ..... ففى عام ٨٣٢هـ امر بتجهيز مال الى جدة ليُشترى له وحجر على الفلفل ان يشترى لغيره والزم جميع التجار ان لا يتوجه احد ببضاعته الى الشام ولا غيرها بل الى القاهرة ولا يباع الا بالاسكندرية بعد ان يكتفى السلطان والزم الفرنج بشراء الفلفل بزيادة خمسين دينارا عن السعر الواقع فاشترى الفرنج شيئا ورجعوا باكثر بضائعهم وما معهم من النقد الى بلادهم فلم يحصل للسلطان مقصوده وحصل على التجار من البلاء ما لا يوصف وتمادى الامر على ذلك ولا يزداد الامر فى كل سنة الا شدة . [4]

وفى سنة ٨٣٣هـ اقام السلطان طائفة تشترى له البضائع وتبيعها فاذا اخذت بجدة المكوس من التجار التى ترد من الهند حملت فلفلا وغيره فى بحر القلزم من جدة الى الطور ثم حملت من الطور الى القاهرة ومنها فى النيل الى الاسكندرية والزم الفرنج بشراء الحمل من الفلفل بمائة وثلاثين دينارا

---

(١) ابن حجر : ابناء الغمر ،ج٣ ،ص ٣٠٩ - ٣٢٣ .
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ،ج٢ ،ص ٢٤٣ .
(٣) ابن حجر : ابناء الغمر ، ج٣ ،ص ٣٥٠ .
(٤) ابن حجر : نفس المصدر والجزء ،ص ٤٢٣ .

وسعره بالقاهرة خمسون دينارا فبلغ السلطان ان بعض التجار سأل الفرنج بالاسكندرية أن يبتاعوا منه الحمل بأربعة وستين دينارا فأبوا ان يأخذوه الا بتسعة وخمسين فأحب السلطان عند ذلك الزيادة من الفوائد وان يأخذ ما عند التجار من الفلفل بسعر ما دفع لهم فيه الفرنج ليبيعه هو على الفرنج بما تقدم ذكره فمنعهم من بيعهم على الفرنج ليبور عندهم فيأخذه حينئذ منهم بما يريد .(١)

وتجدد فى هذه السنة ثلاث مظالم :-

١ - التشديد على الكارمية بمنع توابلهم الا له والا منعوا من ممارسة التجارة .
٢ - التشديد على التجار فى طرح النطرون .
٣ - احتكار القصب والا يزرع الا فى بلاد السلطان .(٢)

وفى سنة ٨٣٥ هـ اشتد السلطان على التجار والزمهم بعدم بيع بضائعهم الا باذنه ثم جمعهم فى رمضان وسالهم أن يبيعوا عليه جميع ما عندهم من الفلفل بسعر الحمل خمسين دينارا فضاق بذلك التجار ولكنهم لم يجدوا بدا من الاذعان وكانوا قد باعوه لهقبل ذلك بثمانين دينارا ." وذكر له بعضهم ذلك فلم يلتفت اليه ثم كتب مراسيم وارسلت الى الشام والحجاز والاسكندرية بالا يبيع احد البهار ولا يشتريه الا السلطان ".(٣)

وأمعن برسباى فى وضع الخطط التى من شأنها توطيد وتدعيم سياسته الاحتكارية ففى سنة ٨٣٨هـ قصر الاتجار فى التوابل وغيرها من سلع الشرق على جدة ومنع التجار من حملها الى مكة حتى لا تتسرب البضائع اليها دون آخذ

---

(١) المقريزى : السلوك جـ٤ ،ص ٨١٣ - ٨٢٤ .
(٢) ابن حجر : ابناء الغمر ،جـ٣ ،ص ٤٣٩ .
(٣) ابن حجر : نفس المصدر والجزء ،ص ٤٧٣ .

المكس عليها وفى العام نفسه حمل الى جدة مرجان ونحاس وغير ذلك مما يحمل من السلع الى بلاد الهند فالزم التجار بشرائها بالسعر الذى حدده وسار رجال دولته على نهجه فشق ذلكعلى التجار واضطروا الى ترك جدة والتوجه الى عدن .(١)

وتشير المصادر الى احتكار الباعة المصريين المعاش بمكة وجلوسهم بالحوانيت فى المسعى وتلقيهم الجالب ومزاحمتهم اهلها فكثر ضررهم وعجز الحكام عن منعهم لاحتمائهم بالمماليك المجردين الذين تقووا بهم نظير ما يأخذونه منهم من مال فغلت الاسعار واحدثوا ما لم يعهد بمكة ووصل امرهم الى السلطان جقمق فصدرت المراسيم سنة ٨٤٣هـ بمنعهم واخراجهم من مكة (٢).

وهكذا ففى حين ينكر السلاطين الاحتكار من قبل التجار والباعة لم يستطيعوا هم انفسهم التخلى عن السياسة الاحتكارية مدفوعين بحب المصلحة التجارية والربح فتعدى دور الدولة الاشراف على الحركة التجارية وتوفير الامن للتجار والسلع الى ممارسة التجارة بل اصبح الاحتكار نظاما ثابتا فيها منذ ايام برسباى حتى ايام الغورى رغم ما فى هذا العمل من مخالفات شرعية وبعد عن المنهج الاقتصادى السليم .

ويشير المؤرخون الى ان هذا النظام الاحتكارى الذى سارت عليه الدولة هو الذى عجل بنهايتها وكان من بين العوامل التى حدت بالغرب الاوربى الى البحث عن طريق آخر للوصول الى الشرق والسيطرة على نقاطة التجارية الهامة واحتكارها وما تلا ذلك من تدهور الاقتصاد المملوكى وتقلص مركزهم التجارى الرائد فى الربط بين الشرق والغرب . (٣)

---

(١) المقريزى : السلوك ،جـ٤، ص ٩٢٩، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٧٣ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ،ص ١١٩٣، ابن فهد: نفس المصدر ص ٣٨٥ ، الجزيرى : درر الفوائد ،ص ٣٢٨ .

(٣) سعيد عاشور: العصر المماليكى ،ص ٣٠٧-٣٠٨،صبحى لبيب : التجارة الكارمية ص ٤٢ - ٤٣ ،نعيم زكى فهمى : طرق التجارة،ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

النقـــــــود والقيم النقدية :ـ

مما لا شك فيه ان استخدام الوحدات النقدية مقياسا لقيمة السلع ثم وسيطا للتبادل يعد ارقى ما وصل اليه النظام التجارى فقد " اكتشف الانسان فيها خصائص هامة من حيث المظهر والندرة والبقاء والتجانس والتجزئة المادية والاقتصادية [١] وقد ذلل ذلك جميع الصعوبات التى تكتنف نظام المقايضة وتشكل قيدا على نطاق المعاملات التجارية .

ويمكن أن تعد النقود بمثابة العمود الفقرى للنظام الاقتصادى ذلك ان قيمتها او قوتها الشرائية قد ساعدت فى اتساع نطاق السوق وزيادة حجم المعاملات التجارية واصبح بامكان الانسان " توجيهها لتحقيق مطالبه فى المجتمع بالطريقة التى تناسبه والتى تحقق اقصي اشباع لرغباته [٢] وان كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مواعظ رقاق تعرض بالدينار والدرهم وتدعو الى الزهد فيهما كقوله : " تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة ان اعطى رضى وان لم يعط لم يرض "[٣] وقوله عليه الصلاة والسلام :" ان هذا المال خضرة حلوة فمن اخذه بطيب نفس بورك له فيه ، ومن اخذه باشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذى يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى"[٤]

وكانت الوحدات النقدية فى العصر المملوكى تتألف من ثلاثة انماط اساسية هى الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية .[٥]

---

(١) المقريزى: (تقى الين احمد بن على) ، اغاثة الامة بكشف الغمة وتاريخ المجاعات بمصر حمص ١٩٥٦م مقدمة المحقق ع .

(٢) سامح عبد الرحمن فهمى : الوحدات النقدية المملوكية جدة ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م ص ٢٧ .

(٣) البخارى : الصحيح ج٧، ص ١٧٥، ابن ماجة : السنن ، المجلد الثانى ، ص ١٣٨٦.

(٤) البخارى : نفس المصدر والجزء ، ص ١٧٦ .

(٥) عبد الرحمن فهمى: النقود العربية ماضيها وحاضرها القاهرة ١٩٦٤م ، ص ٩١ سامح عبد الرحمن فهمى : نفس المرجع ، ص ٢٧ .

وكان الغالب على المعاملات المالية فى الحجاز الصرف بالنقدين العزيزين[1] فقد استطاعت مكة بمكانتها الدينية الراسخة ان تصبح معقلا لاوسع الانشطة التجارية وان تنصب فيها جميع العملات المتداولة فى العصور الوسطى سواء تلك التى يجلبها الحجاج والتجار او التى يرسلها سلاطين وأمراء العالم الاسلامى كهبات وصدقات لتوزع فى الحرمين الشريفين وبذلك اصبحت مكة سوقا دولية تستعمل فيها جميع العملات [2] وكانت النتيجة الحتمية لاتساع السوق النقدية نشاط حركة الاتجار بالنقود عن طريق مبادلة العملات سواء كانت عملات خارجية ام محلية ..... وبتقدم التجارة وظهور فائض النقود لدى التجار اصبحت مكة تفرض سعر العملات فيها بسعر معدنها الجيد .

ومن العملات النقدية المتعامل بها فى مكة فى هذا العصر .....

الوحــــدات النقدية الذهبية :

ويتم تداولها على هيئة مسكوكات معدنية ذهبية وهى ذات قيمة ذاتية اى تتعادل قيمتها على انها نقد مع قيمتها على انها سلعة وكان الذهب قاعدة التعامل المالى ولاهميته كانت تقوم به وحدات النقود الاخرى .

واصله فى اللاتينية Denarius [3] ويطلق لفظ مثقال على الدينار والوزن الشرعى للدينار الاسلامى هو ٧٢ حبة من الشعير [4] أو ٤٫٢٥ جرام[5]

---

(١) ابن خلدون : العبر ،جا ،ص ٧٠ .

(٢) القلقشندى : صبــح الاعشى ،جا ،ص ٤٢٥ .

(٣) عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ،ص ٨ .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ،القاهرة ١٣٢٢هـ ،ص ٢٢٠ .

(٥) محمد ضياء الدين الــريس : الخراج ،ص ٣٥٩، عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ،ص ٩ ، صبحى الصالح : النظم الاسلامية ،ص ٤٢٧ .

وبسبب التبعية السياسية لمصر كانت العملات المتداولة فى مكة اكثرها مصرية وكان الدينار المصرى يساوى أربعة دنانير مكية ونصف دينار ويعادل ثمانية عشر درهما ، كل اربعة دراهم دينار مكى وكل درهم ثلاثة جوز كل جائز ثمان فلوس وكل فلس أربعة درس . (١)

ومنذ احياء الخلافة العباسية بمصر سنة ٦٥٩هـ كان ينقش على السكة اسم الخليفة العباسى مصحوبا باسم السلطان المملوكى (٢) غير ان اسم الخليفة لم يلبث ان اسقط من سكة النقود (٣) واصبح وجه العملة يحمل اسم السلطان المملوكى فقط وتاريخ ومكان الضرب بالخط النسخى المملوكى ويحمل الوجه الثانى عبارة نصها " لا اله الا الله محمد رسول الله ، ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله " او عبارة " الله ... وما النصر الا من عند الله ،لا اله الا الله ،محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق (٤) .

وقد كانت الوحدات الذهبية المملوكية بمثابة غطاء لميزانية الدولة (٥) وكانت تخضع للتغيير والتعديل فى عيارها ووزنها وحجمها وتحدد اسعارها وفق قانون العرض والطلب وبناء على رغبة السلطان المملوكى وذلك ان ارتفاع القيمة السوقية للذهب عن قيمته القانونية اغرته بضرب النقود الذهبية واكتنازها أو بيعها لحسابه الخاص بالسعر السوقى المرتفع وتحقيق الربح والاثراء من هذه العملية وكان سعر صرف الدينار حتى نهاية القرن الثامن الهجرى يتراوح بين عشرين وثلاثين درهما .(٦)

---

(١) ابن المجاور : (جمال الدين ابو الفتح يوسف بن يعقوب) صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمى تاريخ المستبصر ،ليدن، ١٩٥١م ،ص ٣٣ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ،جـ٢ ،ص ٥٢ — ٥٣ ، ٥٨ — ٥٩ ، ٦٧ .

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ١ ،ص ١١٩ — ١٢٠ ، السيوطى : نفس المصدر والجزء ، ص ٦١ .

(٤) عبد الرحمن فهمى : نفس المرجع ،ص ٩١ .

(٥) سامح عبد الرحمن : الوحدات النقدية المملوكية ، ص ٢٧ .

(٦) الشجاعى : تاريخ الملك الناصر ،ق ١ ، ص ٦٦ — ٦٧، ابن حجر : ابناء الغمر جـ٢ ،ص ٥١ ، السيوطى : حسن المحاضرة ،جـ٢ ، ص ٣٠٢ .

وان كانت لمكة ظروفها الخاصة التى ربما جعلتها غير مقيدة بتحديد الاسعار من قبل الدولة أو قللت من تأثرها بالعوامل الخارجية للدولة فابن بطوطة يشير الى انخفاض اسعار الذهب والفضة فى مكة ويربط ذلك بموسم الحج وبكثرة ما يحمله الحجاج ويتصدقون به وخاصة حجاج الركب العراقى الذين كان لهم اثركبير فىانخفاض سعر الذهب سنة ٧٢٨هـ حتى انتهى صرف المثقال او الدينار الى ثمانية عشر درهما نقرة .(١)

وهناك ظاهرة فىالاقتصاد النقدى للعصر المملوكى لابد من الاشارة اليها وهى ان العملات الاجنبية الذهبية من ضرب البندقية وفلورنسا احتلت مكانا بارزا فىالمعاملات التجارية وصارت من النقد المتداول فى مصر والشاموالحجاز منذ سنة ٨٠٠هـ (٢) وتمتعت بسعر قانونى واصبحت هى النقد المرغوب فيه فى التجارة الدولية بعامة وفى كل بلاد الشرق بخاصة وليس غريبا بعد ذلك اذا تسربت كميات كبيرة من الذهب من أسواق الشرق العربى الى ايطاليا لتزويد دور السك فيها بالمعادن اللازمة لضرب الدوكات والفلورين .

وقد جهدت المدن الايطالية فى اجتذاب الذهب باسعار مغرية لتغمر الاسواق التجارية بنقودها الذهبية الرابحة . (٣)

ويمثل هذه العملة الذهبية الفلورين وهو من ضرب فلورنسا وعرف فى الاسواق العربية باسم " افلورى " اما الافرنتى فهو من ضرب البندقية ويصفها القلقشندى بانها معلومة الوزن – وكل دينار منها بتسعة عشر قيراطا ونصف قيراط وعلى احد وجهيها صورة الملك وعلى الوجه الاخر صورتا بطرسوبولس

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ،ص ١٦٧ .

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ٤ ،ص ٧٠٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ١٤ ص ٢٨٣ .

(٣) عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ، ص ٩٦ – ٩٧ .

حواريى المسيح عليه السلام [١] ولهذا عرفت فى المعاملة بالذهب المشخص[٢]

وتجدر الاشارة الى ان رسوخ التعامل المالى بالعملة البندقية انما يعود الى دقة سكها ووزنها الثابت (٣ر٤٥جرام) وعيارها المرتفع ،وسمكها المحدد [٣] " بينما يقابل ذلك دنانير " مملوكية" معاصرة ليس لها عيار او وزن ثابت او سمك او قطر محدد لذلك كان من السهل على التجار عند التعامل استلام الدوكات بالعدد بدلا من الدنانير المملوكية التى كان يضطر المتعاملون بها الى وزنها واضافة قطع ذهبية اخرى لاستكمال الوفاء عند الدفع .[٤]

وفى محاولة لاعادة الثقة بالعملة الذهبية المملوكية امر السلطان فرج بن برقوق سنة ٨٠٣هـ بتثبيت قيمة الدينار المملوكى على وزن المثقال اى بما يوازى (٢٥ر٤جرام) غير ان هذا الاصلاح النقدى لم يكتب له الدوام وتطرق الفساد اليه وعانى الدينار تناقص جوهرى فى وزنه حتى صار يعادل نصف مثقال أو ربع مثقال وقد فسر القلقشندى ذلك بقوله " وكأنهم جعلوا نقصها نظير كلفة ضربها ." [٥]

ومع استمرار عمليات التغيير وعدم ثبات اسعار الصرف ونشاط التزيف فى النقود توقف حال الدينار المملوكى فى اسواق النقد وانحطت قيمته بالنسبة الى العملات الذهبية الاجنبية فاضطرت الدولة الى سحب هذه العملات المنافسة من الاسواق واعادة سكها ذهبا بالنقص .

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ،جـ٣ ،ص ٤٤١ .

(٢) المقريزى : السلوك ،جـ٤ ،ص ٧٠٩ ،ابن حجر : ابناء الغمر ،جـ٢ ،ص ٣٦٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ،جـ٤ ،ص ٢٨٣ .

(٣) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة ،ص ٣٥٩ . ،عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ،ص ٩٧ .

(٤) عبد الرحمن فهمى : نفس المرجع والصفحة .

(٥) القلقشندى: صبح الاعشى ،جـ٣ ،ص ٤٤١،عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ص٩٨.

واذا كان اقدام الدولة على هذه الخطوة يعد وسيلة لتصحيح الاختلال غير المرغوب فيه من ميزان مدفوعاتها فانه ألحق الخسائر المادية بالتجار وهز ثقتهم بالنظام النقدى المملوكى . (١)

واذا كانت التجارب السابقة قد فشلت فى تثبيت التعامل بالذهب المملوكى فان السلطان برسباى نجح فى اعادة بناء النظام النقدى للعملة الذهبية فضرب الدينار الاشرفى بوزن الافرنتى (٣٫٤٥ جرام) فكانت معاملته كما يقول ابن اياس : " من احسن المعاملات ،من اجود الذهب و سيما الاشرفية البرسبيهية فانها من خالص الذهب والى الان يرغب اليها الناس فى المعاملات "(٢)

والواقع ان عجز الدولة فى ميزان مدفوعاتها بعد فساد نظام الاقطاع وممارساتها الاحتكارية للتجارة الرئيسية كان لها أسوأ الاثر فى السوق النقدية المملوكية فقد قل تدفق كميات الذهب على هذه السوق وعمد السلاطين الى انقاص معدل العملة مع الاحتفاظ بقيمتها القانونية .(٣)

والجدير بالذكر هنا ان المجاعة النقدية لم تكن قاصرة على الدولة المملوكية بل كانت ازمة عالمية اذ ان حدة المبادلات التجارية التى اضحت خاضعة لمراقبة الدولة اخذت تستوجب الكثير من الالات النقدية .

وفى كل مكان وخاصة أوربا نشأت الرغبة فى استغلال المناجم التى اهملت منذ العصور القديمة لكن النتائج خيبت الامال وبقيت القوة الشرائية لكل من الذهب والفضة مرتفعة .(٤)

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج٣ ،ص ٤٤١ – ٤٤٢،عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ص ٩٨ – ٩٩ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ،ج٢ ،ص .

(٣) ابن حجر : ابناء الغمر ،ج٢ ،ص ٤٠١،ج٣ ،ص ٤٠٦،٤٥٥،٤٦١ ، ابن اياس : بدائع الزهور ج٢ ،ص ٢٩٤،٣٣٦،٣٤٤،ج٣ ،ص ١٢١ .

(٤) جورج لوفران : تاريخ التجارة ،ص ٦٦

ولمعالجة قلة الذهب لجأ المماليك الى عقد المعاهدات مع البندقية ونصت تلك المعاهدات على تحفيض الضرائب على كميات الذهب والسبائك الذهبية التى يرد بها تجار البندقية الى دار السك فى مصر ليتم ضربها فيها دنانير مملوكية . (١)

وقد كان اسعار صرف الذهب فى القرن التاسع الهجرى كمايلى :-
الدينار الهرجة (٢) : كانت اسعار صرفه من ثلاثين الى مائتين وثمانين درهما .

الدينار الاشرفى : كانت اسعاره من ٢٢٠ الى ٣٧٠ درهما ووصل التضخم النقدى لسعر الدينار الى ٤٦٠ درهما .

الافرنتى والافلورى كان صرفها من ٢٤ الى ٢٦٠ درهما (٣). وصرف الافرنتى بمنى سنة ٨١٥هـ بسبعة وخمسين مسعوديا ثم نزل سعره الى خمسين مسعوديا وفى حين كان سعر الدينار الهرجة ستين مسعوديا ونحوها ووصل سعر الافرنتى فى رمضان من عام ٨١٦هـ ستين مسعوديا (٤) وفى عام ٨١٩هـ انتهى صرف الافرنتى بمكة بـ ٥٤ مسعوديا وربما زاد (٥) وكان صرفه فى وادى مر بـ ١٥ مسعوديا (٦) وكان صرف الافلورى بمكة منذ سنة ٨٤٨هـ من ١٠٠ ـ ١٢٠ مسعوديا (٧)

وفى القرن العاشر الهجرى بلغ الانهيار بالعملة الذهبية المملوكية

---

(١) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة ،ص ٣٦٠، عبدالرحمن فهمى: النقودالعربية ص١٠١-١٠٢.
(٢) الهرجة " دنانير تستعمل خاصة فى الحلى كالاساور والعقود وغيرها بان يصاغ اطرافها حلقات صغيرة او تجعل فى جوانبها ثقوب ومفردها هرج ،سعيد عاشور: العصر المماليكى ،ص ٤٨٣ .
(٣) ابن حجر: ابناء الغمر ،جـ٢ ، ٥١، ٢٣٣، ٤٦٣، جـ٣، ٧٢، ٩١، ٤٠٦، ٤٥٥، ٤٦١، ابن اياس بدائع الزهور : جـ٢ ،ص ٢٨، ١٣٧، ٣٢٢، ٣٣٦، ٣٤٤ .
(٤) الفاسى : شفاء الغرام ،جـ٢ ،ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ .
(٥) الفاسى : نفس المصدر والجزء ،ص ٢٧٧ ، ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٤٤ .
(٦) الفاسى : نفس المصدر والجزء ،ص ٢٧٧ .
(٧) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٤٠٠ .

نهايته لدرجة أن دار الضرب اصبحت تسك العملات المزيفة " من الذهب والفضة وظهر بها الزغل كالشمس حتى ضج من ذلك سائر الناس والامراء وصارت معاملة السلطان لا تمشى فى غالب البلاد وامتنع الذهب البرسبيه والجقمقى والاينالى والخشقدمى والقايتبية وصار الذهب الغورى والفضة هى التى عليها العمل مع ما بها من الغش الفاحش "(١)

الوحـــــــدات النقدية الفضية :-

من الواضح أن الفضة نافست الذهب باعتبارها قاعدة للنقد فى العصر المملوكى واصبحت هى النقود الرئيسية بعد ان انتقلت الدولة من نظام المعدن الواحد المتمثل فى الدنانير الذهبية الى نظام المعدنين وفيه تحددت قيمة الوحدة النقدية بالنسبة لمعدنين هما الذهب والفضة فكانت قيمة الرواتب والخدمات والاسعار تقدر بالدنانير الذهب ويتم الدفع بالدراهم الفضية .(٢)

ولفظ درهم ليس عربيا بل اخذه العرب من لفظ Diram فى الفارسية وهو يونانى الاصل . (٣)

والدرهم الشرعى هو الذى تزن العشرة منه سبعة مثاقيل اى $\frac{٧}{١٠}$ الدينار ووزنه خمس وخمسون حبة من الشعير (٤) اى ما يوازى (٩٧٥ر٢ جرام)(٥)

ومن الدراهم الفضية التى كان لها رواج كبير فى مكة فى العهد المملوكى الدراهم الكاملية نسبة الى الملك الكامل الايوبى (٦) وهى ثلاثة آثلاث

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ،ج٤ ،ص ١٥٣ .
(٢) المقريزى : اغاثة الامة ،ص ٦٦ ،سامح عبد الرحمن فهمى :الوحدات النقدية :ص ٣٠.
(٣) المقريزى : نفس المصدر ،ص ٦٧ هـ .
(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٠ ، المقريزى : اغاثة الامة ،ص ٥٧ .
(٥) محمد ضياء الدين الريس : الخراج ،ص ٢٥٤ .
(٦) " اتسعت المملكة للملك الكامل حتى قال خطيب مكة مرة عند الدعاء له سلطان مكة وعبيدها واليمن وزبيدها ومصر وصعيدها والشام وصناديدها ، سلطان القبلتين ورب العلامتين ،وخادم الحرمين الشريفين الملك ابو المعالى ناصر الدين محمد خليل امير المؤمنين وكانت وفاته بدمشق سنة ٦٣٥هـ السيوطى : حسن لمحاضرة ،ج٢ ،ص ٣٤ .

ثلثان من الفضة والثلث من النحاس يضاف على المائة من الفضة الخالصة خمسون درهما من النحاس والدرهم ثمانية عشر خروبة والخروبة ثلاث قمحات [(١)] اى ما يوازى ٣٫٣٩ جرام على اساس ان وزن الخروبة ٠٫١٩٤ جرام .[(٢)]

وتعرف هذه العملة الفضية بالدراهم النقرة وتسك بدار الضرب بالسكة السلطانية ومنها دراهم صحاح وقرضات [(٣)] مقصوصة .

غير ان الدراهم لم تسلم هى ايضا من الغش فى العصر المملوكى ،واصبح الدرهم منها تسعة اعشاره نحاس وعشره فقط من الفضة . [(٤)]

وكانت هناك دراهم اخرى يجرى التعامل فى مكة وهى الدراهم المسعودية نسبة الى الملك المسعود صاحب اليمن [(٥)] وتمتاز بنوعها الجيد فهى من الفضة الخالصة مربعة الشكل زنتها نحو نصف ثم نقص حتى انخفض الى السدس .[(٦)]

هذا وقد ظل التعامل بالدراهم الكاملية والمسعودية فى مكة ثابتا وراسخا فى المعاملات التجارية بمكة طوال العهد بن الايوبى والمملوكى وقد ادرك الفاسى الناس يتعاملون فيما بين القرنين الثامن والتوسع الهجرين ويذكرهما كثيرا وهو يتحدث عن اخبار الرخص والغلاء بمكة .[(٧)]

---

(١) المقريزى : نفس المصدر والصفحة .
(٢) عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ،ص ٧٤ .
(٣) ابن بعرة : (منصور الذهبى الكاملى) كشف الاسرار العلمية بدار الضرب المصرية ،تحقيق عبد الرحمن فهمى ،القاهرة ،١٣٨٥هـ - ١٩٦٦ م ،ص ٧٥-٧٦ ،القلقشندى : صبح الاعشى ،جـ٣ ،ص ٤٣٩،٤٦٢- ٤٦٣ .
(٤) السيوطى : نفس المصدر والجزء ،ص ٣٠٨ ،ابن اياس : بدائع الزهور جـ٢،ص ١١٠.
(٥) الملك المسعود بن الملك الكامل ناصر الدين ابو المعالى ولى مكة من قبل والده وكان حال الناس بها حسنا لهيبته توفى سنة ٦٢٦هـ ،الفاسى : تحصيل المرام ،ق ٨٩أ ،العقد الثمين ،جـ١ ،ص ١٩٠ .
(٦) القلقشندى : صبح الاعشى ،جـ٤ ،ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .
(٧) الفاسى : شفاء الغرام ،جـ٢ ،ص ٢٧٤ - ٢٧٧ .

كما يشير ابن فهد الى انه فى سنة ٨٤٨هـ عقد مجلس ضم القضاة والامراء فى مكة للنظر فى الدراهم المسعودية وان تضرب دراهم عوض عن الدراهم الموجودة فى مكة ولكنه لم يشر الى النتائج التى توصل اليها المجلس بخصوص هذه الدراهم الجديدة او ابطال التعامل بها وان اشار الى تحديد القيمة النقدية لصرف الافلوري والمسعودى بمكة .[1] والجدير بالذكر أنه منذ بداية القرن التاسع الهجرى بدأت الدراهم تتسرب من الدولة المملوكية الى الخارج واخذ الناس يسبكون ما بأيديهم من فضة لاتخاذها زينة وحليا فادى ذلك الى انخفاض العرض النقدى من الفضة فراجت الفلوس وكثرت بايدى الناس وغلبت على غيرها من العملات وانتهى الامر باختفاء المعدن الجيد ذى القيمة السوقية من التداول وعظم رواج المعدن الردئ .[2]

ومن اشهر الدراهم التى ضربت فى العصر المملوكى الدراهم الظاهرية [3] نسبة الى السلطان الظاهر برقوق وكان ضربها بمصر سنة ٧٨٩هـ ويشير المؤرخون الى ان اسم السلطان جعل " فى دائرة فتفاءلوا له من ذلك بالحس فوقع عن قريب " .[4]

وفى سنة ٨١٥هـ ضرب الامير نوروز[5] الدراهم الخالصة وكانت زنة الواحد نصف درهم والدينار ثلاثين منه ... ففرح الناس بها وكانت معاملاتهم قد خسرت بالدراهم المغشوشة .[6]

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٤٠٠ .

(٢) المقريزى : اغاثة الامة ،ص ٧١ - ٧٢ .

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٣٥ .

(٤) ابن حجر: انباء الغمر ج١ ،ص ٣٣٥ ،السيوطى: حسن المحاضرة ج٢ ،ص ٣٠٧ ، ابن العماد: شذرات الذهب ،ج٦ ،ص ٣٠٧ .

(٥) هو نائب دمشق انتهى امره بالقتل فى سلطنة المؤيد شيخ سنة ٨١٧هـ .

(٦) ابن حجر : نفس المصدر ،ج٢ ،ص ٥١٣ ، السيوطى : نفس المصدر ج٢ ، ص ٣٠٨ .

كما قام السلطان المؤيد شيخ سنة ٨١٦هـ بضرب الدراهم المؤيدية [١] وامر ان تنسب قيم الاعمال واثمان المبيعات اليها [٢] وكثر تداولها سنة ٨١٨هـ وكانت كبارا وصغارا ووزن الصغير منها سبعة قراريط فضة خالصة وسعره تسعة دراهم ووزن الكبير اربعة عشر قيراطا وسعره ثمانية عشر . واستطاعت هذه الدراهم ان تكسب ثقة الناس بما حققته من ثبات ...... فدعم ذلك حرية التجارة وساعد على نمو التبادل النقدى [٣] الا انه فى سنة ٨٢٥هـ كثر الغش فيها حتى نودى عليها بعشرين درهما من الفلوس .[٤]

وقد استمر التعامل بالدراهم المؤيدية حتى ايام الاشرف اينال الذى ضرب الدراهم الاشرفية الجيدة كل اشرفى بخمسة وعشرين نصف عددية من خالص الفضة وابطل سائر المعاملات فى الدراهم المؤيدية المغشوشة وضرب بيد من حديد على مزيفى النقود " الزغلية " ويعد هذا العمل من اكبر المزايا التى حققها الاصلاح النقدى فثبات العيار واستقرار اسعار الصرف قلل من المخاطرة فى المبادلات التجارية والمعاملات المالية يقول ابن اياس : وكان ذلك سببا لاصلاح احوال المعاملة وقد انصلح بعد جهد كبير . [٥]

وفى سنة ٨٨١هـ نودى على الدراهم الفضة الا يتعامل بها الا بالميزان لا بالعدد وكانت قد خفت جدا [٦] ثم صار النصف الفضة يصرف باربعة وعشرين درهما من

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ،جـ٢ ،ص ١١ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ٤ ،ص ٦٢٩ — ٦٣٠ .

(٣) ابن حجر : ابناء الغمر ،جـ٣ ، ص ٥٤ .

(٤) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ،ص ٧٨ .

(٥) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ،ص ٣٤٤ .

(٦) ابن اياس : بدائع الزهور ،جـ٣ ،ص ١٢١ .

الفلوس الجدد في عهد السلطان قايتباى وبالتحديد منذ سنة ٨٩٢هـ [١] وانتهى الحال بالدراهم الى الاختفاء من الاسواق بعد ان عزت وقل وجودها .[٢]

الوحـــــدات النقدية النحاسية ...."الفلوس".

يعود استخدام النحاس عملة نقدية فى العصور الوسطى الى الرغبة فى تسهيل المعاملات فى المبيعات الصغيرة التى تقل قيمتها عن درهم او جزء من الدرهم لذلك لم تكن له منزلة المعدن الثمين من ذهب او فضة " ولا يشترى بها شىء من الامور الجليلة وانما هى لنفقات البيوت ولاغراض ما يحتاج اليه من الخضر والبقول ونحوها .[٣]

ويمثل عام ٦٥٠هـ بداية النشاط النقدى لهذه العملة فى الدولة المملوكية حيث اخذت دور الضرب بالاكثار منها وصار كل درهم يساوى اربعة وعشرين فلسا بدلا من آربعين فلسا وقد ترتب على استرسال الدولة فى التماس المال من ايسر الطرق واسرعها ان ركزت على زيادة سك الفلوس الخفيفة حتى راجت واصبحت هى النقد الغالب فى البلاد وكثرة كثرة بالغة حتى صارت المبيعات وقيم الاعمال تنسب الى الفلوس خاصة وبلغ الذهب كل مثقال منه الى مائة وخمسين من الفلوس والفضة كل زنة درهم من المضروب منها بخمسة دراهم من الفلوس [٤] ونودى على الفلوس ان يتعامل بها وزنا لا عدا وسعر الرطل [٥] منها ما بين درهمين الى ستة دراهم [٦]

---

(١) ابن اياس : نفس المصدر والجـــزء ، ص ٢٣٧ .

(٢) ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ق ١ ، ص ١٢٩ .

(٣) المقريزى : اغاثة الامة ، ص ٧٠ – ٧١ .

(٤) المقريزى : اغاثة الامة ، ص ٧٠ – ٧٢ ، السلوك جـ٤ ، ص ٦٢٩ .

(٥) الرطل : معيار يوزن به والرطل الشرعى هو البغدادى وهو ١٢ اوقية ويساوى ٩٠ مثقلا وهى $\frac{٤}{٧}$ ١٢٨ درهم ، محمد ضياء الدين الريس : الخراج ، ص ٣٦٦–٣٦٧ .

(٦) المقريزى : اغاثة الامة ، ص ٧١ ، ابن حجر : ابناء الغمر ، جـ٢ ، ص ٢٩٧ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص ٣٠٨ .

ولان القوة الشرائية للفلوس كانت تعتمد على الوزن نشط الزغلية في غشها وخلطها بقطع من الحديد والنحاس والرصاص حتى صارت القفة من الفلوس التى وزنها مائة رطل لا يكاد يوجد فيها عشرين رطلا من الفلوس وانفتح للصيارفة ونحوهم من ذلك باب ربح وهو انهم صاروا ينقون الفلوس ويبيعونها لمن يحملها الى الحجاز واليمن وبلاد المغرب كل قنطار بسبعمائة درهم ومعنى هذا ان الفلوس المنتقاة بدأت هى ايضا تتسرب من البلاد وصارت الفلوس صنفين بسعرين مختلفين فرطل المنتقاه بسبعة دراهم والمغشوشة بخمسة دراهم (١).

والمتأمل فى تاريخ الدولة المملوكية يجد ان الفلوس اكتسحت السوق النقدية القائمة علي نظام المعدنين الذهب والفضة وخاصة فى اواخر هذا العهد والقاعدة النقدية تقول : " العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة " اى ان المعدن الذى ترتفع قيمته السوقية عن قيمته القانونية يميل الى الاختفاء من الاسواق ويحل المعدن الرخيص بدلا منه " (٢) فضربت الفلوس بكميات كبيرة وكانت فى غاية الخفة وصارت البضائع تباع بسعرين بالفلوس الجدد والفلوس العتق وخسر اصحاب الاسواق الثلث فى معاملاتهم بعد ان سعر الرطل من الفلوس بثمانية عشر درهما نقرة .(٣)

ومن كل ما سبق يتضح ان الاختلال فى اسواق النقد المملوكية وزيادة الاسعار بمعدل يزيد عن القيم النقدية كان من اهم عوامل تعطل الاسواق وكسادها وخاصة بعد اضطراب التجارة الدولية فى عهد السلطان الغورى(٤).. وعلى كل حال فان مكة بموقعها الممتاز وباستقلالها الذاتى كانت تحدد سعر العملة بما يتناسب مع قيمة المعدن وما يقتضيه العرض والطلب وقد ساعد ذلك على نجاح اقتصادها وتنميته .

---

(١) المقريزى : السلوك ج٤ ،ص ٦٢٩ - ٦٣٠ .
(٢) عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ،ص ١٠٤ - ١١٠ .
(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ،ج٤ ،ص ٢٥١ .
(٤) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ،ص ٢٠ ، ٢٥١ .

الفصل الخامس

المنشآت التجارية

- الأسواق.
- الوكالات والخانات والقياسر وغيرها من المنشآت التجارية.
- المشرفون على المنشآت التجارية.

تعد المنشآت التجارية أساسا تنظيميا للحركة التجارية وبقدر استكمال ذلك الاساس يتحدد مدى الازدهار التجارى وهذا لا يمنع فى الوقت نفسه أن يكون تدفق السلع على احد المراكز التجارية الرئيسية هو الدافع الى ايجاد تلك التنظيمات أو المنشآت التجارية أو يكون من العوامل المودية الى تعديلها أو استكمالها بما يناسب حجم وأهمية تلك الحركة ولكى تقوم تلك المنشآت بتحقيق الهدف من أنشائها وضعت تحت اشراف محكم محدد الاختصاصات بما يتناسب مع القواعد والاصول الشرعية للتجارة فقد كانت الاسواق والوكالات والخانات والقياسر من المنشآتالتجارية التى قامت على أنها أساس تنظيمى للحركة التجارية وكان الاشراف عليها لتحقيق الرقابة والضرب على ايدى العابثين بها .

الاسواق :-

تعتبر الاسواق بمثابة القواعد الاساسية اللازمة لاستمرار الحياة الاقتصادية وهى أقدم اشكال النظم التجارية وقد نشأت ونمت فى اطار من احتياجات المجتمع واجتذبت طلاب الرزق واصحاب رؤس الاموال .

وليس من شك فى أن انشاء مثل هذه القواعد التجارية فى مكة قد تمخض عن نتائج ايجابية فعالة امتزجت فيها طبيعة المكان الدينية بتحركات اقتصادية دائمة متميزة بقوة اندفاعها وبتطورها المستمر . ورغم قدم ذلك فيما يتعلق بمكة فان الوضع صار اكثر وضوحا منذ بداية الاسلام فقد اخذت قوافل الحجيج تفد على مكة المكرمة من كل حدب وصوب فكان طبيعيا أن تنشط الحركة التجارية فى مكة وأن تزداد مرونة أهلها ومحترفى التجارة فيها بمعاملتهم لتلك الوفود على اختلاف عاداتها واجناسها وفقا لمبادىء... الاسلام .

فلما كان العصر المملوكى اهتم سلاطين تلكالدولة منذ البداية بالحركة

التجارية . فقضوا على القرصنة فى البحر الاحمر ووفرت التنظيمات المملوكية الامن والحماية للحجيج والتجار ثم اثمرت الجهود المملوكية فأخذت تجارة الشرق تصل الى ميناء جدة مباشرة واحتلت جدة المكانة الممتازة التى كانت تحتلها عدن قبل توقف التجار عن الرسو فى مينائها والامتناع عن التعامل معها وقد أدى ذلك الى ازدهار الاسواق التجارية فى كل من مكة وميناءها جدة .

ويمكن تحديد نوعيات الاسواق فى مكة على سبيل المثال بثلاثة أنواع هى ... الاسواق المحلية ... والاسواق الموسمية ... والاسواق السنوية .

الاسواق المحلية :-

وهى الاسواق الدائمة التى اشتهرت بمكة على مر العصور اذ جرت العادة أن يجتمع اصحاب الحرفة الواحدة وتجار الصنف الواحد فى حى أو عدد من الاحياء الخاصة مؤلفين بذلك سوقا من أشهرها سوق العطارين وكانت بقرب باب بنى شيبة [(١)] وقد اختصت ببيع انواع العطارة والبهار والبخور على اختلاف انواعها وكانت من اكبر الاسواق واكثرها رواجا فى تلك العصور لاشتداد الطلب على تلك الانواع التى كانت فى مقدمة السلع المطلوبة .

وهناك سوق البزازين عند باب بنى شيبة [(٢)] وقد اختصت هذه السوق ببيع النسيج والقماش وكانت المتاجرة فى البز من الاعمال التى رغب فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد روى أن رجلا سأله فيم تأمرنى أن أتجر ؟ فقال : عليك بالبز ....فان صاحب البز يعجبه أن يكون الناس بخير وفى خصب وقال : عليه أفضل الصلاة والسلام " لو كان فى الجنة تجارة لامرت بتجارة البز لان أبا بكر كان بزازا " .[(٣)]

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٦ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٠٨ ، ابن الضياء القرشى تاريخ مكة ، ق ١٠٨ ب .

(٢) ابن بطوطة : نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن حنبل : المسند ، المجلد الثانى ، ص ٢١٦ .

اما المجوهرات والاحجار الكريمة والحلى الثمينة فكانت تباع فى سوق الشامية وكان السوق الصغير غربى المسجد الحرام أهم سوق للخضروات واللحوم وغيرها من الماكولات . (١)

وكان سوق الليل شرقى المسجد الحرام من أشهر أسواق مكة ويباع به جميع لوازم الحجاج وبه مسجد قديم ينسب للخيزران (٢) أم الخليفتين موسى الهادى وهارون الرشيد ويقال أن صفوت الخلق محمدا صلى الله عليه وسلم ولد فى هذا الموضع (٣) وبه مسجد آخر يعرف بالمختبى يقول ابن الضياء القرشى " ولم أر أحدا تعرض لذكره ولا يعرف شىء من أخباره " . (٤) وبهذه السوق دار للحدادين وسوق خاصة للفاكهة وأخرى للرطب (٥) ومن المرافق الهامة الموجودة به حمام كان يعد الثانى فى مكة بعد حمام أجياد . (٦) ومطهرتان احداهما تنسب للاشراف والاخرى عمرتها احد النساء سنة ٧٩٦هـ (٧) وبه ايضا رباط بناه كبير التجار فى مكة ويدعى عطية .بن خليفة أوقفه على النسوة بمكة وأباح لهن كراء مساكنهن فى زمن الموسم لتكسبن بذلك . (٨)

ويحدثنا المؤرخون والرحالة والجغرافيون عن سوق المسعى فى المسجد الحرام مستنكرين قيام مثل هذه الاسواق الحافلة فى بيت الله الحرام ..... ويبدو أن جذور هذه السوق قديمة فقد جاء فى الاثر عن ابن عباس انه دخل

---

(١) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، المجلد الاول ،ص ٢٠٧ .
(٢) ابراهيم رفعت : نفس المرجع والصفحة .
(٣) ابن الضياء القرشى : تاريخ مكة ،ق ٩١أ .
(٤) نفس المصدر ،ق ٩٣ أ ب .
(٥) الازرقى : (ابو الوليد محمد بن عبد الله أحمد ، اخبار مكة وما جاء فيها من الاثار ،مكة ، ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م ،جـ٢ ،ص ٢٢٩ .
(٦) الفاسى : تحصيل المرام ،ق ٩ أ .
(٧) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣١٩ ، ابن الضياء : نفس المصدر ،ق ١٠٨ ب .
(٨) الفاسى : العقد الثمين ، جـ٦ ،ص ١٠٦ – ١٠٧ .

الحرم فرأى الناس قد أقبلوا على الدنيا يبيعون ويشترون فقال : " لو علم الوفد بمن حلوا لاستبشروا ".[١] ويقول ابن جبير مستنكرا : " وفي أيام الموسم كلها عاد المسجد الحرام نزهه الله وشرفه ،سوقا عظيمة يباع فيه من الدقيق الى العقيق ومن البر الى الدر الى غير ذلك من السلع ، فكان بيع الدقيق بدار الندوة الى جانب باب بني شيبة ومعظم السوق في البلاط الآخذ من الغرب الى الشمال وفي البلاط الآخذ من الشمال الى الشرق وفي ذلك من النهي الشرعي ما هو معلوم والله غالب على أمره ،لا اله سواه " .[٢]

ويقول ابن بطوطة : " وبين الصفا والمروة مسيل فيه سوق عظيمة يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه والساعون بين الصفا والمروة لا يكادون يخلصون لازدحام الناس على حوانيت الباعة وليس بمكة سوق منتظمة سوى هذه الا البزازون والعطارون عند باب بني شيبة .[٣]

ويكتفي البلوي بالاشارة الى هذه السوق العامرة بقوله :" وما بين الصفا والمروة مسيل هو اليوم سوق حافلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب والمبيعات "[٤] ويشير الاصطخري الى أن ما بين الصفا والمروة وبين المسجد الحرام عرض الوادي الذي هو طريق وسوق ".[٥]

ومما يجدر ذكره هنا أن أحد الامراء المماليك ويدعى بيسق[٦] قد وفق

---

(١) ابن الجوزي : مثير الغرام ،ق ١٤٦ ب .
(٢) الرحلة ،ص ١٦٠ .
(٣) نفس المصدر ،ص ١٣٦ .
(٤) تاج المفرق ،جا ،ص ٣٠٧ .
(٥) المسالك والممالك ،ص ٢٢ .
(٦) الامير بيسق كان قد ندب الى مكة لعمارة المسجد الحرام سنة ٨٠٣هـ بعد أحتراق الجانب الغربي وبعض الجانب الشمالي في العام السابق وكان شريف مكة قد استنابه في الحكم بها عندما توجه الى حلى ابن يعقوب فقام في فترة استنيابه بأعماله الاصلاحية وكتب شفاعات لنفسه ذكر فيها أنه أزال من مكة المنكر وعندما رجع الشريف حسن نقم عليه وتنافر معه واعاد هذه السوق ، الفاسي : العقد الثمين ،جـ٤ ،ص ٩٧ ــ ٩٨ .

فى ازالة بعض المنكرات فى مكة منها أمره فى أول ربيع الآخر سنة ٨٠٤هـ ، بنقل هذه السوق من المسعى الى سوق الليل كما امر بوابى الحرم بملازمة أبوابه وتنظيف الطرقات من الاوساخ والقمائم ونقل الكدى " الصخور والحجارة " التى كانت بسوق الليل والمعلاة وغير ذلك من الاصلاحات التى كان من شأنها تدعيم الامن فى البيت العتيق والمحافظة على طهارته ... غير أن هذا العمل الاصلاحى الكبير لم يكتب له الدوام والاستمرار بسبب اعادة الشريف حسن بن عجلان لهذه السوق الى المسعى فى العاشر من جمادى الآخر من السنة نفسها (١) ولا يوجد تفسير لما قام به الشريف حسن ولعله كان يستفيد من وجود السوق فى هذا المكان .... واخيرا وبعد طول انتظار وردت المراسيم سنة ٨٣٠هـ من السلطات المملوكية بمنع البيع داخل المسجد الحرام ومنع نصب الصواوين داخله (٢) ويبدو أن هذا المنع كان خاصا بموسم الحج فاننا نجد اشارات لاستمرار هذه السوق وازدهار الحركة التجارية فيها (٣) .

والى جانب هذه الاسواق التى تمتاز بقربها من الحرم الشريف والمرافق العامة كان هناك العديد من الاسواق المنتشرة فى بقية أحياء مكة وكانت تلك الاسواق تتميز ايضا بطابعها التخصصى المميز مثل سوق الحطب (٤) وسوق العلافة وهما بأسفل مكة (٥) وسوق المسفلة (٦) وسوق اللبن والحشيش (٧) وسوق الغنم بأعلى مكة (٨) وسوق الجمال بمنى (٩) واسواق اخرى بالزاهر (١٠) .

---

(١) الفاسى: نفس المصدر والجزء والصفحة ، ابن فهد: اتحاف الورى، ص ٢٢٥-٢٢٦ .
(٢) المقريزى: السلوك، ج٤، ص ٧٥٤، ابن حجر: ابناء الغمر، ج٣ ، ص ٣٨٢ .
(٣) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٤٠٧ .
(٤) الازرقى: نفس المصدر ، ج٢ ، ص ٢٠١، الفاسى: نفس المصدر ج٥ ، ص ٢٧ .
(٥) الفاسى : تحصيل المرام، ق٨آ - ب، شفاء الغرام ج٢ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .
(٦) الطبرى: اتحاف فضلاء الزمن، ص٧٧ . (٧) الفاسى: تحصيل المرام، نفس الورقة .
(٨) الازرقى: نفس المصدر والجزء والصفحة، ابن الضياء القرشى: نفس المصدر ، ق٩٠ب .
(٩) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٤٠٢ .
(١٠) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٣٨ - ١٣٩ .

وكما هو معروف فان الاسواق المختصة ببيع سلع متجانسة كانت منتشرة خلال ذلك العصر وما قبله وكان لهذا النظام محاسنة التى تتمثل فى اتساع نطاق التنافس الحر الشريف بين تجار السلع المتماثلة فلا يستطيع التاجر أن يشذ عن أقرانه من التجار أو أن يرفع سعر السلع التى يتاجر فيها لان مجال المنافسة مفتوح وقريب منه كما أن المشترى باستطاعته أن يحصل على أفضل سلعة بأقل ثمن بعد أن يتجول فى السوق ويطلع على الاسعار والبضائع المعروضة واذا كان لهذا النظام محاسنة فله أيضا عيوبه ولعل من أهمها عامل الزمن والجهد فالمشترى الذى يريد شراء عدة أصناف متباينة من البضائع عليه أن يقطع المدينة طولا وعرضا للحصول على كل احتياجاته " لأنه لن يجد فى السوق الواحدة سوى نوع واحد من البضائع " (١)

وعلى كل يمكننا أن نتصور بحق اسواق مكة التقليدية المحلية وهى تموج بجموع من الناس على اختلاف اجناسهم والوانهم من مشترين ومتجولين وأصحاب حرف وتجار وباعة وغيرهم يتبادلون المنافع والمصالح ويتدافعون فرادى وجماعات وسط الشوارع الضيقة والاسواق المسقوفة قريبا من الحرم فى اسواق العطارين والتمارين والبزازين وسوق الليل والسوق الصغير وغيرها

وبطبيعة الحال كان تجار هذا النوع من الاسواق اما تجارا مستقرين لهم حوانيتهم ومستودعاتهم واما باعة متنقلون يبقون فى السوق معظم النهار ثم يبارحونه ليعودوا اليه فى اليوم الثانى .

ومما لا شك فيه أن ربط مكة بريفها أو باديتها بشبكة من الطرق البرية قد اسهم بشكل كبير فى توثيق العلاقات الاقليمية بينهما وفى انتعاش التجارة والاسواق المحلية بشكل دائم ومتواصل .

الاسواق الموسمية :-

ادى نشاط الحركة التجارية بين الشرق والغرب وازدهار تجارة التوابل

---

(١) سعيد عاشور: العصر المماليكى، ص ٣٠٨-٣٠٩، نعيم زكى فهمى: طرق التجارة، ص ٢٨٢ .

فى العصور الوسطى الى ظهور الاسواق الموسمية التى كانت تعقد فى مواسم ورود التوابل من الهند والصين الى اسواق مكة وجدة وهى خاضعة لمواعيد هبوب الرياح الموسمية ويوءقت وصولها فى مواعيد سنوية ثابتة لا تتغير وفى الوقت نفسه تصل السفن الاوروبية من الغرب الى اسواق مصر والشام لحمل هذه البضائع الشرقية فى مواعيد ثابتة .(١)

والحق أن الخريطة التجارية لهذه الاسواق قد اتسعت فى عصر المماليك وخاصة الجراكسة وهى تعكس نتائج التحول الكبير الذى طرأ على المركز التجارى لجدة وازدهار حركة التجارة المملوكية بصورة رائعة وتعرف هذه الاسواق بمكة والحجاز باسم " موسم الهندى " (٢)
وكانت هناك سوق موسمية أخرى تنعقد عند وصول أهل السراة الذين كانوا يجمعون بين أداء العمرة وميرة البلد ولهوءلاء أثر كبير فى الحياة الاقتصادية فى مكة فوصولهم يعنى الرخاء ورخص الاسعار حتى لقد كان يفيض الكثير من الموءن التى يجلبونها فيخزن أهل مكة والمجاورون هذا الفائض ويدخرونه حتى وقت وصول الميرة التالية وتذكر المصادر " أنه لولا وصول هذه الميرة لكان اهل مكة فى شظف من العيش " . (٣)

كما أن تأخرهم عن الوصول أو عدم مجيئهم يعنى ارتفاع الاسعار وشدة الغلاء (٤) .

ويشير ابن بطوطة الى حرص أهل السراة على المجىء بميرتهم بقوله :
" ويذكر أنهم متى أقاموا ولم يأتوا بهذه الميرة أجدبت بلادهم ووقع

---

(١) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ،ص ٢٨٣ .
(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٤١٦ .
(٣) ابن جبير : الرحلة ،ص ١١٠ ، ابن بطوطة : الرحلة ،ص ١٦٠ .
(٤) الفاسى : شفاء الغرام ،جـ٢ ،ص ٢٧٠ ، ابن حجر : ابناء الغمر ،جـ١ ، ص ٣٣٢ ، ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣١٤ .

الموت فى مواشيهم ومتى أوصلوا الميرة أخصبت بلادهم وظهرت فيها البركة ونمت أموالهم فهم اذا حان وقت ميرتهم وأدركهم الكسل عنها اجتمعت نساؤهم فأخرجتهم وهذا من لطائف صنع الله وعنايته ببلده الامين . (١)

وكانت حركة البيع والشراء تزدهر بسوق الليل اذ كانت السوق الرئيسى لمن يأتون بالميرة من السراة وغيرها . (٢)

الاسواق السنوية :-

هى النوع الثالث من الاسواق ... وكانت تعقد فى مكة المكرمة فى مواسم الحج اذ يفد اليها اعداد هائلة من الحجاج والتجار المسلمين من مشارق الارض ومغاربها وسرعان ما تصبح مكة مركزا حافلا بمظاهر التبادل التجارى " فبعض الحجاج يلتمسون مع أداء فريضة الحج فى هذا الموسم ضروبا من النفع المادى ، فينقلون المتاجر من شتى البلاد الى الحجاز ويبيعونها هناك ويتزودون لبلادهم وأهلهم من طرائف الحجاز ومما يحمله اليه الناس من سائر البقاع والاصقاع .(٣)

وكانت الاسواق التى تقام فى منى وعرفة من أشهر أسواق هذا الموسم ويعود تاريخ هذه الاسواق الى صد/الاسلام (٤) بعد أن اباح الخالق جل وعلا

---

(١) الرحلة ،ص ١٦٠ .

(٢) الازرقى : اخبار مكة ،ج٢ ،ص ٢٣٩ .

(٣) من مقدمة محقق كتاب محب الدين الطبرى : القرى ،ص ٨ ـ ٩ .

(٤) كان للعرب اسواقهم فى الجاهلية وصدر الاسلام وتحضرها القبائل العربية وغيرها وهى سوق عكاظ ومجنة وذى المجاز وكانوا يصبحون بعكاظ يوم هلال ذى القعدة فيقيمون به عشرين ليلة ـ ويدخل بعضهم فى بعض للبيع والشراء ويجتمعون فى بطن السوق ثم ينصرفون الى مجنة فيقيمون بها اسواقهم ثمان ليالى ثم يخرجون لذى المجاز فيقيمون بها الى يوم التروية وهو آخر أيام اسواقهم فقد كان الناس لا يتبايعون فى أيام منى وعرفة ثم تركت سوق عكاظ سنة ١٢٩ هـ وتلتها مجنة وذو المجاز واستغنوا بالاسواق بمكة ومنى وعرفة " ، الفاسى : تحصيل المرام ===

البيع والشراء فى هذين المشعرين الحرام بقوله : " ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم " (١) ففى عرفة كانت تقام سوق كبيرة جدا يباع فيها أنواع المأكولات (٢) اما منى فتقام فيها سوق من أعظم الاسواق " يباع فيها من الجوهر النفيس الى أدنى الخرز الى غير ذلك من الامتعة وسائر سلع الدنيا لانها مجمع أهل الآفاق " . (٣)

وقد سجلت اسواق منى والمشاعر نشاطا تجاريا عاليا فالتجمع الاسلامى الكبير كان يصاحبه على الدوام حركة دائبة ونشطة فى البيع والشراء لدرجة أن الحجاج كانوا يظلون فى منى بعد النزول يوما آخر لرغبة التجار فى ذلك . (٤)

وجاء فى كتاب نزهة الانظار " ومنى فى أيام الموسم هى الدنيا بأسرها قصور عالية ،واسواق حافلة ،وجنود مجندة ،وملابس فاخرة وأطعمة شهية ومراكب هنية وبضائع معدودة ،ومتاجر ثمينة الى انواع العبادات من تكبير وتهليل

(=) ص ٩٦ أ ،شفاء الغرام ج٢ ،ص ٢٨٢ – ٢٨٣ ، العقد الثمين ج١ ،ص ٢١٤ . ويشير ابن الجوزى الى عالمية سوق عكاظ بقوله "كان للعرب اسواق فأعظمها واكثرها جمعا وتجارة سوق عكاظ وكان كسرى فى ذلك الزمان يبعث بالسيف القاطع والفراس الرابع والحلة الفاخرة فتعرض فى ذلك السوق وينادى مناديه ان هذا بعثه الملك الى سيد العرب فلا يأخذه الا من أذعنت له العرب جميعا بالسوءدد فكان آخر من أخذه بعكاظ حرب بن أمية وكان كسرى يريد بذلك أن يعتمد عليهم فى أمور الحرب فيكونون عونا له على اعزاز ملكه ولحمايته من العرب. مثير النغرام ،ق ١٣٩ ب ، ١٤٠ أ .

(١) سورة البقرة ،آية ١٩٨ .

(٢) ابراهيم رفعت : نفس المرجع ، المجلد الاول ،ص ٣٣٧ .

(٣) ابن جبير : نفس المصدر ،ص ١٥٧ .

(٤) الفاسى : تحصيل المرام ،٩١ ب ، العقد الثمين ،ج١ ،ص ١٩٩ ، ابن حجر : ابناء الغمر ، ج ٣ ، ص ٣٤١ ،ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٣٧ .

وصلاة وقراءة ،ونحر وذبح واطعام طعام ورمى جمار ،وما الدنيا محمودها ومذمومها الا ما ذكرنا ولا تمر على ذلك كله ثلاثة أيام حتى لا تحس منهم أحدا ولا تسمع لهم ركزا فلا ترى فى منازلهم الا عظاما نخرة وخرقا بالية وفضلات منتنة وغثاء احوى وقشاما أغبر تسفيه الرياح وتذروه وهذا هو المثل الحقيقى للدنيا فليعتبر أولو الابصار من سكان البادية والامصار ".(١)

ويتأسف الجزيرى على ما يحصل من أمراء الحاج فى زمانه وشحنهم المراكب بالاحمال للمتاجرة ومنع الباعة والمتسببة عن الحاج حتى ينتهى ما عندهم مع العلم بان ما يتاجرون به انما تعود منافعه للسلطان وليس لهم الا ما يعتد به من الكلفة ضريبة سلطانية . (٢)

ولا يقتصر النشاط التجارى فى موسم الحج على اسواق منى وعرفة فقط فجميع اسواق مكة تكون فى حركة وتبادل تجارى مزدهر ومستمر فقد كان الحجاج يرتادون هذه الاسواق فى النهار اذ يظل المد التجارى قويا فيها ولعل من أبرز الدلائل على ازدهار التجارة فى هذا الموسم أن الاسواق كانت تقام فى المسجد الحرام وكثيرا ما يحدث بها التعطيل للساعين بين الصفا والمروة نتيجة ازدحام الناس على الباعة .(٣) . وقد اختلف اهل العلم فى المبيت ليالى منى فى مكة لحاجة مثل حفظ الاموال والمتاجر ونحوها .... فروى عن ابن عباس قال : " لا بأس اذا كان للرجل متاع بمكة يخشى عليه أن يبيت بها ليالى منى " أما ابن عمر فورد فى كلامه مايدل على المنع وللشافعى القولان (٤) ولعل الرخصة للتجار ولمن يضطر لحفظ ماله جاءت قياسا على رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم لرعاة الابل فى البيتوتة فى مكة لانهم يضطرون

---

(١) الورثيلانى : ص ٤٤٣ .

(٢) الجزيرى : درر الفوائد ،ص ٢٨٩ – ٢٩٠ .

(٣) ابن بطوطة :الرحلة ،ص ١٣٦ ،النبلوى:تاج المفرق جـ١ ،ص٣٠٧، الفاسى:شفاء الغرام جـ٢ ،ص ٢٢٥ .

(٤) محب الدين الطبرى: المصدر السابق ،ص ٥٤٢ .

الى حفظ اموالهم ولو أخذوا بالمبيت لضاعت اموالهم .(١)

ومما سبق يتضح أن موسم الحج ترسم لنا أصدق صورة لاسواق مكةالمكرمة والمشاعر فى ذلك الوقت وتوضح لنا طبيعة الحركة التجارية الهائلة فيها فأسواق العطارة والبخور تعج بانواع التوابل والعقاقير الشرقية والعطور الثمينة التى تملأ الجو عبيرا وشذى واسواق الصاغة تزخر بأجود الحلى واثمن الاحجار الكريمة والجواهر النفيسة واللآلى الحرة . (٢) واسواق النسيج والبز تمتلىء بمختلف المعروضات من الاقمشة الحريرية والكتانية والقطنية والمطرزة والسجاجيد الفارسية الفاخرة الى غير ذلك من السلع والبضائع ولا غرو ففيها مجتمع المشرق والمغرب واليها ترد المتاجر فى قوافل عظيمة "من مصر والشام وحلب وبغداد والحسا ونجد واليمن وبحر الهند والحبشة والشحر وحضرموت وعربان جزيرة العرب وطوائف لا يحصيهم الا الله تعالى". (٣)

والواقع أن تجار أوربا وقتوا مواسم ورودهم الى شرق البحر المتوسط بمواعيد هذه الاسواق السنوية ... فكانوا يصلون الى مصر وبلاد الشام فى الوقت الذى كانت تأتى فيه سفن التجارة الشرقية الى جدة وعلى ذلك فان الاسواق السنوية فى الاعياد الاسلامية كانت تختلف تبعا لمدار السنين وحسب نظام المدة .(٤)

ويلتقى فى هذه الاسواق الموسمية والسنوية عدد غفير من التجار والوكلاء وغيرهم وتعقد فيها صفقات البيع والشراء والمبادلة بالنقد والمقايضة والحساب الجارى والبيع المؤجل الدفع ...وتخضع حركة المتاجرة لنظام ضبط دقيق لتفادى ما قد ينجم من مشكلات من التعامل المالى ولحساب ما تحصله الدولة من العوائد والمكوس على تجارة العبور .(٥)

(١) محب الدين الطبرى : نفس المصدر ،ص ٥٤٤ — ٥٤٥ .

(٢) ابن جبير: نفس المصدر، ص ٩٧، البلوى: نفس المصدر ج١ ،ص ٣٠٨ ابراهيم رفعت مرآة الحرمين ، المجلد الاول ،ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

(٣) القطبى : تاريخ البلد الحرام ،ص ٢٠ .

(٤) نعيم زكى : طرق التجارة ،ص ٢٨٤ .

(٥) نعيم زكى : نفس المرجع والصفحة .

على أن الاسواق السنوية قد تطورت لتصبح نصف سنوية وخاصة بعد تواتر الركب الرجبي من مصر والشام في العهد المملوكي وكانت قوافل هذا الركب تصل الى مكة باعداد كبيرة قد تزيد على آلفي جمل وراحلة ولا ريب أن وصولهم يعني زيادة النشاط التجاري وازدهار حركة البيع والشراء (١) وتشير الشواهد التاريخية الى حرص كثير من المسلمين على مصاحبة هذا الركب لان السفر في هذه الايام يحصل لهم به صيام رمضان بمكة والعمرة والمجاورة وفي غضون ذلك يحصل لكثير منهم المكاسب . (٢)

الوكالات والخانات والقياسر وغيرها من المنشآت التجارية

وبسبب الاتساع الكبير في قطاع التجارة وفي ظل العلاقات التجارية النشطة في العصر المملوكي التي كانت مكة من اهم مراكزها ...... أنشئت القياسر والخانات والوكالات والرباع التي فوقها وتنوعت خدمة هذه المنشآت فالى جانب قيامها بمهمة الاسواق من بيع وشراء فهي تقوم بمهمة النزل ودور الاقامة للتجار الوافدين وتحتوى على مخازن لحفظ متاجرهم واموالهم وتؤدى خدماتها للتجارة العابرة من تفريغ وتحميل وتخزين وغير ذلك ومن مزاياها .أنها تقوم بمهمة البيع بالجملة الى جانب البيع بالتجزئة وعادة يبنى فوق هذه المؤسسات التجارية عدة مساكن تؤجر للتجار ويلاحظ أن المؤرخين المسلمين في العصور الوسطى لم يفرقوا بين الوكالة والخان والقيسارية والفندق فجميعها مؤسسات تجارية تتشابه في خدماتها وفي نظامها المعماري . (٣)

فالوكالة مركز للبيع والشراء والتخزين والحجرات فوقها هي الرباع وتعود أهميتها في التنظيم التجاري الذى كان سائدا في العصور الوسطى الى طبيعة عمل المقيمين فيها سواء في التجارة المحلية او الدولية ومعظمهم من الشباب الذين هجروا بلادهم بحثا عن الثراء من وراء التجارة واكتساب

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام ،ج٢، ص ٢٧٢-٢٧٣، ابن فهد: اتحاف الورى، ص ٢٧١- ٣٧٢، ابن اياس : بدائع الزهور ،ج٢ ،ص ١٣٧ ، ٢٥١ .

(٢) ابن حجر : انباء الغمر ،ج٣ ،ص ٥٣٩ .

(٣) نعيم زكي فهمي : طرق التجارة ،ص ٢٨٦ – ٢٨٧ .

الخبرات كما هو الحال مع التجار الكارمية الذين كانوا يلحقون أبنائهم بتجارتهم المتنقلة والمستقرة ويذكر الدكتور نعيم زكى فهمى أن بعض الاوربيين " يفضل وضع كلمة لوكاندة هنا لاسم الربع كما اعتبره فندقا مفروشا وان لم يكن هناك مجال للمقارنة بين فنادقنا الحالية ومثيلاتها فى العصور الوسطى .(١)

وقد جرت العادة أن التجار القادمين من بلد واحد كانوا ينزلون فى وكالة معينة حيث يألف بعضهم بعضا وكان التاجر يأمن على امواله وبضائعه ... فمن أبرزمظاهر الاهتمام بهذا النمط من المنشآت التجارية حرص سلاطين المماليك على توفير الحراسة والامن فيها لحفظها من عبث العابثين بالاضافة الى توفير وسائل السلامة واتخاذ الاحتياطات اللازمة لتجنب خطر الحرائق وغيرها .(٢)

وقد انتشرت فى مكة الربع التى تتكون من عدة مساكن علوية تجتها حوانيت ووكالات للتجارة ولكل ربع باب يتصل مباشرة بسلم داخل واجهة البناء المشرفة على الطريق العام بواسطته يصعد السكان الى مساكن الربع التى تؤجر بأجور شهرية زهيدة (٣)

ويبدو أن المهتمين بانشاء هذه المؤسسات فى مكة كانوا سلاطين وأمراء المماليك وتجدر الاشارة الى أن ربع هذه المشروعات التجارية الهامة كان يوقف على بناء المرافق العامة التى تقيمها الدولة فى مكة والاشراف عليها مثل الاربطة والمدارس ومكاتب الايتام وغير ذلك من جهات البر ففى سنة ٧٧٦ هـ أمر الملك الاشرف شعبان بعمارة مطهرة فى المسعى مقابل باب على أحد أبواب المسجد الحرام وبناء حوانيت ملاصقة لها وفوقها ربع لتأجيرها للتجار على أن يكون ريعها وقفا للاشراف على الميضاة المنسوبة اليه كما اوقف عليها

---

(١) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع والصفحة .
(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكى ،ص ٣٠٩ .
(٣) سعيد عاشور : نفس المرجع ،ص ٤٤٠ .

اوقافا اخرى بضواحى القاهرة وقد اعيدت عمارتها سنة ٨١٧هـ بعد ان تخربت[١]
ومن الرباع المحلية فى المسعى ربع يعرف بربع التوزيرى شاد بندر جدة نسب اليه لتوليه أمر عمارته .[٢]

والواقع أن التوسع فى استحداث الزيادة أمام المبانى التجارية وغيرها فى المسعى قد تسبب فى تضيق الممر الرئيسى الذى يعد مشعرا من مشاعر الحج وأدى ذلك الى استنكار القضاة ورجال العلم من أهل مكة والمجاورين ومما يذكر أن الزيادة المحدثة فى المنشأة المنسوبة الى الملك الاشرف شعبان كانتا سببا فى عقد مجلس القضاة فى المسجد الحرام سنة ٨٧٥هـ وقد ضم هذا المجلس القضاة الاربعة وبعض العلماء المجاورين من أهل الشام واشار القاضى برهان الدين بن ظهيرة فى المجلس الى أن التاجر ابن الزمن [٣] استأجر لنفسه ميضأة الاشرف والربع عليها وأربعة دكاكين ملاصقة لها من وقف رباط العباس رضى الله عنه وانه شرع فى عمارتها وأراد أن يعمل سبيلا على بعض المساطب [٤] التى كانت أمام بعض الدكاكين فمنعه القاضى برهان الدين فلم يمتنع وأوضح أن عرض المسعى كان قبل عمارة ابن الزمن خمسة وثلاثين ذراعا فصار عرضه من المسجد الحرام الى جدار عمارته سبعة وعشرين ذراعا وسألهم القاضى برهان الدين .... هل يجوز البناء فى المشعر الحرام ؟..... فانكروا ذلك وأفتوا بحرمته وكان ابن الزمن حاضرا وانتهى المجلس بالحكم بهدم جميع ما فى المسعى ومن بينه عمارة ابن الزمن وكتب محضر بذلك وسلم لامير المماليك المقيمين بمكة ليتولى أمر الهدم غير أن الحكم لم ينفذ

---

(١) ابن الضياء القرشى : تاريخ مكة ،ق ١٠٨ ب .
(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٧٢ .
(٣) هو الخواجا شمس الدين محمد بن الزمن ، من مشاهير التجار ،كان فى سعة من المال وله بر ومعروف وهوصاحب المدرسة التى ببولاق بمصر وكان ذا دين وخير .... توفى بمكة سنة ٨٩٧هـ .
ابن اياس : بدائع الزهور ،جـ٣ ،ص ٢٩٣ .
(٤) " المصطبة بناء من الحجر أو الاجر يقام بجانب واجهة الدكان ويبلغ ارتفاعها نحو المتر وسطحها فى مستوى أرضية الدكان ويجلس عليها صاحب الدكان مع زبائنه ،وقد ظلت شائعة الاستعمال فى العصور الوسطى وما بعدها .
الشيرزى : نهاية الرتبة ،ص ١١ .

بل استمر ابن الزمن فى عمارته بعد أن أخذ اذنا من السلطان وقيل أن جماعة أفتوا للتاجر بانه على حق .

ومن الزيادات التى احدثها ابن الزمن أنه جعل بسوق الليل درجا يصعد فيه الى الميضأة ودكة بطول الميضاة من أمامها ودرجة تصعد منها الى علو الربع فأدى ذلك الى ضيق الطريق التى كانت تسع قطارين فاصبحت لا تسع الا قطارا واحدا .(١)

ويشير ابن فهد وهو موءرخ معاصر أن المساطب التى كانت أمام الدكاكين لم يكن لها وجود قبل سنة ٨٤٠هـ وأن الدكاكين كان يستأجرها فسالون يغسلون على ابوابها الثياب ويخيطونها على احجار يضعونها تحت أبوابها الى جانب الحائط ثم استأجر الدكاكين جماعة يبيعون الفخار فأحدثوا مساطب صغارا ثم صاروا يوسعونها شيئا فشيئا حتى أُصبح عرضها قريبا من ثلاثة أذرع واخيرا كانت الزيادة التى عملها ابن الزمن والتى انعقد المجلس بسببها .(٢)

وكان من ضمن الاعمال الجليلة التى عملها الامير بركة (٣)فى مكة سنة ٧٨١هـ بناء ربع وحوانيت جديدة وبناء مطهرة فى سوق العطارين بقرب باب بنى شيبة على يسار الباب وأوقف عليها الربع والحوانيت التى فوقها . (٤)

ويشير الطبرى فى معرض حديثة عن حجة السلطان قايتباى الى آثاره العظيمة بمكة ووجوه البر والاحسان التى تنسب اليه فيها ومن بينها عمارته لعدد من الربوع والدور والمسقفات التى تغل فى كل عام نحو ألفى دينار وكان قد أوقف ريعها على الفقراء وأعمال البر التى أنشأها بمكة كما أوقف على منشآته

---

(١) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٤٤٢ – ٤٤٣ .

(٢) نفس المصدر ،ص ٤٤٣ .

(٣) هو الامير بركة بن عبد الله العثمانى من مماليك الامير يلبغا الخاصكى تولى عددا من المناصب القيادية فى الدولة المملوكية حتى اصبح مدبر المملكة وعظم أمره حتى صار رأس نوبة النوب ـ يعد من أصحاب المآثر الطيبة فى مكة وله العديد من الاصلاحات فى المسجد الحرام .
الفاسى : العقد الثمين ،جـ٣ ،ص ٣٦١ – ٣٦٢ .

(٤) المقريزى : السلوم جـ٣ ،ص ٣٧٢ ، ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٠٨ ، ابن الضياء القرشى : نفس المصدر ،ق ١٠٨ ب .

الخيرية قرى وضياعا كثيرة بمصر تحمل غلاتها من حبوب وغيرها كل عام الى مكة [١] .

ومن الموءسسات التجارية فى العصر المملوكى القياسر ومفردها قيسارية وهى السوق المسقوفة وتحتوى على غرف ومخازن التجارويعلوها بناءبارتفاع دورين أو ثلاثةلسكن التجار والصناع .[٢]

ويعد بناء القياسر من أهم المنشآت لاستثمار الاموال وتحقيق الربح الوفير وقد اهتم الامراء بانشاء القيساريات فى ذلك العهد .[٣]

وان كانت هناك قياسر خاصة بكبار التجار ... وقد جرت العادة أن تنتشر بعض انواع الصناعات الصغيرة فيها كما كان لكل فئة من التجار أو الصناع مكان معين [٤] ومن اشهر القياسر فى مكة القيسارية المعروفةبدار الامارة عند باب بنى شيبة وكان شريف مكة حسن بن عجلان قد أستأجرها سنة ٨١٥هـ من القاضى الشافعى بمكة مع البيمارستان المستنصرى الواقع فى الجانب الشامى من المسجد الحرام لمدة مائة سنة هلالية بأجرة معلومة لم يحدد مقدارها على أن تصرف هذه الاجرةفى عمارتها نظرالخرابهما فعمر القيسارية وزاد فى عمارة البيمارستان ثم أوقف ما زاده وما يعود عليه من منفعة المكانين سنة ٨١٦هـ لصالح الضعفاء والمرضى من نزلاء البيمارستان فى باقى المدة المذكورة على الوجه السابق .[٥]

اما الفنادق فهىتمثل قمة ما وصلت اليه طاقة المشروعات التجارية فى العصور الوسطى وتعتبر ذروة ما وصل اليه اجتهاد القوامين على التجارة حكومة وتجارا .[٦]

---

(١) الطبرى : اتحاف فضلاء الزمن ،ص ٨٢ ــ ٨٣ .
(٢) سعيد عاشور : نفس المرجع ،ص ٤٦٣ .
(٣) الطبرى : نفس المصدر ،ص ٧١ ، ٨٢ .
(٤) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ،ص ٢٩٥ ــ ٢٩٦ .
(٥) الفاسى : العقد الثمين ،جـ٤ ،ص ١١٥ .
(٦) صبحى لبيب : التجارة الكارمية ،ص ١٢ ،نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ص ٢٨٨ .

واصل كلمة فندق مأخوذ من الكلمة اليونانية Pando Keion وفنادق العصر المملوكى مبانى فخمة مربعة الشكل ولبعضها أكثر من طابق ولها فناء داخلى مكشوف أى غير مسقوف تحيط به الحوانيت فى الطابق الارضى حيث توجد المخازن وفوقها مساكن للتجار ويحيط بالفندق حديقة غناء ربما يزرع بها التجار أشجارا من أوطانهم وبالفندق قاعة عامة تستخدم مجلسا لعقد الصفقات التجارية وكانت هذه المنشأة التجارية تعرف فى مصر المملوكية باسم فندق واحيانا وكالة وعرفت فى الشام وتركيا باسم الخان(١) ويبدو أن اسم الخان كان الغالب والمعروف فى الحجاز على انه يمكن القول بأن الخان وان اشترك مع الفندق واشبهه فى بعض النواحى باعتبارهما من المؤسسات التجارية الهامة فهو مبنى ضخم معد لاستقبال التجار وبضائعهم ودوابهم وغيرهم من المسافرين والحجاج ويحتوى على مجموعة من المستودعات والحوانيت الكبيرة والصغيرة ويتوسطه فناء واسع على هيئة رواق مغطى لحفظ بضائع التجار وبه اصطبل للدواب وفى أعلاه عدة أدوار ومساكن ويؤدى الخان وظيفة حى قائم بذاته تتوفر فيه المرافق الهامة فهو يشمل مسجدا صغيرا وبئر ماء وميضأة وخزينة عامة وتقام فى حاراته وطرقاته الضيقة المزادات التجارية فتزدحم بالتجار وغيرهم . (٢)

ومع تقدم النشاط التجارى فى العصر المملوكى واتساعه ازداد اتجاه الامراء ورجال المال والاعمال من التجار وغيرهم الى التسابق فى بناء العمائر والقصور الفخمة الكبيرة وتحويلها الى خانات وفنادق ووكالات وقياسر وتأجيرها للهيئات والتجار بالحجرة وبأسعار باهظة . (٣)

ولا شك أن اقامة مثل هذه المشروعات قد ساعد الدولة فى تنظيم الحركة التجارية وازدهارها كما ساعد على توفير الفرص فى مجال الاستثمار والتوظيف وتنشيط التجارة ورفع مستوى المهارة فى التعامل والمعاملات التجارية فأدى كل

(١) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ، ص ٢٨٨ – ٢٩٣ .
(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكى، ص ٤٣٣، نعيم زكى فهمى: طرق التجارة ص ٢٩٣ .
(٣) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ، ص ٢٩٣ .

ذلك الى تحقيق المصلحة للاقتصاد المملوكى وللتاجر المستثمر .

وبعد أن كانت الخانات تعمل اول الامر فى التخرين وتنشيط التجارة العابرة تطورت فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) فأصبحت بمثابة أسواق للجملة فكانت الصفقات الكبيرة تتم فيها بين رجال الاعمال المحليين والتجار القادمين واصبحت من اهم حقول الاستيراد والتصدير فكان يجرى فيها التعاقدات وعمليات التخزين والتصريف والنقل والعمليات المصرفية التى تتمثل فى ايداع التجار لما يملكونه من ذهب وفضة لدى أمين الخان .(١)

واشتهرت مكة بخاناتها ذات الطابع الخاص المميز فان كل خان منها اختص بنزول فئة من التجار المختصين ببيع نوع معين من البضائع ومن اشهرها خان البزازين بالمسعى وقد أدخلت عليه بعض التحسينات فى عهد السلطان قايتباى فقد أمر سنة ٨٨٤هـ ببناء سبيل على يمين الداخل اليه كما أشار تاجره ووكيلة الخواجا شمس الدين بن الزمن والمهندسون بهدم السبيل القديم الذى كان امام الخان حتى تظهر عمارة السلطان وسبيله وعندما هدم استحسن السلطان ذلك لان المسعى صار مكشوفا وعمارة الخان والسبيل ظاهرة (٢)

ومن اشهر الخانات المنسوبة الى التجار فى مكة خان التاجر المكى حسب الله بن سليمان بن راشد وكان الشريف حسن بن عجلان أمر بهدمه سنة ٨٠٨هـ لان شخصا شكا اليه من ابن راشد وبعد ايام قتل هذا الشخص غيلة فأتهم بعض اصحاب ابن راشد فخشى التاجر من شريف مكة ولم يستطع الظهور بالبلد حتى آذن له الشريف بعد سنتين من الحادثة .(٣)

ولم يشر المصدر الىماهيةهذه الشكوى وان كان قد اشار الى ان الهدم قد شمل جميع العقار المنسوب الى هذا التاجر على اننا نرى ان التعرض للمنشآت

---

(١) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ،ص ٢٩٤ – ٢٩٥ .

(٢) الطبرى اتحاف فضلاء الزمن ،ص ٨٦ .

(٣) الفاسى : العقد الثمين ،جـ٤ ،ص ١٠٢ – ١٠٣ .

التجارية وغيرها يجب ألا يكون عقوبة وفى رأينا أن المصادرة أهون وأضمن لبقاء مثل هذه المؤسسة التى كان من الممكن أن تستفيد منها الدولة .... وان كنا نظن أن الهدم ربما كان لسبب آخر لم يشر اليه المصدر .

وأيا ما كان الامر فمن الاسباب التى تغرى التجار بالاقامة فى الحجاز وفى مكة بوجه خاص وجود المستودعات ومناطق التخزين بجانب الارباح التى كان التجار يحصلون عليها من عمليات التبادل النقدى والتجارى .

المشرفون على المنشآت التجارية :-

لم تترك المنشآت بغير اشراف ،بل خصص لها المشرفون للقيام بالاشراف والمراقبة وتحقيق الضبط والربط لتلك الاسواق والمؤسسات التجارية باعتبارها مركز لتجمع السلع والمتاجر وآخر مكان تستقر فيه البضائع وفى بداية الامر وجدت وظيفة المحتسب ومن واجباته الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والاشراف على الاسواق والطواف بها ليلا ونهارا لمنع الغش والتلاعب فى الاسعار والاوزان أو أنواع البضائع " واذا عثر بمن نقص المكيال أو بخس الميزان أو غش بضاعة أو صناعة استتابه عن معصيته ووعظه وخوفه وأنذره العقوبة والتعزير فان عاد الى فعله عزره على حسب ما يليق به من التعزير بقدر الجناية ولا يبلغ به الحد " .

ويسير نظام الحسبة والقائمين عليها فى الاسواق وفق النظام الاسلامى مع العمل على توفر الاشراف بما يضمن عدم المخالفة .

(ويتخذ المحتسب له غلمانا وأعوانا يلازمون الاسواق والدروب فى أوقات الغفلة عنه ويتخذ له فيها عيونا يوصلون اليه الاخبار وأحوال السوقة). (٢)

(١) الشيرزى : نهاية الرتبة : ص ٩ .

(٢) الشيرزى : نفس المصدر ،ص ١٠ .

وفضلا على اشرافهم على عمليات البيع والشراء كانوا يقومون بجمع ضريبة "المشاهرة والمجامعة" من الاسواق وهى ضريبة غير ثابتة وقد لوحظ فى حالة جبايتها أن يترك المحتسب البيع حرا فيتغالى التجار فى الاسعار بحجة توفية ما عليهم من هذه الضريبة . وكثيرا ما تعرض المحتسب للايذاء من جانب العامة والمماليك الجلبان بصفة خاصة بسبب التسعير الجبرى وكذلك من جانب السلطان اذا حدث ارتفاع فى الاسعار فيضرب المحتسب لانه لم ينظر فى احوال المسلمين . (١)

وفى اطار الامر بالمعروف تدخل مسائل كثيرة قد تكون متشعبة ولما كان من المتعذر فى بعض الاحيان أن يكون المحتسب على علم كامل بمايدور فى السوق فانه كان يعين عريفا لاهل كل صنعة ومن صالح أهلها خبيرا بصناعتهم بصيرا بغشوشهم وتدليساتهم ويطالعه بأخبارهم وما يجلب الى سوقهم من السلع والبضائع وما تستقر عليه من الاسعار وغيرذلكمن الاسبابالتى تلزم المحتسب معرفتها فقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (استعينوا على كل صنعة بصالح أهلها) . (٢)

وتبلغ رقابة المحتسب أشدها على الاطعمة فيتفقد اللحوم والمآكل والمطبوخات والمشروبات التى تباع فى الاسواق والطرقات للتأكد من سلامتها ونظافتها حرصا على الصحة العامة للناس فاذا وجد بعضها فاسدا أخذ البائع بالشدة . (٣)

وتمتد سلطة المحتسب فى الاشراف على الاسواق الى ازالة ما يبرز من الحوانيت مما يعوق المارة وأمرأهل الاسواق بكنسها وتنظيفها من الأوساخ وغيرها مما يضر بالناس لان النبى صلى الله عليه وسلم قال : " لا ضرر ولا ضرار " ولا يجوز للمحتسب تسعير البضائع لان المسعر هو الله ولكنه يراعى

(١) ابن تغرىبردى : النجوم الزاهرة ،جـ١٥ ،ص ٦٠هـ،نعيم زكىفهمى:نفسالمرجع ،ص ٣٨٣ .
(٢) الشيزرى : نفس المصدر ،ص ١٢ .
(٣) سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ٣١٠ .

التسعير الاجباري والاسعار التى تختص بالسلع التى لا يحق التغالى فيها فاذا رأى أحد التجار قد احتكر الطعام مثلا ألزمه بيعه اجبارا لورود الامر الصريح فى منع الاحتكار وتحريمه.(١)

ويقوم المحتسب بالكشف على موازين الباعة ومكاييلهم ويتفقد عيار الصنج والحبات وغير ذلك على حين غفلة من أصحابها فان وجد فيها خللا صادرها وألزم صاحبها بشراء غيرها أو اصلاحها وله الحكم فى الدعاوى المتعلقة بالغش والتدليس بالاضافة الى العديد من الوظائف الاخرى . (٢)

ويشترط فى المحتسب أن يكون من المشهود لهم بالعلم والرأى والفطنة كما يختار من بين القضاة لان عمله مرتبط بالقضاء .

وقد اشار ابن بطوطة الى ان محتسب مكة تقى الدين المعرى قد قطع يد صبى سرق بعض الحجاج (٣) ،وهذه الحادثة توحى بأن المحتسب كان له حق القضاء والحكم وتنفيذ الاحكام .

ومن ظاهر النصوص يلاحظ أن وظيفة الحسبة فى مكة فى العصر المملوكى كانت تدور بين بيتين من بيوتها اشتهرا بالعلم والقضاء والرياسة والحديث وهما "بيت بنى ظهيرة وبيت بنى النويرى" وان كان يتولاها وينوب فيها فى بعض الاحيان رجال من خارج هذين البيتين ويلاحظ أن الرشوة صارت عاملا من عوامل العزل والتولية لمثل هذا المنصب الجليل فى عهد المماليك الجراكسة .(٤) "فعد ذلك من المنكرات التى لم تدرك مثلها من قبل هذه الدولة . (٥)

---

(١) الشيرزى : نفس المرجع ،ص ٣١٠ .
(٢) الشيرزى : نفس المصدر ،ص ١١ – ١٤ .
(٣) ابن بطوطة : الرحلة ،ص ١٤٦ .
(٤) ابن حجر : ابناء الغمر ،ج٣ ،ص ١٠٢ .
(٥) المقريزى : السلوك ،ج٤ ،ص ١٠٢٠ .

ومن اشهر من باشر الحسبة أو ناب فيها فى مكة القاضى الحنبلى محمد بن عثمان المتوفى سنة ٧٣١هـ (١) والقاضى محمد بن أحمد العقيلى النويرى المتوفى سنة ٧٨٦هـ (٢) والقاضى شهاب الدين أحمد بن ظهيرة المتوفى سنة ٧٩٢هـ (٣) والقاضى أحمد بن محمد النويرى المتوفى سنة ٧٩٩هـ (٤) ويوسف ابن حسين بن يوسف المتوفى سنة ٨١٦هـ (٥) والقاضى جمال الدين محمد بن عبد الله بن ظهيرة المتوفى سنة ٨١٧هـ (٦) وأبو البركات محمد بن ابى السعود بن ظهيرة المتوفى سنة ٨١٩هـ (٧) وعز الدين محمد بن احمد النويرى المتوفى سنة ٨٢٠هـ (٨) وكمال الدين محمد بن محمد بن ظهيرة المتوفى سنة ٨٢٠هـ (٩) والقاضى جلال الدين ابو السعادات ابن ظهيرة المتوفى سنة ٨٦١هـ (١٠) .

ومما ينبغى ذكره أن وظيفة المحتسب لم يكن يليها فى العصر المملوكى الا واحد من رجال العلم كما سبق الا أنه فى عصر المماليك الجراكسة وبالتحديد منذ أيام السلطان الملك المؤيد شيخ أصبح هذا المنصب يتولاه الامراء المماليك من رجال السيف . (١١)

---

(١) ابن بطوطة : نفس المصدر والصفحة ، الفاسى : العقد الثمين ج٢ ، ص ١٣٤ – ١٣٦ .

(٢) الفاسى: نفس المصدر ج١ ، ص ٣٠٠–٣٠١ ، ابن تغرى بردى: نفس المصدر ج١١ ، ص٣٠٣ .

(٣) ابن حجر: ابناء الغمر ، ج١ ، ص ٤٠٣ ، الدرر الكامنة ج١ ، ص ١٤٣ – ١٤٤ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣١٣ ، ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ، ص ٣٢٢–٣٢٣ .

(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ج١ ص ٢٤٤ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٢٢ ، ابن العماد : نفس المصدر ج٦ ، ص ٣٥٧–٣٥٨ .

(٥) الفاسى : نفس المصدر ج٧ ، ص ٤٨٥ .

(٦) الفاسى : نفس المصدر ج٢ ، ص ٧٩ – ٨٠ ، ج٧ ، ص ٤٨٥ ، ابن العماد : نفس المصدر ج٧ ، ص ١٢٥ – ١٢٦ .

(٧) ابن حجر : ابناء الغمر ، ج٣ ، ص ١٢٠ .

(٨) الفاسى : نفس المصدر ، ج١ ، ص ٣٧٦–٣٧٧ ، ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٣٢٥ ، ابن العماد: نفس المصدر ج٧ ، ص ١٤٧ .

(٩) الفاسى : نفس المصدر ج٢ ، ص ٢٩٠ ، ابن العماد: نفس المصدر ، ج٧ ، ص ١٤٨ .

(١٠) ابن تغرى بردى : نفس المصدر ج١٦ ، ص ١٨٦ ، ابن فهد: نفس المصدر ، ص ٣٦٨ ، ٣٨٤ ، ٣٠١ ، ٤٠٣ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ٣٣٨ .

(١١) ابن تغرى بردى : نفس المصدر ج١٥ ، ص ٦٠ هـ .

وتشير المصادر الى أن الملك المؤيد شيخ قد ارسل أبا المحاسن تغرى برمش التركمانى الى مكة بمراسيم تتضمن النظر فى احوال مكة المكرمة والاذن له فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فيها وكان قد عنى بفنون شتى من العلم ويميل الى دين وخير توفى سنة ٨٢٣هـ (١) .

والواقع ان الحسبة فى العصر المملوكى الثانى كانت مضافة لباشية مكة فكان مقدم المماليك السلطانية المجازرين بمكة ـ للمحافظة على الامن فيها ـ يجمع بين باشية أو امارة أو مشيخة المجاورين ووظيفة المحتسب حتى أيام السلطان الغورى وبالتحديد الى ربيع الآخر سنة ٩٢١هـ حين فصلت الحسبة عن الباشية ،باشية مكة فأصبح السلطان يعين اميرا من المماليك ليتولى الباشية ،كما كان يقرر اميرا آخر من ارباب السيوف ايضا للنظر فى الحسبة بمكة . (٢)

ومن اشهر أمراء المماليك الذين تولوا الحسبة فى مكة الباشى سودون المحمدى (٣) المتوفى سنة ٨٥٠هـ (٤) والامير آقبردى المظفرى المتوفى سنة ٨٤٧هـ (٥) والامير برسباى الاينالى المتوفى سنة ٨٦٤هـ (٦) والباشى طوغان الاشرف الذى تولى الباشية سنة ٨٦٤هـ (٧) والامير جانبك النوروزى....

---

(١) الفاسى : العقد الثمين جـ٣ ،ص ٣٨٨ ــ ٣٩٢ ، السخاوى : الضوء اللامع جـ٣ ،ص ٣١ ،ابن العماد : شذرات الذهب جـ٧ ،ص ١٥٩ ــ ١٦٠ .

(٢) ابن اياس : نفس المصدر ،جـ٤ ،ص ٤٥٥ .

(٣) ابن اياس : نفس المصدر ،جـ٢ ،ص ٢٠٥ .

(٤) ابن تغرى بردى : نفس المصدر ، جـ١٥ ،ص ٥١٦ ــ ٥١٧ .

(٥) ابن اياس : نفس المصدر ،جـ٢ ،ص ٢٣٩ .

(٦) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ،ص ٣٦١ .

(٧) ابن اياس : نفس المصدر والجزء والصفحة .

المتوفى سنة ٨٦٧هـ [١] والامير برديك التاجى [٢] والامير قرقماش الشريفى المتوفى سنة ٩١٤هـ[٣] والامير جانى بردى قاسم [٤] والامير جانى بيك قرا[٥] والامير قراكز الحكم وقد تولى هذا الاخير نظر الحسبة بعد انفصالها عن باشوية مكة سنة ٩٢١ .[٦]

ولان مكة بلغت القمة فى دنيا المال والاقتصاد فى العصور الوسطى وخاصة فى موسم الحج الذى اعتمد عليه أمراؤها باعتباره أهم مورد مالى للامارة بالاضافة الى الدخل من تجارة العبور التى صارت جدة من أهم مراكزها بعد احتلالها مكانة عدن . فقد تطلب هذا التطور نظم تجارية جديدة أظهرها " نظام المراصد " وهى قوائم الاسعار والفرائب على التجارة والمارة وعلى الصادرات والواردات واستلزم الامر انشاء هيئة مهمتها الاشراف على تحصيل المكوس من التجار والحجاج القادمين من البر والبحر . [٧]

وممن تولى أمر المكس بجدة لشريف مكة ريحان بن عبد الله الحبشى المتوفى سنة ٨١٦هـ [٨] وجابر بن عبد الله الخراشى وكان نظير الشاد للشريف حسن بن عجلان فى أمور مكة وقد اشتهر بالامانة والحرمة ففوض اليه الشريف أمر جدة فباشرها احسن مباشرة وعمر فرضتها ونظم المكوس والرسوم التى يأخذها بنو حسن من التجار .....مات مشنوقا بعد اتهامه بموالاة المناوئين لشريف مكة من بنى حسن وذلك سنة ٨١٦هـ [٩] ومما ذكر أن أدعية الحاج

(١) ابن تغرى بردى : نفس المصدر جـ١٥ ،ص ٤٤٤هـ،جـ١٦،ص ٣٢٢ .
(٢) ابن تغرى بردى : نفس المصدر و،جـ١٥ ،ص ٤٤٤ .
(٣) ابن اياس : نفس المصدر : جـ٤ ،ص ١٤٥ .
(٤) ابن اياس : نفس المصدر جـ٤ ،ص ٢٥٠ .

(٥) ابن اياس : نفس المصدر جـ٤ ،ص ٤٠٩،٤٥٥ .
(٦) ابن اياس : نفس المصدر جـ٤ ،ص ٤٥٥ .
(٧) ابن جبير :الرحلة ،ص ٢٨– ٢٩ ، التحيبى السبتى : مستفاد الرحلة ،ص ٢١٩ – ٢٢٠، المقريزى : نفس المصدر ،جـ١ ،ص ٧٢٤ ، الجزيرى : نفس المصدر ص ٢٨١،نعيم زكى : نفس المرجع ،ص ٣١٠ .
(٨) الفاسى : العقد الثمين ،جـ٤ ،ص ٤٢٥ .
(٩) الفاسى:العقد الثمين،جـ٣،ص ٤٠٠–٤٠٢ ، ابن حجر: ابناء الغمر،جـ٣،ص ٢٣–٢٤.

كانت عليه كثيرة فى موسم السنة التى شنق فيها " بسبب كثرة زيادته عليهم فى امر المكس فأصيب مع المقدور بسبب دعائهم فان دعوة المظلـــوم ليس بينها وبين الله حجاب كما صح عن النبى صلى الله عليه وسلم " [١] وممن قبض الاموال عن التجار فى مكة عبد الله بن على المزرق الملقب بالعفيف بن النور المتوفى سنة ٨٢٦هـ .[٢]

ولكن يبدو أن التطور الاقتصادى أو النقلة الاقتصادية الهائلة فى جدة بعد اتصالها المباشر مع الشرق أسهم فى فصلها من الناحية الاقتصادية عن امارة مكة وربطها مباشرة بالدولة المملوكية فى مصر وبالرغم من أن الهدف من هذا العمل فى بداية الامر كان تحقيق التوازن فى ميزانية الدولة وخاصة بعد افلاس نظام الاقطاع وزيادة الاعباء المالية والحربية والتوسع الاقتصادى والعمرانى الذى شمل أجزاء الدولة فانه صار فيما بعد غرما على الدولة لا غنم فيه وخصوصا بعد التوسع الكبير فى السياسة الاحتكارية وفى أخذ المكوس والضرائب وعلى كل فان تحقيق هدف الدولة من الوضع الجديد فى جدة بشكل منضبط لم يكن يتأتى الا بارسال عدد من العمال والموظفين لمباشرة نشاط التجارة الخارجية فيها وتحصيل الاموال للدولة .[٣]

فكان شاد جدة أو ديوان جمارك جدة كما يعرف حديثا من أهم الهيئات المشرفة على تجارة هذا الثغر اذ صار جهازا بيعيا وشرائيا للدولة يعمل فى مجالى التصدير والاستيراد وفى ظل الظروف الطبيعية المحيطة بالدولة أو المؤثرة عليها كانت الرسوم على السلع الشرقية فى بندر جدة تتراوح بين ١٠٪ و٣٥٪ من قيمة السلع [٤].

---

(١) الفاسى نفس المصدر والجزء ،ص ٤٠٣ .
(٢) الفاسى : نفس المصدر ،جـ٥ ، ٢١٣ ــ ٢١٤ .
(٣) ابن اياس : نفس المصدر جـ٢ ،ص ٩٦ .
(٤) ابن اياس : نفس المصدر ،جـ٣ ،ص ٦٠ .

وكانت الدولة تلجأ الى طرح سلعها من مرجان ونحاس وغير ذلك من الاصناف التى تحمل الى الهند على التجار من جدة بالسعر الذى تحدده وقد جعل هذا التجار يجمحون عنها ويتحولون الى عدن ...... فما كان من الدولة الا ان فرضت الرسوم المرتفعة على السفن المارة بعدن قبل دخولها جدة وجعلت من ذلك وسيلة للضغط السياسى والاقتصادى على عدن للابقاء على مكانة جدة المكتسبة . (١)

وشاد جدة يعمل به جهاز ضخم يعين من قبل الدولة المملوكية منذ أن ، أصبح نظرها وظيفة مستقلة تعرف بنيابة جدة .(٢)

ولنائب جدة من نفوذ الكلمة والسلطة ما يجعله المتحدث على جميع الاقطار الحجازية (٣) .

ومن الوظائف الاشرافية على التجارة هناك ناظر جدة (٤) وكان يسند اليه أمر قفائها وحسبتها (٥) والناظر من كبار الموظفين ورؤساء الدواوين الذين شاركوا الوزير فى تصريف اعماله وقد تعددت ألقاب النظار حسب الاعمال الموكولة اليهم فناظر المال هو الذى يتحدث فى أمر تحصيل المال وصرف النفقات والكلف (٦) وناظر الجيش يتحدث فى اموال الجيوش وحساباتها وناظر الخاص ينظر فيما هو خاص باموال السلطان (٧) وهو يجمع بين السلطتين التنفيذية والاستشارية فيتحدث عن مجموع الامر فى الخاص بنفسه وفى العام

---

(١) المقريزى : السلوك جـ٣ ،ص ٩٢٩ – ٩٣٠ .
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ،جـ٢ ،ص ١٠٣ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١٦ ،ص ١٤١ .
(٤) ابن حجر : نفس المصدر ،جـ٣ ،ص ٤٣٤ ، ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٦٨ .
(٥) المقريزى : نفس المصدر ،جـ٣ ، ص ٩٧٣ .
(٦) السيوطى : حسن المحاضرة ،جـ٢ ،ص ١٣٢ .
(٧) القلقشندى : صبح الاعشى ،جـ٥ ،ص ٤٦٥ – ٤٦٦ .

يوءخذ رأيه فيه وهو يشبه الوزير لقربه من السلطان واليه تدبير جملة الامور وتعيين المباشرين .(١)

وفى جدة كان يجمع احيانا بين وظيفة نظر جدة ومباشرة الديوان فيها(٢) والمباشر هو الموظف الادارى فى الديوان ومباشرو الختم من الوظائف المستحدثة فىالعصر المملوكى وهم يقومون باستيفاء المكوس النوعية على البضائع المصدرة والمستوردة ورسوم الديوان وغيرها ولمنع غش السلع وهم وهم اشبه بموظفى الجمارك فىالعصر الحاضر فهم يقومون بمراقبة السلع ويقدرون المكوس التى تختلف باختلافالاموال ثم يختمون حمولات البضائع بخاتم خاص للدلالة على استيفاء الرسوم المستحقةعليها ويختم عليها باختام اخرى دلالة على فحصها وسلامتها .(٣)

اما المستوفى فهو موظف من كتاب الاموال وهو منالموظفين الرئيسيين فى الديوان وطبيعة عمله ضبط الديوان ومتابعته والتنبيه على ما فيه مصلحة دائرته التى يعمل بها من استخراج اموالها ونموها .(٤)

وهناك موظف آخر فى ديوان جدة مهمته التفتيش على الديوان ومراجعة حساباته ويعرف بالشاد .(٥)

والواقع أن الكارمية وهم اكبر دعائم البناء الاقتصادى فى البحر الاحمر كانت لهم هيئة اشرافية خاصة تابعة لناظر الخاص وذلك لكثرة مصالحهم التجارية مع الدولة الا انها قد تنفرد احيانا عن نظر الخاص حسب مقتضى الحال وحسب ما يراه السلطان على ان وظيفة " نظر البحار الكارمى " تكاد تتفق مع مراحل تطورهم وازدهار تجارتهم وقدرتهم على تمويل الدولة ولذلك كان من الضرورى وضع جهاز يعنى بتنظيمهم الادارى والتجارى فى البحر الاحمر

---

(١) السيوطى : نفس المصدر والجزء ،ص ١٣١ — ١٣٢ .
(٢) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٦٨ .
(٣) المقريزى : السلوك ج٢ ،ص ٤٣٩ هـ .
(٤) القلقشندى:صبح الاعشى،جـ٥ ،ص ٤٦٦، ابن حجر: ابناء الغمر،ج٣ ، ص ٥٠١ .
(٥) المقريزى : نفس المصدر ،ج١ ، ص ١٠٥ هـ .

والحجاز ومصر [١] وكان من اختصاص هذه الوظيفة ايضا تولى امر مقايضات البهار ومكس التوابل الواردة للطور من ميناء جدة .[٢]

وعندما زادت الموارد التجارية للكارم الى الحد الذى جعل استثماراتهم واسعة النطاق استحدث وظيفة " مستوفى البهار والكارم " لتنظيم جباية الضرائب منهم ومراقبة وارداتهم من مخازن تصريفهم فى اليمن وعدن ومكة وجدة وللاشراف على منشآتهم التجارية من خانات وفنادق وتسهيل معاملاتهم .

وعدا ذلك كانت هناك ادارات اخرى مهمتها الاشراف التجارى على الكارمية مثل وظيفة المراقب ، ووظيفة المفتش ، ووظيفة محصل الزكاة وفى اطار رعاية مصالح الكارمية وجدت وظيفة المتحدث لتكون همزة الوصل بين الكارمية والسلطان .[٣]

ولم يقتصر الامر فى التاريخ التجارى للعصر المملوكى على الهيئات المشرفة على نشاطات هذا القطاع من قبل الدولة بل كان هناك هيئات تجارية أهلية يقيمها التجار أنفسهم ترمى الى معالجة النواحى المتصلة بكيانهم وطبيعة حياتهم التجارية وكانت هذه الهيئات معترفا بها من قبل الدولة ومن أبرزها " نقابة تجار الكارمية " فقد كان هؤلاء التجار يكونون اتحادا مغلقا يجمع أفراد الكارمية دون سواهم وقد رسموا سياستهم على اساس التوسع فى المجال التجارى والهيمنة على التجارة الشرقية او احتكارها وجعلوا تنظيمهم هذا اسريا ينتقل من الاب الى الابن فقدسعى الكارمية منذ البداية لتدريب ابنائهم على ممارسة العمل التجارى منذ الصغر لاكتساب الخبرة فيه [٤]

وقد كان يتولى رياسة هذه الهيئة اكثر الكارمية ثراء وجاها وكان سلاطين المماليك يمنحون لقب كبير التجار ورئيسهم للتاجر الذى يثبت ولاءه للسلطان وبناء على ما اسداه للدولة من خدمات جليلة فى المجالات

---

(١) القلقشندى: نفس المصدر ،ج٤ ، ٣٢ .
(٢) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ،ص ١٩ .
(٣) القلقشندى:نفس المصدر ج٤ ،ص ٢٠ ،ج٥ ،ص ٤٥٧ ،نعيم زكى:نفس المرجع ص ٣٢٩-٣٣٠
(٤) ابن حجر : ابنوء الغمر،ج١،ص ٩٩-١٠٠ ،ج٢،ص ٢٧٠، ج٣ ، ص ٤٨ .

السياسية والاقتصادية وبناء على ما له من مكانة تجارية مرموقة فى مصر والحجاز والبحر الاحمر واليمن . (١)

وقد انتشرت نقابات التجار فى الشرق والغرب وهى على غرار الغرف التجارية فى الوقت الحاضر ......وفى مكة كان للتجار هيئة مسئولة عن مراقبة المعاملات التجارية ومنع الغش والتدليس كما يحدث فى كل مركز تجارى هام وكان رئيسها يختار من بين كبار التجار الذين لهم باع واسع فى دنيا المال والنقود ....ومداخلة الدولة وكان يعرف برئيس التجار او كبير التجار أو الشيخ او الزعيم .(٢)

وعموما ..... فان هذه الصفات كانت بمثابة الاسس التى تجعل من التاجر جديرا بنيل زعامة التجار ....ومن الملاحظ أن رياسة التجار فى مكة لم تكن يشترط فيها ان يكون التاجر مكيا فربما تولى هذا المنصب احد التجار المقيمين فيها اذا كان متمتعا بالشروط السالفة الذكر .(٣) ولا ريب فى ذلك فقد كانت طبيعة المكان ..واتساع الحركة التجارية فيه كفيلة بجذب التجار المسلمين من كافة بقاع المعمورة .

ومهما يكن من أمر فقد كان طبيعيا أن يدرك أهل مكة تلك المكانة التجارية العظيمة لبلدتهم ......فأقاموا فيها ومن حولها الاسواق والمنشآت التجارية لاستقطاب التجار والمشترين على مستوى عالمى وبالاضافة الى ما يحدث فى هذه الاسواق والموءسسات من تبادل تجارى ، فقد كانت بمثابة مراكز ثقافية وعلمية وخاصة خلال الاشهر الحرم وهنا تبرز أهمية مكة المكرمة ودورها فى حفظ التاريخ ونقله بحكم مركزها الدينى والثقافى والاقتصادى .

---

(١) ابن حجر:الدرر الكامنة جا ، ص ٤٥٠-٤٥١،ابناء الغمر جا ، ص ٢٨٨ ، ٣٠٦،ج٢ ص ٢٧٠ ،ج٣ ، ص ٥٠٧،صبحى لبيب : التجارة الكارمية، ص ٣٤- ٣٥ .

(٢) الفاسى:العقدالثمين ج٦،ص ١٠٦-١٠٧، ٢٢٩-٢٣٠، ابن تغرى بردى:النجوم الزاهرة ج١٦، ص ٣٥٣.

(٣) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

الفصل السادس

فئات التجار في مكة المكرمة

- التجار المحليون .
- التجار الموسميون
- التجار المتجولون .
- التجار الكارمية .

امسك العالم الاسلامى بزمام التجارة فى العصور الوسطى بحكم سيطرته على المعابر والطرق الرئيسية عبر الخليج والبحر الاحمر والبحر المتوسط وغيرها من الطرق البرية التى كانت تمر عبر أراضيه وسواحله ، وقد زاد هذا النشاط التجارى نتيجة اهتمام السلطات المملوكية بتوفير الامن والارتباط بعلاقات اقتصادية مع الدول المصدرة والمستوردة لتجارة الشرق .

وكان من الطبيعى أن تصبح مكة المكرمة بحكم مركزها الدينى وموقعها على الطرق الرئيسية من أهم مراكز التجارة العالمية فى ذلك الحين فقد كانت السفن تصل الى مينائها جدة وكان التجار المسلمون يتلقون فى اسواقها المحلية والموسمية والسنوية ويتعاملون مع تجارها فى مراكزهم .

ولا شك أن التجار المسلمين كانوا محور التجارة العالمية بصفة عامة وتجارة مكة المكرمة بصفة خاصة ... وقد تحكموا فى تجارة الافاوية التى ازدادت بسببها المبادلات التجارية بشكل كبير بين الشرق والغرب فى ذلك الحين .

ومن الملاحظ أن البيوت الكبرى التى اهتمت بتلك التجارة كانت فى معظمها بيوتا عربية اذ كان العرب يتجرون بمنتهى الحرية فى جميع الموانئ والمراكز التجارية الهندية والصينية وغيرها وكان لهم نشاط واسع فى هذه المناطق ، فأنشئوا الوكالات التجارية ،واقاموا المستودعات الكبيرة لبضائعهم وبلغ اهتمام الدول التجارية فى الشرق بشأنهم أن خصص قاض مسلم للفصل والحكم بين المسلمين القاصدين لتلك النواحى والصلاة بهم فى موسم الاعياد والدعاء للسلطان فى الخطب .(١)

وحتى اواخر العصور الوسطى كان التنافس شديدا بين التجار المسلمين والهنود والصينين فى شراء وبيع وتوزيع السلع الرئيسية وكانت التجارة

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ،ص ٥٥٠-٥٥٨، الجزيرى: تحفة العجائب، ق ٢٤٤-٢٤٥ .

الشرقية اذا وصلت الى ملقا حملها التجار العرب المسلمون الى موانىء ومدن الخليج والبحر الاحمر ، وان كانت معظم الرحلات التجارية توجه اساسا الى البحر الاحمر واليمن والحجاز ليتم نقلها وتصريفهما فى مصر والشام[1] . ومما يذكر أن عدن كانت آخر نقطة يمكن أن تصل اليها سفن التجار الهنود حتى عام ٨٢٥هـ وهو العام الذى بدأت فيه جدة تستقبل السفن الهندية ومن ثم تتزعم الحركة التجارية مع الشرق[2] اما السفن الصينية فقد تأخرت قليلا فى التعامل التجارى مع جدة حتى عام ٨٣٥هـ وقد ظلت جدة اقصى نقطة وصلت اليها السفن الهندية والصينية فى البحر الاحمر[3].

وخلاصة القول ان مفتاح التجارة العالمية فى العصور الوسطى كان فى يد التجار العرب المسلمين اذ كانت لهم السيادة الاقتصادية لتجارة العبور بين الشرق والغرب ولا ريب فى ذلك فقد كان العرب تجارا بالفطرة كما ان الاسلام يشجع على التجارة ويحث على السعى فى طلب الرزق ، وقد تطورت النظم التجارية فى الاسلام فى مختلف فروعها وتم ضبطها بضوابط ساعدت على جعلها وسيلة من وسائل الدعوة الى الله ، فقد كان معظم التجار من الفقهاء ، وكان لذلك اكبر الاثر فى قيامهم بالدعوة الاسلامية الى جانب التجارة .

وتشير المصادر التاريخية الى الجاة العريض والثراء الواسع ، والمكانة الاجتماعية الرفيعة التى تمتع بها التجار فى مكة ابان العصر المملوكى كما تشير الى رعاية السلطات المختصة لهم واهتمامها بمصالحهم

---

(١) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ،ص ٣٢، ٣٥، ٣٧، ٤٧ ،سونيا هاو: فى طلب التوابل ،ص ٤١.

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٥٥ ، الجزيرى : درر الفوائد ،ص ٣٢٢-٣٢٣.

(٣) ابن حجر : ابناء الغمر ،جـ٣ ،ص ٤٧٣، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١٤ ،ص ٣٦٢ .

علاوة على علاقات الود والمصلحة التى نشأت بين الطرفين ، وحسب ما رواه الفاسى كان لكل واحد من بنى حسن او اكثرهم صاحب من تجار مكة وغيرهم. وله على التاجر نفع او فائدة يأخذها منه فى كل سنة مقابل حمايته. فاذا أراد أمير مكة أو غيره من بنى حسن التعرض لتاجر بسوء تدخل صاحبه لحمايته (١).

غير أن ظاهرة النزاع بين الاشراف على السلطة فى مكة المكرمة وانعدام الأمن فيها فى كثير من الاحيان بسبب الفتن والقلاقل تعد من اصعب المشكلات التى واجهت التجار المحليين والقادمين الذين تعرضوا لخسائر جمة ، من مصادرة للأموال ونهب للبضائع والمتاجر ولم يكن بوسع التجار نتيجة لتلك الاوضاع الا الفرار بأموالهم من مكة وجدة الى ينبع وبسبب رسوخ اقتصاديات التجارة فى مكة المكرمة فى تلك الحقبة فان التجار الفارين بأموالهم كانوا يرجعون اليها بعد عودة الهدوء والاستقرار (٢) ورغبة من التجار فى استتباب الامن طلبوا من السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى اثناء حجته الثانية سنة ٧١٩هـ أن يجعل بمكة قوة عسكرية تعمل على اشاعة الامن وقمع المفسدين فكان لهم ما طلبوه . (٣)

ولم يكن تأثير النزاع من وجهة النظر الاقتصادية قاصرا على التجار فقد برزت مجموعة من النتائج سبقت الاشارة اليها ولعل من أهمها ما يتصل بارتفاع الاسعار وشدة الغلاء وانقطاع الاقوات لقلة الصادر والوارد . (٤)

---

(١) العقد الثمين ،ج٤ ،ص ١٥٤ .

(٢) الفاسى : نفس المصدر ،ج٤ ،ص ٩٠ – ٩١ ، ج٦،ص ١٢،المقريزى:السلوك،ج٢ ،ص ٤٠٨ ،ابن حجر : ابناء الغمر ،ج١ ،ص ٣٠٣ ، ج٣،ص ٥٦ ، ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣١٥، ٣١٨، ٣٢١ .

(٣) الجزيرى : درر الفوائد ،ص ٢٩٨ .

(٤) انظر الفصل الثانى " النزاع بين بنى قتادة واسباب الغلاء " .

ومن أبرز الصعاب التى واجهت التجار أيضا .... اتباع الامراء فى مكة لسياسة الاقتراض من التجار دون ضمان ... فان التاجر لم يكن يستطيع أن يسترد ما أخذ منه على سبيل القرض ، هذا عدا الرسوم والجبايات المتعددة التى كانت تؤخذ منهم .

وكان الامراء يعللون أخذهم لذلك كله بأسباب تتصل بقسوة الحياة وصعوبتها واحتياجهم للاموال للقضاء على الفتن والعمل على استقرار الاحوال الامنية والاقتصادية ... وفضلا على خدمة المحمل والحاج .(١)

وفى الحقيقة لم يكن ذلك قاصرا على التجار فى مكة وذلك أن التجار بصفة عامة كانوا يؤلفون طبقة مقربة لسلاطين المماليك الذين أحسوا بان التجار هم المصدر الاساسى الذى يمدهم بالمال فى أوقات الشدة وخاصة بعد فشل الاقطاع وتدل جميع الشواهد على أن التجار تمتعوا فى عصر المماليك بثروات طائلة وهذا امر طبيعى فى دولة كانت حلقة النشاط التجارى بين الشرق والغرب غير أن ثراء التجار شكل حاجزا يحول بينهم وبين الاطمئنان على اموالهم وتجارتهم فى كثير من الأحيان فقدجعلهم دائما مطمعا لسلاطين المماليك فأكثروا من مصادرة اموالهم واثقالهم بالرسوم والمكوس الباهظة لدرجة أن التجار كانوا يدعون على انفسهم ويطلبون أن يغرقهم الله حتى يستريحوا مما هم فيه من الغرامات والخسارات وتحكم الظلمة " (٢)

واذا كانت هذه الصعاب تعد من أبرز المشكلات التى واجهت هذه الفئة من التجار من مكة فان ذلك لا يمنع أن يكون لهم دورهم الاساسى المرتبط

---

(١) الفاسى : نفس المصدر ،جـ٦ ،ص ٢٠٧ ، المقريزى : نفس المصدر ،جـ٢ ، ص ٨٥٢ ، ابن حجر : نفس المصدر ،جـ٢ ،ص ٢٤٨-٢٤٩ ، ابن فهد : نفس المصدر ص ٣١٥ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر ،جـ٤، ص ٤٤٤، ابن حجر : ابناء الغمر ، جـ١ ، ص ٣٦٥ ، ٥٢٩، سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ،١٩٦٢م ،ص ٣٦، العصر المماليكى فى مصر والشام ،ص٣٢٤.

ببيئتهم المحلية والمتأثر بظروفها الخاصة وعموما فقد كان لهؤلاء التجار أثر كبير في الحياة الاجتماعية . فقد قام عدد منهم ببناء المساكن والاربطة ووقفها على الفقراء والمحتاجين .... كما قاموا بانشاء صهاريج المياه وتسبيلها ... بالاضافة الى كثرة القرى والمعروف سواء في مكة او في الطريق اليها .[1] ويظهر دورهم بشكل واضح في المجال العلمي وليس ذلك بغريب في العصر المملوكي فقد كان من العلامات البارزة فيه ازدهار الحركة العلمية وظهور عدد من الاعلام الافذاذ برعوا في الفقه والحديث والنحو والادب والتاريخ وقد كان لسلاطين المماليك أثرهم في هذا النشاط العلمي الواسع فقد شجعوا العلم والعلماء وحرصوا على عقد المجالس العلمية والفقهية ومما ورد في وصف السلطان الظاهر بيبرس أنه " كان يميل الى التاريخ وأهله ميلا زائدا ويقول سماع التاريخ أعظم من التجارب " .[2]

وعلى كل فقد واظب كثير من التجار في ذلك العصر على حضور مجالس العلم وتصدى عدد منهم للقراءات والاشتغال بالتدريس والفتوى وانتفع الناس بهم في مكة وغيرها .[3]

وفي هذا الاطار فانه من المهم التعريف بقطاعات التجار والترجمة لنماذج منهم .

التجار المحليون :-

كانت هناك فئتان رئيسيتان لهؤلاء التجار هما فئة التجار المحليين

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة، ص ١٤٨، الفاسي : العقد الثمين، جـ٣، ص ١٠٣، جـ٦، ص ١٠٦، ١٠٧، ابن حجر : ابناء الغمر جـ٢ ، ص ١٢٧، ابو مخرمة : تاريخ ثغر عدن، جـ٢، ص ١٠٨، ابن اياس : بدائع الزهور، جـ٢، ص ١١٧ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، جـ٢، ص ١٨٢ .

(٣) الفاسي : نفس المصدر، جـ٣، ص ٢٤، ٢٥، ٤٢ جـ٥، ص ١٢-١٣، ص ٧٧-٧٨، جـ٦، ص ٤٧١، المقريزي : السلوك جـ٣، ص ٧٩، ابن حجر : ابناء الغمر : جـ١، ص١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، جـ٣، ٤٧، ١٢٠، ٢٠٥، ابن العماد : شذرات الذهب، جـ٦، ص ١٧٠-١٧١ جـ٧، ص ١٢٥، ١٢٦، ١٥١، ١٥٢، ١٥٤ .

من اهل مكة وفئة التجار المقيمين من نزلاء مكة أو المجاورين فيها من انحاء العالم الاسلامى كافة ويبدو أن اسلوب التخصص كان غالبا على صنعة هؤلاء التجار من محليين ومقيمين فمنهم من تخصص فى بيع العطور والبخور ومنهم من تخصص فى بيع البز والعمر[١]، ومنهم من كان يتاجر فى السجاجيد والبسط وجماعة كانت تتاجر فى بيع التوابل واخرى فى بيع المؤن والمواد الغذائية . هذا بالاضافة الى ارباب الحرف الذين كانوا يعملون لسد حاجات الاسواق المحلية وتوفير اسباب الحياة للناس مثل الخبازين والجزارين والخياطين والحدادين وغيرهم .

وقد انتشرت حوانيت هؤلاء التجار وأرباب الحرف فى انحاء مكة واتخذت كل طائفة او جماعة منهم اماكنها فى الاسواق التخصصية ذلك ان كل سوق اختصت ببيع سلعة بعينها [٢] ولا شك أن تركيز كل سلعة أو حرفة فى سوق خاصة كان من شأنه أن ييسر على المحتسب وأعوانه أمر الاشراف عليها ومراقبة الموازين والمكاييل والنظر فى الاسعار وخاصة عند احتكار السلع والاقوات التى يحتاج اليها عامة الناس .

ويمكن القول بشكل عام أن التجار المحليين والمقيمين كانت لهم اسهاماتهم فى جميع جوانب الحياة فى مكة وكانوا من المقربين لدى امرائها فكانوا يستعينون بهم فى حل الازمات والقضايا السياسية والاقتصادية . [٣]

---

(١) العمر : " المنديل او غيره تغطى به المرأة رأسها والعمارة : كل شئ يضعه الرئيس على الرأس من عمامة او تاج او غيره كالعمرة " ،الفاسى: العقد الثمين،جـ٥،ص ٣٣٩.

(٢) انظر الفصل الخامس الاسواق المحلية .

(٣) الفاسى : العقد الثمين ،جـ١ ،ص ٣٣٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١٥ ،ص ٣٧٩، ابن اياس : بدائع الزهور ،جـ٢ ،ص ٢٥٥ .

ولما كان التجار المحليون والمقيمون يمثلون فئة سكانية لها ثقلها ووزنها البارز فى مكة لشدة ارتباطهم بحياة الناس ومعايشهم . فضلا على رسوخ اقتصاديات التجارة فى هذا البلد بالقياس الى انواع الاقتصاد الاخرى ، نجد لزاما علينا الاشارة الى بعض الاسماء التى لمعت فى الميدان التجارى المحلى فى ذلك العصر .... منهم على سبيل المثال " التاجر محمد ابن ابراهيم المكى كان يلقب بالجمال بن العز المتوفى سنة ٧٠٥هـ وكان ذا نظم وعناية بالشعر وقد ورث مالا عن ابيه لكنه بالغ فى الاسراف حتى احتاج فى آخر عمره وصار يتكسب بالتجارة وغيرها . (١)

ومن أعيان التجار ذوى اليسار والخير فى مكة عمر بن على المكى المتوفى سنة ٧٦٥هـ (٢)... وسليمان بن راشد السالمى المتوفى سنة ٧٧٩هـ وهو من أثرياء التجار وقد تعرض هو واخيه (وأخوه) للاختطاف فى سنة ٧٧٧هـ اختطفهما بعض الاشراف المناوئين للسيد احمد بن عجلان صاحب مكة ... ولكن تم انقاذهما على يد فرسان الشريف أحمد الذى عمل ما فى وسعه لتوفير الامن ورعاية مصالح الشرعية والتجار (٣)، وقد خلف هذا التاجر عقارا طائلا بمكة والوادى ونخلة .(٤)

ومن كبار التجار ضياء الدين محمد الهندى الماغانى نزيل المدينة ثم مكة سنة ٧٨٠هـ وكان سبب تحوله من المدينة انه كان تاجرا كثير المال .. فطلب منه أميرها جماز شيئا من المال فامتنع فسجنه ....ثم افرج عنه ...

---

(١) الفاسى : نفس المصدر ،جـ١ ،ص ٤٠١ .

(٢) الفاسى نفس المصدر ، جـ٦ ،ص ٣٣٨ — ٣٣٩ .

(٣) ابن فهد : نفس المصدر ،ص ٣٠٧

(٤) الفاسى : نفس المصدر ،جـ ٤ ، ص ٦٠٦ .

فاتفق أنهما اجتمعا بالمسجد فوقع من جماز كلام فى حق الخليفتين ابى بكر وعمر فكفره الضياء وقام من المجلس وتمكن من الوصول الى ينبع واستجار بأميرها آبى الغيث فأرسله الى مصر وهناك شنع على جماز فأمر السلطان بقتل جماز فقتل فى الموسم فنهبآل جماز دار الضياء فتحول الى مكة . وظل مقيما بها وكان فاضلا عارفا بالفقه والعربية والاصول . (١)

اما محمد بن حسب الله القرشى المتوفى سنة ٧٨٣هـ فكان كبير التجار فى عمره وكانيلقب بالجمال ويعرف بالزعيم وكان واسع الثراء ويقال ان تركته بلغت ثلاثمائة ألف ألف ، وقيل ثمانمائة ألف ألف ومائتى ألف درهم ، وقيل ثلاثمائة ألف ألف وستمائة ألف درهم (٢). وقيل أن ما عثر عليه من ماله بعد وفاته بلغ أكثر من عشرين ألف دينار سوى ما خفى . وقد اكتسب ثروته من التجارة وكان مشهورا بمعرفته لها وحذقهفيها الا انه كان معروفا بالمعاملات الربوية (٣)، لا يبالى فى اعطاء المال على وجه السلف بالفائدة ويعيب على من يطلب منه القليل وكان ينال من غرمائه كثيرا بالقول والفعل وربما حبس بعضهم بغير استئذان الحكام بسبب احسانه اليهم وعلو منزلته عندهم .(٤)

ومن التجار الذين كانت لهم بالامراء صحبة التاجر محمد بن احمد المصرى نزيل مكة المتوفى سنة ٧٨٩هـ فقد كان بينه وبين أحمد بن عجلان وئام كبير وكان يحضر معه فى القضايا المتعلقة بالنزاع على السلطة وولى الوكالة عنه احد امراء المماليك هو الامير جركس الخليلى وكان هذا الامير يتولى صدقاته بنفسه كما تولى الوكالة عن غيره من الامراء والتجار(٥).

---

(١) ابن حجر: المصدر السابق ،جـ١،ص ١٨٧–١٨٨، ابن العماد: شذرات الذهب ،جـ٦ ، ص ٢٦٨–٢٦٩.

(٢) الفاسى : العقد الثمين جـ١ ،ص ٤٥٥ .

(٣) ابن حجر : انباء الغمر ،جـ١ ،ص ٢٥٠،جـ٢ ،ص ١٢٥ .

(٤) الفاسى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) الفاسى : نفس المصدر والجزء ،ص ٣٣٠، ابن حجر : نفس المصدر والجزء ص ٤٦٣ .

وكان نزيل مكة عبد الله بن محمد الملقب بالعفيف ، والمعروف بالهيتى المتوفى سنة ٧٩٧ هـ من أعيان التجار بعدن وقد كثر سفره للتجارة الى مكة ثم استوطنها .... ونقل اليها أهله وقد اشتهر بالحكمة وحسن التصرف أقبل عليه صاحب مكة احمد بن عجلان ورعاه أمراؤها لعقله وكثرة مروءته وخيره .(١)

ومنهم محمد بن على الاصبهانى المتوفى سنة ٧٩٩هـ فقد كان يتاجر بالعطارة وله دكان بسوق العطارين عند باب بنى شيبة وكان معروفا بالخير والمروءة جيدا مقبول الشهادة عند الحكام(٢) .

ومنهم ابن جوشن احمد بن على المصرى المتوفى سنة ٨٠١هـ ،من أعيان التجار المعروفين بالبر (٣) ،اوقف وقفا على الفقراء بهدة بنى جابر .

ومن أعيان تجار اليمن الذين استوطنوا مكة العماد عيسى بن عبد الله اليمنى المعروف بابن الهليس المتوفى سنة ٨٠٢هـ أقام بمكة خمس عشرة سنة متوالية عاد بعدها الى اليمن وولاه صاحبها الاشرف اسماعيل (٤) عدن ولكنه لم يلبث ان عزل عنها بعد سنين قليلة .(٥)

ومن كبار التجار محمد بن عمر الجمال المعابدى الوكيل ... كان واسع الثراء والجاه كثير القرى والمعروف ـ خلف مالا عظيما نقدا وعقارا، أذهبها ابنه على بعد وفاته فى غير وجهها .(٦)

---

(١) الفاسى : العقدالثمين،جـ٥ ،ص ٢٩٧، ابو مخرمة : تاريخ ثغرعدنجـ٢،ص ١١٨.
(٢) الفاسى : نفس المصدر ،جـ٢ ،ص ١٥٧-١٥٨ .
(٣) الفاسى : نفس المصدر جـ٣ ،ص ١٠٣ .
(٤) هو السلطان الرسولى اسماعيل بن الملك الافضل عباس تولى الحكم فى اليمن سنة ٧٧٨هـ وقد ساد البلاد فى فترته الهدوء والاستقرار توفى سنة ٨٠٣هـ.
(٥) الفاسى : نفس المصدر ،جـ٦ ،ص ٤٥٩، ابو مخرمة : نفس المصدر والقسم ص ٢٥٤ . الخزرجى : العقود اللؤلؤية جـ٢،ص ١٥٧-٢٨٩.
(٦) الفاسى:العقدالثمين،جـ٦،ص ٢٥٠، ابن حجر: ابناء الغمر جـ٢ ،ص ٢١٧ .

ومنهم ابن جوشن محمد بن على المصرى المتوفى سنة ٨٠٦هـ وقد خلف عقارا طائلا [١] وابن قنين التاجر عبد الرحمن بن سعد الحضرمى المتوفى سنة ٨١٢هـ كان ثريا خيرا ، اشترى بمكة املاكا ثم انتقل الى المدينة المنورة بعد وفاة الشريف أحمد بن عجلان ...وحصول الاختلاف بعده فى أمر الدولة وكانت وفاته بالمدينة بعد ان استوطنها وأقتنى بها املاكا .[٢]

وممن طلب العلم وسعى فى تحصيله الى جانب التجارة احمد بن محمد الدمنهورى المتوفى سنة ٨١٦هـ . الذى كان يعمل فى العطارة وكان له دكان مع العطارين وكان مع ذلك ينسخ عددا من كتب العلم رغب فى تحصيلها استفاد دنيا وملكا أنشأه بناحية الحزورة وكان ينطوى على خير ودين .[٣]

اما أحمد بن عبد الله المكى المعروف بابى مغامس المتوفى سنة ٨١٥هـ فقد كان فى مبدأ أمره صيرفيا ثم صار من أصحاب الاموال والثراء ومن تجار مكة المشهورين وصار يداين الناس كثيرا .[٤]

ومن كبار التجار على بن محمد المعروف بالزعيم المتوفى سنة ٨١٦هـ ورث اموالا كثيرة عن والده وكان يحيط نفسه بمظاهر العظمة والغنى انفق كثيرا من امواله على الدولة بمكة فرعاه الامراء وقربوه وعلى العوام فأحبوه وكانوا يتسابقون الى خدمته .[٥]

ومن التجار العلماء القاضى المحدث الحافظ جمال الدين محمد بن عبد الله بن ظهيرة المتوفى سنة ٨١٧هـ ،رحل فى طلب الحديث ـ وله باع واسع فى العلم وانتفع الناس به فى مكة وأفادهم نحو من أربعين سنة .

---

(١) الفاسى : نفس المصدر ،جـ٢ ،ص ١٥٢ .

(٢) الفاسى : نفس المصدر ،جـ٥ ،ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦ .

(٣) الفاسى : نفس المصدر ،جـ٣ ،ص ١٥٧ ـ ١٥٨ .

(٤) الفاسى : نفس المصدر ،جـ٣ ،ص ٧٥ .

(٥) الفاسى : نفس المصدر ، جـ٦ ،ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

وكان كثير العبادة مع السمت الحسن والسكون .(١)

ومن اشتغل بالتجارة أبو البركات محمد بن ابى السعود بن ظهيرة لم يعتن بالعلم كثيرا بل كان ممارسا للتجارة مذكورا بسوء المعاملة وولى حسبة مكة ونيابة الحكم فى القضاء بها وعزل عنهما عدة مرات لقلة علمه ودرايته مات معزولا سنة ٨١٩هـ . (٢)

ومن أثرياء التجار ظهيرة بن حسين بن ظهيرة المتوفى سنة ٨١٩هـ ويعد من جملة العلماء فى ذلك العصر أجاز له جماعة من شيوخ مصر والشام ومكة وقد استفاد من تجارته عقارا كثيرا ...ونقدا وعروضا . (٣)

ومنهم العصاد بن عيسى بن موسى القرشى المتوفى سنة ٨٢٠هـ حفظ القرآن وجوده ومهر فى التجارة واستفاد منها عقارا بمكة والخضراء وخيف بن عامر وغيرها .(٤)

ومنهم زين الدين عطية بن خليفة المعروف بالمطيبير المتوفى سنة ٨٢٧هـ كان كبير تجار مكة ... اشتغل بالتجارة طوال حياته وكسب منها كثيرا.

ومن اصناف المتاجر التى عانى التجارة فيها البهار ،واجتمعت له أموال عظيمة وعقار كثير فى مكة ووادى مر ونخلة ويذكر أنه كان يكسب فى الدرهم ستة أمثاله ولم يكن معتنيا بتحرير ما يجب عليه من الزكاة ويرى أن احسانه الى أقاربه وما تأخذه منه الدولة من المال يقوم مقام ذلك، وكان قليل الرفق فى مطالبه غرمائه شديدا فى الاقتضاء منهم ... ومن وجوه البر التى تنسب اليه .. صدقة قررها للفقراء الواردين من اليمن وطريق

---

(١) الفاسى : نفس المصدر جـ٢ ،ص ٨٠، ابن العماد : شذرات الذهب ،جـ٧،ص ١٢٥- ١٢٦ .

(٢) ابن حجر : ابناء الغمر،جـ٣ ، ص ١٢٠ .

(٣) الفاسى : العقد الثمين ،جـ٥ ،ص ٧٧ - ٧٨ .

(٤) الفاسى : نفس المصدر جـ٦ ،ص ٤٧١ .

السراة والطائف وأخرى بهدة بنىجابر على طريق المدينة المنورة وله بمكة اوقاف عديدة وسبيل ماء أنشأه بقرب المروة وآخر بمنى كما أقام رباطا للنسوة بسوق الليل [١]، ويذكر السخاوى أنه كان صيرفيا [٢].

ومن التجار ذوى الجاه فى مكة شهاب الدين احمد بن جار الله السنبسى المتوفى سنة ٨٢٧هـ كان من المقربين الى الشريف حسن بن عجلان صاحب مكة وتولى النظر له فى امواله بوادى مر وغيرها وانتفع بذلك وكثرت مراعاة الناس له وكان واسع الشراء ـ كثير المال ـ له مساكن وعقار كثير بمكة وبساتين ونخيل وسقايا كثيرة بالخضراء من وادى مر وغيرها . [٣]

ومنهم عبد الرحمن الهندى المتوفى سنة ٨٢٧هـ كان ماهرا فى صناعة العمر وبيعها ولذلك لقب بالعمرى وكانت له عناية بالفقه ، اشتهر بالخير والدين والسكون ويذكر أن أباه كان قاضيا فى الهند أما هو فقد قدم مكة وجاور بها خمسين سنة ورزق بها أولادا وبها توفى .[٤]

اما نزيل مكة شهاب الدين احمد بن سالم الجدى المتوفى سنة ٨٢٧هـ فقد كانمن التجار والعلماء البارزين تولى قضاء جدة واستفاد من تجارته مالا واسعا وعقارا .[٥]

وكان التاجر بركوت بن عبد الله المكينى المتوفى سنة ٨٣٠هـ حسن السيرة كثير الافضال محبا لاهل العلم والخير بارا بهم وكان فى سعة من المال معظما عند الناس بنى بعدن أماكن عديدة ثم انتقل الى مكة فسكنها وبنى

---

(١) الفاسى : نفس المصدر ج٦ ،ص ١٠٦-١٠٧ .
(٢) الضوء اللامع ،ج١١ ،ص ١٨٠ .
(٣) الفاسى : العقد الثمين ،ج٣ ،ص ٢٤ .
(٤) الفاسى : نفس المصدر ج٥ ،ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .
(٥) الفاسى : نفس المصدر ج٣ ،ص ٤٢ .

دارا عظيما واماكن جليلة وقد صاهر التاجر الكارمى الكبير برهان الدين المحلى .[١]

وممن انتهت اليه رياسة التجار بمكة الخواجا التاجر بدر الدين حسن الطاهر اليمنى المتوفى سنة ٨٧١هـ تولى شاد جدة وكان كثير المال والبخل [٢] ومما يحمد من أعماله وقفه لما يملكه من منافع الرباط الكائن بمكة بجوار المسجد الحرام عند باب سويقة أحد أبواب المسجد الحرام على الفقراء والمساكين الغرباء المتعطلين من الرجال دون النساء ممن لا سكن لهم ولايقدرون على اجرة مسكن وليس لاحدهم بيت يسكن به ، يقيمون فيه قوما بعد قوم ومن سبق الى سكنى الرباط كان أولى وأحق به من غيره ولا يخرج منه ومن سافر منهم سفرا يزيد على ستة أشهر كان لغيره من الفقراء المتصفين بالصفة المذكورة وأوقف على مصالحه منافع العمارة الكائنة على يمين الداخل من باب الرباط المذكور والدكان والمخزن الذى تحتها وكان قد استحق منافع هذا الرباط عن طريق استئجاره الشرعى مدة خمسة وتسعين عاما وعشرة أشهر وعشرين يوما متوالية وأوقفه هذه المدة كاملة . وجعل النظر فى ذلك من بعده لذريته الذكور ، فان تعذر ذلككان نظره للاعلم الاصلح من أهلالحرم الشريف ، وثبت ذلكعند القاضى بمكة [٣]وكان لهذا التاجر علاقات وطيدة مع سلاطين المماليك فقربوه ورعوا أبناءه بعد وفاته .[٤]

وكان الخواجا مصطفى صاحب طرابلس الرومى المعروف بالذبيح المقيم بمكة والمتوفى سنة ٨٧٥هـ قد خلف ثروة طائلة تزيد على عشرين ألف دينار . وقد أوصى بثلث ماله للفقراء وللقضاة الاربعة بمكة ولصاحبها ونائب جدة بجزء من ماله وأوقف بيتا له بها على قارىء كان يقرأ له فى مصحف كل يوم..

---

(١) ابن حجر : ابناء الغمر ، جـ٣ ، ص ٣٨٨ ، ابن اياس: بدائع الزهور ، ص ١١٧ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ١٦ ، ص ٣٥٣ ، السخاوى : الضوء اللامع ، جـ١١ ، ص ١٧٦ .

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٦٨ .

(٤) ابن فهد : نفس المصدر ، ص ٤٣٦ .

وقد نفذت الوصيـــــــــــــــــــــــــــــة • عدا ثلث الفقراء فانه لم يفـــرق منه الا اليسير لان السلطان برقوق أمر أن يبطح به المسجد الحرام وان تعمر به عين عرفة فكان ما أمر .[1]

أما أحمد بن محمود بن قاوان أو كاوان فتطلق عليه المصادر لقـــب " ملك التجار " وقد قدم مصر صحبة الحجاج من مكة سنة ٨٩٠هـ فعظم أمـــره بها جدا وذاعت شهرته • [2]

التجـــــــــــــــــار الموسميـون :ـ

سبق أن اكدنا أن مواسم الحج ومواسم قدوم متاجر الشرق كانت تمثـــل المواسم الزاهرة للتجارة عماد الاقتصاد فى مكة ولاهمية مكة وكونها مركـــزا رئيسيا للتجارة ومحطة للتجارة العالمية فى ذلك الحين كان يفد اليها أعدادا كبيرة من تجار الشرق والغرب الاسلامى ومن الموءكد أن هوءلاء التجار قـــد اسهموا بنشاط واسع فى مضمار التجارة الدولية ولعل الارباح الى كانـــوا يجنونها من عمليات التبادل النقدى والتجارى بالاضافة الى توفر المستودعات ومناطق التخزين ووجود السلع التجارية المتنوعة كل هذا كان من أهـــم الاسباب التى اغرت التجار على القدوم والاستفادة من هذة المواسم •

ولا شك أنه كان لقوافل الحج وماصاحبها من التجارة الاثر الكبيـــر فى ازدياد النشاط التجارى فى مكة وفى ظهور مجموعة كبيرة من الاســـواق، والمحطات على طرق القوافل فأتيحت لهذه القوافل فرص تعدد عملياتهـــا التجارية من تبادل للمنتجات والسلع المختلفة ••• وقد كانت هذه القوافـــل تصطحب معها أعدادا غفيرة من الحجاج والتجار والشركاء والوكلاء التجاريين

---

(١) ابن فهد : نفس المصدر،ص ٤٤٢، السخاوى : الضوء اللامع ج١،ص ١٦٠ •

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ،ج٣ ،ص ١١٦ •

القادمين ببضائع ومتاجر تفوق الوصف ولعل انضمام التاجر الواحد الى القافلة بأكثر من مائة جمل محملة مابين شاشات وأزر وبهار وغيرها من السلع لدليل واضح على نمو مشروعات التجار فى هذا الموسم [(١)] وعلى سعة استيعاب اسواق مكة للقوافل العديدة القادمة من جميع بقاع العالم الاسلامى . وعلى ذلك يمكن وصفها بانها كانت اكبر موزع لمتاجر الشرق والغرب فى تلك المدة .

ويعد تجار مصر والشام أشهر التجار الذين ترددوا على مكة كثيرا.. وكانت قوافلهم التجارية اضخم القوافل التى تصل اليها وهى محملة بروائع بضائع وسلع مصر وبلاد الشام وافريقية وآسيا الصغرى وأوربا ومن مكة كانت تنقل معظم هذه البضائع الى عدن عن طريق القوافل البرية ثم الى الهند كما تصل الى الهند عن طريق البحر الاحمر وميناء جده وتعود محملة بطرائف الشرق كما اسهم تجار فارس[(٢)] والعراق بدور كبير فى تنشيط الحركة التجارية بمكة فكانوا يصلون اليها مع قوافل الحجيج ويحملون معهم نفائس العراق وبلاد فارس - وما وراء النهر - ولهم آثار حميدة فى مكة المكرمة وفى طريق الحجاج .[(٣)]ومن الفئات التجارية التى كثر ترددها على مكة للتجارة تجار اليمن فقد كانت الركبات تسير من بلاد اليمن محملة بالسلع والبضائع الآتية من الهند والصين وافريقية ومن اليمن نفسها متجهة صوب مكة لتحل فى مواسم الاسواق حيث تنشط التجارات وتعقد الصفقات التجارية على اوسع نطاق .[(٤)]

والجدير بالملاحظة أن موسم الحج كان من أعظم المواسم التجارية للتجار الموسميين الذين كانت تجارتهم مرتبطة بمواعيد هبوب الرياح الموسمية وكان وصولهم الى اسواق مكة وجدة فى مواعيد ثابتة لا تتغير كانت تصادف

---

(١) المقريزى:السلوك،ج٤،ص ٧٥٦، ابن حجر: ابناء الغمر ،ج٣ ،ص ٣٨٣ .

(٢) الفاسى:العقدالثمين،ج٣ ،ص ٢٤-٢٥، ابن العمادالحنبلى:شذرات الذهب ج ٦ ، ص ١٧٠ - ١٧١، ابن حجر: ابناء الغمر ج٣ ص ٤٧، ٢١٠، ابن طولون: مفاكهة الخلان،ق ١ ،ص ٢٨ .

(٣) ابن جبير:الرحلة ،ص ٧٩، الفاسى :نفس المصدر ج٤ ،ص ٣٨٥-٣٨٦ .

(٤) الفاسى: نفس المصدر ،ج٤،ص٩-٩١-٩٥،ج٦،ص ٢٨٦، ابن حجر: نفس المصدر ،ج٢، ص ١٢٤، ٥٢٥ .

فى معظم الاحيان أشهر الحج الاسلامية [1] وهنا لابد من الاشارة الى ان التجارة الموسمية فى البحر الاحمر قد انحصرت حتى اوائل القرن التاسع الهجرى فى تجار اليمن والكارم .... لانه لم يكن يسمح لتجار الهند والصين بتخطى عدن شمالا فى البحر الاحمر فكانت رحلتهم التجارية تنتهى عند عدن ثم تقفل سفنهم عائدة من حيث أتت .

ومن المعروف أن تجار اليمن من اوائل التجار المسلمين الذين قاموا بدور كبير فى نشر الاسلام فى الهند والصين وجاوة وافريقية وغيرها .. وألفوا التجارة منذ القدم وكانت لهم علاقات تجارية مع كثير من البلدان فى العصر الوسيط وبالاضافة الى ذلك اقترن ذكرهم فى مكة والمدينة والحجاز بموسم ورود التوابل والعطور من الهند والصين وقد اشتهر قدومهم اليها بالمرزوقى [2].

ولعل هذه التسمية تشير الى المكانة التجارية الكبيرة لهوءلاء التجار والى الرخاء والازدهار التجارى الذى يجلبه وصولهم وخاصة أن منعهم من القدوم كان يعنى اشتداد الغلاء وقلة المتاجر بل عدمها .[3]

وتشير المصادر الى أن كثيرا من التجار الموسميين قد آثروا المقام فى مكة بعد ترددهم عليها وعمروا بها الدور والاوقاف وكانت لهم علاقات متينة مع أمرائها كما كانوا يتوسطون لديهم فيما يعرض للناس من آمور [4] ، ويبدو أن ثراءهم واتساع مشروعاتهم التجارية والمنافسة التجارية الحرة الشريفة بين بلدانهم والدولة المملوكية قد أدت الى مضاعفة الجهود من قبل سلاطين المماليك للمحافظة على مكانتهم التجارية فى مكة والبحر الاحمر.

وعلى الرغم من تشجيعهم التجار على ارتياد مكة وأمر ولاتها باسقاط

---

(١) بناء على المصادر التاريخية لتلك الفترة كانت السفن الهندية تصل الى جدة فى اشهر الحج وخاصة فى شهرى رجب وذو القعدة وقد دأبت السلطات المملوكية على ارسال المباشرين فى شهر رجب من كل عام للنظر فى جمرك جدة والعودة بعد الموسم الى القاهرة .

(٢) الحسينى : الجواهر الثمينة ،ق ٩٧ أ .

(٣) المقريزى: السلوك ج٢،ص ٦٦٠، الجزيرى : درر الفوائد ،ص ٣٠٩ .

(٤) الفاسى: العقد الثمين ج٢، ص١٠٢-١٠٣، ج٧، ص٢٧-٢٨، المقريزى: نفس المصدر ج٤، ص٩٢٠، ابو مخرمة : تاريخ ثغر عدن، ق٢ ،ص ١١٨.

المكوس عنهم فان المراسيم كانت تستثنى تجار اليمن والعراق والكارم وهى فئات من التجار اشتهرت بغناها الواسع .(١)

واذا كان تجار اليمن والكارم قد تزعموا حركة التجارة الموسمية لفترة طويلة فان هذه الزعامة لم تلبث أن تحولت عنهم تدريجيا فى أعقاب التحول التجارى الذى طرأ نتيجة تعسف سلاطين اليمن مع التجار فقد أخذت حالة الميناء فى التدهور بسبب اضطراب الاوضاع وتعسف ملوك اليمن مع التجار وفرضهم الضرائب الباهظة على ما يحملونه من بضائع وادى ذلك كله الى تحول تجار الهند والصين الى جدة بعد أن ظهرت فى صورة قوة تجارية منافسة وبدأت تكتسب أهمية تضارع اهمية عدن ابان ازدهارها . (٢)

وللاهمية الفائقة للتجارة الشرقية سعى سلاطين المماليك الى جعل موسم ورود التوابل من الهند والصين الى اسواق جدة ومكة خاضعا لاشرافهم المباشر كما عملوا على اجتذاب تجار الهند والصين ورعاية مصالحهم وتقديم شتى انواع التسهيلات لهم فكانت المراسيم التى تنص على زيادة المكوس على التجار ..... تنص على اعفاء تجار الهند والصين من تلك الزيادة والا يوءخذ منهم سوى العشر(٣) وهو ما جرت به العادة فقد كان التجار القادمون عن طريق البحر يدفعون للسلطات المملوكية العشر من بضائع تجارتهم(٤)، ثم ان دفعهم العشر كان حسب طلبهم ، فقد اشار هوءلاء التجار الى أنهم ظلموا بأخذ أكثر اموالهم فى عدن ورغبوا فى القدوم الى جدة ليحتموا بالسلطان المملوكى وعرضوا أن يدفعوا عشر أموالهم (٥).

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٠٦ .
(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٦٠ .
(٣) ابن حجر : ابناء الغمر ،ج٣ ،ص ٥٢٩ – ٥٤٠ .
(٤) القلقشندى : صبح الاعشى ،ج٣ ،ص ٤٦٣ .
(٥) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٨٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج١٥ ،ص ٣٣٨ .

وبعد ان كانت التجارة الموسمية فى الماضى قاصرة على تجار الكارم واليمن .... صارت بعد وصول السفن الشرقية الىجدة تشمل فئات متعددة من تجار العالم الاسلامى وكان من أبرزهم تجار الشام ومصر الذين اصبحوا من السمات المألوفة فى الاسواق الموسمية سواء فى مكة أو فى فرضتها جدة علاوة علىتجار الهند والصين وغيرهم وقد كانت ثروات الشرق على مايبدو هى التى تتحكم فى الاتجاهات الرئيسية لتاريخ التجارة ، ومسير التجار فى الشرق والغرب على السواء [١] .

والواقع أن هذه التجارة قدمكنت سلاطين المماليك من الحصول على عائد مالى سريع ووافر عن طريق الضرائب وتوظيف رءوس أموالهم فى متاجر الشرق وأهمها التوابل ولذلك لا ندهش اذ نجد المحمل المصرى سنة ٨٢٨ هـ ، يتأخر بمنى يوما ملفقا من أجل بهار السلطان الذى أمر بألا يباع البهار الا على تجار مصر وحدهم ليضمن الحصول على الضرائب والتحكم فيها بالشكل الذى يرضيه .[٢]

وحتى يحكم المماليك تنظيم سياستهم الضرائبية بعناية تامة فرضوا على جميع الحجاج والتجار القادمين من الشرق أن يأتوا معهم بالتوابل الى جدة لتقوم القوافل بنقلها الى مكة واستغلوا موسم الحج فى الاعلان على الملأ... بأن كل من اشترى بضاعة من بضائع التجار وسافر بها الى غير القاهرة حل دمه وماله للسلطان وسافر التجار القادمون الى مكة من جميع الاقطار مع الركب المصرى لتوءخذ منهم مكوس بضائعهم فى القاهرة ثم اذا ساروا الى بلادهم أخذ منهم المكس ببلاد الشام مرة ثانية [٣] وفضلا عنذلك فان تجار مصر والشام واليمن القادمين من الهند والذين تاجروا فى جدة ونافسوا متجر السلطان كانوا يتعرضون لسياسة غرائبية تعسفية

---

(١) المقريزى:السلوكج٤،ص٧٣٥،٧٦٨،٩٦٥، ابنحجر: ابناء الغمرج٣،ص ٤٧٦، ٥٠٧، ٥٢٩، ٥٤٠، ابن اياس:بدائع الزهور،ج٢،ص ١٤٢ ،ج٣،ص ١١٦ ، ابو مخرمة :تاريخثغر عدن،ق ٢،ص ٦٩،سونيا هاو: فى طلب التوابل ،ص ٤٦-٤٧ .

(٢) ابن حجر : نفس المصدر ،ج٣ ،ص ٣٤١ .

(٣) المقريزى: نفس المصدر ج٤،ص ٧٣٥، ابنفهد :المصدرالسابقص ٣٦٤،الجزيرى:المصدر السابق،ص ٣٢٥.

خاصة من قبل سلاطين المماليك للقضاء على منافستهم .[1]

وبهذه السياسة أصبح السلطان المملوكى ورجال دولته أعظم تجار للتوابل وأكثرهم ثروة بفضل المتجر السلطان وما كانوا يجنونه من حصيلة الضرائب التى فرضوها على التوابل حتى تصاعدت اسعارها فى الاسواق .[2]

وتشير المصادر الى أن تجار الشام قد بذلوا كل جهدهم فى الدفاع عن مستقبلهم التجارى مع المماليك [3] ولعل ابرز مظاهر احتجاجهم وسخطهم على السلطات المملوكية وعلى الظلم الواقع عليهم من قبل شاد جدة أنهم فى سنة ٨٥٠هـ أعتصموا بالحرم الشريف وليتمكنوا من اعلان تظلمهم أمسكوا بخطيب الجمعة وصاحوا يا للاسلام - فأرتج المسجد لذلك وكثر البكاء والضجيج عند الكعبة - حتى كادت أن تفوت صلاة الجمعة وفى صلاة العصر رفع التجار المصاحف على رؤوسهم وطافوا بالبيت واجتمعوا بالقضاة الاربعة اكثر من مرة كما اجتمعوا بالائمة والاعيان وشاب البلد وذكروا محنتهم مع مشد جدة الامير جانبك الظاهرى الذى ظلمهم وأستأصل جانبا عظيما من أموالهم ثم أنه بعث يطلبهم فخافوا من ظلمه وتركوا البيع والشراء واعرضوا عن النزول الى جدة وسألوا القضاة أن يأذنوا لهم بكتابة محضر بأفعال جانبك . ويرسلوه الى السلطان ... فكتب المحضر ... ولكنهم لم يصلوا الى نتيجة لان خبرهم وصل الى مشد جدة فبعث كتبا الى القضاة وبعض الاعيان يعتذر عما ذكر عنه " ويحلف أنه لم يكن له عندهم غرض " [4]والجدير بالملاحظة فى هذه القضية ما اشار اليه ابن فهد عن موقف امير مكة وبعض القضاة ودعمهم لموقف المشد التعسفى وحطهم على التجار وتعذيبهم لهم[5].

---

(١) ابن حجر : المصدر السابق ،ج٣ ،ص ٥٣٩ - ٥٤٠ .

(٢) سونيا هاو : المرجع السابق ،ص ٤٦ .

(٣) المقريزى: المصدر السابق ج٤ ،ص ٧٦٨ ، ٩٦٥، ابن حجر : المصدرالسابق ج٣ ،ص ٤٠٠، ابن تغرى بردى : المصدر السابق ج١٤ ،ص ٣١٣ - ٣١٤ .

(٤) ابن فهد : المصدر السابق ،ص ٤٠٥ -٤٠٦ ، ابن اياس : المصدر السابق ج٢ ،ص ٢٥٧ .

(٥) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .

وعلى كل فبالرغم من المشاكل الناجمة عن السياسة الضرائبية فان التجارة الموسمية كانت مصدر ثراء للدولة والتجار بشكل عام وظلت اسواق مكة وجدة الموسمية او موسم الهندى تجتذب التجار المسلمين بكافة فئاتهم طوال العصر المملوكى .

التجار المتجولون :-

مما لا شك فيه ان التجارة باعتبارها نشاطا اقتصاديا ممعنا فى القدم والارتباط بحياة الانسان والظروف الجغرافية كانت من أبرز الانشطة الاقتصادية فى مكة ان لم تكن النشاط الوحيد وكان التاجر المتجول هو عماد التجارة وهو يمارس التجارة سائحا فى الارض أو فى البحر فى رحلات طويلة أو قصيرة وتدل الشواهد على أن كثيرا من تجار مكة قد مارسوا حياة السفر والترحال فى طلب الرزق فترددوا على اليمن وظفار ومصر وبلاد الشام والحبشة وسواكن والهند والصين وغيرها .
وكان لهم سجل عريض فى تاريخ التجارة الدولية ومنذ العصور الاسلامية الاولى نشطت مكة فى القيام بدورها باعتبارها محطة تجارية ومركزا هاما من مراكز النقل والتوزيع وكان تجارها يعملون وسطاء تجاريين بين الشرق والغرب (١).

ولقد نشأت من وراء الاسفار تجارات كبيرة مع ان اساسها لم يكن سوى تلك التجارات الصغيرة حين كان البائع المتجول يجوب الاسواق بكيسه المتدلى من عنقه حسب خطة ثابتة كما أن له زبائن معروفين فاذا اغتنى أخذ يستعمل الحصان واذا لقى مضاربة من بائعين أقوياء لجأ الى بيع البضائع التى لا تجتذب قيمتها الضئيلة كبار التجار وفى القرون الوسطى كان يطلق على البائعين المتجولين ......لقب الارجل المغطاة

---

(١) سونيا هاو: فى طلب التوابل ،ص ٢٩،بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٧ .

بالغبـــــــــــــار .(١)

ويضع ابن خلدون الاسس الهامة لنجاح التاجر المتجول بقوله " التاجر البصير بالتجارة لا ينقل من السلع الا ما تعم الحاجة اليه من الغنى والفقير والسلطان والسوقة ... اذ فى ذلك نفاق سلعته واما اذا اختص نقلـــه بما يحتاج اليه البعض فقط يتعذر نفاق سلعته حينئذ باعواز الشراء مـــن ذلك البعض لعارض من العوارض فتكسد سوقه وتفسد ارباحه وكذلك اذا نقـــل السلعة المحتاج اليها فانما ينقل الوسط من صنفها فان العالى من كـــل صنف من السلع انما يختص به أهل الثروة وحاشية الدولة وهم الاقل وانما يكون الناس أسوة فى الحاجة الى الوسط من كل صنف فليتحر ذلك جهده ففيه نفاق سلعته أو كسادها وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة أو فـــى شدة الخطر فى الطرقات يكون اكثر فائدة للتجار وأعظم أرباحا وأكفـــل بحوالة الاسواق لان السلعة المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة لبعد مكانها أو شدة الضرر فى طريقها فيقل حاملوها ويعز وجودها واذا قلت وعزت غلـــت اثمانها واما اذا كان البلد قريب المسافة والطريق سابل بالامن فانـــه حينئذ يكثر ناقلوها فتكثر وترخص أثمانها ولهذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول الى بلاد السودان أرفة الناس واكثرهم اموالا لبعد طريقهم ومشقـــة وكذلك المسافرون الى الشرق .(٢)

والواقع ان هؤلاء التجار قد أثروا ثراء عظيما .. فمما لا شك فيـــه أن طبيعة الارتحال والانتقال تزيد من فرص الكسب والربح بالاضافة الـــى آن التجار المنتقلين كثيرا ما تنشأ بينهم الشركات ومن أشهرها شركات العنـــان وشركات القراض او المضاربة وهذا يؤدى الى زيادة رأس المال وزيادة فـــى

---

(١) جورج لوفران: تاريخ التجارة ،ص ٣٨ ــ ٣٩ .

(٢) العبر : جا ،ص ٣٣١ ــ ٣٣٢ .

الربـــــــح .(١)

كما أن التاجر المتنقل قد يقوم بالوكالة عن تجار آخرين من بلده او من البلاد التى يمر بها ويأخذ مقابل ذلك مبلغا من المال بناء على عقد بينهما وعلاوة على ذلك فان التاجر المتجول يتمكن من بيع تجارته فى منطقة واسعة وبذلك ينقل البضائع والمتاجر المختلفة المتنوعة التى تقوم لها الاسواق الرائجة فى كل مكان يقصده ثم أن فرص الكسب والربح انما تكون فى صف التاجر السفار لان جهده له والامل فى الربح هو الدافع الى العمل بخلاف التاجر المستقر الذى ينقص ربحه بقدر راحته والتاجر المتجول يدير بنفسه مشروع تجارته وكل من يكل اليه ببعض ماله لتشغيله عليه أن يوافق على قراراته دون مناقشة وهو يتمتع بمفرده بفوائد تجارته بأرباح المشاركة فى المشروعات الاخرى .(٢)

وعلى الرغم من المميزات العظيمة الناتجة من هذا النوع من التجارة فانه يبدو أن الامن المعيشى لم يكن متوفرا فيها ذلك أن حظ التاجر من عمله كان متوقفا على ما يصادفه مشروعه من نجاح او فشل ...فقد يخسر التاجر جملة من ماله أو كله فى بعض سفراته وهذا امر مسلم به ويقع كثيرا .(٣)

وحتى تكتمل الصورة وتتضح معالمها تجدر الاشارة الى بعض التجار الذين خبروا هذه التجارة فى مكة فى تلك الفترة فمنهم على سبيل المثال ...... امام الدين محمد بن الزين القسطلانى المكى المتوفى سنة ٧٥٤هـ كان ممن سمع الحديث وحدث بعد أن اجاز له بعض علماء عصره وكان ذا مال وافر

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ،جه ،ص ٤٤٨ – ٤٤٩ .

(٢) الفاسى : نفس المصدر ،ج٣ ،ص ٢٤ – ٢٥ ، ابن حجر : المصدر السابق ج٣ ،ص ١٨ ، ابن خلدون العبر : ج١ ، ص ٣٣٠ ،نعيم زكى فهمى : طرق التجارة ، ص ٢٩٨ .

(٣) الفاسى : نفس المصدر ،جه ،ص ٤٤٨ – ٤٤٩ .

سافر فى التجارة الى اليمن ... وفيه خير وصلاح .(١)

ومن التجار السفارين الذين تركوا الترحال بعد ثرائهم وغناهم واكتفوا بالتجارة المحلية التاجر المكى عبد العزيز بن على الاصفهانى المعروف بالعجمى المتوفى سنة ٧٦٤هـ كان فى مبدأ امره فقيرا ثم صار تاجرا كبيرا بفضل التجارة مع الشرق وقد تناول نشاطه الافاوية وصار له عقار طائل فى مكة ووادى مر والهدة ووقف بواسط الهدة فكانا يقال له المفقسر على الزوار فى طريق الماشى وكان قد اشترى نصفه بخمسة وعشرين ألف ونصفه الاخر باثنى عشر ألفا وخمسمائة .(٢)

ومنهم التاجر عبد العزيز بن سالم الجهنى المعروف بابن الاصبع المتوفى سنة ٧٦٩هـ كان قد اشترك فى التجارة مع عبد العزيز العجمى السالف الذكر ثم انفصلا وسبب ذلك ان هذا سافر فى بعض السنين بمال مشترك بينهما فربحا فيه بحيث صار لكل منهما مائة ألف ، فاقتضى رأى عبد العزيز العجمى ترك السفر والقناعة بمكسب الحضر وأبى هذا الا السفر كما كان ووالى الاسفار وفى كل مرة كان يذهب له جانب كبير من ماله الى ان ذهب جميعه وانهارت تجارته بعد ان وقع ضحية عدم الحيطة . (٣)

والتالجر المكى محمد بن يحى الصنهاجى المتوفى سنة ٧٨٠هـ ممن تردد الى اليمن بقصد التجارة ونجح فى تجارته وحصل دنيا الا أنها غرقت منه فعظم أسفه عليها وتعلل حتى مات .(٤)

ومن أثرياء التجار الذين كانت لهم صلات تجارية مع اليمن التاجر موسى بن على بن قريش المكى المتوفى سنة ٧٨٥هـ اكتسب بسبب التجارة شهرة ووجاهة عند الناس بمكة واليمن وقد آثر السكن ببعض بلاد اليمن ولم يلبث أن ذهب فى بعض

(١) الفاسى: العقد الثمين ،جـ٢ ، ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .
(٢) الفاسى : نفس المصدر جـ٥ ،ص ٤٥٤ " لم يذكر المصدر نوع العملة " .
(٣) الفاسى : العقد الثمين جـ٥ ،ص ٤٤٨ — ٤٤٩ .
(٤) الفاسى : نفس المصدر جـ٢ ، ص ٣٨٧ .

السنين الى اليمن للعلم الذى ينفذه صاحبها فى كل سنة ليوقف بعرفة..لكن التجارة من أهم اعماله .(١)

وكان عثمان بن عبد الله بن ظهيرة المكى ممن زاول التجارة وكثر تردده على الموانى اليمنية وكانت تعد الابواب الرئيسية للتجارة مع الهند وافريقيا فى ذلك الوقت وقد توفى فى أثناء احدى رحلاته التجارية بزبيد سنة ٨٠٠هـ .(٢)

ومن كبار التجارنزيل مكة عبد الله بن ابراهيم الحميرى اليمنى المتوفى سنة ٨٠٧هـ واهتم بالتجارة وتعددت محطاته التجارية بين مكة والحبشة ومصر واليمن وكان ذا غنى وجاه كبيروكان له كثير من العقار والاوقاف بمكة وما حولها وقد اوصى فى مرض موته بالتصدق بثلث امواله على الفقراء والمساكين وجماعة من أقاربه ومواليه الذين أعتقهم . (٣)

ومنهم التاجر قاسم بن ابى الغيث اليمنى المتوفى سنة ٨١٤هـ كان على اتصال تجارى بعدن وغيرها من بلاد اليمنوالهند ومصر واستفاد من سفراته التجارية كثيرا وحصل دنيا طائلة غير انه خسر كثيرا منها فى احدى سفراته الى مصر وكان موصوفا بالخير ،عمربمكة دارا حسنة وقفها مع دور اخرى بعدن وزبيد على أولاد له صغار . (٤)

وممن تردد الى اليمن للتجارة محمد بن على الجهنى المكى المتوفى سنة ٨١٥هـ وكان احد الطلبة بالمسجد الحرام وقد سمع من بعض شيوخ مكة . (٥)

---

(١) الفاسى : نفس المصدر ، ج٧ ،ص ٣٠٠ – ٣٠١ .

(٢) الفاسى : العقد الثمين ،ج٦ ،ص ٢٥ .

(٣) الفاسى نفس المصدر ج٥ ،ص ١٠٢ – ١٠٣ .

(٤) الفاسى : نفس المصدر ج٧ ،ص ٢٧ – ٢٨ .

(٥) الفاسى : نفس المصدر ،ج٢ ،ص ٢٢١ .

وعبد الحميد بن مسلم المكى المعروف بابن مخضور المتوفى سنة ٨١٦هـ كان تاجرا مفيرا ثم تردد على سواكن واليمن للتجارة وقد واكب النجاح مشروعاته ورزق حظا وافرا فى التجارة ويقال أنه أستأجر مركبا وملاءه نوى " نوى البلح " واشترى كل ويبة فيه بدرهم فلما وصل الى مكة باع كل ويبة منه بخمسة وعشرين درهما كاملية فصار من الاعيان فترك السفر وعنى بالزراعة واتخذ كثيرا من المزارع والنخيل والمياه ويوادى مر ووادى نخلة وغيرها بالاضافة الى دور فى مكة ومنى وقد اشتهر بالشهامة والكرم كثرة القرى ولم يكن له فى ذلك نظير من تجار مكة (١) وقد ركز أحمد بن مفتاح المكى المتوفى سنة ٨١٩هـ جهوده فى التجارة وكان أبوه عبدا لامير مكة ثقبة بن رميثة اما هو فقد ترك الخدمة واقبل على التجارة واثرى منها وعرف عند الناس وصار يتردد بسببها الى اليمن وكان موصوفا بالخير والديانة .(٢)

وممن قصد اليمن للتجارة وطلب الرزق أبو بكر بن محمد الدروى المكى محمد المتوفى سنة ٨٢٠هـ وكان قد اشتغل بالفقه والنحو وفاقت عنايته بالادب وله نظم حسن .(٣)

ومن التجار الذين اتسع نطاق تعاملهم التجارى وشمل بلاد شتى عمر بن محمد الدروى المكى ويعرف بابن الجمال المصرى - المتوفى سنة ٨٢٣هـ اهتم بالعلم والتجارة وتولى الحسبة بعدن ثم عزل عنها وكان قد اودع شيئا من تجارته مع بعض المسافرين فمات غرقا ويبدو أن خسارته كانت كبيرة فانه لم يلبث أن مرض ومات (٤). اما يحيى بن يوسف الحمامى المكى المتوفى سنة ٨٣٠هـ فالى جانب اشتغاله بالفقه فقد تعاطى التجارة وسافر لاجلها الى اليمن وظفار ومصر وملك بمكة عقارا .(٥)

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ،جـ٥ ،ص ٣٣٧ - ٣٣٨ .
(٢) الفاسى : نفس المصدر ،جـ٣ ، ص ١٨٥.
(٣) السخاوى : الضوء اللامع ،جـ١١ ،ص ٧٤ .
(٤) الفاسى : العقد الثمين ،جـ٦ ،ص ٣٥٥ .
(٥) الفاسى : نفس المصدر ،جـ٧ ،ص ٤٥٨ ، السخاوى : الضوء اللامع ، جـ١٠ ، ص ٢٦٧ .

ومن تجار اللوءلوء فى مكة أبو القاسم بن محمد بن مقبل المكى ويعرف بالغلة المتوفى سنة ٨٣١هـ كان تاجرا وبحارا سافر الى هرمز واليمن وغيرها ومارس الغوص للحصول على اللآلىء وكان مشهورا بحب الخير وهو صاحب النجم ابن فهد موءرخ مكة الشهير .(١)

وممن رسم سياسته التجارية على أساس التعامل المباشر مع الهند نزيل مكة الخواجا با يزيد الدامغانى المتوفى سنة ٨٦٢هـ ... وأبو بكر الشحرى التاجر المتوفى سنة ٨٧٠هـ ومن اعمال البر التى اقامها الاخير بمكة انشاوءه سبيلا فى بيته بمنى سنة ٨٥٠ هـ . (٢)

وكان ابو القاسم بن عبد الله المالكى المكى المتوفى سنة ٨٧٥هـ تاجرا وصانعا للعمر وقد دخل القاهرة والصعيد وتردد على بجبلية باليمن ومات فيها (٣)

وكان من كبار العلمـــاء التجار ابو بكر النويرى المتوفى سنة ٨٩٣هـ خطيب مكة وكان على اتصال تجارى مع اليمن والهند وافريقية وتناول نشاطه الاقمشة وغيرها وقد رأى فى سفراته التجارية والعلمية حظا زائدا وكان له عبيد يسافرون له فى تجارته ووافته المنية فى عدن .(٤)

ومنهم عز الدين بن عبد اللطيف المكى المتوفى سنة ٩٢١هـ .. اعتنى بالعلم والتجارة وأجاز له كثير من علماء عصره وسافر مع أبيه فى التجارة الى الهند واليمن وسواكن وغيرها .(٥)

ومما سبق يتضح أن اليمن والهند وافريقية شهدت زيادة النشاط التجارى مع مكة. وأن التجار بهارسموا سياستهم التجارية على اساس واقع مواكب

(١) السخاوى : نفس المصدر ج ١١ ،ص ١٣٩ .
(٢) السخاوى : نفس المصدر ،ج١١ ، ص ١٠٠ ، ١٥٠ .
(٣) السخاوى : نفس المصدر والجزء ،ص ١٣٥ .
(٤) السخاوى : نفس المصدر والجزء ،ص ٨٧ .
(٥) ابن العماد : شذرات الذهب ،جـ٨ ،ص ١٠٠ .

لمتطلبات العصر ......ففى تلك الحقبة كانت الافاوية هى موضوع التجارة الاول بين الشرق والغرب وهى التى ادت الى اغتناء مكة وتجارها بل الى تفوق الدولة المملوكية وازدهار اقتصادياتها بشكل كبير .

وقبل أن ننهى الحديث عن التجار المتجولين ......ينبغى آلا نغفل فئة هامة من التجار لعبت دورا بارزا فى الحياة الاقتصادية بمكة وهم تجار السراة والطائف والاودية المحيطة بمكة .....مثل وادى نخلة اليمانية والشامية ووادى نعمان ، ووادى آدم ، وبطن مر وغيرها ....فقد كان تجار هذه النواحى أعنى المزارعين أو الفلاحين يمونون أسواق مكة الموسمية وغيرها .. فقد كانوا يترددون عليها طوال العام لتوزيع حاصلات بلادهم من حبوب وفواكه ومواد غذائية وبيعها أو مبادلتها بسلع وبضائع اخرى ويبدو أن الرغبة فى شراء الفائض كانت تشجع التجارة أكثر من الحاجة الضرورية عند هوءلاء التجار الصغار .(١)

التجـــــار الكارمية :ـ

احتلت فئة التجار الكارمية مكانا مرموقا فى التجارة المملوكية ومثلوا تنظيما تجاريا كان يزداد قوة مع قسوة الظروف السياسية والطبيعية والاقتصادية وعبروا بوضوح عن نمط حضارى للعلاقات التجارية وتنظيماتها وقيمها ومراتبها وقوانينها استمرت قرونا .... على ان الحقبة الطويلة فى عمر التجارة الخارجية الكارمية لم تكن خلال العصر المملوكى وحده بل منذ عصر الدولة الفاطمية الذى اتضح فيه كيان هذه الفئة ... فقد أشارت المصادر الى "أن الفوطم قد أعدوا اسطولا بعيذاب يلتقى به الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها خوفا على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم هناك ويعترضون المراكب فيحميهم الاسطول منهم وكان عدة هذا الاسطول خمسة مراكب ،ثم صارت الى ثلاث وكان والى قوص هو المتولى لامر هذا الاسطول وربما تولاه أمير من الباب ويحمل اليه من خزائن السلاح ما يكفيه".(٢)

---

(١) ابن جبير : الرحلة ،ص ٩٧، ١٠٠،ابن بطوطة : الرحلة ،ص ١٥٩ - ١٦٠ .
(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ،ج٣ ،ص ٥٢٤ .

والسوءال الذى يثار هنا هو : ما الاصل فى تسميتهم بالكارمية ؟......
وهذا ما يجيب عنه القلقشندى بقوله : ان هذا الاسم مأخوذ عن الكانم وهى منطقة من السودان الغربى تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد وان هذا الاسم انتشر بين من اشتغلوا بتجارة التوابل بعد أن وقع فيه تصحيف فصار " كارم " ومازال هذه التسمية محل نقاش اكاديمى مستفيض لاسباب تتصل بندرة المعلومات حول التسمية ومعناها ذلك أن القلقشندى نفسه يثير الشك فيما رواه بقوله : " ان لفظة الكارمى أو الكارمية وجدت فى الدواوين هكذا ولا معنى لها فى اللغة العربية ".(١)

والواقع أن كثيرا من الدراسات الحديثة أيدت ما ذهب اليه القلقشندى فى نسبتهم الى الكانم ... فى حين شكت بعض الدراسات حول هذه التسمية وافترضت أن الاسم مأخوذ عن متاجرهم نفسها فهناك من يقول أن كلمة kuararima وهى لفظة أمهرية تفيد معنى حب الهال وهو واحد من التوابل التى تاجروا فيها ثم صحفت الكلمة لتصبح كارم واطلقت على التجار ويرى أحد الموءرخين أنه من الجائز أن تكون نسبتهم الى العنبر او الكارم الذى كان يعد من اكثر المتاجر طلبا وخاصة فى مصر فقد كان بها سوق للعنبر والكارم " اذ لا يكاد يوجد بأرض مصر امرأة وان سفلت الا ولها قلادة من العنبر الاصفر او الكارم "(٢)

ولا شك أن تحديد هذه النسبة يبدو شديد الصعوبة لافتقاد المصادر الموثقة . كما أن مفهوم الكارم لم يكن واضحا تماما .

والحقيقة أن بعض الموءرخين المحدثين يقعون فى الخطأ حين ينسبون تجار الكارم الى اليهود(٣) والواقع أنه من الموءكد أن الكارمية كانت هيئة تجارية

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ،جـ٣ ،ص ٢٥٣ .
(٢) صبحى لبيب : التجارة الكارمية ،ص ٦ - ٧ .
(٣) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة ،ص ٣٠٩ .

متماسكة جعلت من الدين الاسلامى آساس وحدتها وقوتها [١] ولم يكن بين الكارم أى يهودى ... اللهم الا من أسلم من اليهود ... ودخل فى صفوفهم على أن يظل على اسلامه ويتوارث أبناؤه الاسلام دينا وتجارة الكارم صناعته [٢]

وفيما يتصل بدورهم فى العالم التجارى فقد برز تفوقهم وكانوا بحق عمالقة التجارة لعدة قرون واذا كان التاجر الايطالى يعد مفخرة الحركة التجارية الوسيطة فى البحر المتوسط وعمادها فان التاجر الكارمى فى البحر الاحمر والمحيط الهندى كان اكثر فخارا واجتهادا وكان دعامة من دعامات الاقتصاد الاسلامى ولطالما ساند الدولة المملوكية فى توطيد مركزها وتوكيد زعامتها بين الشرق والغرب فقد سيطر بتجارته على البحر الاحمر وقوى نشاطه فى المحيط الهندى وامتد نفوذه الى الصين وتغلغل فى اعماق افريقية حتى بلاد التكرور.[٣]

وتوطدت علاقاته بتجار الغرب الاوربى فكان بحق كالنحلة التى تمتص عصارة كل البلدان.[٤] وفى عالم المال ودنيا الاقتصاد أصاب الكارمية شهرة عريضة واثروا ثراء عظيما وظهرت براعتهم فى الاعمال المصرفية وتوضح الارقام أهميتهم فى تاريخ النقد والائتمان فى العصر المملوكى والامثلة عديدة على ضخامة رؤوس اموالهم ومكانتهم المادية ونادرا ما تناولت التراجم تاجرا كارميا دون الاشارة الى غناه الواسع وامواله العظيمة التى تصل الى الملايين فالتاجر الكارمى - ناصر الدين محمد بن مسلم المتوفى سنة ٧٧٦هـ كان اعجوبة عصره فى كثرة ماله حتى كان يقال آنه لا يعلم قدر ماله وان ماله حرز بعد وفاته فجاء عشرة آلاف ألف دينار ويقال آنه خاصم بدر الدين الخروبى التاجر الكارمى الكبير فقال ابن مسلم للخروبى " اشتر بمالك كله شكاير وأحفرها أملأها لك مالا " ويقال انه ما مات له عبد فى الغربة وانهم كانوا يدورون فى التجارات ولا يتفق موت الواحد منهم

---

(١) الشجاعى: تاريخ الملك الناصر ،ق١ ،ص ٢٥١، الفاسى: العقد الثمين،ج٢،ص٢٠٠ - ٢٠١ ج٤ ، ص ٣١٤،ج٥،ص ١٩٥، ابن حجر: ابناء الغمر،ج١ ص ٢٨٥/٢٨٨/٣٠٦/٤٥٠/٤٥١ .
(٢) المقريزى: السلوك،ج٢ ،ص ١٣١، ابن حجر : الدرر الكامنة ج٢ ،ص ٣٨٣-٣٨٤ .
(٣) صبحى لبيب: المرجع السابق ،ص ٢٨
(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ،ج١ ،ص ٤٠٢ .

الا فى مصر حتى ان واحدا منهم غاب عشرين سنة وعاد فمات عنده وقد أوصى بعمارة مدرسته المشهورة بمصر بمبلغ ستة عشر ألف دينار " وكان جده وأبوه وعمه من التجار حتى كان يقال لعمه شمس الدين " نصف الدينار ".(١)

ويكفى للدلالة على ضخامة مشروعاتهم التجارية أن المصادر تشير الى أن احد التجار الكارميه قد بنى مدرسة من ربح يوم واحد فى متجره(٢) ولعل فى هذا بعض المبالغة الا أنه يبين الحجم الهائل للارباح التى كانت تدرها استثماراتهم التجارية الناجحة .

ويذكر ابن بطوطة أن التاجر الكبير فى الصين الذى لا تحصى امواله كثرة يعادل الكارمى فى مصر ويقول فى هذا الصدد " وعادة أهل الصين أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعا تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه ويجعل ذلك على باب داره ومن كان له خمس قطع منها جعل فى اصبعه خاتما ومن كانت له عشر جعل خاتمين ، ومن كان له خمس عشرة سموه الستى ، وهو بمعنى الكارمى بمصر ".(٣)

وغنى عن البيان أن الكارمية قد قدموا أجل الخدمات لدولة المماليك وساهموا مساهمة فعالة فى تنمية اقتصادها ومواردها المالية وكانوا الفئة المميزة والمفضلة لدى سلاطين مصر واليمن وأمراء الحجاز لكثرة الضرائب التى تجبى منهم (٤) . وقاموا بدور كبير فى تسليف السلاطين واقراضهم وتمويل القوى العسكرية وتجهيز الجيوش المملوكية للجهاد .(٥)

ولا يغيب عن البال دورهم الرائع فى اصلاح ذات البين وتحسين العلاقات السياسية وتوثيق المصالح الدولية والتجارية فى عالم العصور

---

(١) ابن حجر: ابناء الغمر،ج١ ،ص ٩٩-١٠٠، الدرر الكامنة ج٤ ،ص ٢٥٧ .
(٢) ابن شاهين : زبدة كشف المماليك ،ص ٤١ .
(٣) الرحلة : ص ٦١٧ - ٦١٨ .
(٤) ابن شاهين : نفس المصدر ،ص ١٠٨ .
(٥) ابن حجر: ابناء الغمر،ج٢،ص ٢٧٠، الدرر الكامنة ،ج٣،ص ٤٩،ج٤،ص ٤٠٥ .

الوسطى ... يقول الشجاعي عن التاجر الكارمي مجد الدين اسماعيل السلامي ورزق هذا الرجل من السعادة والحظ من ملوك الشرق وعند الملك الناصر (محمد بن قلاوون) ما لم يصل اليه غيره وهو الذى كان سبب صلح المسلمين والتتر وحصل له مال عظيم من الطائفتين وقبول من الملكين وما رزق احد من التجار ما رزق من الحرمة والجاه والوجاهة فى سائر الاقاليم [١] وكان سلاطين مصر واليمن يختارون سفراءهم من كبار تجار الكارمية لما لهم من المكانة العالمية والنفوذ الكبير .[٢]

وقد ترك تجار الكارمية أثرا كبيرا فى العالم الاسلامى وكان لهم دور بارز فى الارتقاء بالحياة الاجتماعية والثقافية والعمرانية فشيدوا المساجد والمستشفيات فى مكة وغيرها من المدن الاسلامية .

اما فيما يتعلق بكيانهم التجارى فالواضح أن الكارميه لم يتنافسوا فيما بينهم بل كانوا يشكلون رابطة وطائفة تحتكر التجارة الشرقية المربحة ومن أهم مناطقهم فى اليمن كانوا يتجهون بالبضائع الواردة من الهند الى البحر الاحمر ولهم مواعيد منتظمة تتفق مع مواعيد الرياح ومواعيد وصول السفن الاوربية الى الاسكندرية ، وقد كان الكارمية يدربون أبناءهم ومن يتخيرونهم من عبيدهم الذين تظهر عليهم علامات الفطنة والذكاء على مباشرة أعمالهم فى اسواقهم الكبرى فى مصر والحجاز واليمن والهند وبلاد التكرور وغيرها .... تجارا ومستثمرين حتى يزداد رسوخ مكانة الاسرة المتوارثة فى تلك الاسواق .. وعلاوة على ذلك كان لموءسساتهم التجارية الكبيرة وكلاء وشركاء مساهمون يجلبون اليهم متاجر البلاد التى يفدون عليها أو يستقرون بها ويروجون فيها المتاجر التى يرسلونها اليهم[٣]

وقد كان للكارمية اسطول بحرى ونهرى خاص بهم [٤]. ويذكر مورلند

---

(١) تاريخ الملك الناصر ،ق ١ ، ص ٢٥١ .
(٢) الخزرجى:العقود اللؤلؤية ،جـ٢ ص ١٣٩، ١٩٢، ابن حجر: ابناء الغمر، جـ١،ص ٦١، ٢٨٨.
(٣) ابن حجر: ابناء الغمر، جـ١ ، ص ٩٩-١٠٠، ٥٣٧، صبحى لبيب:التجارة الكارمية ، ص ٣١ - ٣٢ .
(٤) ابن فهد : اتحاف الورى ،ص ٣٢٤ - ٣٥٥ .

أن اهمية تجار الكارمية لم تكن فى البداية شركة تقوم بعملية مبادلة السلع التجارية وانما كانت نوعا من الهيئات البحرية أو البحارة تتولى نقل سلع خاصة بالتجار تحت رعاية من أصحاب المتاجر أو وكلائهم كما كان يحدث تماما فى سفن الناخذاة التى لا يمتلكها الكارم ثم مارسوا العمل التجارى بأنفسهم وهو يشير اليهم بلفظ العرب مرة والمصريين مرة اخرى ويقول أن لهم وكلاء فى الهند وعلى ساحل افريقية الشرقى ويكونون وحدة فى شركة بأنصبة متساوية وهو نوع من الشركات المساهمة فى العصور الوسطى.(١)

ولعله من الجدير بالذكر هنا ذكر بعض الاسماء لتجار الكارمية الذين لهم دورهم الكبير فى مكة فى اثناء مجاورتهم او رحلاتهم التجارية فمن خيرة تجار الكارمية الذين اشتغلوا بالتدريس الى جانب عملهم التجارى عبد الله ابن عبد الجبار العثمانى - التاجر الكارمى البزار وقد حدث بالاسكندرية ومصر والصعيد واليمن . (٢)

ومات بمكة التاجر الكارمى الكبير محمد بن الحسين بن الكويك التكريتى اثناء مجاورته بها سنة ٧٦٤هـ وكان قد شيد مدرسة كبيرة للحديث فى مصر وأوقف عليها أوقافا كثيرة (٣) كما مات سنة ٧٨٥هـ احد كبار التجار الكارمية ويدعى محمد بن احمد الخروبى وهو صاحب المدرسة التى بناها بجوار بيته بشاطئ النيل وكانت له مجاورات عديدة بمكة .(٤)

اما التاجر الكارمى زكى الدين أبو بكر الخروبى المتوفى سنة ٧٨٧هـ فقد تولى رياسة التجار بالديار المصرية وفاق الاقران وخضع له أكابر التجار وصارعين أعيانهم وعظم قدره عند رجال الدولة (٥) وقد كان جوادا واسع

---

(1) Moreland, M. Indian Shipping P. 74.

(٢) الفاسى : العقدالثمين،جه،ص ١٩٥، ابومخرمة :تاريخ ثغرعدن،ج٢،ص ١١٥-١١٦.
(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ،ج٣ ،ص ٤٢٩ .
(٤) ابن حجر : ابناء الغمر ،ج١ ،ص ٢٨٥ .
(٥) ابن حجر : نفس المصدر ج١ ،ص ٣٠٦ ، الدرر الكامنة ،ج١ ،ص ٤٥٠-٤٥١.

العطاء للفقهاء والشعراء واوص بأشياء كثيرة فى وجوه البر والقربات منها للحرمين ألفا مثقال ذهبا ويشير ابن حجر الى أن ولاءه للسلطان وما أسداه من خدمات سياسية ومادية للدولة علاوة على مكانته التجارية كانت هى الاسس التى اوصلته الى الرياسة فبعد عودته من الحج سنة ٧٨٦هـ قدم للسلطان ورجال دولته هدايا جليلة ثم وقع بينه وبين شهاب الدين الفارقى أحد اعيان التجار اليمنيين أمر فترافعا بسببه الى السلطان برقوق فاتهم الفارقى زكى الدين بتهم خطيرة " فأخرج الخروبى كتاب الاشراف (اسماعيل) / صاحب اليمن وضمنه كتاب " من الفارقى يقول فيه : ان مصر آل أمرها الى الفساد وليس بها صاحب له قيمة " فلا ترسل بعد هذه السنة هدية فان صاحبها اليوم أقل المماليك وأرذلهم فأمر السلطان بالقبض على الفارقى وقطع لسانه ومصادرة أمواله ثم شفع فيه فأطلق وخلع على زكى الدين خلعة معظمة واستقر كبيرا للتجار " . (١)

ومن اعيان الكارمية نور الدين على الخروبى المتوفى سنة ٨٠٢هـ حج مرارا وكان ذا دين ومروءة وخير أوصى بمائة ألف درهم فضة لعمارة الحرم الشريف المكى فعمر بها بعد الاحتراق .(٢)

وقد بلغ كبير التجار برهان الدين بن المحلى المتوفى سنة ٨٠٦هـ .. الغاية فى المعرفة بأمور التجارة وكان فى نفس الوقت بحارا ماهرا وكان يقول :" ما ركبت فى مركب قط فغرقت " . وقد نمت امواله بصورة ضخمة وعظمت منزلته عند الدولة وقام بتجهيز عسكرها من ماله كما قام بتجديد مقدمة جامع عمرو بن العاص وقد بنى قصرا له على شاطىء النيل فى مصر كان اعجوبة الدهر فى اتقان البناء وكثرة الرخام والزخرفة وا لمنافع الكبيرة من القاعات والاروقة وأنشأ بجواره مدرسة . ويقال أن تكاليف القصر بلغت خمسين ألف مثقال ذهبا " .(٣)

---

(١) ابن حجر : ابناء الغمر جا ،ص ٢٨٨ .

(٢) ابن حجر: نفس المصدر ج٢،ص ١٢٣، عن احتراق المسجد الحرام انظر الاسواق المحلية ص ٢٧٢

(٣) ابن حجر : نفس المصدر ج٢ ،ص ٢٧٠، ج٣ ، ص ٥٠٠ - ٥٠١ .

وتشير المصادر الى أن برهان الدين هذا سعى فى عزل الشريف حسن بن عجلان عن امرة مكة بسبب الضريبة الباهظة التى اخذها من أبنه أحمد وبعض تجار الكارم الذين انصلح مركبهم بقرب مكة [(1)] وقد توفى ابنه احمد هذا فى مكة فى آخر السنة التى توفى فيها والده وكان قد وصل اليها ومعه من الاموال ما لا يدخل تحت الحصر كما تشير المصادر المعاصرة " حتى انه كان معه فى تلك السنة ستة آلاف زكيبة من أصناف البهار فتفرقت اموالها بأيدى العباد فى جميع البلاد [(2)]" وقد نال الشريف حسن صاحب مكة من التركة أموالا طائلة ووجد أن ما صار اليه من ديوان ابن المحلى بغير حق ألف وأربعمائة زكيبة وقد أتاه مطالب بمال المحلى سنة ٨٠٧هـ فماطل . [(3)]

ومن تجار الكارمية الذين استوطنوا مكة فترة من الزمن خضر بن ابراهيم المتوفى سنة ٨٢٠هـ وقد اشترى بمكة ملكا واستأجر وقفا وكان ذا غنى وافر ويبدو أن أمراء مكة قد أرهقوه بالجبايات والرسوم فان المصادر تذكر أنه انتقل الى القاهرة وأعرض عن الاقامة بمكة لتعب لحقه بها من جهة الدولة " . [(4)]

وممن انتهت اليه سياسة التجار بالديار المصرية التاجر الكارمى على بن محمد ابن نور الدين الطنبدى المتوفى سنة ٨٣٦هـ كان كثير الحج والمروءة والبر واشتهر بحسن المعاملة وباقراضه المحتاج بغير ربح . [(5)]

والواقع انه منذ تبوأت جدة مكان الصدارة فى التجارة الشرقية اتبع سلاطين المماليك سياسة الاحتكار التجارى لمتاجر الشرق وقد أسفرت هذه السياسة عن تغييرات كبيرة فى الهيكل الاقتصادى المملوكى وفى كيان التاجر الكارمى الذى كان عماد التجارة فى ذلك الوقت فقد اقصى المماليك هذه الفئة

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ،جـ٤ ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) ابن حجر : انباء الغمر ، جـ٢ ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٣) الفاسى : نفس المصدر والجزء ،ص ١٠١ .

(٤) الفاسى:نفس المصدر والجزء، ص ٣١٤، ابو مخرمة :تاريخ ثغر عدن، جـ٦،ص ٦٩.

(٥) ابن حجر : انباء الغمر جـ٣ ،ص ٥٠٧ .

ذات الكفاءة العالية فى ميدان التجارة فأقتصرت اعمالهم على جلب التوابل والسلع من الهند وأصبحوا مجرد موظفين لدى السلطان بالمرتب والعمولة وفى الوقت نفسه حاول السلاطين رفع بعض تجارهم القائمين ببيع المتاجر السلطانية الى المكانة التى كانت للكارمية من قبل على الرغم من قلة خبرتهم فى هذا المجال ......فأدى ذلك الى زيادة الشكوى من سوء تصرفهم فى حين توارت شخصية التاجر الكارمى الدولية وبهت دوره فى الحياة العامة وأصبح تاجرا عاديا .(١)

وخلاصة القول أن نشاط التجار المسلمين كان فصلا رائعا من فصول الفن التجارى المتكامل وقد سار بخطى عظيمة نحو اثراء الفكر التجارى .... والتجارة الدولية لقرون عديدة .

****

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٣ ،ص ١١٥، ٢٠٢،ج٤ ، ص ٣٢٠ ، ٣٣٩، ٤٨٠.

الخاتمة

لقد تناول هذا البحث موضوعا ذا أهمية فى تاريخ مكة المكرمة السياسى والاقتصادى والاجتماعى والحضارى وهو النشاط التجارى فى مكة المكرمة فى العصر المملوكى .... ولا شك أن التجارة أحد مظاهر الحياة والنشاط البشرى فى أى مجتمع ، وانها تتأثر بما يجرى فى المجتمع وتوءثر فى احداثه .

والمجتمع المكى الذى تناوله البحث هو المجتمع الذى كان يعيش فى فترةحكم سلاطين المماليك وقد صبغت حياته عوامل دينية وبيئية وحضارية متنوعة كان للتجارة تأثر بها وتأثير فيها .

والبحث فى تجارة مكة فى تلك الفترة يكشف عن عناصر متعددة شاركت فى صياغة نمط الحياة فيها . وفى فصول البحث نتائج أوضحها تناول تلك الظاهرة الحيوية ظاهرة العمل التجارى فى مكة فى العصر المملوكى تتمثل هذه النتائج فيما يلى :-

- لمكة فى نفوس المسلمين مكانة عظيمة جعلت منها على مر العصور مجتمعا ذا صبغة خاصة وكان لها أثر واضح فى حياة السكان ونشاطهم وهذه المكانة مصدرها ان مكة فيها الكعبة البيت الحرام اول بيت لعبادة الله وضع فى الارض وهو قبلة المسلمين فى صلواتهم ومكة هى مهبط الوحى الاول وموطن البعثة والرسالة الاسلامية وفيها مشاعر فريضة الحج احد اركان الاسلام الخمسة .

- ولوجود البيت الحرام فى مكة وجدت ظاهرة المجاورة بها وقد كان للمجاورين آثار واضحة فى مختلف مناحى الحياة فى مكة فكان للعلماء اثر فى الحياة العلمية وللتجار اثر فى الناحية الاجتماعية والعمرانية بالانفاق على الفقراء والايتام والعناية بالمرافق العامة وبانشاء الاربطة واصلاح آبار الماء . كما كان لبعضهم اثر فى العمل السياسى فى مكة .

- تحدد الدراسة اهمية موسم الحج وهو فى مقدمة الموارد الذاتية لهذه المدينة المقدسة والتى تنعكس على مواردها الاقتصادية وتمنحها رسوخا وصلابة وتمدها بعوامل النمو والاستمرار فقوافل الحجاج التى كانت تخرج من الاقطار الاسلامية وخاصة من مصر والشام كان يصحبها كثير من التجار ببضائعهم التى كانوا يتجرون فيها فى الموسم ولخدمة تلك القوافل كان سلاطين المماليك يولون طريق القوافل عناية فائقة باقرار الامن واقامة المنشآت المهمة فى الطريق وفى مكة وفى المدينة من محطات لراحة القوافل وآبار للمياه ومدارس واربطة ، كما أنهم أوقفوا الاوقاف للانفاق على الحرمين وفقرائهما .

- موقع مكة الجغرافى جعلها ملتقى لقوافل التجارة القادمة من أنحاء .. الشرق لبيع متاجرها والقادمة من انحاء أخرى لشراء البضائع الشرقية من منسوجات وتوابل وعطور ومعادن . وقد نتج من ذلك ان المشرفين على القوافل كانوا يعقدون اتفاقات مع القبائل الضاربة حول طرق التجارة لتأمين مرور القوافل وكان لطريق القوافل من مصر الى مكة دور كبير فى ازدهار الحركة التجارية بمكة .

- كان لظهور جدة باعتبارها مرفأ لمكة المكرمة أثر قوى فى النشاط التجارى بمكة وقد تزايدت اهمية جدة لعودة الملاحة الى البحر الاحمر وبما كان يحدث فى عدن من سوء معاملة التجار القادمين اليها وارتبط نشاط جدة التجارى لقربها من مكة وقد كانت الرسوم والضرائب على التجارة فى جدة موردا مهما للخزانة المملوكية ،كما كانت ارباح تجارها سببا لازدهار الحياة الاجتماعية فيها .

- كان لسلاطين المماليك فى مصر أثر فى اقرار امور الحكم فى مكة فقد تدخلوا فى النزاع حول تولى امارتها وقد كانت خاضعة لسلطانهم بعد اعلان الخلافة العباسية فى مصر فى ظلهم وكان للصراع على امرة مكة آثار

سيئة فيالحياة الاقتصادية والاوضاع الامنية في مكة ولكن تدخل السلاطين المماليك لاقرار الاوضاع بين امراءمكة وحرصهم على استتباب الامن فيها أديا الى ازدهار التجارة والنشاط الاقتصادي .

- ومن مظاهر اهتمام سلاطين المماليك بشئون الحجاز عامة وبشئون مكة خاصة أنهم اصلحوا الطرق العامة التي تسلكها القوافل واعتنوا بحفر الآبار وتوفير الحراسة واقرار الامن في مكة وبقية انحاء الحجاز .

- للبحر الاحمر اهمية عظيمة من الناحية التجارية فهو الممر المائي الذي يصل ما بين بلاد اوربا وخاصة المطلة على البحر المتوسط وبلاد الشرق التي كانت مصدرا لكثير من المواد التي تروج في بلاد اوربا وقد كان لانتشار الاسلام اثر كبير في زيادة اهمية البحر الاحمر وخاصة بعد أن صار للمسلمين اساطيل بحرية تعمل فيالتجارة أو اساطيل حربية لحماية السواحل الاسلامية .

- ولقد ازداد اهتمام السلاطين المماليك بالتجارة في البحر الاحمر لما كانت تعود عليهم به من الارباح الوفيرة بتحصيل الرسوم والضرائب والمكوس حتى ان التنافس اشتد بينهم وبين حكام اليمن لضمان السيطرة على التجارة في البحر الاحمر فقد شجع المماليك السفن التجارية علىان تقدم مباشرة الى جدة دون أن تتوقف بعدن وفرضوا ضرائب مضاعفة على السفن التي ترسو بعدن قبل جدة وصادروا كثيرا من السفن اليمنية وقد حرصوا كذلك على تأمين الملاحة فيه وتنشيطالحركة التجارية .

- تغيرت الاحوال التجارية في البحر الاحمر بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة الاوربية اليه وسيطرة البرتغاليين على المياه الشرقية ومنعهم السفن من استعمال طريق البحر الاحمر ولجوئهم الى اعمال القراصنة وقد ادى ذلك الى ضعف الدولة المملوكية وتدهور احوالها الاقتصادية وعدم مقدرتها على مجابهة البرتغاليين وعجزها عن فرض

سيطرتها على المتاجر القادمة من الشرق وبذلك فقدت موردا كبيـــرا من مواردها الاقتصادية .

- كانت توابل الشرق وتحفه وكنوزه من السلع التى تلقى رواجا كبيـــرا واقبالا شديدا من الاوربيين على شرائها وكان التجار الذين يعملـــون فى هذه السلع يجنون أرباحا وفيرة وكان ذلك الامر من الدوافع لحركـات الاستكشاف الجغرافية الاوربية كى يسيطروا على بلاد التوابل .

- كان لمصر مكانة عظيمة فى النشاط التجارى الخاص بالتوابل فى العصـــور الوسطى اذ كان سلاطين المماليك يولون هذا النشاط اهتماما عظيمـــا لما كان يدره من مكاسب كبيرة .

- كان للتجار الكارميه سيطرة قوية على تجارة التوابل وسلع الشرق وقـــد تركزت هذه التجارة فى الانواع المعروفة ومن اشهرها .

من التوابل : الفلفل والقرنفل وحب الهال والقرفة والزنجبيل ....
ومن العقاقير الطبيـــــة : الكافـــور والبيلسان والسنا المكى والراوند
ومن العطور والبخور : العود والمسك والعنبر وخشب الصندل واللبان .

ومن الاحجار الكريمة : الياقوت والالماس والزمرد والعقيق والمرجان ، واللؤلؤ ثم المنسوجات والمواد الغذائيـــة والماشية والخيل والابل .

- القى البحث الاضواء على اسباب الغلاء فى مكة ومنها :-
  - .. المجاعات والقحط والاوبئة مما كان يحدث فى مكة والبلاد المجاورة .
  - .. الاحوال الاقتصادية السيئة فى البلاد التى كانت تصدر السلع والبضائع .
  - .. الحوادث والكوارث الطبيعية كالزلازل والعواصف وغرق السفن التجارية .
  - .. تهديد البرتغاليين لطرق المواصلات ونقل التجارة .
  - .. الازدياد فى اعداد المقيمين والوافدين على مكة وخاصة فى موسم الحج .
  - .. اضطراب الاحوال الامنية والسياسية فى مكة فى بعض الاحيان .

- من الضرائب التى كانت تؤخذ من التجار بجدة فى العصر المملوكى :-
  .. ضريبة الربع لشريف مكة وكانت تؤخذ ممن تصلح سفنهم فى جدة .
  .. ضريبة سنوية تعطى لاشراف مكة لكى يحموا التجار من السلب والنهب.
  .. كان اشراف مكة يستولون ايضا على تركة التاجر الذى يتوفى بدون وارث .. كما كانوا يأخذون جباية من البلاد المجاورة لمكة كالطائف ووادى مر .
- وكانت هناك ايضا مكوس بلا سند شرعى منها مكس الحاج وقد ابتدعه القرامطة فى عام ٣٣١هـ والغاه صلاح الدين الايوبى واعيد والغى مرات متعددة ومن تلك المكوس ايضا مكوس التجارة وهذه بدأت فى عهد الفاطميين والغاها صلاح الدين ايضا ، ولكن الوزير المملوكى هبة الله الفائزى اعادها من جديد .
- كانت مكوس التجارة تؤخذ فى موسم الحج ويعفى منها الطعام ولكن المكس على الطعام اعيد ثم الغى .
- نظم سلاطين المماليك جباية المكوس على المتاجر القادمة من البحر وقد ادى ذلك الى انتعاش صرفاً جدة كما انهم فرضوا على القوافل التى تغادر مكة بعد موسم الحج أن تتجه اولا الى القاهرة ليؤخذ منها مكوس التجارة وزادوا المكوس على السفن التى ترسو بعدن قبل جدة .
- كان صاحب مكة ينفرد باخذ المكوس والضرائب لينفقها على نفسه وعلى خاصته وفى شئون الامارة ولكن سلاطين المماليك فى العهود المتأخرة احتاجوا الى اموال لسد احتياجات الدولة فشاركوا امراء مكة فى حصيلة تلك المكوس .
- من صور المعاملات التجارية التى كانت معروفة فى ذلك العهد :-
  .. المقايضة وقد كانت قائمة بين الدولة المملوكية والمدن التجارية الايطالية فى اواخر القرن التاسع الهجرى .
  .. شركات القراض او المضاربة وشركات العنان .
- عرفت صور اخرى من المعاملات التجارية منها :-

.. المعاملات الربوية وان كان منهيا عنها وهى محرمة فى الاسلام .

.. الرهن والودائع واستعمال الحوالات المالية .

- ظهرت طائفة الصرافين فى ميادين التجارة وظهر معهم النظام المصرفى وهو ابتكار اسلامى .

- ظهر فى تلك الفترة نظام الاحتكار التجارى وان كان منهيا عنه فى الاسلام وخاصة احتكار الطعام ولكن السلطان برسباى والاشراف فى مكة وبعض كبار رجال الدولة المملوكية كانوا يحتكرون انواعا من السلع ليجنوا منها الارباح الطائلة .

- ادى هذا الاحتكار التجارى الى توجيه الكشوف الجغرافية البرتغالية الى البحث عن طريق تجارى لا يخضع للدولة المملوكية وقد عجل هذا بتدهور اوضاعها وبنهايتها .

- كانت الوحدات النقدية المستعملة فى تلك الفترة هى :-

الدنانير الذهبية ...... والدراهم الفضية ...... والفلوس النحاسية.

وقد تعرضت الدنانير والدراهم لتقلبات وتغيرات متعددة بسبب ارتفاع اثمان الذهب والفضة وكان الاختلال فى النظام النقدى المملوكى يوءدى الى نتائج اقتصادية سيئة منها ارتفاع الاسعار وتعطل التجارة وكسادها .

- اخذت الفلوس النحاسية تحل محل الدنانير والدراهم حتى صارت ذات رواج شديد فى الاستعمال ابتداء من عام ٦٥٠هـ .

- كانت مكة تتبع نظاما ماليا ونقديا خاصا ساعد على استقرار الاحوال الاقتصادية بها وعلى نجاح تجارتها ونشاطها المالى .

- اوضحت الدراسة كيف كانت مكة اكبر سوق فى شبه الجزيرة العربية وكيف كانت تمتلىء بانواع السلع والمنتجات التى كان يتم تصريفها بسرعة وسهولة ومن المنشآت التى عرفت فى تلك الفترة :-

١ - الاسواق : وهى بلا شك من اقدم اشكال النظم التجارية وكان سلاطين المماليك مهتمين بالحركة التجارية فى الحجاز ولذلك انتعشت اسواقه .

وقد كان هناك فى مكة اسواق متعددة :

أ ـ الاسواق المحلية وهى الاسواق الدائمة والثابتة والمستقرة بمكة وحولها .

ب ـ الاسواق الموسمية والمقصود بها الاسواق التى كانت تقام فى مواسم ورود التوابل من الهند والصين الى اسواق مكة وجدة او وصول اهل السراة الى مكة .

جـ ـ الاسواق السنوية وهى التى كانت تقام فى موسم الحج كل سنة ثم صارت تقام مرتين كل عام وخاصة بعد تواتر وصول الركب الرجبى من مصر والشام .

٢ ـ الوكالات والخانات والقياسر :ـ

وكانت تقوم بعدة مهمات ،كانت كالاسواق اذ تتم فيها عمليات البيع والشراء ،وكانت تماثل دور الاقامة والفنادق والنزل للتجار الوافدين وكانت تقومبدور المستودعات فيحفظ فيها التجار بضاعهم واموالهم .

– ومنالوظائف المتعلقة بهذه المنشآت والتى عرفت فى تلك الفترة :ـ

.. وظيفة المحتسب ، وكان يقوم بالاشراف على الاسواق لمنع الغش والتلاعب فى الاسعار والبضائع والاوزان والمكاييل .

.. عندما انشىء فى جدة جمرك لتحصيل الضرائب ظهرت وظائف تتعلق بهذا الامر منها :

* وظيفة ناظر جدة ... وقد تعددت هذه الوظيفة لاغراض متعددة ومختلفة .
* وظيفة المباشر الذى كان يستوفى رسوم التجارة ويختمها بختم خاص .
* وظيفة المستوفى .
* وظيفة الشاد .

– ظهرت نقابات خاصة لبعض طوائف التجار من اشهرهم طائفة التجار الكارمية .

– كانت هذه النقابات تماثل الغرف التجارية فى العصر الحاضر تقريبا .

– كان التجار فى مكة يمثلون فئات مختلفة منها :ـ

.. التجار المستقرون الدائمون المقيمون بها .

.. التجـار المرتحلون الذين اعتادوا ان يسافروا لجلب بضائعهم ، أو لبيعها فى اوطان اخرى .

- ومن اشهر الطوائف التى عملت بالتجارة فى تلك الفترة طائفة التجار الكارمية وكانوا يعملون فى تجارة التوابل والبهارات وتحف الشرق وكنوزه ، وقد كان لهم دور كبير فى التجارة الشرقية فى العصور الوسطى حتى قلص سلاطين المماليك نشاطهم وقضوا على طوائفهم .

-+-

قائمة المراجع

اولا : المصـــــادر

أ ـ المصـــــادر المخطوطـــة

الجزرى : أبو المحاسن على بن أبى الكرم بن عبد الواحد (ت ٨٧٢هـ)٠

١ ـ تحفة العجائب وطرفة الغرائب ٠

مخطوط بدار الكتب رقم ١٣٤٤ ٠

ابن الجوزى : أبى الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد (ت ٥٩٧هـ) ٠

٢ ـ مثير الغرام الساكن الى أشرف الاماكن فى تاريخ مكة والمدينة ٠

مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد احياء المخطوطات بجامعة الدول العربية رقم ٤٣٧ تاريخ ٠

الحسينى : محمد كبريت المدنى (القرن الحادى عشر هـ)

٣ ـ الجواهر الثمينة فى محاسن المدينة ٠

مخطوط مصورعلى ميكروفيلم بمعهد احياء المخطوطات بجامعة الدول العربية رقم ١٠٢٢ تاريخ ٠

الحضراوى : احمد بن محمد بن احمد

٤ ـ الجواهر المعدة فى فضائل جدة وتاريخها ٠

مخطوط بمكتبة الحرم المكى رقم ٢٧ دهلوى ٠

السنجارى : على بن تاج الدين بن تقى الدين المكى

٥ ـ منائح الكرم فى اخبار مكة والبيت وولاة الحرم (٣ أجزاء)

مخطوط بجامعة ام القرى مركز البحث العلمى واحياء التراث الاسلامى رقم ٣٠ تاريخ ٠

الطبرى : محمد بن على بن فضل بن عبد الله بن محمد (القرن الثانى عشر هـ) ٠

٦ ـ اتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بنى الحسن

مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد احياء المخطوطات العربية رقم ٨٧٠ تاريخ٠

ابن الضياء القرشي : ابو البقاء محمد بن احمد (ت ٨٥٤هـ) .

٧ ــ تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف

مخطوط مصور ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية رقم ١٢٨ تاريخ .

العاقولي : محمد بن محمد

٨ ــ عرف الطيب في اخبار مكة ومدينة الحبيب .

مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٧٤ تاريخ .

الفاسي : محمد بن احمد بن علي ،تقي الدين ابي الطيب (ت ٨٣٢ هـ) .

٩ ــ تحصيل المرام من تاريخ البلد الحرام .

مخطوط مصور ميكروفيلم بمكتبة رواق الاتراك ــ الازهر رقم ١٤٧١ تاريخ .

ابن فهد : نجم الدين عمر بن محمد (ت ٨٨٥هـ) .

١٠ــ اتحاف الورى باخبار ام القرى . (٤ أجزاء) .

مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ٥٤ تاريخ .

ب المصـــــــــــادر المطبوعة

الازرقى : أبو الوليد محمد بن عبد الله بن احمد .

١ ـ اخبار مكة وما جاء فيها من الآثار .

مكة ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م .

ابن اياس : أبو البركات محمد بن احمد)(ت ٩٣٠هـ)

٢ ـ كتاب تاريخ مصر المعروف ببدائع الزهور فى وقائع الدهور (٥ أجزاء).

تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ـ ١٣٩٥ ـ ١٣٨٣هـ/١٩٧٥ ـ ١٩٦٣م.

ابن ايبك : ابو بكربن عبد الله (ت ٧٣٢هـ) .

٣ ـ كنز الدرر وجامع الغرر (٩ أجزاء)

الجزء الاول : الدرة العليا فى اخبار بدء الدنيا .

تحقيق بيراندرا مكة القاهرة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٤ ـ الجزء الثامن: الدرة الزكية فى اخبار الدولة التركية .

تحقيق اولرخ هارمان القاهرة ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

٥ ـ الجزء التاسع : الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر

تحقيق هانس روبرت رويمر القاهرة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م.

بامخرمة : ابو محمد عبد الله الطيب (ت ٩٤٧هـ)

٦ ـ تاريخ ثغر عدن

ليـــــدن ١٩٣٦م .

٧ ـ البخارى : الامام ابى عبد الله محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ) .

صحيح البخارى (٨ أجزاء)

طبعة دار الفكر .

٨ ـ بزرك بن شهريار الناخذاه الرام هرمزى (القرن الرابع هـ)
عجايب الهند بره وبحره وجزايره

ابن بطوطة : ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد (ت ٧٧٩هـ) .
٩ ـ رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار)
بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

ابن بعره : منصور الذهبى الكاملى
١٠ـ كشف الاسرار العلمية بدار الضرب المصرية
تحقيق عبد الرحمن فهمى القاهرة ١٣٨٥هـ .

البلوى : خالد بن عيسى
١١ـ تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق
تحقيق الحسن السائح المغرب .

البهوتى : منصور بن يونس (ت ١٠٥١هـ)
١٢ـ الروض المربع بشرح زاد المستنقع ـ مختصر المقنع فى فقه امام السنة احمد
بن حنبل الشيبانى رضى الله عنه (جزءان)
ط ٢ ، القاهرة ١٣٤٣ هـ .

ابن البيطار : ضياء الدين ابى محمد المالقى الاندلسى (ت ٦٤٦هـ)
١٣ـ الجامع لمفردات الادوية والاغذية (٤ أجزاء)
القاهرة ١٢٩١هـ .

الترمذى : الامام الحافظ ابى عيسى بن عيسى (ت ٢٧٩ هـ)
١٤ـ الجامع الصحيح (٥ أجزاء)
حققه وصححه عبد الرحمن بن عثمان ـ بيروت .

التجيبى السبتى : القاسم بن يوسف
١٥ـ مستفاد الرحلة والاغتراب

تحقيق عبدالحفيظ منصور ـ تونس ١٣٩٥هـ ٠

ابن تغرى بردى : جمال الدين ابو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ)

١٦ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (١٤ جزءًا)
القاهرة ١٩٢٩/١٩٧٢م

ابن جبير : ابو الحسن محمد بن احمد الكناتى الاندلسى الشاطبى البلنسى
(ت ٦١٤ هـ)

١٧ـ رحلة ابن جبير
بيروت ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م ٠

الجزيرى : عبد القادر بن محمد الانصارى (القرن العاشر هـ)

١٨ـ درر الفوائد المنظمة فى اخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ٠
القاهرة ١٣٨٤هـ ٠

الجزيرى :

١٩ـ الفقه على المذاهب الاربعة (٤ اجزاء)
القاهرة ١٩٣٥م ٠

ابن حجر : شهاب الدين احمد بن على العسقلانى (ت ٨٥٢هـ)

٢٠ـ الدرر الكامنة فى اعيان المئة الثامنة (٤ أجزاء)
بيــــــــــروت

٢١ـ ابناء الغمر بابناء العمر (جزءان)
تحقيق وتعليق الدكتور حسن حبشى القاهرة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م٠

٢٢ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى
بيــــــــروت

ابن حنبل : الامام احمد بن حنبل

٢٣ـ مسند الامام احمد بن حنبل وبهامشه منتخب كنز العمال فى سنن الاقوال

والافعال (٦ مجلدات)
بيروت

ابن خرداذبة : ابو القاسم عبد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠هـ)
٢٤- المسالك والممالك
بغـــــــداد

الخزرجي : شمس الدين ابو الحسن على بن الحسن (ت ٨١٢هـ)
٢٥- العقود اللوءلوءية فى اخبار الدولة الرسولية (جزءان)
تحقيق محمد بسيونى عسل القاهرة ١٣٢٩هـ / ١٩١١م ٠

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ)
٢٦- تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر ٠
القاهرة ١٣٩١هـ /١٩٧١م ٠

٢٧- مقدمة ابن خلدون القاهرة ١٣٢٢هـ

الدارمى : الامام ابو محمد عبد الله بن عبد الرحمن (ت ٢٥٥هـ)
٢٨- سنن الدارمى (جزءان)
بيروت

ابو داود : الامام سليمان بن الاشعث (ت ٢٧٥هـ)
٢٩- سنن ابى داود (٤ اجزاء)
بيروت

الدمشقى : جعفر بن على
٣٠- الاشارة الى محاسن التجارة
القاهرة ١٣١٨هـ

الدمشقى او شيخ الربوة : شمس الدين ابى عبد الله محمد ابى طالب الانصارى (ت ٧٢٧هـ)

٣١- نخبة الدهر فيعجائبالبر والبحر .
بطربورغ ١٢٨١هـ /١٨٦٥م.

ابن الديبع : ابى الضياء عبد الرحمن بن على (ت ٩٤٤هـ)
٣٢- قرة العيون باخبار اليمنالميمون (قسمان)
حققه وعلق عليه محمد بن على الاكوع الحوالى القاهرة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

ابن رستة : ابى على احمد بنعمر (القرنالثالث هـ)
٣٣- الاعلاق النفيسة
ليدن ١٨٩١م .
زين الدين المعبرى الملبارى (ت ٩٨٥هـ)
٣٤- تحفة المجاهدين فى بعض احوال البرتكاليين
لشبونة ١٨٩٨م .

السخاوى : الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ)
٣٥- الضوء اللامع لاهل القرن التاسع (١٢ جزء)
القاهرة ١٣٥٥ هـ .

ابو السعود : ابن محمد العمادى الحنفى
٣٦- تفسيرابى السعود أو ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم .
تحقيق عبدالقادر احمد عطا - الرياض

السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن بن ابى بكر (ت ٩١١هـ)
٣٧- حسنالمحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة (جزءان)
القاهـــــرة ١٩٦٨م.

ابن شاهين : غرس الدين خليل الظاهرى (ت ٨٧٣هـ)
٣٨- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك .
باريس ١٨٩١م .

الشجاعى : شمس الدين

٣٩- تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى واولاده

حققته وترجمته الى الالمانية بربارة شيفر فيسيادن

١٣٩٨هـ / ١٩٧٨ م .

الشيرزى : عبد الرحمن بن نصير (القرن السادس هـ)

٤٠- نهاية الرتبة فى طلب الحسبة .

تحقيق ومراجعة الدكتور / السيد الباز العرينى - بيروت .

الاصطخرى : ابن اسحاق ابراهيم بن محمد (القرن الرابع هـ)

٤١- المسالك والممالك

تحقيق محمد جابر عبد العال الحينى القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م.

الاصفهانى : الحسن بن عبد الله

٤٢- بلاد العرب

تحقيق حمد الجاسر د. صالح العلى - الرياض ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

الطبرى : محب الدين الحافظ ابى العباس احمد (ت ٦٩٤هـ)

٤٣- القرى لقاصد ام القرى

تحقيق مصطفى السقا ، ط٢ ،مصر ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .

ابن طولون : شمس الدين محمد (ت ٩٥٣هـ)

٤٤- مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان (قسمان)

تحقيق محمد مصطفى القاهرة ١٣٨١-١٣٨٤هـ/١٩٦٢-١٩٦٤م.

ابن العماد : ابى الفلاح عبد الحى (ت ١٠٨٩هـ)

٤٥- شذرات الذهب فى اخبار من ذهب (٨ اجزاء)

عمارة اليمنى : ابو محمد نجم الدين ابى الحسن على (ت ٥٦٩هـ)

٤٦- تاريخ اليمن المسمى المفيد فى اخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها واعيانها

وادبائها .

حققه وعلق عليه محمد بن علي الاكوع الحوالي ،ط٢ ، القاهرة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.

العينى : بدرالدين ابى محمد محمود بن احمد (ت ٨٥٥هـ)

٤٧- الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ططر

٤٨- عمدة القارى فى شرح صحيح البخارى (٢٥ جزء)

بيروت

الفاسى : تقى الدين محمد (ت ٨٣٢هـ)

٤٩- شفاء الغرام باخبار البلد الحرام

تحقيق لجنة من كبار العلماء والادباء ١٩٥٦م.

٥٠- العقد الثمين فى تاريخ البلد الامين

تحقيق محمد حامد الفقى القاهرة

ابو الفدا : الملك المؤيد اسماعيل صاحب حماه (ت ٧٣٣هـ)

٥١- المختصر فى اخبار البشر

بيروت

ابو الفرج قدامة بن جعفر (القرن الرابع هـ)

٥٢- الخراج وصنعة الكتابة ملحق كتاب ابن خرداذبة المسالك والممالك

بغداد

القلقشندى : شهاب الدين ابو العباس احمد بن على (ت ٨٢١هـ)

٥٣- صبح الاعشى فى صناعة الانشاء (١٤ جزء)

القاهرة ١٩١٣- ١٩١٩م .

القطبى : عبدالكريم بن محب الدين (ت ١٠١٤هـ)

٥٤ ـ تاريخ البلد الحرام المعروف باعلام العلماء الاعلام ببناء المسجد الحرام
حققه وعلق عليه احمد محمد جمال ،عبد العزيز الرفاعى مكـــــة
١٣٦٩هـ/١٩٥٠م٠

ابن قيم الجوزية : شمس الدين محمد بن ابى بكر (ت ٧٥١هـ)
٥٥ ـ الطب النبوى
مكـــــــــــــة

ابن كثير : عماد الدين ابى الفدا اسماعيل (ت ٧٧٤هـ)
٥٦ـ البداية والنهاية
بيروت ١٩٦٦ م ٠

٥٧ ـ تفسير القرآن العظيم
طبعة دار الكتب المصرية

ابن ماجة : الحافظ ابى عبد الله محمد بن يزيد
٥٨ ـ سنن ابن ماجة
تحقيق وتعليق محمد فؤاد عبد الباقى ،طبعة دار الفكر

الماوردى : ابى الحسن على بن محمد بن حبيب
٥٩ـ الاحكام السلطانية والولايات الدينية
بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م ٠

ابن المجاور : جمال الدين ابو الفتح بن يعقوب (ت ٦٩٠هـ)
٦٠ـ صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمى تاريخ المستبصر
ليدن ١٩٥١م

المسعودى : ابى الحسن على بن الحسين (ت ٣٤٦هـ)
٦١ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر
تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م٠

مسلم : الامام ابى الحسين بن الحجاج بن مسلم

٦٢- الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم (٨ اجزاء)
بيروت

المقدسي المعروف بالبشارى (القرن الرابع) هـ

٦٣- احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم
بغـــــداد

المقريزى : تقى الدين احمد بن على (ت ٨٤٥هـ)

٦٤- اغاثة الامة بكشف الغمة او تاريخ المجاعات فى مصر
حمص ١٩٥٦م.

٦٥- الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك
تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٥م.

٦٦- السلوك لمعرفة دول الملوك .
الجزء الاول والثانى : تحقيق محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٩٥٧/١٩٧٢م.
الجزء الثالث والرابع : تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور القاهرة ١٩٧٠/١٩٧٣م.

٦٧- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (جزءان)
طبعة بالاوفست

الوريثلانى : الحسين بن محمد

٦٨- نزهة الأنظار فى فضل علم التاريخ والأخبار ط٢ ،بيروت ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

ياقوت : شهاب الدين ابى عبد الله (ت ٦٢٧هـ)

٦٩- معجم البلدان
بيـــــروت

يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت ١١٠٥هـ)

٧٠- غاية الامانى فى اخبار القطر اليمانى (قسمان)

تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور القاهرة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

اليعقوبى : احمد بن ابى يعقوب بن واضح (ت ٢٨٤هـ)

٧١- البلدان ملحق كتاب الاعلاق النفيسة

ليدن ١٨٩١م .

ееееееееееееееееееееееее

ثانيـــــا : المراجـــــع

أ ـ المراجع العربية

ابراهيم رفعت باشا

١ـ مرآة الحرمين او الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية (جزءان)

احمد ابراهيم الشريف

٢ـ دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة فى القرنين الاول والثانى للهجرة ط٢ ، بيروت ١٩٧٧م٠

احمد دراج

٣ـ ايضاحات جديدة على التحول فى تجارة البحر الاحمر منذ مطلع القرن التاسع الهجرى العدد الخاص بالمحاضرات العامة للجمعية المصرية للدراسات التاريخية الموسم الثقافى ٦٧/١٩٦٨م٠

احمد رمضان احمد

٤ـ شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى القاهرة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م ٠

احمد السباعى

٥ ـ تاريخ مكة ط٢ مكة ١٣٨٠هـ ٠

احمد عيسى عاشور

٦ـ الفقه الميسر فى العبادات والمعاملات ط٤ القاهرة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨ م٠

احمد مختار العبادى ،السيد عبد العزيز سالم

٧- تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام
بيروت ١٩٨١م .

امين محمود عبدالله

٨- طرق الحج والتجارة العربية فى العصر الاسلامى مجلة الفيصل العدد ١٨
ذى الحجة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

ارنست كونل

٩- الفن الاسلامى ترجمة احمد موسى
بيروت ١٩٦٦م.

ك . م . بانيكار

١٠- آسيا والسيطرة الغربية ،ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ،مراجعة احمد خاكى .

جورج فاضلو حورانى

١١- العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة واوائل القرون الوسطى ، ترجمة د. السيد يعقوب بكر
القاهــــــــــرة

جورج لوفران

١٢- تاريخ التجارة منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث ترجمة هاشم الحسين
بيروت

أبو الحسن على الحسنى الندوى

١٣- السيرة النبوية ط٣
جدة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

حسنين محمد ربيع

١٤- البحر الاحمر فى العصر الايوبى ندوة تاريخ البحر الاحمر بجامعة عين شمس سنـــــــة ١٩٧٩م٠

١٥- وثائق الجنيزة واهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانىء الحجاز واليمن فى العصور الوسطى ، الندوة العالمية الاولى لمصادر تاريخ الجزيرة العربية قسم التاريخ كلية الآداب جامعة الرياض " الملك سعود حاليا ٠
١٩٧٧م ٠

حسنين حامد حسان

١٦- المدخل لدراسة الفقه الاسلامى ط٢
القاهرة ١٩٧٩م٠

حمد الجاسر

١٧- طريق الحيرة الى مكة مجلة العرب جه السنة السادسة
ذو القعدة ذو الحجة هـ/ تشرين اكتوبر نوفمبر ١٩٧٩م٠

١٨- مر الظهران وادى فاطمة ،مجلة العرب ج١، السنة الثانية
رجب ١٣٩٣هـ / آب اغسطس ١٩٧٣م٠

سامح عبد الرحمن فهمى

١٩- الوحدات النقدية المملوكية ٠
جدة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م٠

سعيد عبد الفتاح عاشور

٢٠- العصر المماليكى فى مصر والشام ،ط ٢
القاهرة ١٩٧٦م٠

٢١- المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك
القاهرة ١٩٦٢م٠

٢٢- مصر فى عصر دولة سلاطين المماليك البحرية
القاهرة ١٩٥٩م٠

سونيا هاو
٢٣- فى طلب التوابل ترجمة محمد عزيز رفعت ،مراجعة الدكتور / محمود النحاس
القاهرة ١٩٥٧م٠

السيد احمد ابو الفضل عوض
٢٤- مكة فى عصر ما قبل الاسلام
الرياض ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م٠

السيد عبدالعزيز سالم
٢٥- تاريخ العرب قبل الاسلام
الاسكـــــــــــندرية ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م٠

سيد عبد المجيد بكر
٢٦- الملامح الجغرافية لدروب الحجيج
جدة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م٠

صبحى الصالح
٢٧- النظم الاسلامية نشأتها وتطورها
بيروت ١٩٧٨م٠

صبحى لبيب
٢٨- التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى ،المجلة التاريخية المصرية
المجلد الرابع ،العدد الثانى
١٩٥٢م٠

عبد الرحمن ابا حسين
٢٩- دور مكة التاريخى والثقافى مجلة قافلة الزيت المجلة العشرون ،العدد ١٢
سنة ١٣٩٢هـ ٠

عبد الرحمن فهمى

٣٠- النقود العربية ماضيها وحاضرها ٠

القاهرة ١٩٦٤م٠

عبد العزيز الشناوى

٣١- اوربا فى مطلع العصور الحديثة ط ٣

مصر الجديدة ١٩٧٧م٠

على بن حسين السليمان

٣٢- النشاط التجارى فى شبه الجزيرة العربية فى اواخر العصور الوسطى

(١٢٥٠ - ١٥١٧ م)

القاهرة ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م٠

٣٣- العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك

القاهرة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م٠

لويس موزل

٣٤- طريق الحج العراقى القديم ،مجلة العرب ،ج٣ ،السنة الرابعة

رمضان ١٣٩٢هـ / تشرين الاول اكتوبر ١٩٧٢م٠

محمد الاكوع الحوالى

٣٥- اليمن الخضراء مهد الحضارة

القاهرة ١٣٩١هـ / ١٩٧١م٠

محمد باقر الصدر

٣٦- البنك اللاربوى فى الاسلام اطروحة للتعويض عن الربا ودراسة لكافة اوجه

نشاطات البنوك فى ضوء الفقه الاسلامى ط ٧

بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ٠

محمد ضياء الدين الريس

٣٧- الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ،ط٤
القاهرة ١٩٧٧م٠

محمد عبد العال احمد

٣٨- اضواء جديدة على ملاح فاسكو دى جاما مجلة الدراسات الافريقية ،العدد
الخامس
١٩٧٦م٠

٣٩- الايوبيون فى اليمن
الاسكندرية ١٩٨٠م٠

٤٠- البحر الاحمر والمحاولات البرتغالية الاولى للسيطرة عليه
الاسكندرية ١٩٨٠م٠

٤١- بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية فى عهدها
القاهرة ١٩٨٠م٠

محمد فؤاد عبد الباقى

٤٢- المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم
بيروت ١٩٣٩م٠

محمد لبيب البتنونى

٤٣- الرحلة الحجازية
القاهرة ١٣٢٧ / ١٣٢٩هـ

محمود زائد

٤٤- قافلة الحج تنظيمها ودورها الحضارى ،المجلة العربية ،السنة الثالثة ،
العدد الاول محرم ١٣٩٩هـ / ١٩٧٨م٠

محمود عساف ،طلعت اسعد عبد الحميد

٤٥- ادارة الاستيراد والتصدير ،ط٢

١٩٨١م٠

مصطفى رمضان

٤٦- وثائق مخصصات الحرمين فى مصر ابان العصر العثمانى ندوة دراسات تاريخ الجزيرة العربية الكتاب الاول - الجزء الثانى قسم التاريخ وقسم الآثار - والمتاحف كلية الآداب جامعة الرياض " الملك سعود حاليا " ٠

١٣٩٩هـ ٠

مصطفى عبد العزيز وآخرون

٤٧- النبات العام ط ٤

القاهرة ١٩٧٩م٠

نعيم زكى فهمى

٤٨- طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب اواخر العصور الوسطى

القاهرة ١٩٧٣م٠

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

ب ـ المراجـــــــــع الاجنبيـــــة

1- Burckhurdt (J. L.) :

- Travels in Arabia , 2 Vols : London, 1819.

2- De Gaury (G.) :

- Rulers of Mecca, London, 1951.

3- Jomier :

- Le mahmal et La Caravane Egyptienne de Pelgrime de La Mecque , Le Caire, 1935.

4- Moreland (W.H.) :

- The Ships of the Arabian sea about A.D. 1500. The Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland.

****
****

الفهرس

(قائمة المحتويات)